علي محمد علي عوده الغامدي

بلاد الشام

قبيل الغزو الصَّليبي

٤٦٣ـ ٤٩١/ ١٠٧٠ـ ١٠٩٨



بلاد الشام
قبيل الغزو الصليبي
٤٦٣ ـ ٤٩١ / ١٠٧٠ ـ ١٠٩٨

تأليف

علي محمد علي عوده الغامدي

١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م




بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

قال تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ

سورة الحاقة، آية ١٢

قُدِّم هذا البحث كرسالة لنيل درجة الماجستير من جامعة أم القرى بمكة المكرمة في سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

وقد اشترك في مناقشتها كل من الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور والاستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع والأستاذ الدكتور عبد الله حامد الحيد .

وأُجيزت بتقدير ممتاز .

محتويات الرسالة

الموضوع	الصفحة



المقدمة

دراسة نقدية لأهم مصادر البحث



بسم الله الرحمن الرحيم

يعتبر كتاب (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان)[1] من أهم المصادر التي اعتمد عليها البحث . ومؤلفه أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي الملقب بسبط ابن الجوزي ، المتوفي سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م . ولد سبط ابن الجوزي سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م في بغداد ، ونشأ في كنف جده لأمه المؤرخ أبي الفرج بن الجوزي مؤلف كتاب (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) . وبعد وفاة ابن الجوزي في سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ هـ رحل حفيده أبو المظفر إلى الموصل في طلب العلم ، ثم غادرها إلى دمشق وهو ابن نيف وعشرين سنة . وظل يجد في طلب العلم حتى أصبح « إماماً عالماً ، فقيهاً واعظاً ، وحيداً في الوعظ ، علّامة في التاريخ والسير »[2] .

وكتاب مرآة الزمان من أشهر مؤلفات سبط ابن الجوزي ، قال عنه أبو المحاسن ابن تغري بردى ، أنه « في غاية التحرير والنقل عن الثقات ، ومن أرخ بعده فقد تطفل عليه واغترف من بحره واحتاج ، ولا

---

(١) توجد نسخة كاملة مخطوطة من مرآة الزمان في مكتبة أحمد الثالث باستامبول برقم ٢٩٠٧ ، وهي التي اعتمد عليها البحث .

(٢) ابن تغري بردى ، المنهل الصافي ، جـ ٨ ورقة ٤٤٢ أ .

سيما الذهبي والصفدي فإن معولهما في تاريخيهما على تاريخه »[1] .

وأشار ابن تغري بردى إلى أن مرآة الزمان كان مصدره الأساسي لكتابه (النجوم الزاهرة) فقال « ونقلت عنه في هذا الكتاب معظم حوادثه »[2] .

واتبع سبط ابن الجوزي في كتابه طريقة الحوليات . وتتفاوت قيمته التاريخية من عصر إلى عصر ، ففي أقسامه الأولى حتى القرن الرابع الهجري ، تقل أهمية كتاب مرآة الزمان نظراً لأن سبط ابن الجوزي نقل عن مصادر معروفة ، ثم يعود الكتاب ويكتسي أهمية بالغة ، فريدة في نوعها ، في بعض أخبار القرن الرابع ومعظم القرن الخامس ، لكونه ينقل عن مصادر مفقودة ومعاصرة لهذين القرنين . وفي حوادث القرن السادس ، تبدأ قيمة الكتاب في التضاؤل لتوفر المصادر التي نقل عنها وتعود للكتاب أهميته القيمة في أخبار النصف الأول من القرن السابع الهجري وهي الفترة التي عاصرها سبط ابن الجوزي كشاهد عيان[3] .

وقد اعتمد البحث على الجزئين الثاني عشر والثالث عشر من كتاب مرآة الزمان . وتعود أهمية هذين الجزئين لدراسة تاريخ بلاد الشام خلال القرن الخامس الهجري إلى أن سبط ابن الجوزي نقل عن مصادر معاصرة مفقودة ، أهمها كتاب (عيون التاريخ) لمؤرخ معاصر هو غرس النعمة محمد بن هلال الصابي المتوفي سنة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م . وقد كتب غرس النعمة كتابه عيون التواريخ ، بدأه بحوادث سنة ٤٤٨ هـ إلى

(١) نفس المصدر والجزء والورقة .

(٢) ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ص ٣٩ .

(٣) انظر شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ، جـ ٢ ص ٢٦١ .

سنة ٤٧٩ هـ ، ليكون ذيلاً لتاريخ والده هلال الصابي ، الذي يحتوي على حوادث سنوات ٣٦٧ ـ ٤٤٨ هـ . ومن المعروف أن هلال الصابي كتب كتابه ليكون ذيلاً على تاريخ ثابت بن سنان ، الذي ذيل به على تاريخ الطبري[1] . وكتاب هلال الصابي مفقود ، ولم يعثر إلّا على جزء واحد منه هو الثامن من أربعين جزءاً فيه أخبار خمس سنوات (٣٨٩ ـ ٣٩٣ هـ)[2] . ويعتبر هذا الكتاب ذا أهمية بالغة لتاريخ بلاد الشام في القرن الرابع الهجري ، ويتضح ذلك مما نقله سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان عن هلال الصابي ، أثناء حديثه عن النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ، ودور القبائل العربية في تاريخ بلاد الشام في العهد الفاطمي[3] .

وما نقله سبط ابن الجوزي عن تاريخ غرس النعمة أفاد البحث كثيراً ، خصوصاً فيما يتعلق بغارات التركمان على بلاد الشام قبيـل الغزو السلجوقي . ذلك أن غرس النعمة هو المؤرخ الوحيد الذي أشار إلى غارات التركمان الناوكية على جنوب الشام[4] . ونقل سبط ابن الجوزي عن غرس النعمة معلومات هامة عن علاقة الإمارة المرداسية بالخلافة الفاطمية ، فضلاً عن روح العصبية القبلية بين قبيلتي كلب وكلاب[5] . كما نقل سبط ابن الجوزي عن غرس النعمة معلومات في غاية الأهمية عن حملة ألب أرسلان على بلاد الشام سنة ٤٦٢ ـ ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ ـ

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٨٨ أ ـ ب ؛ ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٢٦ ؛ شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون جـ ٢ ص ١٠٥ .

(٢) شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون جـ ٢ ص ١٠٠ .

(٣) انظر مـايلي ص ٨٢ ـ ٨٣ .

(٤) انظر مـايلي ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(٥) انظر مـايلي ص ٧٨.

١٠٧١ م ومعركة ملازكرد التي جرت بين السلاجقة والبيزنطيين سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م . واحتوى كتاب مرآة الزمان أيضاً على معلومات تاريخية هامة لموضوع الرسالة ، نقلها سبط ابن الجوزي عن تاريخ غرس النعمة ، ألقت الضوء على سنوات حكم اتسز بن أوق الخوارزمي في جنوب الشام فيما بين سنتي ٤٦٣ ـ ٤٧١ هـ ، والغزو السلجوقي لبلاد الشام ، ورحلة السلطان ملكشاه إلى بلاد الشام[١] . كما أفاد البحث مما نقله سبط ابن الجوزي عن غرس النعمة عند دراسة إمارة مسلم بن قريش وعلاقته بالسلاجقة والفاطميين وإمارة فيلاريتوس في انطاكية ، وقيام إمارة بني منقذ في شيزر[٢] .

وتجدر الإشارة إلى أن معلومات غرس النعمة ، التي أوردها سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان اتصفت بالموضوعية ، فرغم أنه كان يعيش في بغداد عاصمة الدولة العباسية ، فإن كتابته عن الفاطميين تكاد تخلو من التعصب ، إذ لم يهاجم الفاطميين أو يتحامل على مذهبهم .

ومما يدل على أن تاريخ غرس النعمة كان المصدر الرئيسي الذي اعتمد عليه سبط ابن الجوزي عند سرده لحوادث بلاد الشام خلال الفترة من سنة ٤٤٨ إلى سنة ٤٧٩ هـ ، أنه بعد وفاة غرس النعمة سنة ٤٨٠هـ بدأت تفاصيل حوادث بلاد الشام تقل في مرآة الزمان ولا تضيف جديداً على ما تذكره المصادر الأخرى . وابتداء من سنة ٤٨٠ هـ اتخذ سبط ابن الجوزي كتاب ابن القلانسي مصدراً أساسياً لما كتبه عن تاريخ بلاد

---

(١) انظر مايلي صفحات ١٢١ ـ ١٢٥ ، ١٤٢ ـ ١٥٦ ، ١٨٤ ـ ١٩٠ .

(٢) انظر مايلي صفحات ٢٣٦ ـ ٢٦٠ ، ٢٦٢ ـ ٢٦٨ .

الشام[1] . واستعان سبط ابن الجوزي بمصادر أخرى مثل مؤلفات محمد بن طاهر المقدسي ، ومحمد ابن مؤيد الملك وغيرهما . على أن الروايات التي استقاها سبط ابن الجوزي من هذه المصادر الثانوية لا ترقى تفاصيلها إلى ما رواه سبط ابن الجوزي عن هلال الصابي وابنه غرس النعمة ، وهي المعلومات التي أفادت البحث كثيراً .

ومن المصادر المعاصرة التي أفاد منها البحث ، سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة الفاطمي المتوفي سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٨ م . ومؤلفها المؤيد في الدين هبة الله بن موسى بن داود الشيرازي ولا يعرف عنه إلا القليل ، نظراً لأنه لم يترجم لأسرته . وكان من كبار الدعاة الذين قادوا حركة الدعوة الفاطمية في بلاد الخلافة العباسية خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري[2] . وبدأت سيرته من سنة ٤٢٩ إلى سنة ٤٥٠ هـ . وسيرة المؤيد هي مذكرات قل أن نجد لها نظيراً في التاريخ الإسلامي لما حوته من وثائق ومراسلات ، وما ألقته من أضواء على مذهب الفاطميين . وتتضح أهمية المعلومات التي أوردها المؤيد في الدين في أن المؤيد نفسه قد شارك في صنع حوادث الفترة المعاصرة لدخول السلاجقة إلى العراق ، ونشاط الدعاة الفاطميين وأنصارهم في أراضي الدولة العباسية . ويجدر التحذير هنا من أن سيرة المؤيد قد تضلل الدارس ، نظراً لأن المؤيد حاول ادعاء المعجزات في سيرته ، واظهار الحوادث وكأنها تسير وفق إرادته وبركات إمامه .

ومع ذلك فقد أفاد البحث من سيرة المؤيد في الدين عند دراسة دوافع الغزو السلجوقي لبلاد الشام ، وموقف الخلافة الفاطمية من وصول

---

(١) انظر مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٢٨٨ ب وما بعدها .

(٢) انظر سيرة المؤيد في الدين ، مقدمة المحقق ص ١١ ـ ١٧ .

السلاجقة إلى العراق . وأسهب المؤيد في الدين في ذكر الجهود التي بذلها الفاطميون للتصدي للسلاجقة ، وتمثلت تلك الجهود في دعم حركة البساسيري ، ومحاولة القضاء على الخلافة العباسية ، ووقف توسع السلاجقة . كما ألقت سيرة المؤيد أضواء جديدة على مدى قوة جماعة الأحداث داخل مدينة حلب ، وموقفهم تجاه الفاطميين . ويضاف إلى هذا أن سيرة المؤيد أفادت البحث عند دراسة روح العصبية القبلية بين قبيلتي كلب وكلاب في بلاد الشام[١] .

ومن دواوين الشعر التي أفاد منها البحث ديوان أبي الفتح الحسن ابن عبد الله المعري المشهور بابن أبي حصينة شاعر المرداسيين المتوفي سنة ٤٥٧ هـ . فقد أمدنا ابن أبي حصينة بقصيدة هامة أشار فيها إلى إغارة التركمان على إقليم الجزيرة سنة ٤٣٣ هـ ، وبين فيها الأثر الذي تركته تلك الغارة التركمانية على بلاد الشام[٢] . كما ألقى شعر ابن أبي حصينة أضواء على علاقة الإمارة المرداسية الكلابية بقبيلة كلب القحطانية ، ونمير العدنانية ، وأثر ذلك على تمزق القبائل العربية في بلاد الشام قبيل الغزو السلجوقي[٣] .

كما أفاد البحث من ديوان الشاعر ابن حيوس المتوفي سنة ٤٧٣ هـ ، فقد استطاع هذا الشاعر أن يصف بأبيات من الشعر التدهور والانهيار الذي أصاب دمشق أواخر عهد الفاطميين ، فضلاً عن تصوير مشاعر عرب الشام إزاء دخول الغز الترك الى بلاد الشام[٤] .

---

(١) انظر مايلي صفحات ٧٦ ـ ٧٧ ، ١١٤ ـ ١١٧ ، ٢٣٠ .
(٢) انظر ديوان ابن أبي حصينة ، جـ ١ ص ٣٦٠ .
(٣) انظر مايلي ص ٧٤ ، ٢١٥ .
(٤) انظر ديوان ابن حيوس جـ ١ ص ١١ ـ ١٢ ، جـ ٢ ص ٥٦٩ ـ ٥٧٥ .

ومن المصادر المهمة لموضوع البحث كتاب ذيل تاريخ دمشق لمؤلفه أبي يعلى بن أسد بن علي بن محمد التميمي ، المعروف بابن القلانسي ، المتوفي سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م . وينتمي ابن القلانسي إلى إحدى الأسر العريقة في دمشق . تلقى تعليماً جيداً في الأدب والفقه وعلوم الشريعة ، واشتغل بالكتابة في ديوان الرسائل بدمشق ، مما أتاح له فرصة الاطلاع على الكثير من الوثائق المحفوظة في الديوان ، وبذلك عرف الكثير من أسرار السياسة خلال تلك الحقبة من تاريخ بلاد الشام(١) .

وترجع أهمية كتاب ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ، إلى أن مؤلفه كان معاصراً للحملة الصليبية الأولى . وقد سار ابن القلانسي في تاريخه على طريقة الحوليات . وجعله ذيلاً لكتاب المؤرخ المشهور هلال بن المحسن الصابي ، الذي ينتهي بوفاة صاحبه سنة ٤٤٨ هـ . ونظراً لأن تاريخ هلال الصابي لم يعط حوادث دمشق حقها من الشرح والتفصيل ، فقد بدأ ابن القلانسي تاريخه من سنة ٣٦٣ هـ(٢) .

وقد أفاد البحث كثيراً من كتاب ابن القلانسي خصوصاً عند دراسة ضعف النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ، وأسباب كراهية سكان دمشق للفاطميين ، فضلاً عن النزاع الذي وقع بين القرامطة والفاطميين لتحقيق

---

(١) العريني ، مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٩٢ ؛ شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون جـ ٢ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ .

Gibb, Dammascus chronicle of The Crusades, pp. 7 - 8.

(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ٨٦ ؛ شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون جـ ٢ ص ٢٣٨ ؛

Gibb, op.cit., p. 9.

السيادة على بلاد الشام[1]. كما أن ابن القلانسي هو المؤرخ الوحيد الذي أمدنا بقائمة كاملة للولاة الفاطميين الذين حكموا دمشق. وقد أسهب أحياناً في تاريخ بعض الولاة وأعمالهم ، واكتفى أحياناً أخرى بذكر أسماء الولاة ومدة حكمهم[2] . ولم يكن تاريخ ابن القلانسي قاصراً على دمشق وحدها ، بل عني أيضاً ببلدان الشام الأخرى مثل حلب وانطاكية وحمص وغيرها ، مما أفاد البحث كثيراً . واعتمد البحث أيضاً على المعلومات التي أوردها ابن القلانسي عن أحوال الإمارة المرداسية وإمارة مسلم بن قريش وسياسته في بلاد الشام والنزاع بين تتش وسليمان بن قطلمش على شمال الشام[3] .

غير أن معلومات ابن القلانسي تقل بصورة عامة خلال الفترة التاريخية الممتدة فيما بين سنتي ٤٤٨ و ٤٨٥ هـ بحيث لا نجد شرحاً وافياً عن أحوال بلاد الشام أثناء هذه الحقبة ، وخاصة فيما يتصل بالغزو السلجوقي ونتائجه على بلاد الشام . وابتداء من حوادث سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م تتصف أخبار ابن القلانسي بالإسهاب المفيد ، مما أفاد البحث كثيراً عند دراسة دور تتش في النزاع على عرش السلطنة السلجوقية ، ونتائج ذلك النزاع على بلاد الشام والجزيرة[4] . كما أن ابن القلانسي أمد البحث بمعلومات طيبة عن فترة حكم ابني تتش رضوان ودقاق في حلب ودمشق ، وما نشب بينهما من نزاع ، وأثر ذلك على أوضاع بلاد الشام قبيل سقوط انطاكية بيد الصليبيين[5] .

---

(١) انظر : ابن القلانسي ص ٣ - ١١ ، ص ١٦ وما بعدها .
(٢) انظر على سبيل المثال ابن القلانسي ص ٦٩ - ٨٣ .
(٣) انظر ابن القلانسي ص ١١٤ - ١٢٠ .
(٤) انظر ابن القلانسي ص ١٢١ - ١٣٠ .
(٥) انظر ابن القلانسي ص ١٣٠ - ١٣٦ .

ومن المصادر التي أفاد منها البحث ما كتبه العظيمي ، وهو محمد ابن علي بن محمد العظيمي الحلبي ، ولد سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ، وتوفي بعد سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م أي أنه كان معاصراً لابن القلانسي . وينتمي العظيمي إلى بيت شارك في الحوادث السياسية بحلب أثناء الغزو السلجوقي لبلاد الشام . وكان العظيمي مولعاً بالتاريخ ، وكتب فيه كتباً عديدة ، لم يصل إلينا من كتبه سوى تاريخ عام موجز على طريقة الحوليات ، نشر المستشرق كلودكاهن C . Cahen القسم الأخير منه ، ويبدأ هذا الجزء من سنة ٤٥٥ هـ حتى آخر الكتاب[١] . وللعظيمي كتاب آخر مفقود ، وهو أكبر حجماً وأغزر مادة من كتابه الموجز . نقل عنه ابن العديم الكثير من الروايات في كتابه (بغية الطلب) . وتتضح أهمية كتاب العظيمي المفقود ، في كونه يعتمد على روايات والده الذي عاش في حلب ، وعاصر فترة الغزو السلجوقي ، وكان مرافقاً لقسيم الدولة اقسنقر في بعض حروبه[٢] . وقد أفاد البحث مما كتبه العظيمي عند دراسة سياسة تتش في موانىء الشام وأهم أعمال اقسنقر في حلب ، وسياسة قلج أرسلان في مقاومة زحف الصليبيين عبر آسيا الصغرى حتى وصولهم إلى انطاكية وغير ذلك[٣] .

ويعتبر كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر من المصادر الهامة لموضوع البحث . وكان ابن عساكر (٤٩٩ ـ ٥٧٢ هـ) معاصراً لابن

---

(١) شاكر مصطفى ، التاريخ العربي ؛ جـ٢ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ ؛ العريني ، مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ؛

C. Cahen, Journal Asiatique, tom. cc XXX, (1938), PP. 353- 448.

(٢) انظر على سبيل المثال : ابن العديم ، بغية الطلب جـ٣ ورقة ٢٧١ ب ، ٢٩٠ أ ، جـ ٦ ورقة ٩١ب ، جـ ٧ ورقة ١٩٨ ب .

(٣) أنظر مـايلي صفحات ١٧١ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٣١٥ ، ٣٣٩ .

القلانسي والعظيمي . وقد ترجم ابن عساكر في كتابه لبعض الولاة الفاطميين وأمراء السلاجقة الذين حكموا دمشق . على أن تلك التراجم لا تفي بالغرض لاختصارها ، ومع هذا فقد أفاد تاريخ ابن عساكر البحث عند دراسة سياسة بعض ولاة الفاطميين في دمشق قبيل سقوطها بيد اتسز ابن أوق وحصار اتسز لها[1] .

ويعتبر (كتاب الاعتبار) لأسامة بن منقذ من مصادر البحث الهامة . وأسامة بن مرشد بن علي بن منقذ (٤٨٨ ـ ٥٨٤ هـ) مؤرخ وشاعر وأديب كتب في التاريخ والأدب والشعر . وكتاب الاعتبار يعتبر مصدراً هاماً من مصادر دراسة المجتمع في عصر الحروب الصليبية ، وهو مذكرات فريدة في الأدب التاريخي ، وهو من السير الذاتية النادرة[2] . وأمدنا كتاب الاعتبار ببعض المعلومات عن إمارة شيزر وعلاقتها بسلاجقة الشام ، ودورها في بعض حوادث بلاد الشام قبيل الحملة الصليبية الأولى[3] . ومن مؤلفات أسامة التي أفادت البحث ما كتبه عن تاريخ أسرة بني منقذ في شيزر . غير أن هذا الكتاب مفقود ولم نعثر منه إلا على رواية مفصلة نقلها أبو الفدا في تاريخه عن تأسيس علي بن منقذ لإمارته في شيزر[4] .

ومن المصادر التي اعتمد عليها البحث كتاب تاريخ الفارقي أو تاريخ الدولة المروانية ، ومؤلفه هو أحمد بن علي بن الأزرق الفارقي

---

(١) انظر مايلي ص ١٥٠ = يقع تاريخ ابن عساكر في ١٨ مجلد موزعة على مكتبات مختلفة ،ولم يطبع منه إلا بعض الأجزاء . انظر شاكر مصطفى جـ٢ ص٢٤٠ ـ ٢٤٣ .

(٢) انظر أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، تحقيق فيليب حتي ، ط . برنستون ١٩٣٠م ؛ شاكر مصطفى ، التاريخ العربي جـ٢ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

(٣) انظر مايلي ص ٢٦٧ .

(٤) أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص ٣١ ـ ٣٢ .

المتوفي سنة ٥٩٠ هـ / ١٠٩٤ م . وقد كتب الفارقي تاريخه عن مدينة ميافارقين شأنه في ذلك شأن المؤرخين الذين كتبوا في تاريخ المدن والأمصار .

تكلم الفارقي في كتابه عن الدولة العباسية ، وأفاض في ذكر الحوادث ذات العلاقة بميافارقين فتحدث عن القوى التي أثرت في تاريخ بلاد الشام والجزيرة وأرمينية ، مثل البويهيين ، والسلاجقة والأتابكة ، والمروانيين ، والأراتقة ، والبيزنطيين ، وأشار إلى العلاقات السياسية بين تلك القوى بعضها ببعض . ومما ساعد الفارقي على فهم الحوادث المتصلة بتاريخ ميافارقين ، المناصب التي تقلدها حتى وصل إلى نظارة الأوقاف ، مما جعل له صلة وثيقة بالحوادث . وقد اعتمد الفارقي على كتب من سبقه من المؤرخين ومذكراته الشخصية ، ومن الكتب التي أفاد منها ، كتاب التشعيث الذي وجده بالسريانية فترجمه إلى العربية ، وتاريخ هلال الصابي وغيره من المؤرخين [١] . كما روى الفارقي بعض الأخبار عن والده عن جده الذي عاصر الغزو السلجوقي للجزيرة والشام . ويضاف إلى هذا اعتماده على بعض الآثار وما عليها من نقوش [٢] .

وقد أفاد البحث من تاريخ الفارقي أثناء دراسة أول غارة شنها التركمان على إقليم الجزيرة ، وعن حملة ألب أرسلان إلى بلاد الشام ، ومعركة ملازكرد بين السلاجقة والبيزنطيين والحملة السلجوقية بقيادة ابن جهير إلى منطقة الجزيرة ودور مسلم بن قريش في ذلك ، ثم سقوط الإمارة المروانية أمام الزحف السلجوقي [٣] . كما أفاد البحث من تاريخ الفارقي في دراسة النتائج التي ترتبت

---

(١) تاريخ الفارقي ، مقدمة المحقق ص ١ - ٤ ، ١٣ - ١٩ .

(٢) انظر مثلاً تاريخ الفارقي ص ٨٦ ، ١٦٣ - ١٦٤ .

(٣) انظر مايلي صفحات ٩٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ - ٢٥٧ .

على وفاة ملكشاه على بلاد الشام والجزيرة وجهود تتش لبسط نفوذه على إقليم الجزيرة، ونزاعه مع ابن اخيه بركياروق ، وقيام إمارات تركية في الجزيرة أسهمت في تمزق بلاد الشام والجزيرة عشية الحملة الصليبية الأولى[1] .

ويعتبر كتاب (الكامل في التاريخ) من أهم المصادر لموضوع البحث . وابن الأثير أحد ثلاثة أخوة عرفوا جميعاً بالعلم والفضل . اشتهر الأخ الأكبر مجد الدين أبو السعادات بدراسة علوم القرآن والحديث والنحو ، بينما اشتهر الأصغر ضياء الدين بالبحث في علوم الأدب والبلاغة ، أما الأخ الأوسط فهو المؤرخ المشهور عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (٥٥٥هـ - ٦٣٠هـ)[2] .

ألف ابن الأثير العديد من الكتب التاريخية ، أفاد البحث من كتابين هما : الكامل في التاريخ ، والتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية . وابن الأثير مؤرخ أصيل، وصاحب فكر ناقد ، ينظر للحوادث العظيمة نظرة فاحصة ويربط بين جزئياتها وما يتصل بها من حوادث ، ففي كلامه عن استيلاء الصليبيين على إنطاكية سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م يقول : « كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم ، وخروجهم إلى بلاد الإسلام . . . . سنة ثمان وسبعين أربعمائة ، فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس . . . . ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها ، وتطرقوا إلى بلاد الشام . . . »[3] فابن الأثير يضع

---

(١) انظر مايلي صفحات ٢٠٣ ، ٢٩٣ ، ٣٠٩ .

(٢) سعيد عاشور ، دراسة حول كتاب الكامل لابن الأثير في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٣٩٣ ، أنظر أيضاً العريني ، مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٠٤ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٧٢ ؛ انظر أيضاً : سعيد عاشور ، دراسة حول كتاب الكامل لابن الأثير ، ص ٤١١ .

الحروب الصليبية في إطارها الطبيعي من حركة التاريخ الإنساني ، موضحاً أن تلك الحروب عبارة عن هجوم صليبي ضد بلاد المسلمين دارت على ثلاثة محاور . وبعد ذلك يستشف ابن الأثير السبب الحقيقي الذي أدى إلى نجاح الحملة الصليبية ، وهو ما دار من خلافات ونزاع بين القوى المختلفة في المشرق الإسلامي فيقول : « واختلف السلاطين فتمكن الفرنج من البلاد »[1] .

وكتاب الكامل لابن الأثير هو تاريخ عام ، ركز فيه ابن الأثير على تاريخ العالم الإسلامي وحاول فيه التوازن بين الأقاليم ، فلم يدع أخبار إقليم تطغي على حوادث إقليم آخر ، واعتمد في ذلك على المصادر الموثوقة والخاصة بكل قطر[2]. ورغم أن ابن الأثير يسير في كتابه على طريقة الحوليات فإنه كان يدرك عيوب هذه الطريقة ، ولهذا كثيراً ما تحاشى تلك العيوب إذا رأى أن الحادثة إذا قسمت سوف تختل ، عندئذ يأتي بها متتابعة ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها : عندما تحدث عن صالح ابن مرداس ومحاولته الاستيلاء على حلب سنة ٤٠٢هـ ، واصل ابن الأثير حديثه مفصلاً عن إمارة بني مرداس حتى سقوطها سنة ٤٧٢هـ وقال في ختام حديثه : « فهذه جميع أخبار بني مرداس أتيت بها متتابعة لئلا تجهل إذا تفرقت »[3] . واتبع ابن الأثير الطريقة نفسها عند ذكر قيام الدولة السلجوقية ، فساق أخبارها متتابعة حتى عصر طغرلبك[4] . واستفاد البحث من هذه المعلومات .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٨٤ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١ ، المقدمة ص ٢ ـ ٥ ؛ العريني ، مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٢٢٧ ـ ٢٣٤ .

(٤) المصدر السابق جـ ٩ ص ٤٧٣ ـ ٤٨٤ .

وترجع أهمية كتاب الكامل إلى أن ابن الأثير اعتمد على مؤرخي الشام ونقدهم في بعض الأحيان ، ففي كلامه عن اتسز يقول : « يذكر الشاميون هذا الإسم أقسيس ، والصحيح أنه اتسز وهو إسم تركي » . كما أن ابن الأثير لا ينقل حرفياً عن مؤرخي الشام ، بل أضاف أحياناً معلومات جديدة أفاد منها البحث ، فمثلاً عندما تحدث عن اتسز وحملته على مصر قال : « وحكى لي جماعة من فضلاء مصر أن اتسز . . . » ثم أورد الأخبار الجديدة[1] .

وقد أفاد البحث أيضاً من كتاب الكامل لابن الأثير عند دراسة موضوعات ظهور السلاجقة وتأسيس دولتهم ، وعلاقة السلاجقة بالبيزنطيين ، وحالة بلاد الشام قبيل الغزو السلجوقي ، والغزو السلجوقي لبلاد الشام ، وأثر وفاة ملكشاه على تمزق بلاد الشام وسائر أجزاء الدولة السلجوقية[2] .

أما كتاب التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير ، فقد أمد البحث بمعلومات طيبة عن سياسة أقسنقر في حلب ، وعلاقته بتتش ، وأثر ذلك على بلاد الشام قبيل وصول الصليبيين إلى إنطاكية[3] .

ومن أهم المصادر لموضوع البحث مؤلفات المؤرخ كمال الدين ابن العديم التي لا تقل أهمية لتاريخ بلاد الشام قبل الغزو الصليبي ، عن مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ، وابن العديم هو كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله من بني جرادة العقيلي ، ولد سنة ٥٨٨ هـ/١١٩٢م

---

(١) انظر المصدر السابق جـ ١٠ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .
(٢) انظر مايلي صفحات ١٠٩ ـ ١١٠ ، ١١٢ ـ ١١٥ ، ٢٠٠ ـ ٢٠٤ ، ٢٠٦ ـ ٢١١ .
(٣) انظر مايلي ص ١٩٢ .

وتوفي سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م . وهو من أسرة عريقة في حلب ، اشتغلت بالعلم والفقه والقضاء والأدب والشعر على مدى قرنين من الزمان . ونشأ كمال الدين بن العديم وتعلم في حلب على يد العديد من العلماء ، ورافق أباه في بعض رحلاته إلى دمشق وبيت المقدس والعراق والحجاز ، وجالس العلماء وأخذ عنهم[١] .

كتب ابن العديم العديد من الكتب في التاريخ والأدب . أشهرها كتاب (بغية الطلب في تاريخ حلب) وكتاب (زبدة الحلب من تاريخ حلب) وكلاهما من أهم المصادر لتاريخ بلاد الشام ، ولذلك فهما من المصادر الأساسية لتاريخ بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي .

أما كتاب (بغية الطلب) فهو تراجم لأعيان حلب ، ترجم فيه ابن العديم لكل من دخلها أو اتصل بها من الأعيان ، والساسة ، والقادة ، والعلماء والفقهاء والقضاة وغيرهم[٢] . وترجع أهمية كتاب بغية الطلب لموضوع البحث إلى أنه من أوثق المصادر وأصدقها عن تاريخ بلاد الشام وخاصة في الفترة موضوع الدراسة ، نظراً لأن ابن العديم اعتمد على مصادر أصيلة ومعاصرة معظمها مفقود . ومن تلك المصادر التي نقل عنها ابن العديم كتاب في التاريخ لمؤلفه غرس النعمة محمد بن هلال الصابي المتوفي سنة ٤٨٠هـ . ومن مصادره أيضاً ما نقله ابن العديم من خط المؤرخ يحيىٰ بن علي بن عبد اللطيف بن زريق ، الذي يبدو أنه عاش

---

(١) ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون جـ٢ ص ٢٦٣ .

(٢) وصل إلينا منه عشر مجلدات بخط ابن العديم نفسه محفوظة في مكتبات استامبول ، ثماني مجلدات منه في مكتبة أحمد الثالث برقم ٢٩٢٥ ، ومجلد واحد في مكتبة آيا صوفيا برقم ٣٠٣٦ ، ومجلد آخر في مكتبة فيض الله برقم ١٤٠٤ .

في القرن الخامس الهجري ، وتاريخ أبي غالب همام بن الفضل بن المهذب المعري ، وهو أيضاً من رجال القرن الخامس الهجري . كما نقل ابن العديم بعض الروايات عن العماد الأصفهاني ، يبدو أنها من كتب للعماد مفقودة إذ لا توجد هذه المعلومات في مؤلفات العماد المتداولة . ومن المصادر التي اعتمد عليها ابن العديم في بغية الطلب كتاب (عنوان السير) لمحمد بن عبد الملك الهمذاني المتوفي سنة ٥٢١هـ ، وتاريخ علي بن مرشد بن علي بن منقذ ، وتاريخ أخيه منقذ بن مرشد ، الذي ذيل به على تاريخ ابن المهذب المعري . كما حفظ ابن العديم الكثير من روايات المؤرخ محمد بن علي العظيمي في تاريخه الكبير المفقود . ونقل ابن العديم عن تواريخ مجهولة لم يعرف أسماء أصحابها ، واعتمد أيضاً على والده فيما يرويه عن أسلافه عن فترة الغزو السلجوقي لبلاد الشام ، كما قابل ابن الأثير ونقل عنه مشافهة ، هذا عدا مصادر أخرى كثيرة نقل عنها ابن العديم ، ولا يتسع المجال لذكرها[1] .

أما كتاب (زبدة الحلب من تاريخ حلب) فهو في ثلاثة أجزاء ، استله ابن العديم من كتابه الكبير بغية الطلب ، وأفرده للتاريخ السياسي لحلب على طريقة الحوليات من العصر البيزنطي حتى سنة ٦٤١هـ .

وكتابا ابن العديم مصدران أساسيان لتاريخ بلاد الشام . وما جاء فيهما أفاد البحث كثيراً ، وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات البيزنطية الإسلامية وهجمات البيزنطيين على شمال الشام ، وأحوال الثغور الشامية

---

(١) انظر على سبيل المثال ، ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ١ الأوراق ٥٩ ب ، ٧٩ أ - ب ، ١٤٠ ب ، جـ ٢ الأوراق ١٦٦ أ - ب ، ١٩٦ ب ، ١٩٧ أ ، ١٩٨ أ - ب ، ٢٠٢ ب ، جـ ٣ الأوراق ٢٥٨ ب ، ٢٦٨ أ ، ٢٧٠ أ ، ٢٧١ ب ، ٢٨٤ أ - ب ، جـ ٤ الأوراق ١٩٧ ب ، ١٩٨ أ ، جـ ٥ الأوراق ٢٢١ أ - ب ، ٢٢٢ أ - ب ، ٢٢٣ ب .

الفاصلة بين المسلمين والبيزنطيين[١] . وأفاد البحث من المعلومات التي أوردها ابن العديم في كتابيه : بغية الطلب وزبدة الحلب ، عند دراسة النفوذ الفاطمي في بلاد الشام وأحوال الإمارة المرداسية وعلاقتها بغيرها من القوى والقبائل في بلاد الشام خلال القرن الخامس الهجري . وأفاد البحث أيضاً من كتابي ابن العديم في مناقشة موضوع الغزو السلجوقي لبلاد الشام ، وغارات التركمان وأعمالهم التخريبية في شمال الشام ، وإمارة مسلم بن قريش ومواقفه إزاء السلاجقة في بلاد الشام ، واستيلاء سليمان بن قطلمش على إنطاكية ونزاعه مع تتش بن ألب أرسلان وأثر ذلك على بلاد الشام . كما أفاد البحث من كتابي ابن العديم عند دراسة سياسة آقسنقر في حلب وعلاقته بتتش ، وأخيراً في أثر تنازع القوى في بلاد الشام على نجاح الحملة الصليبية الأولى .

ومن كتب التراجم التي أفادت البحث كتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان المتوفي سنة ٦٨١هـ . فقد أفاد البحث من تراجم بعض الشخصيات التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ بلاد الشام قبل الغزو الصليبي ، مثل السلطان طغرلبك ، وألب أرسلان ، وملكشان ، وتتش ، واقسنقر ، وبدر الجمالي وأمراء بني مرداس ، وأمراء بني عقيل وغيرهم .

كما يعتبر كتاب (الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة) من مصادر البحث الهامة . ومؤلفه هو المؤرخ عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد الأنصاري الحلبي[٢] (٦١٣ ـ

---

(١) انظر مايلي ص ٨٤ ـ ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٤ .

(٢) هو غير بهاء الدين ابن شداد (٥٣٩ ـ ٦٣٢هـ) مؤلف كتاب سيرة صلاح الدين المعروف باسم (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) انظر ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، تحقيق سامي الدهان ، مقدمة المحقق ، جـ٢ ص ١٣ ـ ١٤ .

٦٨٤ هـ) جمع ابن شداد في كتابه بين التاريخ والجغرافية ، وجعله ثلاثة أقسام : أحدها خاص بمسقط رأسه حلب ، وخصص القسم الثاني لدمشق والأردن وفلسطين ، والثالث لمنطقة الجزيرة . وتحدث عما فيها من معالم وآثار ومدارس ومساجد وخوانق وغيرها ، ثم ألحق بكل قسم تاريخاً لتلك البلاد منذ الفتح الإسلامي حتى عصره[١] .

وقد أفاد البحث من كتاب الاعلاق الخطيرة وبخاصة الجـزء الخاص بفلسطين والأردن لما حواه هذا القسم من معلومات طيبة عن مدن هذين الإقليمين ، والقوى التي توارثت حكمهما . وكذلك أمدنا ابن شداد بمعلومات تاريخية طيبة عن موانىء الشام مثل طرابلس وصور ، وعكا ، ويافا وغيرها ، وسياسة التركمان والسلاجقة والفاطميين إزاء هذه الموانىء ، فضلاً عن أحوال إمارة بني عمار في طرابلس وابن أبي عقيل في صور . كما أفاد البحث من المعلومات التي أوردها ابن شداد في القسم الخاص بحلب ، عند دراسة عهد اقسنقر والمنشآت التي أقامها في حلب[٢] .

أما مؤلفات المؤرخ الكبير جمال الدين محمد بن سالم بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م ، ولا سيما كتاب (التاريخ الصالحي) فقد أفادت البحث كثيراً ، وكتب ابن واصل التاريخ الصالحي للسلطان

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، جـ ٢ ، مقدمة المحقق ص ٢٦ .

(٢) انظر مـايلي ص ١٨٠ ـ ١٨١ ، ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ـ ٢٦٣ .

الصالح نجم الدين الأيوبي[1] . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يقع في مجلد واحد ، لا يزال مخطوطاً ، فان ابن واصل ـ بحكم أنه شامي ـ أورد فيه معلومات جديدة وقيمة عن تاريخ بلاد الشـام ، أفادت البحث عند دراسة الإمارة المرداسية وعلاقتها بالخلافة الفاطمية ، وأول غارة شنها التركمان على إقليم الجزيرة ، فضلاً عن الغزو السلجوقي لبلاد الشام وأثر سياسة تتش في دمشق وجنوب الشام[2] .

أما الجزء الأول من كتاب (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) لابن واصل ، فقد استفاد منه البحث أثناء دراسة النزاع بين تتش وسليمان ابن قطلمش ونتائجه ، والحملة السلجوقية على بلاد الجزيرة بقيادة ابن جهير ، ورحلة السلطان ملكشاه إلى حلب وإقطاعها لقسيم الدولة اقسنقر ، وإمارة خلف بن ملاعب في حمص ، وأثر وفاة ملكشاه على أحوال بلاد الشام[3] .

ومن المصادر المتأخرة المهمة لموضوع البحث ، الجزء السادس عشر من كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لمؤلفه أحمد بن فضل الله العمري المتوفي سنة ٧٤٩هـ . وتعتبر مؤلفات خليل بن ايبك الصفدي المتوفي سنة ٧٦٤هـ من مصادر البحث . فقد كتب الصفدي تاريخاً خاصاً بمدينة دمشق أطلق عليه عنوان (تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب) وهذا الكتاب لا يزال مخطوطاً وهو عبارة عن أرجوزة وعليها شرح ، أورد فيها الصفدي معلومات هامة

(١) انظر : أحمد بدوي ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

(٢) انظر مـايلي ص ٧٣ ، ٧٩ ـ ٨٠ ، ٩٦ ـ ٩٧ ، ١٦٥ .

(٣) انظر مايلي صفحات ١٧٨ ـ ١٨٠ ، ١٨٢ ـ ١٨٥ ، ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

عن تاريخ من حكم دمشق حتى عصره[١] . وأفاد البحث من تحفة ذوي الألباب عند دراسة الحكم الفاطمي لمدينة دمشق وحصار اتسز لها ثم استيلائه عليها ، وعن حكم تاج الدولة تتش وابنه رضوان لدمشق[٢] .

وأهم المصادر المتأخرة لموضوع البحث مؤلفات المؤرخ القدير أحمد بن علي المقريزي . ولد المقريزي سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م بحارة برجوان بمدينة القاهرة ، وتوفي سنة ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م ، وهو بعلبكي الأصل ، وعرف باسم المقريزي نسبة إلى حارة المقارزة في مدينة بعلبك . وعكف المقريزي على دراسة القرآن وعلوم الدين والتاريخ وغير ذلك . وتقلد العديد من الوظائف ، كان آخرها وظيفة الحسبة بالقاهرة . وتميزت كتابات المقريزي بالدقة في إيراد الحقائق ، والتخصص المتنوع ، والاعتماد على مصادر ووثائق لا تزال أصولها مفقودة[٣] .

وقد أفاد البحث من كتابين للمقريزي : هما المقفي ، واتعاظ الحنفا . أما المقفي فاسمه (التاريخ الكبير المقفي في تراجم أهل مصر والواردين إليها) كتبه المقريزي في ستة عشر مجلداً[٤] . غير أن معظم مجلدات المقفي مفقودة ، وبقي منها أربعة مجلدات لا تزال مخطوطة في مكتبات مختلفة . وقد أفاد البحث من المجلد الأول[٥] الذي احتوى على ترجمات مستفيضة لبعض الشخصيات التي كان لها دور بارز في

---

(١) الصفدي (تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب) ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٥٢ تاريخ .

(٢) انظر مايلي صفحات ٨٣ ، ١٤٩ - ١٥٠ ، ٢٩٢ .

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، جـ٢ ص ٢١ ؛ انظر كتاب دراسات عن المقريزي ، مجموعة أبحاث اشترك في إعدادها مصطفى زيادة وآخرون .

(٤) السخاوي ، الضوء اللامع جـ٢ ص ٢٢ .

(٥) مخطوط المكتبة السليمانية باستامبول - رقم ٤٩٦ .

تاريخ بلاد الشام خلال الفترة التي تناولها البحث[١] . وأورد المقريزي في ترجمته لتلك الشخصيات معلومات قيمة أفادت البحث كثيراً عند دراسة ضعف النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ، وتحالف قبائل الشام ضد الفاطميين وعلاقة المرداسيين بالخلافة الفاطمية فضلاً عن العلاقات الفاطمية البيزنطية[٢] . وكان كتاب المقفي مصدراً أساسياً للبحث عند دراسة حالة جنوب الشام أثناء ولاية بدر الجمالي ، واضطراب أحوال الخلافة الفاطمية في عهد الخليفة المستنصر، ومحاولة السلطان السلجوقي ألب أرسلان غزو مصر ، وظهور اتسز بن أوق الخوارزمي في جنوب الشام وإغارته على مصر[٣] .

أما كتاب (اتعاظ الحنفا) للمقريزي ، فلا يقل في أهميته لموضوع البحث عن المقفي ، نظراً لأنه تناول بالشرح والتفصيل تاريخ الدولة الفاطمية . وأفاد البحث من كتاب اتعاظ الحنفا عند دراسة النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ، وعلاقة الفاطميين بالبيزنطيين وعلاقة الفاطميين بالقبائل العربية في بلاد الشام ، وتنازع السلاجقة والفاطميين وأثر ذلك على أحوال بلاد الشام قبل الغزو الصليبي[٤] .

وأفادت الدراسة أيضاً من كتاب (عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان) لبدر الدين محمد بن محمود العيني المتوفي سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م ذلك أن الجزء الحادي عشر من عقد الجمان يغطي الحقبة التي تناولها البحث . وقد انفرد العيني بمعلومات فريدة من نوعها عن

---

(١) انظر على سبيل المثال ترجمة أنوشتكين الأزبري ملحق رقم (١) .

(٢) انظر مايلي صفحات ٧٠ - ٧٢ ، ٧٤ ، ٨١ .

(٣) انظر مايلي صفحات ١٢٨ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٥٢ .

(٤) انظر مايلي صفحات ٤٣ - ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٥ - ٦٦ ، ٦٨ - ٦٩ ، ٧٥ - ٧٦ ، ٣١٥ - ٣١٦ .

حملتي ، رومانوس ديوجينس على شمال الشام سنتي ٤٦١ - ٤٦٢هـ/ ١٠٦٨ - ١٠٦٩م وهي معلومات قل أن نجدها في مصدر آخر .

وفضلاً عن هذه المصادر التي سبق التعريف بها ، فقد اعتمد البحث على بعض العملات النقدية التي سلمت من الضياع ، وسكت في بلاد الشام خلال القرن الخامس الهجري للتدليل على بعض الحقائق وتصحيح بعض المعلومات ، ومن ذلك مثلاً دينار ضرب بمدينة حلب سنة ٤١٧هـ في عهد صالح بن مرداس وعلى الدينار اسم الخليفة الظاهر الفاطمي[١] . ولهذا الدينار أهمية تاريخية بالغة ، لأنه ضرب في وقت اشترك فيه صالح بن مرداس في حلف مع زعماء طيء وكلب لاقتسام بلاد الشام فيما بينهم . وهذا الدينار يدل على أن صالح بن مرداس ظل يدين بالمذهب الشيعي ويعترف بالسيادة الروحية للفاطميين ، رغم العداء السياسي بينه وبين الدولة الفاطمية[٢] .

وأشار البحث إلى بعض الدنانير التي ضربت في طرابلس وصور أثناء حكم إمارة بني عمار في طرابلس وبني عقيل في صور وعليها اسم الخليفة الفاطمي[٣] . وتدل هذه الدنانير على اعتراف الإمارتين بالسيادة الفاطمية رغم استقلالها الفعلي عن الحكم الفاطمي[٤] .

وفضلاً عن هذه المصادر المتنوعة التي ورد ذكرها ، فقد أفاد

---

(١) انظر : S. Lane - poole. Catalogue of the collection of the Arabic Coins. pp. 337-338.

(٢) انظر مـايلي ص ٦٧ - ٦٨ .

(٣) Lavoix. Catalogue. des Monnaies Musulmanes. vol. III pp. 128. 132 - 133 .

(٤) انظر مـايلي ص ٢٧٢ - ٢٨١ .

البحث من مصادر أخرى مخطوطة ومطبوعة مثبتة في حواشي الرسالة .

* * *

وتحتوي الرسالة على مقدمة ، وأربعة فصول وخاتمة . اقتصرت المقدمة على دراسة نقدية لأهم مصادر البحث . وناقش الفصل الأول موضوع أحوال بلاد الشام قبيل الغزو السلجوقي . وألقى هذا الفصل أضواء جديدة على أسباب ومظاهر ضعف النفوذ الفاطمي في بلاد الشام . ومن أهم أسباب ضعف النفوذ الفاطمي منافسة القرامطة للفاطميين على بسط نفوذهم في بلاد الشام ، فضلاً عن موقف سكان الشام المعادي للفاطميين ، والسياسة التي اتبعها ولاة الفاطميين وكثرة تعاقبهم ، وموقف أحداث دمشق المعادي للفاطميين ، هذا فضلاً عن تمرد قبيلة طيء بزعامة آل جراح على الفاطميين . ثم بحث الفصل موضوع تحالف القبائل العربية في بلاد الشام ضد الفاطميين ، وخاصة قبائل كلب وكلاب وطيء. ثم ناقش الفصل اضطراب أحوال بلاد الشام بعد موت أنوشتكين الدزبري ، وعلاقة المرداسيين بالخلافة الفاطمية وأثر روح العصبية القبلية على النفوذ الفاطمي في بلاد الشام .

وتناول الفصل الأول أيضاً دراسة علاقات البيزنطيين بالفاطميين في أوائل القرن الخامس الهجري وأثر تلك العلاقات على أحوال بلاد الشام ، وفشل محاولة الأمبراطور البيزنطي رومانوس الثالث في الاستيلاء على حلب سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م . كما ناقش هذا الفصل علاقة الإمارة المرداسية بالدولة البيزنطية وتدهور علاقات الفاطميين بالبيزنطيين في منتصف القرن الخامس الهجري، ونتائج سياسة البيزنطيين على أحوال بلاد الشام قبيل الغزو السلجوقي . وبحث الفصل أيضاً موضوع غارات التركمان على بلاد الشام ، بدءاً من أول إغارة شنها التركمان على

الموصل والجزيرة سنة ٤٣٣هـ ثم توغُل التركمان إلى بلاد الشام منذ منتصف القرن الخامس الهجري وبخاصة إغارات التركمان في منطقة حلب بقيادة ابن خان ، وفي إنطاكية تحت زعامة أفشين بن بكجي ، وفي بعض بلاد الشام بقيادة صندق التركي ، هذا فضلاً عن دخول التركمان الناوكية إلى جنوب الشام بدعوة من الوالي الفاطمي بدر الجمالي .

أما الفصل الثاني وعنوانه (الغزو السلجوقي لبلاد الشام منذ سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) فقد بحث أولاً موضوع دوافع الغزو السلجوقي لبلاد الشام وأشار الفصل في اختصار شديد إلى ظهور السلاجقة وتأسيس دولتهم وجهود طغرلبك في سبيل السيطرة على العراق والشام ودعم الفاطميين لحركة البساسيري للوقوف في وجه السلاجقة ، ونتائج ذلك على أوضاع بلاد الشام ثم ناقش الفصل موضوع خضوع المرداسيين في حلب للسلطان ألب أرسلان (٤٦٢ ـ ٤٦٣هـ) وخروج القائد الفاطمي ناصر الدولة بن حمدان على طاعة الخليفة الفاطمي المستنصر ، وحثه للسلطان ألب أرسلان على القضاء على الخلافة الفاطمية مما أغرى السلطان السلجوقي على إعداد حملة ضخمة قادها بنفسه نحو مصر سنة ٤٦٣هـ ، وهي الحملة التي لم تتم بسبب خروج الأمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع لغزو بلاد السلاجقة . وألقى هذا الفصل أضواء جديدة على معركة ملازكرد التي جرت بين السلاجقة والبيزنطيين سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م ، وما تمخض عنها من نتائج هامة بالنسبة للسلاجقة والبيزنطيين .

وعالج هذا الفصل أيضاً موضوع ظهور القائد اتسز بن أوق الخوارزمي في جنوب الشام سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م وحملته على مصر سنة ٤٦٩هـ ، وما نجم عنها من نتائج على أحوال بلاد الشام بسبب سوء

إدارة اتسز وقسوته كما بحث الفصل أيضاً موضوع فتوحات الأمير السلجوقي تتش في بلاد الشام فيما بين سنتي (٤٧١ - ٤٧٩هـ) واستيلائه على دمشق وسياسته في توطيد نفوذه في بلاد الشام .

وناقش الفصل الثاني كذلك موضوع النزاع بين سلاجقة الروم وسلاجقة الشام منذ عصيان قطلمش على السلطان ألب أرسلان ومقتله ، وما ترتب على ذلك من قطيعة بين أبناء قطلمش وأبناء ألب أرسلان . وتلا ذلك تدخل أبناء قطلمش في شؤون بلاد الشام أثناء حكم اتسز . ثم استيلاء سليمان بن قطلمش على إنطاكية سنة ٤٧٧هـ ، وما أعقب ذلك من نزاع بين سليمان ابن قطلمش ومسلم بن قريش ، ثم بين سليمان وتتش وأثر ذلك على أحوال بلاد الشام .

ودرس الفصل وصول السلطان ملكشاه إلى الشام سنة ٤٧٩هـ ومنحه أقاليم شمال الشام والجزيرة كإقطاعيات حربية لأمرائه وقادته ، ثم النفوذ السلجوقي في بلاد الشام بعد رحيل ملكشاه سنة ٤٧٩هـ ثم بعد وفاته سنة ٤٨٥هـ عندما دب النزاع والشقاق والخلاف بين أمراء وقادة السلاجقة للاستيلاء على مدن الشام والجزيرة أو الفوز بعرش السلطنة السلجوقية . وأدى هذا إلى معارك وحروب كان لها الآثار السيئة على أحوال بلاد الشام قبل الغزو الصليبي .

أما الفصل الثالث من الرسالة فعنوانه (الإمارات العربية في بلاد الشام قبل الغزو الصليبي) . وألقى هذا الفصل أضواء جديدة على تاريخ الإمارة المرداسية في حلب وبخاصة في سنواتها الأخيرة ثم استيلاء مسلم ابن قريش على حلب وقضائه على الإمارة المرداسية . كما بحث هذا الفصل تاريخ إمارة مسلم بن قريش العقيلي في الجزيرة وشمال الشام .

وتابعت الدراسة تطور تاريخ هذه الإمارة منذ تطلع مسلم بن قريش إلى بسط نفوذه على شمال الشام ودخوله في علاقات مع السلاجقة والفاطميين وغيرهم من القوى في بلاد الشام والجزيرة حتى نزاعه مع سليمان بن قطلمش، وهو النزاع الذي تمخض عنه مقتل مسلم بن قريش وزوال نفوذ العقيليين من شمال الشام، وسقوط إمارتهم لحساب السلاجقة .

وعالج هذا الفصل أيضاً تاريخ إمارة عربية ثالثة هي إمارة بني منقذ في شيزر، وهي الإمارة التي عاشت نحو نصف قرن من الزمان بعد وصول الحملة الصليبية الأولى . وبحث هذا الفصل نشأة إمارة بني منقذ في شيزر وخاصة في عهد علي بن المقلد وابنه نصر، ثم علاقة بني منقذ بالسلاجقة وغيرهم هذا فضلاً عن دور هذه الإمارة في أحوال بلاد الشام حتى وصول الصليبيين . وتناول الفصل أيضاً دراسة إمارة بني عمار في طرابلس، وهي الإمارة التي ظلت صامدة في وجه الفاطميين والسلاجقة حتى سقطت أخيراً في أيدي الصليبيين سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٩م . وعالج هذا الفصل أيضاً أحوال إمارة ابن أبي عقيل في صور . وتتبعت هذه الدراسة تاريخ هذه الإمارة منذ قيامها سنة ٤٥٥هـ على يد عين الدولة القاضي علي بن عبد اللّٰه بن أبي عقيل وحتى سقوطها سنة ٤٨٢هـ . وألقى الفصل ضوءاً على إمارة خلف بن ملاعب في حمص وأفامية، ودور تلك الإمارات كلها في تمزق بلاد الشام قبيل الحملة الصليبية الأولى .

أما الفصل الرابع والأخير فقد ناقش تنازع القوى في بلاد الشام حتى وصول الصليبيين إلى إنطاكية سنة ٤٩١هـ . وقدم هذا الفصل دراسة جديدة عن أثر سياسة الأخوين رضوان ودقاق ابني تتش في انهيار

النفوذ السلجوقي في بلاد الشام ، ودخولهما في نزاع وحروب وفشلهما في توطيد نفوذهما في بلاد الشام وما تمخض عن ذلك النزاع من نتائج خطيرة على بلاد الشام قبيل الحملة الصليبية الأولى .

وبحث الفصل الرابع أيضاً دور القادة العسكريين الأتراك والأتابكة في تمزق بلاد الشام ، ومن هؤلاء القادة ياغي سيان وكربوقا وسكمان بن أرتق وأخيه ايلغازي وغيرهم . كما ناقش هذا الفصل موضوع جماعات العساكر البطالين الذين كانوا عاملاً من عوامل تمزق بلاد الشام وتفككها عشية الحملة الصليبية الأولى . وتناول الفصل أيضاً انهيار النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ، وتمثل في حركات العصيان التي قامت على سبيل المثال في صور من قبل الولاة الفاطميين والجهود اليائسة التي قام بها الفاطميون للاحتفاظ ببعض موانىء الشام . كما بحث الفصل موقف الفاطميين من وصول الصليبيين إلى بلاد الشام وعدم فهمهم لطبيعة الحركة الصليبية واستعادة الفاطميين لبيت المقدس من الأراتقة .

ومن الموضوعات التي تم دراستها في هذا الفصل ، دور الأقليات الدينية والعرقية في انقسام وتمزق بلاد الشام قبل الغزو الصليبي ، وعلى رأس الأقليات الدينية الدروز ، والنصيريون ، والمارنيون ، والباطنية ، ومن الأقليات العرقية التي ساهمت في تفكك وتمزق بلاد الشام الأتراك والأرمن والأكراد .

وقبل الحديث عن وصول الصليبيين إلى أسوار إنطاكية كان لا بد من القاء الضوء على تفكك سلاجقة الروم ، الأمر الذي ساعد الصليبيين على المسير عبر آسيا الصغرى دون صعوبة كبيرة حتى وصولهم إلى إنطاكية . وبحث الفصل موضوع حصار الصليبيين لانطاكية ، والخلافات

التي جرت بين زعماء المسلمين والتي أدت إلى فشل النجدة التي نهضت بقيادة كربوقا لمساعدة ياغي سيان في إنطاكية وسقوط انطاكية أخيراً في أيدي الصليبيين سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م .

واحتوت الرسالة على خاتمة ، توضح أهم النتائج التي توصل إليها البحث ومجموعة من الملاحق التي تفسر بعض الحوادث الواردة في فصول الرسالة .

وفي الختام لا يسعني إلا أن أتقدم بخالص شكري وتقديري وعظيم امتناني إلى المشرف على هذه الرسالة أستاذي الجليل الدكتور حسنين محمد ربيع لما بذله من جهود مضنية طيلة مراحل البحث ، ولما أبداه من توجيهات سديدة وارشادات علمية صائبة في روح من العطف والأمانة العلمية ، فجزاه اللّٰه عني وعن طلابه خير الجزاء .

واللّٰه أسأل العون والسداد إنه نعم المولى ونعم النصير .

الفصل الأول

بلاد الشام قبل الغزو السلجوقي

- ضعف النفوذ الفاطمي وتفرق القبائل العربية وتمزقها في بلاد الشام .
- اعتداءات جيوش الدولة البيزنطية على مدن شمال الشام .
- غارات الأتراك الغز (التركمان) على بلاد الشام .



ضعف النفوذ الفاطمي وتفرق القبائل العربية وتمزقها في بلاد الشام

بعد أن تم للفاطميين فتح مصر ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م كان من الضروري أن يمدوا نفوذهم في بلاد الشام ، لأن الخلافة الفاطمية ادعت الزعامة الدينية للعالم الإسلامي وحتى يتحقق هذا الهدف ، وجب عليها القضاء على الخلافة العباسية في بغداد ، وهذا لن يتم إلا عن طريق فتح بلاد الشام ، ولهذا جعل الفاطميون فتح بلاد الشام هدفهم الرئيسي مستعينين في ذلك بقبائل البربر التي جندوها من أقاليمهم الأفريقية[1] . ولن نتعرض هنا إلى شرح تفاصيل الفتح الفاطمي لبلاد الشام[2] ، ويجدر شرح أسباب ومظاهر ضعف النفوذ الفاطمي في بلاد الشام إذ أن امتداد النفوذ الفاطمي إلى هذه البلاد حمل في طياته عوامل الضعف

---

(١) جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ١٦ .

Gibb, op. cit. p. 15.

(٢) عن الفتح الفاطمي لبلاد الشام ، انظر ابن الأثير ، الكامل جـ ٨ ص ٥٩١ ـ ٥٩٢ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ص ١٢٢ ـ ١٢٧ .

بسبب العوامل التالية :

أولاً : واجه الفاطميون في بلاد الشام خطر قرامطة البحرين ، الذين كانت تربطهم بالفاطميين قبل وصولهم إلى مصر علاقات طيبة . فالقرامطة كانوا يتبعون مذهب الإسماعيلية ، واعترفوا بالخليفة الفاطمي كخليفة شرعي ، إلا أن تضارب المصالح بين الطرفين أدى إلى تغيير تلك العلاقة ، فقد كان القرامطة يحصلون من الاخشيديين في بلاد الشام على اتاوة سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار انقطعت بعد فتح الفاطميين لمدينة دمشق[1] .

وسار الحسن بن أحمد القرمطي إلى الشام سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧١م بعد أن تلقى المساعدة من الملك البويهي بخْتيار ، والتقى الحسن القرمطي بجعفر ابن فلاح قائد جيش الفاطميين في بلاد الشام وقتله مع كثير من جنوده المغاربة . ودخل القرمطي إلى دمشق ، ثم سار إلى الرملة وفتحها ، وأقام الخطبة العباسية وحذف خطبة الفاطميين[2] . ثم سار القرمطي بجموعه إلى مصر ، وهدد مدينة القاهرة ، إلا أن القائد الفاطمي جوهر الصقلي تمكن من صده عنها ، وهزمه هزيمة شديدة سنة ٣٦١هـ/ ٩٧٢م انسحب بعدها الحسن القرمطي إلى الاحساء[3] .

وعندما قدم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله إلى مصر سنة

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ص ١٨٧ ـ ١٨٨ ؛ سرور ، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١ ـ ٢ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ص ١٨٧ ـ ١٨٨ ؛ سرور ، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ٢٥ ـ ٢٦ .

(٣) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ١ ص ١٨٨ ؛ جمال الدين سرور ، سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٢٧ .

٣٦٢هـ/ ٩٧٣م ، أرسل خطاباً طويلاً إلى الحسن بن أحمد القرمطي ، فيه الكثير من ضروب الوعظ والتهديد والوعيد[١] . فرد القرمطي على خطاب المعز بالمسير إلى الشام بعد أن انضم إليه ابن جراح الطائي بقومه ، وقصد مصر واقترب من القاهرة ، على أن الفاطميين تمكنوا من استمالة ابن جراح بالمال فانسحب عند أول اشتباك ، فحلت الهزيمة بقوات القرمطي ، وعاد مهزوماً إلى الاحساء سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م[٢] .

واتجهت سياسة الخليفة المعز لدين اللّه، بعد انزال الهزيمة بالقرامطة إلى محاولة توطيد الحكم الفاطمي في بلاد الشام ، فقلد ظالم بن موهوب العقيلي ولاية دمشق ، وارسل اليه جيشاً لمعاونته بقيادة أبي محمود بن جعفر ، ولكن جنود الفاطميين من البربر مارسوا أعمال العبث والفساد وقطع الطريق ، فثار عليهم أحداث دمشق ، فعزل المعز ابا محمود بن جعفر وقلد ريان الخادم ولاية دمشق ، فعجز بدوره عن اعادة الأمن والنظام إلى المدينة[٣] . وفي هذا الوقت سار إلى دمشق أحد قادة بغداد الأتراك ويدعى افتكين التركي بعد هزيمته امام الديلم وقد استدعى أهالي دمشق افتكين ، وطلبوا مساعدته فسار ودخل دمشق وعضده سكانها فأقام الخطبة للطائع العباسي بدلاً من المعز الفاطمي وذلك سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٥م[٤] .

وعندما آلت الخلافة الفاطمية إلى العزيز بالله سنة ٣٦٥هـ/

---

(١) انظر خطاب المعز إلى القرمطي في المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ص ١٨٩ - ٢٠١ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣) ابن القلانسي ص ١٠ - ١١ .

(٤) ابن القلانسي ص ١١ - ١٢ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

٩٧٦م ، جهز جيشاً إلى الشام بقيادة جوهر الصقلي لاسترداد دمشق من افتكين التركي وحاصر جوهر أفتكين في دمشق فوقف أهل دمشق مع أفتكين ، وأشاروا عليه بالاستنجاد بالحسن القرمطي ، فبعث أفتكين إلى القرمطي طالباً مساعدته ، فسار الحسن القرمطي إلى الشام ، ولما اقترب من دمشق انسحب عنها جوهر وسار إلى الرملة ومنها إلى عسقلان ، فلحق به الحسن القرمطي وأفتكين ، وحاصراه بعسقلان ، فاضطر إلى طلب الصلح من أفتكين ، فوافق واقنع حليفه القرمطي بقبوله . ونص الصلح على أن يدفع جوهر مبلغاً معيناً من المال وان يخرج بجنوده من تحت سيف أفتكين ورمح القرمطي بعد ان يعلقا على باب عسقلان . وهكذا عاد القائد الفاطمي جوهر إلى مصر بعد أن تعرض للإهانة والمذلة ، وأوضح للخليفة العزيز حقيقة الوضع في بلاد الشام وما أصاب سلطان الفاطميين من ضعف وانهيار[١] .

وسار الخليفة العزيز بالله الفاطمي إلى بلاد الشام سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٨م للقضاء على تحالف القرامطة مع أفتكين التركي ، ولاستعادة نفوذ الفاطميين في بلاد الشام . وحاول العزيز استمالة أفتكين فلم ينجح ، وأخيراً نشبت المعركة بين الفريقين قرب الرملة ، فحلت الهزيمة بأفتكين ووقع في الأسر وفر الحسن القرمطي إلى الاحساء ، وبذلك زال نفوذ القرامطة من بلاد الشام ، بيد أن دمشق لم تسقط بيد الفاطميين إذ ظلت خاضعة لقسام زعيم الأحداث بها[٢] . ورغم انتصار الفاطميين أخيراً فإن

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٥ ـ ١٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ٨ ص ٦٥٩ ـ ٦٦٠ ؛ خاشع المعاضدي ، الحياة السياسية في بلاد الشام ص ٤٨ ـ ٥١ .

(٢) ابن القلانسي ص ٢١ ـ ٢٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ٨ ص ٦٦٠ ـ ٦٦١ ، سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ٤٣ ؛ المعاضدي ، الحياة السياسية في بلاد الشام ص ٥١ ـ ٥٢ .

النزاع مع القرامطة أحدث قلاقل واضطرابات في بلاد الشام حالت دون توطيد النفوذ الفاطمي ، كما أن نجاح القرامطة في إنزال الهزيمة بالفاطميين عدة مرات أسقط هيبة الفاطميين وأغرى القوى المختلفة في بلاد الشام بمناوئة النفوذ الفاطمي في هذه البلاد .

ثانياً : العامل الثاني الذي أسهم في إضعاف النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ، هو موقف سكان بلاد الشام ـ وخاصة أهل دمشق ـ من الفاطميين حيث كان سكان بلاد الشام يكنون للفاطميين أشد الكراهية لأسباب ثلاثة أوضحها ابن القلانسي بقوله : « وكان أهل دمشق يأبون المغاربة لمخالفتهم في الاعتقاد ولأنهم أمويون ولقبح سيرة الناظرين الذين كانوا عليهم »[1] . وهذا النص الذي أورده ابن القلانسي يوضح ان الموقف العدائي لأهالي دمشق ، ومعهم سكان الشام ، ازاء الفاطميين ، يعود إلى الخلاف المذهبي ، فأهل الشام كما هو معروف يدينون بالمذهب السني بينما الفاطميون اسماعيليو المذهب وعملوا على نشر مذهبهم في كل المناطق التي أمكنهم الوصول إليها . كما أن سكان بلاد الشام ما زالوا في ذلك الوقت يذكرون العصر الأموي عندما كانت بلاد الشام مركز العالم الإسلامي، وكان سكان الشام جنود الخلافة ورجالها المخلصين . ومن المعروف ان سياسة الولاة الفاطميين في بلاد الشام غرست بذور الحقد في نفوس الشاميين ، لأن أولئك الولاة انتهجوا سياسة بالغة القسوة في معاملتهم للسكان . يضاف إلى ذلك ان جنود الخلافة الفاطمية كانوا من عناصر بربرية من شمال أفريقية تنزع دائماً إلى الفساد وقطع الطريق ، مما جعل السكان يثورون ضد الجنود الفاطميين . ويوجد الكثير من الأمثلة على سوء سياسة الولاة الفاطميين تجاه سكان

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٦ .

بلاد الشام ، من ذلك مثلاً ان القائد جعفر بن فلاح لما فتح دمشق أرسل إليه أهلها وفداً يطالبه بإصلاح شؤون مدينتهم ، فقبض على الوفد بعض جنود جعفر من المغاربة ، وأهانوهم وسلبوا ثيابهم ، وكان لهذا العمل أسوأ الأثر في نفوس أهالي دمشق[1] .

ولم تكد تستقر الأمور في دمشق حتى عاد جنود جعفر بن فلاح إلى العبث بالنظام وانتهاك الحرمات مما دفع أهالي دمشق إلى مقاتلتهم ، فرد جعفر على ذلك بأن قبض على بعض زعماء دمشق وأمر بضرب أعناقهم ، مما زاد في كراهية أهل دمشق لحكم الفاطميين ، وجعلهم يتحينون الفرص للتخلص من سيطرتهم[2] .

وقد أدت هذه الأسباب التي أوردها ابن القلانسي إلى انضمام سكان الشام إلى القرامطة وإلى أفتكين التركي في حروبهم ضد الفاطميين ، إذ يذكر ابن القلانسي انه عندما سار القرمطي وأفتكين التركي لمطاردة جوهر الصقلي « اجتمع إليهما من رجال الشام وعربها تقدير خمسين ألف فارس وراجل »[3] وهذا دليل واضح على مدى كراهية سكان بلاد الشام للحكم الفاطمي ، الأمر الذي ساعد على عدم توطيد النفوذ الفاطمي في بلاد الشام .

ثالثاً : هناك عامل ثالث ساعد على ضعف النفوذ الفاطمي ، وهو

---

(١) المقريزي ، إتعاظ الحنفا ، جـ ١ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ؛ جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، ص ١٩ .

(٢) ابن الأثير الكامل ، جـ ٨ ص ٥٩١ ـ ٥٩٢ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ؛ سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، ص ١٩ ـ ٢٠ .

(٣) ابن القلانسي ص ١٦ ـ ١٧ .

كثرة تعاقب الولاة على بلاد الشام ، حيث لم يتح هذا فرصة لتوطيد النفوذ الفاطمي في بلاد الشام . إذ ما يكاد يعين الوالي حتى يعزل ، وبالتالي أصبح همه يتركز على جمع أكبر قدر ممكن من المال ، لتسديد الأتاوة المقررة للخلافة الفاطمية، ولتأمين مستقبله عند عزله . وطبيعي ان هذه الأموال انبي يجمعها الوالي ، تكون عن طريق فرض الضرائب الباهظة على السكان .

ومن الأمثلة على كثرة تعاقب الولاة على بلاد الشام وأثره في ضعف النفوذ الفاطمي ما حدث في دمشق خلال العقدين الأولين من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، حيث تعاقب على دمشق سبعة عشر والياً ذكرهم ابن القلانسي ولم تتجاوز مدة ولاية بعضهم الشهرين بينما تولى آخرون الولاية بضع مرات متباعدة ، وفي سنة ٤١٠هـ/ ١٠١٩م وصل إلى دمشق أبو القاسم عبد الرحمن بن الياس بن أحمد بن العزيز بالله ، أخو الخليفة الحاكم والياً على دمشق ، فاستقبله أهل دمشق استقبالاً مشهوداً راجين ان تستقر الأمور في عهده ، وان يوفر لهم العدل والاطمئنان باعتباره من البيت الفاطمي الحاكم . غير ان أملهم تلاشى عندما وصلت جماعة من مصر هجمت عليه في قصره وقتلت أصحابه وحراسه وخرجت به في ربيع الأول سنة ٤١٢هـ/ يونيه ـ يوليه ١٠٢١م ولكنه عاد إلى دمشق في رجب من السنة نفسها ونزل القصر . وفي يوم عرفة سنة ٤١٢هـ/ مارس ١٠٢٢م قدم الوزير الفاطمي ابن المغربي مع بعض الجنود ، وأخرجوا الوالي أبا القاسم من القصر ، وضربوا وجهه على مرأى من سكان دمشق ، وأخذوه إلى مصر مما جعل أهل دمشق يفقدون الثقة في الولاة وفي الحكم الفاطمي ذاته . ويعلق ابن القلانسي على ذلك بقوله : « واكثر الناس في التعجب من اختلاف

الآراء في تدبير هذه الولايات وتنقل الأغراض والأهواء فيها . . فزاد عجب الناس ، وحاروا فيما هم فيه ، وتشاكوا ما ينزل بهم من الأحوال المضطربة والأعمال المختلفة »[1] .

رابعاً : وكان لجماعة الأحداث في دمشق دور مؤثر في ضعف النفوذ الفاطمي في بلاد الشام منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي . والأحداث جماعة من القوات المدنية لعبت دوراً هاماً في دمشق وبعض مدن الشام وأعالي الجزيرة من القرن الرابع إلى القرن السادس الهجري/ العاشر إلى الثاني عشر الميلادي . وكان الأحداث مسئولين عن حفظ النظام ومكافحة النيران وما إلى ذلك داخل المدينة . وفي وقت الحاجة كانوا يشكلون قوة عسكرية لمساندة القوات النظامية . ولهذه الواجبات حصل الأحداث على أموال كثيرة أتت إليهم من ضرائب معينة تجبى في المدن[2] .

وكانت حركة الأحداث نتيجة ظروف سياسية واجتماعبة سادت بلاد الشام والجزيرة منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي عندما اضمحلت سلطة العباسيين واشتدت حملات البيزنطيين على بلاد الشام والجزيرة وتوالت فتن القرامطة وغارات البدو ، وقد أدت هذه الظروف إلى وجود شعور بعدم الاستقرار بين سكان المدن في بلاد الشام . وفي ظل هذه الظروف قام السكان في المدن والقرى بتنظيم نوع

---

(١) ابن القلانسي ص ٦٦ ـ ٧٠ .

(٢) Zakkar, The Emirate of Aleppo, pp. 255 - 256; The Encyclopaedia of Islam Vol . I. p. 256.

سعيد عاشور ، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٣٠ ـ ٣١ .

من المقاومة ضد هذه الأخطار وايجاد قوة لحماية وصون النظام الاجتماعي في البلاد . وتطورت تلك القوة إلى خدمة أهداف ومصالح القادة وغيرهم من الشخصيات الطموحة الذين استخدموها لتحقيق أطماعهم السياسية . وكان المؤرخون يشيرون أولاً إلى جماعات الأحداث باسم أهل المدينة ثم انتشر اصطلاح الأحداث على هذه الجماعات . وتكون معظم أفرادها من الفقراء والعامة ، بيد أنها تأتمر بأمر زعيم لها عرف بلقب رئيس البلد . وقد عرفت معظم مدن الشام والجزيرة جماعات الأحداث على أنها تتفاوت في عددها من مدينة إلى أخرى ، حيث كانت تصل إلى بضعة آلاف في دمشق وحلب ، ولا تتجاوز المئات في المدن الأخرى من بلاد الشام(١) .

وفي دمشق بلغت جماعات الأحداث ذروة نشاطها خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . ولعبت دوراً هاماً في مناوئة الحكم الفاطمي لدمشق . وكثيراً ما قاد الأحداث حركات العصيان والتمرد ضد الولاة الفاطميين داخل دمشق . فقد اعتمد الفاطميون على جنودهم المغاربة الذين عاملوا السكان بقسوة بالغة وأشار ابن القلانسي إلى ذلك بقوله : « ان الرعية تكره المغاربة في الفساد ، وقطع الطريق على الصدار والوارد » . ففي سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م وصل جيش فاطمي بقيادة أبي محمود ابن ابراهيم بن جعفر لحماية دمشق من هجمات القرامطة ونهب المغاربة بعض أسواق دمشق ، وزاد عبثهم وفسادهم فثار

---

(١) Zakkar, op. cit. pp. 257 - 258 .

شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز إلى الشام ، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ص ٣١٥ ـ ٣١٦ ، أنظر أيضاً Gibb, op. cit. p. 27 - 28 وعن أحداث حلب انظر مايلي الفصل الثالث ص ٢٣٠ ـ ٢٣٣ :

الأحداث بهم وقادوا حركة المقاومة ضدهم ووقع القتال بين الأحداث وبين جنود الخلافة . ونجم ذلك اشعال النيران في أكثر أحياء دمشق . وأخيراً تمكن الأحداث بقيادة الماورد (رئيس شطار الأحداث) من وضع المتاريس داخل أحياء دمشق لمنع الجيش الفاطمي من اقتحامها . وظلت الفتنة مشتعلة داخل دمشق بين أحداثها والجنود المغاربة خلال شهر صفر وبعض ربيع الأول سنة ٣٦٣هـ/ نوفمبر ـ ديسمبر ٩٧٣م إلى أن تم الصلح بين الفريقين ، عندما تولى دمشق جيش بن محمد بن الصمصامة من قبل خاله القائد أبي محمود بن جعفر[١] .

وفي سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٨م أصبح رجل يدعى قسام التراب رئيساً على أحداث دمشق ، وتغلب على دمشق في السنة التالية وأطاح رئيس الأحداث قسام بأطماع الأمير الحمداني أبي تغلب الغضنفر بن حمدان في الاستيلاء على دمشق . وعندما هُزِمَ ابن حمدان أمام الفاطميين في فلسطين سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م أرسلت الخلافة الفاطمية جيشاً بقيادة سليمان بن جعفر بن فلاح لاستعادة دمشق وفشل الجيش الفاطمي في الاستيلاء على دمشق . وظل قسام وأحداثه يسيطرون على دمشق حتى سنة ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م عندما تمكن القائد الفاطمي بلتكين التركي من استعادة دمشق من قسام التراب وأتباعه من الأحداث[٢] .

وفي سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م قام الأحداث أيضاً بطرد الوالي الفاطمي سليمان بن فلاح ، وسيطروا على دمشق[٣] . فعينت الخلافة الفاطمية في السنة التالية جيش بن محمد بن الصمصامة والياً على دمشق فجاء بجيشه

---

(١) ابن القلانسي ص ٤ ـ ٩ .
(٢) المصدر السابق ص ٢١ ـ ٢٧ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٩ .

وعسكر خارج دمشق وأخذ يقيم علاقات الود والصداقة مع زعماء الأحداث ودبر مؤامرة راح ضحيتها ما يقارب ألف رجل من الأحداث[1] . وقضت هذه الضربة القاسية على أحداث دمشق ، مما جعلها خاضعة تماماً للحكم الفاطمي . ولم يعد نشاط الأحداث إليها إلا بعد فترة طويلة من الزمن .

أما عن النفوذ الفاطمي في شمال بلاد الشام : فعلى الرغم من أن الحمدانيين قد أصابهم الضعف والانقسام بعد وفاة سيف الدولة الحمداني سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م فإن الفاطميين عجزوا عن بسط حكمهم المباشر على حلب طوال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي[2] . ويرجع السبب في ذلك ـ فضلاً عن أسباب ضعف النفوذ الفاطمي في وسط وجنوب الشام ـ إلى ضعف القوة العسكرية للفاطميين ، وبعد شمالي الشام عن قاعدة الخلافة الفاطمية ، إضافة إلى وجود قوات الدولة البيزنطية على أطراف شمال الشام . ولهذا أخذت الدولة الفاطمية تعدل سياستها بحيث تقنع بالولاء الإسمي في شمال الشام مع عدم التساهل مطلقاً إزاء استقلال الجنوب الشامي ، لما يمثله ذلك من تهديد مباشر للخلافة الفاطمية في مصر[3] .

والواقع أن سياسة الحمدانيين إزاء الخلافة الفاطمية كانت تتسم بالعداء بصورة عامة ، ولم يبدأ النفوذ الفاطمي في الوصول إلى حلب إلا في أواخر عصر الإمارة الحمدانية ، عندما استبد غلمان الحمدانيين

---

(١) المصدر السابق ص ٥٣ ـ ٥٤ .

(٢) عن تفاصيل محاولات الفاطميين بسط نفوذهم على حلب . انظر : ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ١٥١ ـ ١٩٥ .

(٣) انظر : Zakkar, op. cit., pp. 39- 40

بالسلطة ، دون أسيادهم . ففي سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م أصبح لؤلؤ السيفي وصياً على ابني سعد الدولة الحمداني ، فنفاهما إلى مصر ، واستبد لؤلؤ بالحكم إلى أن توفي سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م[١] . وخلفه في إمارة حلب ابنه منصور الملقب بمرتضى الدولة فأقام الخطبة للخليفة الفاطمي الحاكم . غير أن مرتضى الدولة التمس في الوقت نفسه رضى الدولة البيزنطية ، وانتهج سياسة المناورة إزاء الفاطميين والبيزنطيين ، مستغلاً أهمية موقع حلب لكلا الدولتين « وكان إذا اضطرب عليه الحاكم موه عليه بملك الروم ، وإذا اضطرب عليه أمر ملك الروم موه بالحاكم »[٢] كما يقول ابن واصل .

على أن مرتضى الدولة اتبع سياسة تعسفية في منطقة حلب ، نجم عنها نفور بني كلاب فراسلوا الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني BASIL II (٩٧٦هـ ـ ١٠٢٥م) وطلبوا منه إرسال الأمير ابي الهيجاء الحمداني ، المقيم عنده ، ليتولى إمارة حلب . فاستجاب الامبراطور لطلب كلاب ، وأرسل أبا الهيجاء ، فلما وصل الأمير الحمداني إلى ميافارقين أمده صهره ابن مروان بمائتي فارس ، وسار قاصداً حلب ، ومعه بنو كلاب الذين تخاذلوا عنه ، ورفضوا مساعدته بعد ان وعدهم مرتضى الدولة بالأموال والاقطاعات ، فعاد أبو الهيجاء إلى القسطنطينية[٣] .

ونشب الخلاف بين بني كلاب وبين مرتضى الدولة عندما رفض

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ، جـ ١ ص ١٩٥ ؛
The Cambridge Medieval History, Vol.IV, p. 725.

(٢) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ، ورقم ١٥٢أ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ١٩٧ ـ ٢٠٠ ؛
The Cambridge Medieval History, Vol. IV.p. 725.

تنفيذ ما شرطه لهم مقابل تخليهم عن مساعدة أبي الهيجاء ، فبادروا بسوق ماشيتهم في مزارع حلب ، ورعوا ثمارها وقطعوا أشجارها وحاصروا حلب . فأخذ مرتضى الدولة يتودد إليهم ويبذل لهم الوعود مظهراً رغبته في تسوية الخلاف معهم ، وطلب منهم ان يحضروا طعامه داخل حلب . ولما تم ذلك أمر بإغلاق أبواب القلعة وقبض عليهم وقتل منهم جماعة ، وزج بزعمائهم في السجن وعلى رأسهم صالح بن مرداس[1] .

غير أن صالحاً نجح في الفرار من سجنه ، وجمع قومه من بني كلاب وأغار على حلب سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٥م ، واستولى على تل حاصد قرب حلب مما اضطر مرتضى الدولة إلى التصدي له ، فجمع جيشاً على عجل من سكان حلب وفيه بعض اليهود النصارى وتمكن صالح من انزال الهزيمة بمرتضى الدولة وأسره ، ولم يطلق سراحه إلا بعد ان دفع فدية كبيرة ، وأطلق مرتضى الدولة سراح الأسرى من بني كلاب ، وتعهد بتسليم نصف حلب كاقطاع لبني كلاب وترتب على هذه المعركة ازدياد نفوذ قبيلة بني كلاب بزعامةصالح بن مرداس[2] .

وعندما عاد مرتضى الدولة إلى حلب رفض تسليم الاقطاعات لصالح وقومه ، فحاصر بنو كلاب حلب مرة ثانية ومنعوا الميرة من الوصول إليها ، وأدى ذلك إلى تذمر سكان حلب وسخطهم على سياسة مرتضى الدولة . وانتهى الأمر بقيام ثورة في قلعة حلب بزعامة فتح القلعي

---

(١) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ورقة ١٥٢أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٠١ .

(٢) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ، ورقة ١٥١ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ١ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٧ .

غلام مرتضى الدولة سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٦م . ونادى فتح القلعي بشعار الخليفة الفاطمي الحاكم فهرب مرتضى الدولة إلى انطاكية . وجدد فتح القلعي الاتفاق مع صالح بن مرداس وسلمه نصف حلب اقطاعاً . وكاتب فتح القعلي الخليفة الفاطمي الحاكم يخبره بما تقرر في حلب فرد عليه الحاكم يشكره على ما فعل ولقبه مبارك الدولة وكتب الخليفة الفاطمي لأهل حلب مرسوماً « بإطلاق المكوس والمظالم والصفح عن الخراج » وحتى يؤكد الخليفة الحاكم نفوذه على حلب أرسل والياً من قبله هو الأمير الحمداني أبو شجاع فاتك الملقب بعزيز الدولة . وتسلم فاتك حلب من فتح القلعي سنة ٤٠٧هـ/ ١٠١٧م وبذلك خضعت حلب للحكم الفاطمي المباشر[١] . وأقطع الخليفة الفاطمي فتحاً القلعي عوضاً عن حلب شريطاً ساحلياً شمل مدن صور وصيدا وبيروت ، على أن يدفع عنها خراجاً سنوياً للخلافة قدره ثلاثمائة ألف دينار[٢] .

بدأ عزيز الدولة فاتك حكم ولايته في حلب في رمضان سنة ٤٠٧هـ/ فبراير ١٠١٧م وأخذ يوطد نفوذه في حلب فقام بتجديد بناء القصر الملاصق للقلعة وأمر بصناعة القناديل للمسجد الجامع في حلب وأخذ يسعى لتحسين علاقته بصالح بن مرداس أمير قبيلة كلاب[٣] . ولم يلبث عزيز الدولة فاتك أن خلع طاعة الخليفة الفاطمي الحاكم ، ودعا لنفسه على المنبر ، وضرب النقود باسمه سنة ٤١١هـ/ ١٠٢١م[٤] .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ١ ص ٢١٤ ؛ انظر ايضاً : ابن واصل التاريخ الصالحي ورقة ١٥١ ب ـ ١٥٢ أ .

(٢) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ، ورقة ١٥٢ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢١٥ ؛ ابن يحيى ، تاريخ بيروت ص ١٥ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ١ ص ٢١٨ .

(٤) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ورقة ١٥٤أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢١٨ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص ١٢٩ .

فأخذ الخليفة يعد الجيوش لاستعادة حلب والقضاء على فاتك الذي ما ان علم بذلك حتى أرسل إلى الأمبراطور البيزنطي باسيل الثاني يستدعيه ليسلم إليه حلب . وقدم الامبراطور البيزنطي حتى وصل مرج الديباج في شمال الشام فبلغ فاتك خبر وفاة الحاكم الفاطمي ، فأرسل إلى باسيل يتنصل من وعده بتسليم حلب ، وأنه لو قدم إلى حلب لحاربه بمن معه من العساكر ، وبحلفائه بني كلاب ، فانسحب باسيل وسار نحو أرمينية[1] .

ووصلت الخلع من الخليفة الفاطمي الظاهر إلى عزيز الدولة فاتك . وأخذت ست الملك عمة الخليفة الظاهر وكفيلته تتودد إلى فاتك ، وبعثت إليه بالهدايا ليطمئن[2] . واستمالت احد غلمانه ويدعى بدرا ، فاغتال سيده فعهدت إليه بولاية حلب مكان مولاه . وبذلك عادت حلب مرة أخرى إلى دائرة النفوذ الفاطمي . وانتهجت الخلافة الفاطمية سياسة جديدة إزاء حلب ، كي تحكم قبضتها عليها ولتمنع قيام أي والٍ بالثورة ضد الخلافة فجعلت في القلعة والياً وآخر في المدينة وسار الأمر على هذا المنوال ، حتى آلت ولاية حلب إلى ابن ثعبان الكتامي ، والقلعة إلى موصوف الخادم ، كواليين عليها من قبل الفاطميين إلى سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٥م عندما تمكن صالح بن مرداس ـ كما سنرى ـ من انتزاع حلب وتأسيس الإمارة المرداسية[3] .

---

(١) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ، ورقة ١٥٤ أ ـ ب ؛ ابـن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢١٨ ـ ٢١٩ ؛ ومرج الديباج واد بين الجبال بينه وبين المصيصة عشرة أميال ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٢٠ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ؛ كرد علي ، خطط الشام ، جـ ١ ص ٢٢٩ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ؛ جـ ١ ص ٢٢١ ـ ٢٢٣ ؛ ابو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، جـ ٢ ص ١٤١ ؛ وانظر مـايلي ص ٦٥ ـ ٦٧ .

وجاءت المقاومة الرئيسية للنفوذ الفاطمي في بلاد الشام من جانب شيوخ القبائل العربية القاطنة بلاد الشام[1] . ومن المفيد إلقاء الضوء على توزيع القبائل العربية في بلاد الشام ومواطنها ، قبل شرح علاقتها بالخلافة الفاطمية ، ودورها في اضعاف النفوذ الفاطمي ، وأثر مقاومتها للفاطميين على تمزق القبائل وتفرقها في بلاد الشام .

أورد اليعقوبي الذي عاش في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) شرحاً وافياً عن مواطن القبائل العربية في بلاد الشام . حيث عرفنا منه أن منطقة حمص وأواسط الشام كان جميع قبائلها من اليمن، من طيءوكندة وحمير وكلب وهمدان وتمتد هذه القبائل إلى الساحل ازاء هذه المناطق . وفي منطقة دمشق كان معظم سكانها من قبيلة كلب اليمنية ويوجد بينهم بعض العشائر من قيس وخاصة في منطقة الغوطة وغالبية العرب في دمشق وما يقابلها من ساحل لبنان من قبيلة كلب ، وبقايا غسان مع بعض الأقلية القيسية الذين يتركزون في منطقة الجولان . أما في جنوب الشام وفلسطين وشرق الاردن فكان سكانها خليطاً من لخم وجذام وكندة وقيس وكنانة[2] .

وتجدر الإشارة إلى أن الوضع القبلي في بلاد الشام كان يتغير باستمرار لتنقل القبائل من مكان الى آخر ، ونتيجة لوصول موجات جديدة من القبائل المهاجرة ، تغير الوضع القبلي تغييراً كبيراً . ففي زمن ابن حوقل (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) كانت تسكن منطقة الجزيرة الفراتية وشمال الشام قبائل من ربيعة ومضر ، ثم هاجرت

---

(١) Gibb, op. cit. p. 18.

(٢) اليعقوبي ، البلدان ص ٣٢٤ـ ٣٢٩ .

إليها بطون من قشير وعقيل ونمير وكلاب ، فطردت قبائل ربيعة ومضر ، واستولت على معظم ديارها في هذه المناطق ، مثل حران ومنبج ومنطقة الخابور والخانوقة ، وقرقيسياء والرحبة[1] .

وغالباً ما تقوم القبائل الجديدة أثناء وصولها بغارات مدمرة على هذه المناطق ، تقضي على النشاط الاقتصادي فيها حتى تستقر ، ثم تعاود نشاطها الاقتصادي من جديد . ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩ ـ ٩٨٠م عندما وصلت إلى الشام قبيلتا مرة وفزارة ونزلتا منطقتي حوران والبثنية في أواسط الشام « وخربتها حتى بطل الزرع فيها وجلا أهلها فهلكوا من الضر ، وصار كثير منهم إلى حمص وشيزر واعمال حلب فعمرت بهم البلاد »[2] .

وفي أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) فرضت قبيلة طيء اليمنية نفوذها على منطقة فلسطين وجنوب الشام ، وقبيلة كلب اليمنية على منطقة دمشق وأواسط الشام ، وكلاب العدنانية على منطقة حلب واجزاء من شمال الشام والجزيرة مثل الرحبة ومنبج ، والحلف الذي عقد بين زعماء هذه القبائل الثلاث انما جاء تطبيقاً لهذا الواقع الجديد[3] .

وكان من أسباب ضعف النفوذ الفاطمي في بلاد الشام تمرد قبيلة طيءفي جنوب الشام بزعامة آل جراح الذين لعبوا دوراً هاماً في تاريخ بلاد

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٢٠٥ .

(٢) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ص ٢٥٠ ؛ انظر أيضاً ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٢٠٤ .

(٣) انظر مـايلي ص ٦٥ .

الشام منذ دخول الفاطميين دمشق سنة ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م وحتى سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤٢م . ففي سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧١م اسس المفرج بن دغفل ابن الجراح بمساعدة القرامطة إمارة طائية في جنوب الشام ، واتخذ من الرملة عاصمة له ، واعلن طاعته للفاطميين إلا انه يبدو ان المفرج وقومه لم يعتنقوا المذهب الاسماعيلي الذي تدين به الخلافة الفاطمية[1] .

وكانت سياسة ابن الجراح تتسم بالتقلب والمراوغة إزاء الفاطميين وفقاً لما تمليه مصالحه ، وكان لتلك السياسة أثر بارز على النفوذ الفاطمي في بلاد الشام قبل الغزو السلجوقي . فقد كان لانضمام ابن الجراح الى القرامطة في حروبهم ضد الفاطميين أثره في انتصارات القرامطة ، ولما استماله الفاطميون بالأموال تخلى عن مساعدة القرامطة مما أدى الى هزيمتهم وانحسار نفوذهم عن بلاد الشام[2] .

وابتداء من سنة ٣٦٩هـ/ ٩٨٠م زاد نفوذ قبيلة طيء بزعامة مفرج ابن جراح على حساب الفاطميين . ففي تلك السنة صار صاحب الموصل أبو تغلب الغضنفر بن حمدان إلى دمشق ، فصده عنها قسام التراب رئيس أحداثها فسار أبو تغلب إلى الرملة ، فجهز الوزير الفاطمي ابن كلس حملة بقيادة الفضل بن أبي الفضل ، استمالت ابن جراح بمنحة ولاية الرملة . وتمكنت الحملة الفاطمية بمساعدة ابن جراح من هزيمة ابن حمدان وقتله ، الأمر الذي نجم عنه ازدياد نفوذ قبيلة طيء بزعامة مفرج بن جراح[3] . وبدأ ابن جراح في تقويض دعائم الأمن

---

(١) مسكويه ، تجارب الأمم ، جـ٢ ص ٤٠٢ ؛ ابن القلانسي ص ٢ ؛ المناوي ، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ص ٣٧١ .

(٢) انظر ابن القلانسي ص ٣ .

(٣) مسكويه ، تجارب الأمم ، جـ٢ ص ٤٠١ ـ ٤٠٣ ؛ ابن القلانسي ص ٢١ ـ ٢٣ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ١ ص ٢٥٤ .

والنظام في جنوب الشام . لذلك رأى القائد الفاطمي الفضل بن أبي الفضل وجوب القضاء على ابن جراح ، واستعان على ذلك بقبيلة بني عقيل ، فعندئذ ارسل ابن جراح إلى القاهرة يعتذر ويتلطف ، فورد أمر الخليفة العزيز إلى قائده الفضل بالكف عن مطاردة ابن جراح ، والعودة الى مصر . وما ان رجع الفضل إلى مصر حتى « عاد ابن جراح إلى فلسطين فأخربها وهلك من فيها »[1] . وظل ابن جراح يعيث فساداً في جنوب الشام ، بعد أن انضم إليه الكثير من أعراب الشام من قيس وغيرها . وجرد إليه الفاطميون جيشاً بقيادة بلتكين التركي سنة ٣٧١هـ/ ٩٨٢م فاستولى على الرملة بعد ان انسحب منها ابن جراح ، ثم عاد ابن جراح بعد أن حشد جموعاً أخرى ، إلا انه هزم أمام الجيش الفاطمي وأسر ، ولكنه أفلت من الأسر ولجأ إلى البيزنطيين في انطاكية[2] .

وفي سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م استغل ابن الجراح فتنة اندلعت في صور ضد الحكم الفاطمي فعاد إلى فلسطين ونزل الرملة ونهبها . وأخيراً تمكن القائد الفاطمي جيش بن الصمصامة من اخضاع صور ، وطارد المفرج ابن جراح حتى الجأه إلى جبلي طيء[3] بشمال جزيرة العرب. وأخيراً طلب المفرج الصفح والامان ، فعفا عنه جيش بن الصمصامة ، بعد ان

---

(١) ابن القلانسي ص ٢٤ ؛ انظر أيضاً المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٥٤ .

(٢) ابن القلانسي ص ٢٥ .

(٣) جبلا أجا وسلمى : يقعان شمال الجزيرة العربية قرب مدينة حائل الحالية . وقد سكنت قبائل طي عند سفوح جبلي اجا وسلمى منذ العصر الجاهلي . وظلت تقطنه فترة طويلة بعد الإسلام . انظر : اليعقوبي ، البلدان ص ٣١٢ ؛ ياقوت ، معجم البلدان جـ ١ ص ٩٤ ـ ٩٧ ؛ القزويني ، آثار البلاد واخبار العباد ص ٧٤ ـ ٧٦ ؛ أبو الفدا ، تقويم البلدان ص ٦٧ ـ ٦٨ .

تعهد ابن جراح بالكف عن خرق النظام في بلاد الشام[1] .

وقد هدد بنو الجراح نفوذ الفاطميين في بلاد الشام تهديداً حقيقياً في أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بمساعدة أحد وزراء الدولة الفاطمية وهو أبو القاسم بن الحسين بن علي بن المغربي ، حيث قتل الخليفة الحاكم والده وعمه وأخويه ، ففر الوزير إلى الشام ولجأ إلى حسان بن المفرج بن الجراح سنة ٤٠٠هـ/١٠١٠م[2] . وأصبح ابن المغربي بمثابة المستشار لحسان بن مفرج ، فأخذ يحرضه على خلع طاعة الحاكم مستغلاً امتعاض حسان واخوته من تولية الحاكم ليارختكين التركي ولاية دمشق وقيادة جيوش الشام ، وأقنعهم برفض الاعتراف بهذا القائد ، وأعدوا له كميناً وهو في طريقه من مصر إلى الرملة ، وأسروه ونهبوا كل ما معه . فأرسل الحاكم إلى المفرج يعاتبه على فعل أولاده ويعده بالأموال ان أطلق سراح قائده . وخشي ابن المغربي مغبة الصلح بين بني الجراح والخليفة الحاكم فأوعز إلى حسان بقتل القائد يارختكين، فاستجاب حسان لطلبه ، وسار إلى الرملة واستولى عليها[3] .

وبدأ ابن المغربي في وضع مخططه ضد الخليفة الحاكم فاجتمع

---

(١) ابن القلانسي ص ٥٠ ـ ٥١ ؛ أبو شجاع ، ذيل تجارب الأمم جـ٣ ص ٢٢٧ .

(٢) أبو شجاع ، ذيل تجارب الأمم جـ٣ ص ٢٣٣ ؛ ابن القلانسي ص ٦٢ ؛ ابن ظافر الأزدي ، أخبار الدول المنقطعة ، قسم الفاطميين ص ٤٨ ؛ جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٣) أبو شجاع ، ذيل تجارب الأمم ، جـ٣ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ؛ محمد كرد علي ، خطط الشام ، جـ١ ص ٢١٨ ؛ سرور ، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ٤٥ .

بالمفرج وأولاده . وأشار عليهم بمراسلة أمير مكة أبي الفتوح الحسن بن جعفر العلوي ومبايعته خليفة على المسلمين (فانه لا مغمز في نسبه)[١] . وسار ابن المغربي إلى مكة واقنع أبا الفتوح بقبول الخلافة ووعده بتأييد سكان الشام . وسار أبو الفتوح مع ابن المغربي إلى الشام ، وأخذ الوزير البيعة لأبي الفتوح من بني الجراح ، وضرب السكة باسمه وانضمت قبائل الشام إلى أبي الفتوح الذي نزل بدار الإمارة بالرملة وسيطر على أكثر بلاد الشام سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م[٢] .

وهكذا انحسر النفوذ الفاطمي عن بلاد الشام أثناء هذه الحركة ، بيد أن هذه الحركة الخطيرة التي حاك خيوطها الوزير ابن المغربي كانت تحمل في طياتها عوامل فشلها . فعلى الرغم من أنه اختار لها أبو الفتوح الحسني العلوي الذي لا يتطرق الشك الى نسبه ، وهذا ما يكفل لها القوة المعنوية ، إلا أنها افتقرت تماماً إلى مورد مادي يدعمها ويكفل لها الإستمرار . وجميع أعراب الشام الذين أيدوا ابا الفتوح لا يهمهم إلا مصالحهم الشخصية ، فقد كانوا على استعداد دائم لتغيير ولائهم لمن يدفع لهم مالاً أكثر ، وهذا ما أدركه الخليفة الفاطمي الحاكم ، فلجأ إلى سلاح المال ، وارسل إلى حسان بن المفرج يفاوضه على التخلي عن أبي الفتوح ، « وترددت الرسل حتى تقرر انه يدفع إليه خمسين ألف دينار عينا ولكل واحد من اخوته كذلك ، سوى هدايا وثياب وحظايا تهدى اليه والى اخوته ، وسير ذلك جميعه فمالوا عن أبي الفتوح »[٣] .

---

(١) أبو شجاع ، ذيل تجارب الأمم ، جـ٣ ص ٢٣٦ .

(٢) أبو شجاع ، ذيل تجارب الأمم جـ٣ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ ؛ ابن ظافر الأزدي ، أخبار الدول المنقطعة ص ٤٨ ـ ٤٩ ؛ محمد كرد علي ، خطط الشام جـ١ ص ٢١٨ ـ ٢١٩ ؛ سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ٤٥ .

(٣) الأزدي : أخبار الدول المنقطعة ص ٥٠ .

وسعى الخليفة الحاكم لكسر شوكة آل جراح فاستمال كاتباً للمفرج ابن دغفل واوعز إليه بقتل سيده ، وتمكن الكاتب من تنفيذ ذلك عن طريق السم وفر إلى مصر . واندلعت ثورة طيء من جديد بزعامة حسان بن المفرج . واستمرت أكثر من سنتين (٤٠٤ ـ ٤٠٦هـ) تغلبت فيها طيء على كثير من بلاد الشام ، وكثرت مصادرتهم للناس حتى هرب الكثير من النصارى إلى انطاكية . ثم أرسل الحاكم جيشاً كبيراً بقيادة علي بن جعفر ابن فلاح لمحاربة آل جراح، وتمكن من الاستيلاء على كثير من معاقل طيء، حتى أصبح حسان بن المفرج طريداً في البرية وأخذ يتوسل إلى الخليفة حتى عفا عنه وسمح له بالعودة إلى الشام ، بعد أن تعهد بالكف عن الفساد في بلاد الشام[1] .

ومما تجدر ملاحظته هنا ، أنه اذا كانت الدولة الفاطمية قد نجحت في الحد من دور قبيلة طيء ومنعها من تأسيس إمارة مستقلة في جنوب بلاد الشام ، إلا انها لم تتمكن من القضاء عليها . ويرجع ذلك إلى تكوين قبيلة طيء وغيرها من قبائل الشام التي تتكون في غالبيتها من البدو الذين يصعب على الجيوش المنظمة ملاحقتهم والقضاء عليهم ، فكثيراً ما هربت جموع طيء إلى شمال جزيرة العرب ، ثم لا تلبث أن تعود إلى جنوب الشام . وقد أدت سياسة طيء بزعامة آل جراح إلى نتائج سيئة على الأحوال الإقتصادية في جنوب بلاد الشام بسبب غاراتها على المناطق الحضرية والزراعية . ونجم عن تلك السياسة أيضاً إضعاف النفوذ الفاطمي في بلاد الشام .

---

(١) أبو شجاع ، ذيل تجارب الأمم جـ٣ ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ؛ مصطفى الحياري، الإمارة الطائية ص ٤٩ ـ ٥٠ ؛ امينة البيطار ، أمراء العرب في بلاد الشام والعراق وموقفهم من الفاطميين ص ٦٩ .

ولما تولى الظاهر بن الحاكم الخلافة الفاطمية سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م عاد بنو الجراح لاثارة الاضطراب في بلاد الشام ، وسعوا لعقد حلف مع قبيلتي كلب بزعامة سنان بن عليان ، وكلاب بزعامة صالح بن مرداس لاقتسام بلاد الشام فيما بينهم ، وطرد الفاطميين منها . وحاولوا تدعيم هذا التحالف بالاستعانة بالدولة البيزنطية ، فراسلوا الامبراطور باسيل الثاني (٩٧٦ ـ ١٠٢٥م) طالبين منه مساعدتهم إذا حاولت الدولة الفاطمية القضاء على الحلف . ورفض الامبراطور البيزنطي ان يجازف بعلاقته الودية مع الخلافة الفاطمية[١] . وفي سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م راسل حسان بن جراح صالح بن مرداس وسنان بن عليان ، واجتمع الثلاثة بفلسطين ، وتعاهدوا على توحيد قواهم ضد الخليفة الفاطمي . ونص الحلف على « أن تكون فلسطين وما برسمها لحسان بن الجراح حتى باب مصر ، ولاخيه محمود بن جراح طبرية وما يتصل بها من الساحل ، ولسنان بن عليان دمشق وسوادها ، وحلب وما يتبعها لصالح بن مرداس »[٢] .

وتنفيذاً لهذا الاتفاق سار سنان بن عليان وصالح بن مرداس بجموعهماالى دمشق وحاصروها ، وشنوا عليها غارات متتالية ، ونهبوا الغوطة وجميع القرى المحيطة بها ، وقتلوا الفلاحين ، وصادروا الغلات . وأرسل حسان بن جراح نجدة إلى سنان وصالح لمساعدتهما

---

(١) مصطفى الحياري ، الإمارة الطائية ص ٥١ ،

Zakkar, op. cit. pp. 92- 93.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ؛ الغزي ، نهر الذهب في تاريخ حلب ، جـ ٣ ص ٦٨ ؛ الحياري ، الإمارة الطائية ص ٥١ .

على حصار دمشق ، ولكن دمشق ظلت صامدة رغم ما نزل بها من كوارث[1] . أما حسان بن جراح فانه هاجم الرملة واستولى عليها وهزم الوالي الفاطمي انوشتكين الدزبري ، واجبره على الانسحاب الى عسقلان في رجب سنة ٤١٥هـ/ أكتوبر ١٠٢٤م. ولما دخل حسان الرملة عاث فيها حرقاً ونهباً ، وسبى الكثير من النساء والاطفال ، وحمل منها اربعمائة جمل محملة بالمال والمتاع ، وأرسل إلى الظاهر الفاطمي يطلب منه أن يزيد في اقطاعه نابلس والقدس في مقابل وقف أعماله في فلسطين ، فأجابه الظاهر باقطاعه نابلس دون القدس[2] .

وفي الوقت نفسه تمكن كاتب صالح بن مرداس ، واسمه سليمان ابن طوق، من الاستيلاء على معرة مصرين إحدى قرى حلب ، وتوجه إلى حلب في رجب سنة ٤١٥/أكتوبر ١٠٢٤م ودارت الحرب بينه وبين واليها الفاطمي ابن ثعبان بن محمد الكتامي ، والوالي على القلعة موصوف الخادم الصقلبي . وترك صالح بن مرداس حليفه سنان بن عليان يحاصر دمشق ، وسار لنجدة قواته أمام حلب ، وشدد عليها الحصار قرابة الشهرين[3] . وقد ساعد الانقسام داخل حلب على سقوطها بيد صالح بن مرداس ، هذا فضلاً عن المساعدة التي قدمتها جماعة الأحداث بحلب بزعامة سالم بن المستفاد مما سهل على صالح دخول حلب ، وتسلم

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ؛ سهيل زكار ، مختارات من كتابات المؤرخين العرب ص ١٠٣ ـ ١٠٤ نقلاً عن كتاب أخبار مصر للمسبحي ؛ Zakkar, op. cit., p. 96 .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ١ ص ٢٢٤ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

(٣) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ، ورقة ١٥٤ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٢٧ .

صالح المدينة في ذي القعدة سنة ٤١٥هـ/ يناير ١٠٢٥م وبذلك تأسست الإمارة المرداسية في حلب[١] . واعتصم ابن ثعبان الكتامي بالقصر الملاصق للقلعة ونصب صالح المنجنيقات على القصر وقلعة حلب ، ثم عهد إلى سالم بن المستفاد ، زعيم أحداث حلب ، وسليمان بن طوق بتشديد الحصار على القصر والقلعة ، وسار صالح مسرعاً إلى فلسطين لنجدة حسان بن المفرج على انوشتكين الدزبري . ودام حصار قلعة حلب سبعة أشهر ، وأخيراً قرر نواب صالح بالمدينة اقتحام القلعة ، ونادوا في السكان بالجهاد ، وتمكنوا من نقب أسوار القلعة ، واقتحموها في جمادى الأولى سنة ٤١٦هـ/ يونيه ١٠٢٥م . وعاد صالح بن مرداس من فلسطين وطرد جميع أنصار الفاطميين من حلب[٢] . وسار صالح في السنة نفسها واستولى على حمص ، وتوجه نحو بعلبك فأخذها وتغلب على كل ما يحيط بها من قرى بالإضافة إلى صيدا ، وحصن ابن عكار قرب طرابلس ، وبذلك سيطر على معظم المناطق الخاصة به ، والتي نص عليها الحلف ، فضلاً عن الرحبة ومنبج وبالس ورفنية التي كان يسيطر عليها قبل فتح حلب[٣] .

وعلى الرغم من عصيان صالح بن مرداس وحروبه ضد الفاطميين

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ ، .Zakkar, op. cit., pp. 96- 97
عن دور جماعة الأحداث زمن صالح بن مرداس انظر مايلي : ص ٢٣٠ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ١٧١ ، العريني ، الدولة البيزنطية ص ٦٩٠ ، -Zakkar, op. cit., pp. 97
98.

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٣٠ ؛ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة جـ ٣ ص ٤٣ ـ ٤٤ ، انظر أيضاً : Zakkar, op. cit., p. 98 .

في بلاد الشام فانه ظل معتنقاً للمذهب الشيعي ومعترفاً بالسيادة الروحية للخليفة الظاهر الفاطمي . ومما يبرهن على هذا ، ذلك الدينار الذي ضرب في حلب سنة ٤١٧هـ في عهد صالح ، وعليه الشعار الشيعي واسم الخليفة الظاهر ، بالإضافة إلى اسم صالح بن مرداس[١] .

ومهما يكن من أمر ، فقد ذكر ابن خلكان وغيره ، أن حساناً بن المفرج أرسل سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م الشاعر علي بن محمد التهامي إلى بني قرة[٢] في مصر يدعوهم إلى نصرته ولكن الفاطميين قبضوا على الشاعر وسجنوه في خزانة البنود ، ثم قتلوه في السنة نفسها[٣] . ويبدو أن حساناً كان يهدف من سفارته تلك الى اشغال الدولة الفاطمية بفتنة داخل مصر تلهيها عما يجري في بلاد الشام ريثما يفرغ حسان وحلفاؤه من السيطرة على بلاد الشام وتوطيد نفوذهم بها . ويزكي هذا الرأي أن حساناً أرسل في أعقاب هذه السفارة فرقة من ألفي فارس ، وصلت إلى الفرما واوقعت الفزع والاضطراب بين سكانها ، ففروا في المراكب الى تنيس ، ووصل بعضهم مستغيثين إلى القاهرة[٤] .

واستمرت الحرب في فلسطين بين حسان بن المفرج وبين الوالي

---

(١) انظر Lane- pool, Catalogue of Arabic Coins, pp. 337- 338.

(٢) بنو قرة « بطن من هلال بن عامر بن صعصعة من العدنانية ، بلادهم اخميم من صعيد مصر » . انظر : القلقشندي ، نهاية الأرب في معرفة انساب العرب ص ٣٩٧ .

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ص ٣٨١ ؛ أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر جـ٢ ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص ١٦٢ .

(٤) المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ١٦٦ ؛ خطط المقريزي ، جـ١ ص ٣٥٤ ، وتنيس جزيرة قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط . انظر ياقوت ، معجم البلدان جـ٢ ص ٥١ .

الفاطمي انوشتكين الدزبري الذي وجه ضربات قوية لحسان في فلسطين . ثم تمكن حسان من استمالة الوزير الفاطمي الحسن بن صالح الروذباري وأعدت مؤامرة تم فيها القبض على انوشتكين الدزبري بعسقلان سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م ، وبذلك خلا الجو لحسان في جنوب الشام[١] . على أن الظروف تغيرت بعد ذلك لصالح الفاطميين . فقد استمر سنان بن عليان الكلبي في غاراته وحصاره لدمشق حتى توفي سنة ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م وخلفه في زعامة قبيلة كلب ابن اخيه رافع بن أبي الليل بن عليان فدخل بقبيلته في طاعة الظاهر الفاطمي الذي أوكل اليه قتال بني الجراح وبني كلاب حلفاء عمه بالأمس ، وبذلك انفرط عقد التحالف بين قبائل الشام الرئيسية[٢] .

وفي مصر تقلد الوزارة علي بن أحمد الجرجرائي ، فأعاد انوشتكين الدزبري إلى ولاية الشام سنة ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م وجهزه على رأس حملة عسكرية بلغ عدد أفرادها حوالي سبعة آلاف فارس ، وأمر الجرجرائي رافع بن ابي الليل زعيم كلب وبعض بطون قبيلة فزارة بالانضمام إلى حملة انوشتكين الدزبري ، وسار الجميع إلى الشام . وتمكنت هذه الحملة بقيادة انوشتكين الدزبري من هزيمة قوات طيء وكلاب مجتمعة في معركة الاقحوانة في ربيع الثاني سنة ٤٢٠هـ/ ابريل ١٠٢٩م . وقتل صالح بن مرداس وابنه ، وحمل رأسه إلى القاهرة ،

---

(١) المقريزي ، المقفي ورقة ٢٢٤أ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام « محطوط » جـ ١١ ورقة ٨٦ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ص ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٧١ .

(٢) المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٧٦ ؛ امينة البيطار ، موقف امراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين ص ١٢٣ - ١٢٤ ،

Zakkar, .op. cit. p. 100.

وبذلك استعاد الفاطميون سيطرتهم على المناطق الجنوبية والوسطى من بلاد الشام[1] .

ويمكن اعتبار معركة الاقحوانة بداية انحسار النفوذ السياسي للقبائل العربية في بلاد الشام . ففي هذه المعركة قضى على تحالف قبائل الشام الرئيسية المناهضة للفاطميين ، وفر حسان بن جراح الطائي زعيم قبيلة طيء الى الامبراطور البيزنطي ونزل في جواره وشارك في بعض الحملات البيزنطية ضد بلاد الشام ، وبالتالي انحسر نفوذ طيء عن جنوب الشام[2] . واستمال الفاطميون إلى جانبهم قبيلة كلب بزعامة رافع بن أبي الليل الذي شارك في معركة الاقحوانة وساهم في قتل صالح بن مرداس زعيم قبيلة كلاب . ومنذ ان اصطنع الظاهر الفاطمي رافع بن أبي الليل واعترف به زعيماً لقبيلته كلب ، أصبحت قبيلة كلب أصدق قبائل الشام في ولائها للفاطميين . وظل رافع بن أبي الليل وقبيلته يدينون بالطاعة والولاء للفاطميين وينفرون معهم لقمع القبائل العربية الأخرى في بلاد الشام[3] . على أن هذه السياسة التي انتهجتها قبيلة كلب كان لها أثرها في اثارة روح العصبية القبلية بين كلب اليَمنية وكلاب العدنانية مما أدى إلى تمزق قبائل الشام وتفرقها .

وهكذا قضى أنوشتكين الدزبري على حلف قبائل الشام في معركة

---

(١) المقريزي ، المقفي ، ورقة ٢٢٤ ب ؛ الذهبي ، تاريخ الإسلام جـ ١١ ، ورقة ٨٦ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ ، المقريزي اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ١٧٨ ، .Zakkar, op. cit., p. 100، الأقحوانة ، موضع بالأردن على شاطىء بحيرة طبرية ، ياقوت ، معجم البلدان جـ ١ ص ٢٣٤ .

(٢) انظر مايلي ص ٨٩ ـ ٩٠ .

(٣) أمينة البيطار ، موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين ص ١٢٥ ـ ١٣٢

الاقحوانة واضحى والياً على جنوب وأواسط الشام ، وأخذ يوطد النفوذ الفاطمي في هذه المنطقة مستعيناً في ذلك بخبرته السابقة بها وكفاءته لما عرف عنه من عدل وصلاح وحزم[١]. ولم تخضع حلب لحكم انوشتكين إذ سيطر عليها شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس ، واستعاد ملك أبيه بها سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م[٢] . وأخذ نصر يسعى جاهداً لتحسين علاقته بالخلافة الفاطمية . على أن العلاقة بين انوشتكين ونصر بن صالح أخذت في التوتر بسبب رغبة انوشتكين في ضم حلب الى ولايته ، ولذلك أرسل انوشتكين حملة اليها بقيادة رافع بن أبي الليل زعيم قبيلة كلب التقت بقوات نصر بن صالح خارج حلب . وقتل نصر في المعركة وسقطت حلب بيد انوشتكين وتسلمها في سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م ، وفر بعض أقارب نصر بكل ما في قلعة حلب من أموال وذخائر . وكان لقتل نصر بن صالح وضياع الأموال والذخائر من القلعة أسوأ الأثر في نفس الوزير الفاطمي علي بن أحمد الجرجرائي فبدأ النفور يستحكم بينه وبين انوشتكين الدزبري[٣] .

---

(١) كان انوشتكين الدزبري قد تقلد ولاية بعلبك ، ثم قيسارية ثم فلسطين قبل ولايته العامة على الشام ، انظر المقريزي ، المقفي ورقة ٢٢٤ أ ؛ الذهبي ، تاريخ الإسلام ، جـ ١٠ ورقة ٨٦ ب ؛ ابن القلانسي ص ٧١ ـ ٧٢ ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات جـ ٩ ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٣٧ ـ ٢٥٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ٩ ص ٢٣١ ؛ Zakkar, op. cit. p. 101.

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، مخطوط ، جـ ١٢ ورقة ٥٧ ب ، ٥٨ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ ، ينسب الوزير أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي إلى جرجرايا وهي قرية بالعراق .

تولى للخليفة الحاكم بعض أمور الدواوين واتهمه الحاكم بالخيانة وقطع يديه من المرفقين سنة ٤٠٤هـ ، ثم تولى ديوان النفقات سنة ٤٠٩هـ وأخيراً استوزره الظاهر =

وبعد ضم حلب سار انوشتكين إلى بالس ومنبج واستولى عليها ثم عاد الى دمشق[١] . وبذلك سيطر على معظم بلاد الشام ، ووصلت هيبته إقليم الجزيرة الفراتية ، بحيث هدد صاحب الرقة وحران شبيب بن وثاب النميري ، عندما قطع الخطبة الفاطمية واقامها للعباسيين فتراجع النميري عن ذلك خوفاً من انوشتكين[٢] . وهكذا وطد انوشتكين نفوذ الفاطميين في بلاد الشام واستقر حكمهم بها كما اوقف الخطر البيزنطي على بلاد الشام بعد أن أنزل بهم الهزيمة سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤١م[٣] .

ورغم كل الجهود التي بذلها انوشتكين لتوطيد الحكم الفاطمي في بلاد الشام ، لم ترض عنه الخلافة في القاهرة، وساءت العلاقة بينهما لعدة أسباب أهمها : جمع انوشتكين الأموال لنفسه ، واستخفافه بالوزير علي ابن أحمد الجرجرائي وعدم تنفيذ أوامره ، وقتله نصر بن صالح بن مرداس ، كما قيل انه انحرف عن مذهب الاسماعيلية في أواخر عهده[٤] . فأوعز الوزير الجرجرائي إلى جنود الخلافة بدمشق بالخروج

= الفاطمي سنة ٤١٨هـ وظل يلي الوزارة للخليفة الظاهر ولابنه المستنصر حتى توفي سنة ٤٣٦هـ ، انظر ترجمة الجرجرائي في : ابن الصيرفي ، الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٣٥ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان جـ٣ ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .

(١) المقريزي ، المقفي ورقة ٢٢٤ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ص ٤٦٥ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ١٨٣ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ٤ ص ٦٨٠ .

(٣) انظر مايلي ص ٩١ .

(٤) المقريزي ، المقفي ، ورقة ٢٢٤ ب ، ٢٢٥ أ ؛ الذهبي ، تاريخ الإسلام جـ١١ ورقة ٨٦ ب ، ٨٧ أ ؛ ابن القلانسي ص ٧٦ - ٧٧ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ٩ ص ٥٠٠ - ٥٠١ ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات جـ٨ ص ٤٢٥ - ٤٢٦ ، ابن بدران ؛ تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ٣ ص ١٥١ - ١٥٢ .

على انوشتكين فتمردوا عليه فرد على ذلك بقطع أرزاقهم فحاربوه ونهبوا خزائنه فاضطر الى الفرار من دمشق وقصد بعلبك فصد عنها ، وسار الى حماة فلم يستطع دخولها . وعقد بنو كلاب العزم على نهب ما معه فاستنجد بالمقلد بن منقذ الكناني أمير كفرطاب ، فسار إليه في ألفي رجل من قومه وذب عنه حتى دخل حلب ، وتوفي بعد دخوله إليها بفترة وجيزة وذلك سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤٢م[١] . وكان موت انوشتكين من أهم اسباب ضعف النفوذ الفاطمي في بلاد الشام قبل الغزو السلجوقي فبموته « فسد أمر الشام وزال النظام وطمعت العرب وخرجوا في نواحي الشام »[٢] .

وفي أعقاب موت انوشتكين الدزبري سار ثمال بن صالح بن مرداس سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٢م من الرحبة بجموع كلاب وانتزع حلب وقلعتها من بنجوتكين غلام الدزبري[٣] . وحصل ثمال من الخليفة المستنصر الفاطمي على الاعتراف بإمارته على حلب بعد ان تعهد للخليفة بإرسال جميع الأموال التي تركها انوشتكين في القلعة مع اتاوة سنوية عن حلب وأعمالها . بيد أن ثمالاً أنفق بعض أموال القلعة في ترميم أسوارها ، وأرسل الجزء الباقي الى المستنصر ثم تأخر في ارسال

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٦٠ ؛ ابن الأثير الكامل جـ ٩ ص ٥٠١ ، الصفدي ؛ الوافي بالوفيات جـ ٩ ص ٤٢٦ ؛ يوسف الدبس ، تاريخ سورية جـ ٣ ص ٤٦١ ؛ حمدي المناوي الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ص ٢٠٠ .

(٢) العيني ، عقد الجمان ، جـ ١١ ورقة ٧ أ ـ ب ؛ أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر جـ ٢ ص ١٦٦ .

(٣) ابن أبي الدم الحموي ، التاريخ المظفري ورقة ١٤٨ أ ـ ب ؛ ابن واصل التاريخ الصالحي ، ورقة ١٥٧ ب ، ١٥٨ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٦٠ ـ ٢٦١ ؛ ديوان ابن أبي حصينة جـ ١ ص ٣٠ ـ ٣١ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٦٩ ،

Zakkar, op. cit. pp. 138- 139.

الأتاوة سنتين ، مما أساء الى العلاقة بينه وبين الفاطميين ، وأعلن ثمال عصيانه ، فسير المستنصر اليه سنة ٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م والى دمشق ناصر الدولة بن حمدان على رأس حملة عسكرية معظم جنودها من قبيلة كلب اليمنية . ورغم استيلاء ناصر الدولة على حمص وحماة ونزوله قرب حلب، فقد هزم بسبب هطول الأمطار الغزيرة وعاد إلى دمشق(١) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه منذ أن دخلت قبيلة كلب اليمنية في طاعة الفاطميين ، وانخرط رجالها في صفوف جيوشهم ضد إمارة بني مرداس الكلابية العدنانية ازدادت روح العصبية القبيلة بين كلب وكلاب . وقد أدت مشاركة كلب في حملات الفاطميين ضد إمارة بني مرداس إلى أن يقاتل الكلابيون ببسالة فائقة ضد الفاطميين ، ليس لكراهيتهم للحكم الفاطمي فحسب ، بل لأن حملات الخلافة الفاطمية تضم في غالبيتها قبيلة كلب التي كان مجرد وصولها إلى شمال الشام ، يثير حساسية مفرطة في نفوس الكلابيين ، ويمكن ايجاد شواهد على هذا في شعر ابن أبي حصنية شاعر المرداسيين(٢) .

ومهما يكن من أمر ، ففي سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م حاول والي

---

(١) المقريزي ، المقفي ورقة ٢٩١ ب ، ٢٩٢ أ ؛ العيني عقد الجمان ، جـ ١١ ورقة ١٤٨ أ ـ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٦٥ ، خطط المقريزي جـ ١ ص ٣٥٥ ؛ Zakkar, op, cit., pp. 141- 142.

(٢) يقول ابن أبي حصينة من قصيدة نظمها على لسان الأمير المرداسي ثمال بن صالح في أعقاب حملة ناصر الدولة بن حمدان على حلب :

فما رعت حقنا كلب ولا حفظت ... لنا الصنيعة قحطان ولا أدد
واطعمتكم حماة في ممالكنا ... والمطمع السوء مقرون به الحسد

ديوان ابن ابي حصينة ، جـ ١ ص ١٥٩ ـ ١٦٤ ؛ انظر نص القصيدة في الملاحق .

حمص الفاطمي جعفر بن كليد مضايقة حلب ، فقتله المرداسيون وسقطت حمص وحماة بيد ثمال المرداسي وازداد نفوذه في شمال الشام[1] . وحاول المستنصر توطيد حكم الفاطميين في بلاد الشام وعقد العزم على القضاء على ثمال بن صالح ، فجهز سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م حملة ضخمة بلغ عدد أفرادها ثلاثين ألفاً معظمهم من قبائل كلب وفزارة وطيء بقيادة رفق الخادم . وسارت الحملة حتى وصلت دمشق وقبض رفق الخادم على ناصر الدولة بن حمدان لاخفاقه في استعادة حلب . ثم سار رفق قاصداً حلب ، فلما وصلها خرج لقتاله أهل حلب وبنو كلاب بقيادة ثمال ، وأنزلوا الهزيمة بالجيش الفاطمي ، وأسروا قائده رفق الخادم مع أعداد كبيرة من أصحابه ، وتوفي رفق متأثراً بجراحه ، وأرسل ثمال كل من بقي من أصحاب رفق مقيدين إلى مصر[2] .

وشعر ثمال بن صالح أن الخليفة المستنصر لن يسكت على تلك الهزائم التي ألحقها المرداسيون بجيوشه وأنه سوف يتعرض لحملات أشد وأعنف قد تنهي حكمه في حلب لذلك قرر التقرب إلى المستنصر فأرسل سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م ولده وثابا وزوجته الى مصر ومعهما الكثير من الهدايا والتحف الفاخرة وأربعين ألف دينار . ووصلا القاهرة واستقبلهما المستنصر واكرمهما . وكتب لزوجة ثمال توقيعاً لزوجها بولاية حلب ،

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٦٥ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ٢٠١ - ٢٠٢ ،

Zakkar, op. cit. p. 142.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ ؛ ناصري خسرو ، سفرنامه ص ١١٣ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٠٢ و ٢٠٩ ؛ خطط المقريزي جـ ١ ص ٣٥٥ - ٣٥٦ ،

Zakkar, op. cit., pp. 143- 144.

وأرسل معها الكثير من الخلع لثمال ولبني عمه ، وبذلك تحسنت العلاقات بين المستنصر والمرداسيين الى حين[١] .

ويبدو أن الخلافة الفاطمية لم تدرك أثر روح العصبية القبلية المستحكمة بين قبيلة كلاب العدنانية وقبيلة كلب القحطانية ، فواصلت استعانتها دائماً بقبيلة كلب في حروبها ضد الإمارة المرداسية . والخلافة بهذه السياسة تدفع كلاب إلى التشبث باستقلالها والى العصيان الدائم على الخلافة . وقد أدرك هذه السياسة المؤيد في الدين داعي الدعاة الفاطمي عندما خرج من القاهرة سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م مجهزاً بالأموال الطائلة لدعم حركة البساسيري ضد الخلافة العباسية . وكانت أوامر الوزير الفاطمي اليازوري للمؤيد في الدين أن يصطحب معه قوة كلبية قدرها ثلاثة آلاف رجل لحراسة الأموال التي معه أثناء سيره إلى ديار كلاب في شمال الشام لنيل دعم ثمال المرداسي وغيره من أمراء الجزيرة لحركة البساسيري . وقد تجاهل المؤيد أوامر الوزير اليازوري المشددة في أصطحاب كلب معه لمعرفته أن هذه الخطوة ستؤدي الى نفور ثمال ابن صالح ووحشته عندما تطأ كلب أرض قبيلته ، وما ينجم عن ذلك من خطر محقق على مهمة المؤيد ذاتها . فقد جاء في سيرة المؤيد في الدين قوله[٢]: «وسرت في جلبة عظيمة. . . وكان الناس يتعجبون ويحكمون بأن المال المحمول في صحبتي مال كتب الله عليه الضياع فهو من دون وصوله إلى حلب يتخطف . . . فكان فيما مثل لي أنني

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ ؛ ناصري خسرو ، سفرنامه ص ١١٣ ـ ١١٤ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص ٢١٣ ،

Zakkar, op. cit., pp. 147- 148.

(٢) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

استتبع ثلاثة آلاف رجل من الكلبيين أطأ بهم بلاد ابن صالح فحدثتني نفسي بمنافاته للصواب » . واجتمع المؤيد بوالي صور ابن أبي عقيل وعرض عليه أوامر الوزير في اصطحاب كلب إلى شمال الشام ، فرأى نفس رأي المؤيد في خطورة ذهاب كلب إلى شمال الشام . وقد أرسل المؤيد إلى ثمال يخبره أنه لن ينفذ أوامر الوزير في اصطحاب كلب إلى دياره . ثم أرسل المؤيد إلى الوزير اليازودري يخبره بأنه « غير مستتبع أحداً من الكلبيين . . . فقامت قيامته في هذا الباب وكاتبني يحذرني من تبديد قوله فلم يجد كلامه مني أذناً سمعية ولا نفساً مطيعة » . وشرح المؤيد خطورة مجيء كلب الى ديار كلاب بأن ذلك قد يثير روح العصبية القبلية بين القبيلتين فتندلع الحرب بينهما ، مما يهدد جهود الخلافة في مساعدة البساسيري للتصدي للزحف التركماني السلجوقي على بلاد الشام والعراق ، وفي ذلك يقول المؤيد « ولقد شققت العصا بالخلاف عليه . . . أخشى أكل لحمي ونهش عظمي في سقيفة كلب وكلاب قبل دخول دار ترك وتركمان »[1] .

ظل ثمال يحكم حلب حتى سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م حين طرأت ظروف قاسية جعلت استمراره في حكم حلب في غاية الصعوبة . وأهم تلك الظروف حركة البساسيري في العراق بدعم الفاطميين واتخاذه الرحبة ـ التابعة للإمارة المرداسية ـ قاعدة لأعماله الحربية ، واضطراب بني كلاب على ثمال طامعين في المزيد من الأموال التي بحوزته ، وانتشار القحط في منطقة حلب[2] . ودفعت هذه العوامل مجتمعة ثمالاً

---

(١) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ص ١٠١ ـ ١٠٧ .

(٢) انظر ابن العديم زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٧٠ ، ٢٧٣ ؛ الذهبي العبر في خبر من غبر ، جـ ٣ ص ٢١٨ .

إلى مكاتبة الخليفة المستنصر . وتنازل له عن حلب وأرسل المستنصر الحسن بن ملهم وقاضي صور فتسلما حلب من ثمال سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م[١] وعوض المستنصر ثمالاً بدلاً عن حلب مناطق ساحلية من بلاد الشام شملت مدن عكا وبيروت وجبيل[٢] .

وحدث أنه بعدما تسلم الفاطميون مدينة حلب ، استقر عطية بن صالح (شقيق ثمال) في مدينة الرحبة ، وقرر مناهضة الفاطميين . وأقام الخطبة للعباسيين فقرر الفاطميون سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م إرسال حملة لاخضاعه معظم جنودها من قبيلة كلب ، فاتصل زعماء كلاب بالقائد الفاطمي الحسن بن ملهم وقالوا له : « قد بلغنا مجيء كلب إلى ها هنا لأجل عطية والرحبة ، ونحن نعطيكم رهائن ونكفيكم أمر عطية والرحبة ، من غير أن تطأ بنو كلب ديارنا ومتى فعلتم ذلك أخرجتمونا الى العصيان » . ويتضح من هذا النص أن قبيلة كلاب قبلت بأن تحارب عطية ومن معه من بني كلاب في الرحبة في سبيل عدم دخول كلب بلادها . ولما لم يستجب القائد الفاطمي لطلب زعماء كلاب استدعوا عطية من الرحبة وأمروه عليهم وساروا جميعاً فاستولوا على حمص وحماة وهما من أملاك بني كلب ، واضطر الفاطميون الى استعطاف عطية حتى تخلى عن حمص وحماة[٣] .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٣٥ ؛ القلقشندي ، مآثر الأنافة في معالم الخلافة ، جـ ١ ص ٣٤٤ ؛

Zakkar, op. cit., pp. 148- 154.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٧٤ ؛ صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ص ١٥ ـ ١٦ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ ١٢ ورقة ١٨٤ ب ـ ١٨٥ أ ،

Zakkar, op. cit., pp. 157- 158.

أما حلب فقد ظلت خاضعة للفاطميين ثلاث سنوات فقط إذ حدث سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م أن شن بنو كلاب بقيادة محمود بن نصر هجوماً على حلب ولم يتمكن الوالي الفاطمي الحسن بن ملهم من مقاومته بعد أن ثار الأحداث بحلب تأييداً لمحمود بن نصر وفتحوا له أبواب حلب فدخلها مع قبيلته واعتصم ابن ملهم بالقلعة ، وأرسل الى المستنصر طالباً النجدة . فأمر الخليفة الفاطمي واليه على دمشق ناصر الدولة بن حمدان بالمسير لنجدة ابن ملهم . وسار ابن حمدان مصطحباً جموع طيء وكلب . وبعد مناوشات بين الطرفين التقت قوات محمود المرداسي بناصر الدولة بن حمدان بالفنيدق[1] ، وانسحبت طيء وكلب من جيش الفاطميين ، فحلت الهزيمة بمن بقي مع والي دمشق ، ووقع ناصر الدولة في الأسر . وتقدم محمود بن نصر ودخل حلب واستولى على القلعة . وبذلك عادت الإمارة المرداسية من جديد الى حلب[2] .

لم يكد يستقر محمود بن نصر في إمارته بحلب حتى عزل الخليفة المستنصر عمه ثمالاً عن عكا وبيروت وجبيل ، وجهزه على رأس حملة عسكرية لاستعادة حلب من ابن أخيه[3] . فسار ثمال إلى الشام واستمال إليه بعض عشائر بني كلاب ، واستعاد حلب من ابن أخيه محمود سنة

---

(١) الفنيدق من أعمال حلب على مسافة خمسة فراسخ ، انظر ياقوت ، معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٧٨ .

(٢) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ، ورقة ١٦٢ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٧٦ - ٢٧٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ٩ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ ؛ ديوان ابن أبي حصينة جـ ١ ص ٣٥٣ ؛

Zakkar, op. cit., pp. 156- 160.

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٨١ ؛ صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ص ١٦ .

٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م . بيد أن ثمالاً لم يلبث أن توفي في العام التالي وخلفه في إمارة حلب بناء على وصيته أخوه عطية بن صالح . غير أن محموداً قام ينازع عمه عطية على الإمارة وأيدته في ذلك قبيلة كلاب. وبعد معارك طويلة بين الاثنين نجح محمود في الاستيلاء على حلب وصالح عمه عطيه على اعطائه الرحبة والرقة وبالس ومنبج وذلك في سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م(١) .

أخذ محمود بن نصر يسعى جاهداً لتدعيم إمارته في حلب ، وحصل من الخلافة الفاطمية على الاعتراف به أميراً عليها(٢) . على أن علاقته بالفاطميين ما لبثت أن تدهورت عندما بعث إليه الخليفة المستنصر سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م يأمره بإرسال المال المقرر عليه إلى القاهرة ، وشن الهجوم على الروم وطرد التركمان من منطقة حلب . فرد محمود بأنه عاجز عن تسديد ما عليه من أموال ، ومن غير المعقول أن يحارب الروم بعدما عقد الهدنة معهم واعطاهم ولده رهينة مقابل أموال اقترضها منهم . وأوضح في رده أنه لا يقوى على طرد التركمان من بلاده بعدما أصبحوا أكبر قوة منه ، وأبدى استعداده في مساعدة الخلافة إذا ما أرسلت جيشاً إلى حلب لطرد التركان . وبعد أن وصل رد محمود بن نصر المرداسي إلى الخليفة المستنصر أمر واليه على دمشق بدر الجمالي أن يزحف على حلب لقتال محمود ، ولكن بدراً لم يتمكن من ذلك بسبب اضطراب الأمور في دمشق وجنوب الشام ، فضلاً عن عجز الخلافة عن

---

(١) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ورقة ١٩٢ أ ـ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٨١ ـ ١٩٤ ؛ القلقشندي مآثر الأنافة في معالم الخلافة جـ ١ ص ٣٤٤ ؛
Zakkar, op. cit., pp. 156- 160.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٩ .

إرسال أية مساعدة له من جراء الشدة المستنصرية ، وهذا ما دفع بدراً الجمالي الى قبول وساطة ابن عمار قاضي طرابلس بينه وبين محمود المرداسي[١] .

وفي وسط الشام وجنوبه أخذ النفوذ الفاطمي يتدهور تدريجياً ، حيث تعاقب على حكم دمشق خلال الفترة من ٤٣٣ - ٤٦٠ هـ / ١٠٤١ - ١٠٦٧ م ثلاثة عشر والياً ، لم يستطع أي منهم توطيد الأمن والنظام في هذه المناطق ، حتى أن بدراً الجمالي المعروف بقدرته وكفايته عجز عن ضبط الأمور بدمشق عندما عهد إليه بولايتها سنة ٤٥٥ هـ /١٠٦٣ م فتمردت عليه فخرج منها هارباً في السنة التالية[٢] .

ومما زاد الأمور سوءاً وتدهوراً في بلاد الشام في هذه الفترة ما حل بمصر من كارثة اقتصادية بدأت في سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م واستمرت سبع سنوات وهي التي عرفت في التاريخ باسم الشدة المستنصرية ،

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٣١ ب ، ٢٣٢ أ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٧٩ ،

Zakkar, op. cit. pp. 170 - 171 .

وكان بدر الجمالي مملوكاً ارمنياً لجمال الدولة أبي الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس تميز بقوة العزيمة والاخلاص في العمل حتى اسند اليه الخليفة المستنصر ولاية دمشق ثم ولاية الشام . ولما استفحلت الشدة المستنصرية وكثرت ثورات الجند وتمرد القادة على الخليفة المستنصر بعث إلى بدر الجمالي ببلاد الشام طالباً قدومه لنجدته . وسار من الشام إلى مصر ومعه اعداد كبيرة من الجنود الأرمن وتمكن من اخماد الفتن في مصر واستبد بالحكم دون المستنصر . انظر المقريزي : المقفي ورقة ٢٤٢ أ - ب ، ٢٤٣ أ - ب ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٤٨ - ٤٥٠ .

(٢) المقريزي ، المقفي ورقة ٢٤٢ أ - ب ؛ ابن القلانسي ص ٩١ - ٩٢ ، واورد ابن القلانسي (ذيل تاريخ دمشق ، ص ٨٣ - ٩٤) ثبتاً باسماء الولاة وسني حكم كل منهم .

نتيجة ضعف الخلافة الفاطمية وثورات الجند والأمراء وقصور النيل مما أدى الى انتشار المجاعة بعد أن تعطلت الزراعة وانعدمت الأقوات[1] . ومما لا شك فيه أن هذه الشدة ألقت بظلالها وآثارها على بلاد الشام ، فالأموال التي كانت ترسلها الخلافة الى زعماء القبائل العربية في بلاد الشام وخصوصاً زعماء كلب وطيء لضمان ولائهم وكف أيديهم عن مدن الشام انقطعت . وترتب على ذلك عودة هذه القبائل لشن غاراتها المدمرة على مناطق الشام المختلفة ، فعبثت قبائل طيء وغيرها في المناطق الحضرية بفلسطين وأغار بنو كلب بزعامة مسمار بن سنان الكلبي على دمشق وما حولها ونهبوا غلاتها ونشروا الخراب والدمار في منطقة دمشق بكاملها[2] .

وحاولت الخلافة الفاطمية انقاذ ما يمكن انقاذه من نفوذها على بلاد الشام فعينت بدراً الجمالي والياً على دمشق وسائر الشام للمرة الثانية سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م . وسار بدر بجيش كبير ، وقتل بعض زعماء القبائل الذين نشروا الفوضى والاضطراب في جنوب الشام « ثم سار يشق حلل العرب كلب وطيء وغيرهما شقا وفعل فعلا لم يسبقه اليه أحد حتى وصل إلى دمشق » . ورغم الهدوء الذي خيم على دمشق عقب وصول بدر اليها فإنه لم يستطع التوفيق بين القوى المتنازعة داخل دمشق ، فقبض على بعض أعيان دمشق ، وفرض عليهم عشرة آلاف دينار . واندلعت الفتنة في دمشق ضد بدر ، واستعان الدمشقيون بمسار بن سنان الكلبي زعيم

---

(١) عن الشدة المستنصرية ، انظر سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٢ ؛ ورقة ٢٤٧ أ ـ ب ؛ المقريزي ، اغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٢٣ ـ ٢٦ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٧٩ ـ ٣٠٠ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٢ ، ورقة ٢٢٣ أ ـ ب .

قبيلة كلب . مما اجبر أمير الجيوش على الانسحاب من دمشق وسار الى صور فحاصرها وأخفق في الاستيلاء عليها من القاضي عين الدولة بن أبي عقيل ، ثم عاد بدر الجمالي الى فلسطين ، وجمع عشائر طيء، وهاجم دمشق مرة أخرى ففشل أمامها مما اضطره إلى الذهاب إلى عكا سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م[١] .

وزاد من تدهور أوضاع دمشق ما وقع من خلاف بين جنود الحامية الفاطمية وبين سكان دمشق في سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م ونشب القتال بين الجانبين ، وقام جنود الحامية بعمليات النهب ، وانتهى الأمر بإشعال النار في بعض أحياء دمشق ، وامتد الحريق الى الجامع الأموي ، ودمره تدميراً شاملاً بحيث لم يبق منه إلا جدرانه الأربعة[٢] . وظلت دمشق تعاني مما أصابها حتى تغلب عليها معلى بن حيدرة بن منزو الكتامي سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م من غير أن يعهد إليه بولايتها من قبل الخلافة الفاطمية . وانتهج فيها سياسة بالغة القسوة فعامل السكان معاملة سيئة ، وصادر أموالهم ، واستولى على غلات الفلاحين وفرض عليهم الأتاوات الباهظة مما أجبر الكثير من مزارعي دمشق على الفرار وترك حقولهم لما عانوه من بطشه وقهره[٣] .

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ١٢ ورقة ٢٤٣ ب ، ٢٤٤ أ ، ٢٤٥ أ ؛ انظر ايضاً : المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص ٢٧٢ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ١٢ ص ٢٤٥ أ ـ ب ؛ النويري نهاية الأرب جـ٢١ ورقة ١١٨ ؛ الشريف الجنابي ، البر الزاخر ، ورقة ١٠٧ أ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية جـ١٢ ص ٩٨ .

(٣) خليل ابن أيبك الصفدي ، تحفة ذوي الألباب ، ورقة ١٣٥ أ ؛ ابن القلانسي ص ٩٥ ـ ٩٦ .

وأخذ النفوذ الفاطمي في الانحسار عن بلاد الشام . ففي سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م طرد نواب أمير الجيوش بدر الجمالي من دمشق واستقل بصور ابن أبي عقيل . وفي طرابلس تغلب عليها قاضيها أبو طالب بن عمار وسيطر على الرملة والساحل ناصر الدولة بن حمدان القائد الفاطمي الخارج على الخليفة المستنصر « ولم يبق لأمير الجيوش غير عكا وصيدا »[٣] .

اعتداءات جيوش الدولة البيزنطية على مدن شمال الشام

ولما كانت الدولة البيزنطية تمر بمرحلة صحوة في الربع الأول من القرن الحادي عشر الميلادي فقد كان من الطبيعي أن تنتهز فرصة ضعف النفوذ الفاطمي في بلاد الشام وتفرق القبائل العربية وتمزقها لتشن الاغارات المتكررة على مدن بلاد الشام . ومن المعروف ان بلاد الشام لم تتعرض خلال العشرين سنة الأولى من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي لأي هجوم بيزنطي كبير ، فقد تحسنت العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين حتى انه في سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م عقدت هدنة بين الامبراطور البيزنطي قسطنطين الثامن والخليفة الفاطمي الظاهر ، تعهد الامبراطور بموجبها بالسماح بذكر اسم الخليفة الفاطمي في خطبة الجمعة في جميع الجوامع الواقعة داخل الأراضي البيزنطية . وتعهّد الظاهر بالسماح للبيزنطيين بإعادة بناء كنيسة القيامة التي تعرضت للتخريب ايام الخليفة الحاكم ، والتسامح مع المسيحيين الذين اضطهدوا

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ١٢ ورقة ٢٤٦ أ .

في أواخر عصر الحاكم[1] .

بعد مقتل صالح بن مرداس في معركة الاقحوانة سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م قرر الحاكم البيزنطي في انطاكية ميخائيل المعروف بالاسبنديلس Spondyles مهاجمة حلب دون أن يتلقى أمراً من الامبراطور رومانوس الثالث (Romanus III) ، معتقداً سهولة ضمها بعد مقتل اميرها المسلم واندحار قواته ، ولما هاجم حاكم انطاكية حصن قيبار[2] من أعمال حلب ، خرج إليه نصر بن صالح المرداسي الذي استعاد ملك أبيه بحلب وانزل به هزيمة ساحقة في جمادى الآخرة ٤٢٠هـ/ اكتوبر ١٠٢٩م[3] .

على أنه بعد هذه المعركة وقع النزاع بين نصر بن صالح وأخيه ثمال على حكم امارة حلب فأرسل نصر إلى الامبراطور البيزنـطي رومانوس الثالث يطلب مساعدته ، فقرر الامبراطور استغلال النزاع بين الأخوين للاستيلاء على حلب ، وقام على رأس حملة ضخمة قاصداً حلب سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م . وتوسط زعماء قبيلة كلاب بين نصر وثمال واصلحوا بينهما على أن تكون حلب لنصر ، ولثمال بالس والرحبة . وارسل نصر ابن عمه مقلد بن كامل بن مرداس إلى الامبراطور البيزنطي طالباً منه وقف زحفه نحو حلب مقابل تعهد نصر بن صالح بدفع الاتاوة التي كان يؤديها خلفاء سيف الدولة للبيزنطيين . واعتقل رومانوس الثالث

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٧٦ ، خطط المقريزي ، جـ ١ ص ٣٥٥ .
The Cambridge Medieval History. vol. IV. p. 726.

(٢) قيبار : حصن بين انطاكية والثغور . انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٣٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٢٣١ ؛ ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ ، الباز العريني ، الدولة البيزنطية ص.٧٧٨ ؛ Zakkar, op. cit, o. 109, The Cambridge Medieval History, Vol. IV.p. 725.

مقلد بن كامل ، وقرر المضي قدماً في حملته[١] . وفي الحقيقة لم يعد هناك سبب جوهري للقيام بهذه الحملة بعد ان تعهد أمير حلب بدفع الاتاوة للامبراطور ، ولم يكن هناك مبرر لهذه الحملة سوى حرص الامبراطور على أن يذيع اسمه وشهرته باحراز نصر في الشرق مثلما ذاع اسم نقفور فوقاس (Nicephorus II phocas) وحنازيمسكيس (John Tzimiscps) وباسيل[٢] (Basil) وكان عسكر الامبراطور البيزنطي يضم عناصر مختلفة من الروس والأرمن والبلغار ، والبجناك ، والخزر[٣] . ونزل على تبل من بلاد اعزاز في الشمال الشرقي من حلب ، وحفر حول معسكره خندقاً لحمايته[٤] . بيد ان توقيت المعركة لم يكن لصالح الامبراطور حيث كان الزمان صيفاً شديد الحر[٥] وتمكن نصر بن صالح من جمع عشرة آلاف مقاتل من العرب ومناطق شمالي الشام[٦] وأخذ يناوش جيش الامبراطور البيزنطي في الوقت الذي كان فيه قائد رومانوس يدبر مؤامرة ضد سيده[٧] . وارسل الامبراطور سرية للاستكشاف ويبدو انها ضلت الطريق وفاجأها المسلمون فانهارت بذلك

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ؛

Zakkar, op. cit. p. 115.

(٢) العريني ، الدولة البيزنطية ص ٧٧٨ ،

Zakkar, op. cit. pp. 115- 116.

(٣) ابن ابي الدم الحموي ، التاريخ المظفري ، ورقة ١٤٥ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٤٠ ؛ ابن الوردي ، تتمة المختصر ، جـ ١ ص ٥١٥ ـ ٥١٦ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٤٠ ، تبل من قرى حلب من ناحية عزاز ، انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

(٥) ابن الأثير ، الكامل جـ ٩ ص ٤٠٤ .

(٦) الحميري ، الروض المعطار ص ١٩٧ .

(٧) ابن الأثير ، الكامل جـ ٩ ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

الخطط الحربية واضطرب جيش الامبراطور البيزنطي وحاول الانسحاب إلى انطاكية ، وتحول الانسحاب إلى هزيمة ساحقة . واندفع المسلمون في جرأة وبسالة يحاولون تطويق معسكر الامبراطور ويقطعون عنه الماء والمؤن وانهارت الروح المعنوية لدى البيزنطيين وولوا الأدبار . وأسر المسلمون اعداداً كبيرة منهم وذلك في شعبان سنة ٤٢١هـ/ اغسطس ١٠٣٠م(١) . وقد هام الامبراطور البيزنطي رومانوس الثالث على وجهه ونزع خفه حتى لا يعرف ، وتمكن من النجاة عائداً إلى بيزنطة(٢) . ووقع في ايدي المسلمين غنائم لا تحصى من الأسلحة والأموال والمؤن والدواب حيث ترك جنود الامبراطور معظم ما كانوا يحملون من أمتعة وذخائر(٣) .

بعد اخفاق الامبراطور رومانوس الثالث في حملته على حلب سعى نقيطا Nicates حاكم انطاكية لترميم ما أصاب النفوذ البيزنطي في بلاد الشام من انهيار . فشن في سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م غارات سريعة على اعمال حلب واستولى على حصن المنيقة وهاجم رفنية ودخلها وسبى

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٤١ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ٩ ص ٤٠٥ ؛ ديوان ابن ابي حصينة جـ١ ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ ؛ الروض المعطار ، ص ١٩٧ ، الباز العريني ، الدولة البيزنطية ص ٧٧٩ ـ ٧٨١ ؛

The Cambridge Medieval History Vol. IV, P. 725,

Zakkar, op. cit. pp. 116 - 117 .

(٢) يشير ابن العديم إلى أن رومانوس نزع خفه الأحمر ولبس خفاً اسود حتى لا يعرفه احد . انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ص ٢٤٢ .

(٣) ابن ابي الدم الحموي ، التاريخ المظفري ، ورقة ١٤٥ ب ـ ١٤٦ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ٩ ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥ ؛ الحميري ، الروض المعطار ص ١٩٧ ؛ يوسف الدبس ، تاريخ سورية جـ٣ ص المجلد الخامس ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧ .

الكثير من سكانها ، وهدم اجزاء من سورها[1] . وعاد في العام التالي ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م واستولى على حصنين في منطقة حلب هما حصن بني غناج وحصن بني الأحمر مما دفع نصر بن صالح بن مرداس لمراسلته واستمالته وطلب منه التوسط لتسوية النزاع بينه وبين الامبراطور . وعقد الصلح بين الجانبين ، وتعهد نصر بموجبه بأن يدفع للامبراطور سنوياً نصف مليون درهم، واطلق رومانوس الثالث سراح مقلد بن كامل بن مرداس رسول نصر، وأعطاه صليباً من ذهب كعنوان امان لنصر ، ووفاء لما تم بينهما من شروط[2] . ولا شك أن الدافع لنصر المرداسي لعقد هذا الصلح وارتباطه ببيزنطة هو أن نصراً توقع هجوماً فاطمياً لم يكن في مقدوره الوقوف في وجهه ولم يجد بداً من البحث عن حليف يشد من أزره ، ويقف بجانبه إذا ما تعرضت حلب لخطر الجيوش الفاطمية بقيادة والي الشام انوشتكين الدزبري . ومما يبرهن على صحة هذا القول أن انوشتكين عندما قرر مهاجمة حلب سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م لم يجرؤ على تنفيذ قراره إلا بعد ان ارسل إلى الامبراطور البيزنطي ميخائيل الرابع يستأذنه في فتح حلب مقابل تعهد انوشتكين بأن يؤدي ما كان مقرراً من المال على امير حلب ، فاستجاب الامبراطور لطلبه[3] .

ولم تتوقف أطماع البيزنطيين عند منطقة حلب فحسب ، بل امتدت إلى الرها الواقعة على أطراف الفرات الشمالية لما تمثله الرها من موقع هام يمكن اتخاذه قاعدة للسيطرة على الجزيرة والشام فضلاً عن الأهمية الروحية للرها في نفوس المسيحيين . وكانت الرها

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٤٦ ؛ العريني ، الدولة البيزنطية ص ٧٨٣ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ؛ العريني ، الدولة البيزنطية ص ٧٨٣ ، Zakkar, op. cit.p. 118.

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

خاضعة للأمير عطير شيخ بني نمير حتى سنة ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م ، عندما ثار سكان الرها عَلى عطير لسوء سيرته وسلموا المدينة لنصر الدولة بن مروان امير ميافارقين وديار بكر . واستغاث عطير بصالح بن مرداس فتوسط صالح لدى ابن مروان فأعاد لعطير نصف الرها ثم قُتِلَ عطير ، وبسط ابن مروان نفوذه على الرها . بيد أن صالح بن مرداس تدخل مرة أخرى لدى ابن مروان فأعاد الأخير نصف الرها إلى بني نمير وكان بها برجان تسلم ابن عطير احدهما وتسلم الآخر ابن شبل الكلابي الذي يدين بالولاء لنصر الدولة بن مروان[١] . وفي سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م ارتكب ابن عطير عملاً مشيناً عندما راسل الامبراطور البيزنطي رومانوس الثالث وباعه حصته من الرها بعشرين ألف دينار . وقدم البيزنطيون وتسلموا البرج من ابن عطير ودخلوا المدينة فانتشر الذعر بين اتباع نائب نصر الدولة المرواني وفروا من المدينة . وحاول ابن مروان استعادة الرها إلا أنه اخفق بسبب وصول الامدادات البيزنطية إلى الرها[٢] .

وزاد تدخل الدولة البيزنطية في شؤون بلاد الشام بعد هزيمة القبائل العربية في معركة الأقحوانة ، فبعد هذه المعركة الهامة ارسل الامبراطور البيزنطي رومانوس الثالث إلى حسان بن المفرج وقومه طيء وبعض زعماء كلب طالباً منهم اللجوء إلى الأراضي البيزنطية فنزلوا انطاكية . وسافر علان بن حسان الطائي إلى القسطنينية فأكرمه رومانوس وعينه بطريقاً واعاده

---

(١) النويري ، نهاية الأرب ، مخطوط احمد الثالث ، جـ٢١ص ١٠٦ أ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ ؛ ابو الفدا ، المختصر في أخبار البشر جـ ٢ ص ١٥٧ ـ ١٥٨ ؛ العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ٧٨٣ ـ ٧٨٤ .

(٢) النويري ، نهاية الارب ، جـ٢١ورقة ١٠٦ أ ـ ب ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ٩ ص ٤١٣ ؛ ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر جـ ٢ ص ١٥٨ ؛ العريني ، الدولة البيزنطية ص ٧٨٤ ؛ يوسف الدبس ، تاريخ سورية جـ ٣ ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧ .

إلى ابيه حسان في انطاكية[1] . وانتهج الامبراطور البيزنطي سياسة التدخل في شؤون بلاد الشام باستخدامه لشيوخ القبائل الخارجين على سلطة الخلافة الفاطمية ، خصوصاً بعد فشل محاولات آل جراح في إقامة إمارة خاصة بهم في جنوب الشام . ويبدو ان الامبراطور البيزنطي كان يهدف من استضافة هؤلاء الزعماء إلى استخدامهم في شن الغارات على بلاد الشام والجزيرة ومساعدة الحملات البيزنطية في بلاد الشام . ففي سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م ارسل الامبراطور حسان بن المفرج على رأس حملة إلى الشام وصل بها افامية ، واستولى عليها لحساب البيزنطيين[2] . وفي سنة ٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م استخدم الامبراطور البيزنطي رومانوس الثالث ابن وثاب النميري في شن هجوم كبير على أراضي الامارة المروانية في ميافارقين وديار بكر. وتمكن ابن مروان من صد الهجوم عن بلاده. وأعقب ابن مروان انتصاره على البيزنطيين وحلفائهم النميريين بمحاولة استعادة الرها مستعيناً في ذلك ببعض عرب الجزيرة . وضرب الحصار حول الرها فأرسل البيزنطيون جيشاً لنجدة الرها بقيادة حسان بن المفرج الطائي وتمكن حسان من فك الحصار عن الرها لتظل خاضعة للبيزنطيين[3] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل جـ ٩ ص ٤٢٠ ؛ ابو الفدا ، المختصر ، جـ ٢ ص ١٥٨ ؛ محمد كرد علي ، خطط الشام جـ ١ ص ٢٢٤ ؛ الباز العريني ص ٧٨٢ ؛

The Cambridge Medieval History, Vol. IV, p. 725; Zakkar, op. cit. p. 119.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٤٢٠ ؛ ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر جـ ٢ ص ١٥٨ ؛ محمد كرد علي ، خطط الشام جـ ١ ص ٢٢٤ .

افامية : مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كوز حمص . انظر معجم البلدان جـ ١ ص ٢٢٧ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٤٦٠ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٨٧ ؛ ديوان ابن حيوس جـ ١ ص ٧ ؛ الحنبلي ، الأنس الجليل جـ ١ ص ٣٠٣ .

استمرت حملات البيزنطيين على أطراف الشام الشمالية ، حتى وقعت الهدنة بين الخليفة المستنصر الفاطمي وبين الامبراطور البيزنطي ميخائيل الرابع سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م[١] . غير أنه لم تلبث أن ساءت العلاقات بين الوالي الفاطمي على الشام أنوشتكين الدزبري وبين البيزنطيين ، عندما جرت المراسلة بين ثمال بن صالح بن مرداس وبين البيزنطيين . فقد سعى ثمال إلى الحصول على مساعدة البيزنطيين للمحافظة على إمارته التي انتقلت إلى الرقة[٢] ، بعد استيلاء انوشتكين الدزبري على حلب . وحاول البيزنطيون خلال تلك المفاوضات شراء الرقة من ثمال كما فعلوا مع ابن عطير بالرها . وعندما علم انوشتكين بتلك المفاوضات أرسل تهديداً شديداً لثمال بن صالح فرد يعتذر وينفي اتصاله بالبيزنطيين . وفي الوقت نفسه هاجم بعض عرب كلاب أفامية الخاضعة للبيزنطيين ، ونهبوا اعمالها فخرجت اليهم الحامية البيزنطية وهزمتهم ، فرد على ذلك نائب انوشتكين الدزبري في حلب بطرد التجار الفرنج من المدينة ، وأرسل إلى حاكم انطاكية يطلب اخراج تجار المسلمين منها ، فقرر حاكم انطاكية مهاجمة حلب . وعندما علم انوشتكين بذلك أرسل جيشاً التقى بالبيزنطيين بين حماة وافامية ، وحلت الهزيمة بالبيزنطيين سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤١م . وواصل الجيش الفاطمي زحفه على الأراضي البيزنطية حتى راسل البيزنطيون انوشتكين الدزبري

---

(١) ابن الأثير ، الكامل جـ ٩ ص ٤٦٠ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ، ص ١٨٧ ؛ ديوان ابن حيوس جـ ١ ص ٧ ؛ مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل جـ ١ ص ٣٠٣ .

(٢) الرقة مدينة مشهورة على الفرات معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي . انظر ياقوت ، معجم البلدان جـ ٣ ص ٥٨ ـ ٥٩ .

واعادوا تجديد الهدنة مع الفاطميين[١] .

وقد صاحب فترة سوء العلاقات بين ثمال بن صالح المرداسي وبين الفاطميين خلال الفترة من ٤٣٤هـ/ ١٠٤٣م حتى سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م تحسناً ملحوظاً في علاقات الامارة المرداسية مع الامبراطورية البيزنطية ، التي رغبت ـ فيما يبدو ـ في وجود دولة صغيرة في حلب تكون حاجزة بينها وبين الدولة الفاطمية ، لما يمثله وجود الفاطميين في حلب من تهديد مباشر لاملاك الدولة البيزنطية خصوصاً في المناطق التي انتزعتها من بلاد الشام مثل انطاكية والرها وافامية وشيزر واللاذقية . لذلك سعت الامبراطورة تيودورا (Theodora) إلى توطيد علاقات بلادها مع المرداسيين ، فمدت يد المساعدة لثمال بن صالح الذي حاصر حلب بعد موت انوشتكين الدزبري ، واستعاد ملك أسرته بها سنة ٤٣٤هـ/ ١٠٤٣م . وأرسلت إليه الكثير من الهدايا ، وأضفت عليه وعلى شيوخ اسرته الالقاب ، وتعهد ثمال بدفع الجزية التي كان يؤديها اخوه نصر للبيزنطيين[٢] . وظل ثمال يحافظ على علاقاته الحسنة مع البيزنطيين ويدفع لهم الأتاوة المقررة سنوياً حتى تنازل ثمال عن حلب للفاطميين سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م[٣] .

وفي سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م اثناء الأزمة الاقتصادية التي حلت

---

(١) ابن الأثير ، ، الكامل ، جـ ٩ ص ٤٩١ ـ ٤٩٢ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٨٨ ؛

Zakkar, op. cit. pp. 137- 138.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ؛

Zakkar, op. cit. p. 140.

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٦٨ ـ ٢٧٠ .

بمصر ، أرسل المستنصر الفاطمي إلى الامبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع يطلب منه تزويد مصر بأربعمائة ألف اردب قمح لمواجهة القحط الذي أصاب بلاد مصر . ووافق الامبراطور على طلب الخليفة الفاطمي . على أن الظروف تغيرت في القسطنطينية ، اذ توفي الامبراطور وتولت العرش بعده الامبراطورة تيودورا التي اشترطت على المستنصر لمده بالقمح ان يساعدها بالجند لمواجهة اي خطر يهددها داخل بلادها . ورفض المستنصر هذا الشرط واوقفت تيودورا ارسال القمح . ونشب الخلاف بين الدولتين فجهز المستنصر حملة كبيرة اسند قيادتها إلى الحسن بن ملهم ، فسار إلى الشام واستولى على اللاذقية وحاصر انطاكية ، وأحرز العديد من الانتصارات على البيزنطيين . غير أنه تعرض للهزيمة مع قواته أمام حملة بحرية أرسلها البيزنطيون سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م[١] .

وقد ازدادت العلاقات سوءاً بين البيزنطيين والفاطميين عندما استقبلت الامبراطورة تيودورا سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م مبعوث السلطان السلجوقي طغرلبك وسمحت بإقامة الخطبة للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي في جامع القسطنطينية[٢] . ولم تستطع الدولة الفاطمية القيام بأي عمر عسكري ضد بيزنطة بسبب انشغالها بالزحف السلجوقي على العراق والشام وفشل حركة البساسيري ، فضلاً عن ظروفها الاقتصادية القاسية وما صاحب كل ذلك من انحسار نفوذها عن اجزاء كبيرة من بلاد الشام .

---

(١) المقريزي ، المقفي ورقة ٢٧٠ ب ـ ٣٧١ أ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ ؛ خطط المقريزي جـ١ ص ٣٣٥ .

(٢) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص ٢٣٠ ؛ خطط المقريزي جـ١ ص ٣٣٥.

واستغل البيزنطيون بعد ذلك فترة النزاع بين ثمال بن صالح وبين ابن اخيه محمود بن نصر على امارة حلب فاستولوا على بعض الحصون القريبة من حلب وشحنوها بالجنود والمؤن[1] . وبعد ما انتهى النزاع لصالح ثمال واستعاد حلب من ابن أخيه سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م ، هاجم ثمال حصن أرتاح الخاضع للبيزنطيين في شمال شرق حلب وهزمهم واستولى على الحصن ، ثم واصل زحفه حتى مشارف انطاكية حيث صالحه البيزنطيون ودفعوا له مبلغاً من المال مقابل اعادة حصن ارتاح اليهم[2] . وظل حصن ارتاح في أيدي البيزنطيين حتى سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م عندما هاجمه هارون بن خان مقدم التركمان بالشام واستولى عليه وانزل بالبيزنطيين خسائر فادحة[3] .

وخلاصة القول ان احوال بلاد الشام ازدادت سوءاً بسبب اعتداءات البيزنطيين على بلاد الشام . واستولى البيزنطيون على انطاكية والرها وشيزر واللاذقية وافامية وغيرها . وقاست مدن شمال الشام من نهب وتخريب الحملات البيزنطية أثناء تقدمها .

غارات الاتراك الغز (التركمان) على بلاد الشام

ولا يمكن الحديث عن بلاد الشام قبيل الغزو السلجوقي دون دراسة غارات الاتراك الغز[4] (التركمان) . والحق ان هجرة التركمان

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

(٢) العيني ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٤٣ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، جـ ٣ ص ٢٩٢ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٢ ـ ١٣ .

(٤) يبدو انه كلمة الغز هي اسم الشعب التركي الذي تتفرع منه قبائل التركمان التي عبرت=

إلى العراق والشام وهضبة الاناضول ، حدث في غاية الأهمية ، حيث يعتبر نقطة تحول في تاريخ الاسلام والمسيحية . فقد ترتب على ذلك خضوع هذه المناطق للحكم السلجوقي واصبح العنصر التركي ركناً اساسياً في عناصر المجتمع الإسلامي في هذه المناطق ، كما ان التركمان نجحوا في فتح آسيا الصغرى ومن ثم التمهيد لسقوط الدولة البيزنطية وقيام الدولة العثمانية مكانها[١] .

بدأت أول هجرة للتركمان إلى أعالي الجزيرة والموصل حوالي سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م . ويستنتج من حديث ابن الأثير عنهم أنهم كانوا رعايا للدولة السلجوقية ، لكنهم لم يلتزموا بالنظام ومارسوا أعمال النهب ضد السكان في منطقة اذربيجان مما دفع ابراهيم اينال أخا السلطان السلجوقي طغرلبك الى تعقبهم ففروا من أمامه واستعانوا ببعض الأكراد من سكان المنطقة فساروا بهم في طرق وعرة حتى نفذوا الى جزيرة ابن عمر بشمال الجزيرة[٢] . ويقدر ابن الأثير أنهم كانوا يزيدون على ثلاثين ألفاً[٣] . ومن جزيرة ابن عمر سار الغز في اتجاهات مختلفة ، فجماعة منهم بقيادة بوقا وناصغلي قصدوا ديار بكر ، ونهبوا القرى في هذه

= أواسط آسيا المعروفة بصحراء التركمان الواقعة بين بحر ارال وبحر قزوين فضلاً عمن جاء من منطقة تركستان وبلاد ما وراء النهر وممن دفعت بهم دولة السلاجقة على هيئة أفواج متلاحقة ، انظر العيني ، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص ٢٠ ـ ٢٢ ، سعيد عاشور بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٤٦ .

(١) سهيل زكار ، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ١٥ ـ ١٦ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٦٧٩ ـ ٦٨٠ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٣٩١ .

المنطقة وحاصروا مدينة ميافارقين . وفاوضهم أميرها نصر الدولة بن مروان وعرض عليهم خمسين ألف دينار مقابل مغادرتهم بلاده ، فرفضوا وعسكروا حول ميافارقين . وخرج نصر الدولة المرواني بجنوده إلى معسكر الغز وفاجأهم ، وقتل أكثرهم وغنم كل ما معهم . ويعلق الفارقي على هذه الغارة بقوله : « وكان هذا أول ظهور للترك بهذه البلاد ولم يكن رأوا صورهم »[1] .

وظل قسم من الغز مقيماً بالجانب الشرقي من الجزيرة بقيادة أحد مقدميهم ويدعى منصور بن غزغلي فراسله سليمان بن نصر الدولة المرواني وعرض عليه المصالحة مقابل السماح للغز بالإقامة بالجزيرة حتى ينجلي فصل الشتاء . وبدأ سليمان يتقرب إلى منصور حتى قبض عليه فتفرق أصحابه في أنحاء الجزيرة[2] . وأعقب ذلك اجتماع عرب عقيل والأكراد ، وطاردوا الغز حتى التقوا بهم . ونجح الغز رغم قلتهم في إنزال الهزيمة بتحالف العقيليين والأكراد ، وظلوا يعيثون نهباً وتدميراً في مناطق الجزيرة . ووصلوا في غاراتهم الى نصيبين وسنجار ، مما دفع نصر الدولة المرواني إلى أن يأمر ابنه سليمان بإطلاق سراح زعيم الغز منصور ظاناً أنه بهذا الاجراء يصانعهم ويمنع غاراتهم ، إلا أن ذلك زاد من عبثهم وفسادهم[3] . وقد هاجم الغز الموصل مرتين متتاليتين في عامي ٤٣٤ هـ / ١٠٤٣ م و ٤٣٥ هـ / ١٠٣٦ م ونهبوها ، مما جعل البويهيين في بغداد يرسلون شكوى الى طغرلبك من أعمال هذه

---

(١) تاريخ الفارقي ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

(٢) ابن الأثير الكامل ، جـ ٩ ص ٣٨٦ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٦٧٩ .

(٣) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ورقة ١٥٨ أ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٦٧٩ ـ ٦٨٠ .

الجماعات الغزية ، فرد طغرلبك على ذلك بأن هؤلاء الغز كانوا من أتباعه ، وأنهم عصوا وفارقوا البلاد ، وأنه سوف يرسل اليهم من يخرجهم من الجزيرة . على أن شيئاً من هذا لم يحدث ، الأمر الذي جعل العرب والأكراد في الموصل والجزيرة يوحدون قواهم ضد الغز ، والتقوا بهم سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٤ م وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة ولم ينج من الغز إلا جماعات قليلة وعادت بعض فلولهم الى أذربيجان[١] .

ورغم أن بلاد الشام نجت هذه المرة من غارات التركمان ، فإن إغارتهم على الموصل والجزيرة كان لها صدى مدوٍ في بلاد الشام ، خشية تعرضها لما تعرضت له الموصل والجزيرة . ويؤيد هذا القول ما ورد في قصيدة لشاعر المرداسيين ابن أبي حصينة مدح بها ثمال بن صالح ابن مرداس سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٤ م حيث وصف هؤلاء الغز بالأتراك وأنهم لم يجسروا على الإغارة على حلب حيث قوة ثمال بن مرداس[٢] .

ويعتبر ابن العديم أن سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م هي السنة التي دخل فيها التركمان لأول مرة الى بلاد الشام[٣] . على أنه توجد شواهد تفيد أن

---

(١) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ورقة ١٥٨ أ ـ ب ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٣٨٧ ـ ٣٩١ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ٣ ص ٩٣٧ ـ ٩٣٨ ، شاكر مصطفى ؛ دخول الترك الغز إلى الشام (المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام) ص ٣٢٠ .

(٢) يقول الشاعر ابن ابي حصينة من قصيدة طويلة يمدح بها ثمال المرداسي :

من مبلغ الأتراك ان امامهم ... بحراً يغرق موجه من يشرع

أموا وهموا بالورود فراعهم ... من دونه هذا الهمام الأروع

وتيقنوا ان الشام وأهله ... أحمى بلاد الخافقين وأمنع

انظر ديوان ابن أبي حصينة جـ١ ص ٣٦٠ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ ؛ انظر ايضاً Zakkar, op. cit., p. 196.

التركمان قد دخلوا الى الشام قبل هذا التاريخ ، فالمقريزي أورد خبراً سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م بأنه تجمع كثير من التركمان بمنطقة حلب وأفسدوا في أعمال الشام[١] . وذكر المؤيد في الدين داعي الدعاة في سيرته أنه في سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م تلقى خطاباً من قائد الجيش الفاطمي بالشام يخبره فيه بوجود سرية تركمانية تتقدم نحوه[٢] . كما يذكر المقريزي أنه عندما تسلم الحسن بن ملهم حلب من ثمال بن مرداس سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م ، « انكفت أيدي التركمان عنها بعد حروب عظيمة »[٣] . ويحدد العماد الأصفهاني سنة ٤٥٠ هـ /١٠٥٨ م بأنها السنة التي ظهر فيها التركمان ببلاد الشام[٤] . ويستنتج من كل هذه الشواهد أن التركمان ظهروا في بلاد الشام قبل سنة ٤٥٦ هـ ، وهي السنة التي ذكرها ابن العديم ومن المحتمل أنهم وصلوا الى الشام من منطقة الجزيرة التي عرفوها قبل ذلك ، ومن أرمينية التي غزاها طغرلبك سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م ، وتخلف عنه بها بعض جماعات الغز ، الذين تسللوا إلى آسيا الصغرى ومنها تسلل بعضهم الى الشام[٥] .

وكيفما كان الأمر فيمكن أيضاً اعتبار سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ، السنة التي أحدثت تغييراً كبيراً في توازن القوى في بلاد الشام ، حيث أخذ التركمان يمارسون دوراً فعالاً في تقرير مصير المنطقة . فبعد وفاة ثمال بن صالح ، حدث النزاع على عرش الإمارة المرداسية بين عطية بن

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢٣٠ .

(٢) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٣) المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢٣٥ .

(٤) العماد الاصفهاني ، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ، مخطوط أحمد الثالث ، ورقة ٨٩ أ ، والعماد الاصفهاني غير العماد الكاتب المعاصر لصلاح الدين .

(٥) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، مخطوط احمد الثالث ، جـ١ ص ١٩٧ أ .

صالح وبين ابن أخيه محمود بن نصر ، وحاصر محمود عمه عطية في حلب سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م مما دفع عطية إلى الاستنجاد بأحد زعماء التركمان ، ويدعى هارون بن خان ، كان مقيماً مع أتباعه في أراضي الإمارة المروانية في منطقة ميافارقين وديار بكر . ووصل ابن خان حلب ومعه ألف فارس معظمهم من رماة السهام ، ونجم عن ذلك ترك محمود ومن معه من بني كلاب حصار حلب خوفاً من ابن خان وأتباعه[١] .

وقد فرض عطية على نفسه عطاء شهرياً لابن خان وأصحابه قدره أحد عشر ألف دينار ، وأنزلهم خارج مدينة حلب[٢] . وعقد الصلح سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م بين عطية وابن أخيه محمود وانفرد عطية بحكم حلب بالإضافة إلى الرحبة ومنبج وبالس[٣] . وهكذا كانت التسوية في صالح عطية بسبب تأييد ابن خان له . ويبدو أن عطية بدأ يشعر أنه أخذ يفقد سلطته ازاء ابن خان وقواته ، مما دفعه الى الخروج في السنة نفسها لغزو الأراضي البيزنطية مصطحباً معه ابن خان ، ظاناً أنه بذلك يجعل ابن خان يقيم بالأراضي البيزنطية وبالتالي يتخلص منه ، ولكنه عندما رجع وجد ابن خان في صحبته الى حلب[٤] .

انزعج أهل حلب لوجود ابن خان وأتباعه في حلب ، كما شاركهم في ذلك أحداث المدينة الذين شعروا أن التركمان يهددون مصالحهم وامتيازاتهم . يضاف الى هذا أن كثيراً من سكان حلب كانوا شيعة بينما

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ ؛ تاريخ العظيمي ، حوادث سنة ٤٥٦هـ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ١٢١ ب ، ١٢٢ أ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٩٥ .

(٤) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة .

كان التركمان يدينون بالمذهب السني . وقد استغل عطية شعور الشك والريبة السائد في حلب تجاه التركمان ، فأغرى الأحداث بشن هجوم مفاجىء على معسكر الغز في إحدى ليالي صفر سنة ٤٥٧ هـ / يناير ١٠٦٥ م ونتج عنه مقتل عدد كبير من التركمان ونهب الأحداث خيولهم وأسلحتهم ، وجمع ابن خان من بقي من أتباعه وخرج من حلب وهو يتوعد عطية بالانتقام[١] .

وقد واجهت ابن خان وأتباعه صعوبات جمة أثناء انسحابهم عن حلب حيث هاجمتهم نمير وكلاب ونهبتهم ، واضطروا الى مقاتلة فرقة بيزنطية وجدوها في طريقهم . وأخيراً التحق ابن خان بمحمود بن نصر بسرمين من أعمال حلب ولم يبق معه سوى حفنة من الرجال[٢] . وقد اعتذر ابن خان لمحمود عن مساعدته لعمه عطية وعرض خدماته على محمود وسافر معه الى طرابلس[٣] . ولم يرد أي شيء في المصادر عن طبيعة المهمة التي سافر من أجلها محمود وابن خان الى طرابلس ، ومن المفترض أن محموداً كان يهدف الى الحصول على بعض المساعدات المالية أو القروض من القاضي ابن عمار . ويرجح هذا الافتراض أن محموداً أرسل في نفس الوقت ابنه الى البيزنطيين رهينة مقابل أموال اقترضها[٤] منهم . أما ابن خان فمن المحتمل أنه قام باستخدام بعض التركمان حيث يذكر ابن العديم أنه عندما خرج مع محمود انضوى تحت

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٩٥ ؛ ابن القلانسي ص ٩٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .

(٣) ابن القلانسي ص ٩٢ ؛ تاريخ العظيمي حوادث سنة ٤٥٦ هـ .

(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٣١ ب .

لوائه جماعة من التركمان[1] .

ومهما يكن من أمر فإن محمود وابن خان حشدا قواتهما والتقى بهم عطية في مرج دابق فهزم عطية وانسحب الى حلب وتبعه محمود وابن خان وشددا الحصار على حلب ومنعا المؤن من الوصول اليها فاشتد الجوع بأهلها واضطر عطية الى طلب الصلح وتنازل عن حلب لابن أخيه محمود بن نصر وسلمها اليه في جمادى الآخرة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م[2] ، وقد احتفظ عطية بموجب شروط الصلح بالرحبة وعزاز وبالس وجميع القرى الواقعة شرق وشمال حلب[3] .

وخشي ابن خان الاصطدام مرة أخرى بأحداث حلب ، لذلك غادرها وسار شرقاً الى الجزيرة وشمال العراق[4] . ويبدو أنه جمع من هذه المناطق أعداداً أخرى من الترك وغيرهم ، حيث عاد في سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م ومعه ألف فارس من عناصر مختلفة من ترك وكرد وديلم . وخشي محمود بن نصر أن يسبب وجود التركمان في منطقة حلب الاضطراب والفوضى ، لذلك أقطع ابن خان وأتباعه معرة النعمان فنزلوا بها ، ورغم التزام ابن خان وأتباعه للنظام وعدم تعرضهم بـالأذى للسكان ، إلا أن الرعب والفزع منهم انتشر بين عرب هذه المنطقة[5] .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .

(٢) مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٢٣ أ ؛ ابن القلانسي ص ٩٣ ؛ العظيمي حوادث سنة ٤٥٧ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٩٧ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ١ ص ٢٩٧ .

(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ١٢ ورقة ٢٢٣ أ ؛ ابن القلانسي ص ٩٣ ؛ تاريخ العظيمي ، حوادث سنة ٤٥٧ هـ .

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٩ ـ ١٠ ؛ ابن الوردي ، تتمة المختصر جـ١ ص ٥٥٩ .

وفقدت قبيلة كلاب نفوذها السياسي أمام التركمان ، وقد اعترف بهذه الحقيقة محمود المرداسي نفسه عندما طلبت منه الخلافة الفاطمية سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م أن يطرد ابن خان ومن معه من التركمان فرد بأنه عاجز عن طردهم لأنهم أضحوا أقوى منه[١] .

وفي سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م استعان محمود المرداسي بقائد تركماني آخر لم تورد المصادر اسمه ، مما جعل ابن خان ينسحب عن حلب ويتجه إلى ابن أبي عقيل في صور حيث أكرمه واستعان به ضد بدر الجمالي الذي قدم لحصار صور . على أن بدراً الجمالي راسل ابن خان واستماله الى جانبه مما دفع ابن أبي عقيل الى تدبير أمر اغتيال ابن خان ونجح في ذلك سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م[٢] .

لم يكن هارون بن خان هو القائد التركماني الوحيد الذي وصل الى بلاد الشام ، بل وصل إليه زعماء آخرون منهم : افشين بن بكجي الذي يصفه ابن العديم بأنه كان من أتباع السلطان السلجوقي ألب أرسلان ، ولكنه قتل أحد قادة الجيش السلطاني وهرب خوفاً من ألب أرسلان الى الأراضي البيزنطية[٣] . وقام أفشين بغارات مدمرة في عمق

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٣١ ب ، ٢٣٢ أ ؛ ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٧٩ ؛ شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز إلى الشام ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٢) مرآة الزمان ، جـ ١٢ ورقة ٢٤٨ ب - ٢٤٩ أ ؛ شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز إلى الشام ، ٣٤٦ ؛

Zakkar, op. cit. p. 197.

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١١ ؛ شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز إلى الشام ، ص ٣٤٦ .

الأراضي البيزنطية فنهب عمورية ووصل إلى غرب آسيا الصغرى ، ثم عاد شرقاً ومعه الكثير من الغنائم[1] . ثم دخل أفشين منطقة حلب سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م وسار في ألف من أتباعه الى ريف انطاكية ونهبوا أربعين ألف جاموس « حتى أن الجاموس كان يباع بدينار وأكثره بدينارين وثلاثة » ، ولجأ المزارعون الى الحصون وبقيت الغلات في أماكنها لا تجد من يرفعها[2] . وحاصر أفشين انطاكية وأجبر حاكمها على دفع أتاوة مقدارها عشرون ألف دينار مقابل انسحابه عنها ، وقدم بكل ما معه من غنائم إلى حلب فباعها . ووصلته كتب السلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م بالرضا عنه فعاد الى العراق في السنة نفسها[3] .

ولم تنج بلاد الشام من أعمال زعيم تركماني ثالث هو صندق التركي ، الذي قدم أيضاً من الأراضي البيزنطية في سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م ليقضي فصل الشتاء في بلاد الشام . ولم يدع صندق فصل الشتاء يضيع عليه سدى ، فنهب جميع القرى الواقعة بين معرة النعمان وكفرطاب وحمص وحماة ورفنية وفرض الأموال على الأماكن الحصينة « ولقي أهل الشام من عسكره شدة عظيمة وهو أول نهب وفساد جرى بالشام من الأتراك » . وبعد انقضاء فصل الشتاء ، عاد صندق التركي الى الأراضي البيزنطية بعدما أكرمه محمود المرداسي بتحف وهدايا

---

(١) مرآة الزمان ، جـ ١٢ ورقة ٢٤٢ ب ؛ شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز إلى الشام ص ٣٤٧ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١١ ، شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز إلى الشام ص ٣٤٧ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٤٣ أ ؛ ابن الجوزي المنتظم في تاريخ الملوك والأمم جـ ٨ ص ٢٥٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١١ ـ ١٢ .

قدمها اليه[1] . ولعب الأفشين وصندق دوراً هاماً في تاريخ بلاد الشام أثناء الفتح السلجوقي بقيادة تتش بن ألب أرسلان[2] .

ويتحدث سبط ابن الجوزي عن طائفة من التركمان أطلق عليها اسم الناوكية ، لعلها إحدى القبائل التركية التي خرجت مع الهجرة الكبرى للترك بزعامة السلاجقة صوب الأراضي الإسلامية في ايران . ويبدو أن الناوكية خرجوا هاربين من وجه السلطان ألب أرسلان لأسباب لا تذكرها المصادر ودخلوا الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى[3] .

وفي سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م أرسلَ بدر الجمالي والي الشام الفاطمي الى الناوكية في آسيا الصغرى طالباً منهم القدوم الى بلاد الشام . ويبدو أن ما دفع بدراً الجمالي الى هذا الاجراء هو غارات القبائل العربية على المناطق الحضرية في جنوب ووسط الشام ، وعجزه عن مواجهة ذلك ، فضلاً عن عجز الخلافة الفاطمية في مصر عن ارسال أي نجدة اليه لوقوعها تحت وطأة الأزمة الاقتصادية المعروفة بالشدة المستنصرية . وقد وصلت جماعات الناوكية الى جنوب الشام ، وطردوا العرب من هذه المناطق . وقد جنى بدر نتيجة عمله اذ طالبه التركمان بالمال ، فاعتذر بأنه لا يملك شيئاً وأنه لم يسلطهم على العرب إلا أنهم سيقنعون بنهبهم ، فردوا عليه بأنهم أخذوا البلاد بسيوفهم ثم حاصروا طبرية ، واقتسموا البلاد فيما بينهم بعدما نهبوا غلالها[4] . وحاول بدر

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ١٦ ؛ Zakkar, op. cit. p. 199.

(٢) انظر مايلي : ص ١٥٩ ، ١٦٥ - ١٦٨ .

(٣) مرآة الزمان : جـ١٢ ورقة ٢٥٢ أ ؛ شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز إلى الشام ص ٣٥٠ .

(٤) مرآة الزمان جـ١٣ ورقة ١ ب ؛ شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز إلى الشام ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

وقف تسلط الناوكية على بلاد الشام ، فراسل القبائل العربية الشامية طالباً اليهم الرجوع إلى الشام ووعدهم بالمساعدة ضد الناوكية ، فقدم العرب في جموع ضخمة ، فلما اقتربوا من طبرية فاجأهم التركمان الناوكية وهزموهم واستولوا على الرملة وعلى حصن البلقاء ، وفيه ذخائر العرب وأموالهم[١] .

ومن الرملة سار التركمان الناوكية الى دمشق ، ونهبوا القرى المحيطة بدمشق وحاصروها ثم صالحهم المتغلب على دمشق ابن منزو الكتامي[٢] على خمسين ألف دينار . ورحلوا الى عكا ، وحاصروا بدراً الجمالي بها دون أن يستطيعوا اقتحامها فانسحبوا عنها . وقد امتدت غاراتهم الى أطراف مصر ووصلوا بلبيس . وبلغت غاراتهم وادي القرى في شمال الحجاز ووصل منهم سبعة عشر شخصاً الى المدينة المنورة وزاروا قبر النبي ﷺ[٣] . وكان زعيم هؤلاء التركمان الذين عرفوا باسم الناوكية يدعى قرلو[٤] حيث يذكر ابن القلانسي وابن الأثير أن بدراً الجمالي عندما حاصر القاضي عين الدولة ابن أبي عقيل في صور سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م استنجد الأخير بالأمير قرلو قائد الأتراك بالشام . فوصل اليه منجداً في قوة تتراوح بين ستة آلاف واثني عشر ألف فارس مما أجبر بدراً الجمالي على فك الحصار عن صور[٥] .

---

(١) مرآة الزمان جـ ١٣ B ، ورقة ٤ ب ـ ٥ أ .

(٢) انظر ما سبق ص ٧٠ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ١ ب .

(٤) يذكر سبط ابن الجوزي ان اسمه « قزلي » وقد يكون هذا تصحيف . انظر سبط ابن الجوزي جـ ١٣ ورقة ٤ ب .

(٥) ابن القلانسي ، ص ٩٨ ، ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٦٠ = يذكر ابن القلانسي =

وخلاصة القول أنه رغم أن جماعات التركمان في بلاد الشام كانت تعمل منفردة عن سلطة السلاجقة فقد مهدت لخضوع بلاد الشام للحكم السلجوقي[١] . يضاف الى ذلك أنه بعد الانهاك الاقتصادي والتمزق السياسي الذي أصاب بلاد الشام ، أتى التركمان بغاراتهم المدمرة لتضيف المزيد من أسباب الضعف والانهيار . فغزو التركمان كان غزواً بربرياً اذ نهبت وخربت الموجات التركمانية المتلاحقة كل الأقاليم التي مروا بها وما أن حلت سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م حتى وصلت بلاد الشام الى أقصى درجات الضعف والتمزق والاضطراب ، وبدأ الغزو السلجوقي لبلاد الشام . وهو موضوع الفصل الثاني .

= أن عدد التركمان الذين قدم بهم قرلو إلى صور لنجدة ابن أبي عقيل ستة آلاف بينما يقدر عددهم ابن الأثير باثني عشر ألفاً .

(١) Zakkar, op. cit. pp. 198- 199

الفصل الثاني

الغزو السلجوقي لبلاد الشام منذ سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م

- دوافع الغزو السلجوقي لبلاد الشام.
- خضوع المرداسيين في حلب للسلطان ألب ارسلان ٤٦٢ - ٤٦٣ هـ.
- إغارة أتسز على جنوب الشام ٤٦٣ - ٤٧١ هـ.
- فتوحات تتش في بلاد الشام.
- بلاد الشام بين سلاجقة الروم وسلاجقة الشام
- السلطان ملكشاه في بلاد الشام ٤٧٩ هـ
- النفوذ السلجوقي في بلاد الشام بعد رحيل ملكشاه ٤٨٠ - ٤٨٥ هـ.
- موت ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ ونتائجه على الغزو السلجوقي لبلاد الشام.



دوافع الغزو السلجوقي لبلاد الشام

كان الأتراك السلاجقة يقطنون منطقة تركستان في بلاد ما وراء النهر ، وكانوا قبائل بدوية متنقلة[1] . ولا يمكن تحديد الزمن الذي بدأت فيه تلك القبائل هجرتها نحو الغرب ، ويغلب على الظن أن تلك الهجرة بدأت خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة تحت وطأة الظروف الاقتصادية المختلفة ، وغلبة قبائل اكثر منها قوة[2] . وقد عرف السلاجقة بهذا الاسم نسبة إلى زعيم احدى تلك القبائل وهو سلجوق بن دقاق[3] . ودخل سلجوق واتباعه في خدمة بعض الدول القائمة في بلاد ما وراء النهر واعتنق السلاجقة الإسلام في أوائل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وتحمسوا له وأخذوا يغزون من يليهم من قبائل الترك الوثنية[4] .

---

(١) الاصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٦٣ - ٦٤ .

(٢) عبد النعيم حسنين، دولة السلاجقة ص ١٧ .

(٣) دقاق أو تقاق ،معناه بالتركية القوس الجديد .انظر ابن الأثير ،الكامل جـ ٩ ص ٤٧٣ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٤٧٣ ، ٤٧٤ ؛ ارمينيوس فامبري ، تاريخ بخارى ص ١٢٨ .

وخلال سنوات قليلة نمت قوة السلاجقة واستشعر الغزنويون خطرهم ، فقام محمود الغزنوي بالتودد إليهم ، حتى قبض على زعمائهم وعلى رأسهم أرسلان بن سلجوق وظل أرسلان في سجنه حتى توفي[(١)] ، وعبر السلاجقة إلى إقليم خراسان واستولوا على مرو ونيسابور وبدأ نفوذهم يزداد قوة . وقرر طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق الذي آلت اليه زعامة السلاجقة القضاء على نفوذ الغزنويين في خراسان . وفي معركة داندقان سنة ٤٣١هـ/ ١٠٤٠م تمكن السلاجقة من سحق قوات مسعود الغزنوي ، وأدى ذلك إلى انحسار نفوذ الغزنويين عن إيران، وقصر دولتهم على الأقاليم الخاضعة لهم في الهند[(٢)] .

وفي عام ٤٣٢هـ/ ١٠٤١م بعث السلاجقة برسالة الى الخليفة العباسي القائم فأجابهم الخليفة واضفى على دولتهم الشرعية وطلب من طغرلبك زيارة بغداد فاجاب طغرلبك على الخليفة وأكد له عزمه على زيارة بغداد في الوقت المناسب[(٣)] ويبدو أن تأجيل طغرلبك زيارة بغداد في هذا الوقت يعود الى أنه لم يفرغ بعد من السيطرة على أجزاء ايران ولذلك واصل طغرلبك بسط نفوذه على أقاليم ايران المختلفة فاستولى على خوارزم ، وقزوين ، وكرمان ، والديلم ، وانتزع همذان من البويهيين سنة ٤٣٤ هـ/ ١٠٤٣ م[(٤)] . وما أن حل عام

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦ ؛ عبد النعيم حسنين ، دولة السلاجقة ص ٢٤ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣ ؛ فامبري ، تاريخ بخارى ص ١٣٣ ـ ١٣٤ ؛ بارتولد ، تاريخ الترك في اسيا الوسطى ص ١٠٤ ؛ عبد النعيم حسنين ، دولة السلاجقة ص ٢٨ .

(٣) الراوندي ، راحة الصدور وآية السرور ص ١٠٢ ـ ١٠٥ ؛ عبد النعيم حسنين دولة السلاجقة ص ٢٨ ـ ٢٩ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٥٠٤ ـ ٥١٠ .

٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م حتى سيطر طغرلبك على المناطق الجنوبية من ايران فاستولى على أصبهان ، واتخذها عاصمة لدولته[١] . وبذلك شمل نفوذ السلاجقة كل ايران فضلاً عن اقليم ما وراء النهر ، وأصبحت دولة السلاجقة هي القوة الأولى في المشرق الإسلامي[٢] . وفي الحقيقة أن ظهور السلاجقة كان في مصلحة الخلافة العباسية في وقت انتشر فيه دعاة الخلافة الفاطمية في بلاد الخلافة العباسية . ومما يدل على ذلك وجود الداعية الفاطمي المؤيد في الدين الشيرازي في هذه البلاد خلال الربع الثاني من القرن الخامس الهجري ، حيث كان ـ فيما يبدو ـ يقود نشاط الدعاة الفاطميين في بلاد العراق وغرب ايران ، حتى تمكن من مقابلة امير الأمراء البويهي في خلافة الخليفة القائم ودخل في مناظرات طويلة مع علماء السنة في مجالس الأمير البويهي[٣] . وبلغ من نشاط المؤيد في الدين أن أقنع الأمير البويهي ابا كاليجار باعتناق المذهب الفاطمي ـ على حد قوله ـ[٤] .

أدرك طغرلبك ما تعانيه الخلافة العباسية من ضعف وتسلط البويهيين الشيعة عليها ، فقرر الحلول محل البيويهيين في العراق . ولم يكن بمقدوره مجاهرة البويهيين بالعداء الصريح ، إلا عن طريق اغراء الخليفة باستبدال البويهيين بالسلاجقة واشعار الخليفة بان السلاجقة يعملون مخلصين للقضاء على الفاطميين الخارجين على خلافة بغداد . لذلك قرر طغرلبك العمل ضد الخلافة الفاطمية وانتزاع بلاد الشام التي

---

(١) المصدر السابق جـ ٩ ص ٥٦٢ ـ ٥٦٣ .

(٢) Gibb , Damascus Chronicle The Crusades , PP. 19 - 20 ;
وانظر أيضاً The Cambridge 20 Medieval History Vol. IV, p. 655 .

(٣) عن مناظرات المؤيد مع العلماء في بلاط أمير الأمراء البويهي ، انظر سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة الصفحات ٤ ـ ٥٤ .

(٤) سيرة المؤيد ص ٤٣ ـ ٤٤ .

كان العباسيون قد فقدوها لحساب الفاطميين منذ زمن طويل[1] .

غير أن طغرلبك السلجوقي لا يستطيع في هذا الوقت تقرير مصير بلاد الشام بمعزل عن القوى الأخرى وعلى رأسها الدولة البيزنطية التي تملك اجزاء هامة في شمال الشام مثل الرها وانطاكية ، فضلاً عن حرصها الشديد على بقاء بلاد الشام ممزقة، لأن في ذلك تحقيقاً لمصالحها وحماية لأراضيها في آسيا الصغرى . وفي عام ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨ م قام إبراهيم ينال اخو طغرلبك بغارات واسعة على اراضي الدولة البيزنطية امتدت الى ملازكرد وطرابزون وقاليقيلا واقليم الابخاز[2] ، وأحرز إبراهيم ينال انتصارات باهرة على البيزنطيين وأسر ملك الابخاز قاريط (ليبارتس) التابع للامبراطور البيزنطي ، ورغم عرض قاريط افتداء نفسه بثلاثمائة ألف دينار فان السلاجقة رفضوا إطلاق سراحه[3] . وكان هدف طغرلبك من ذلك هو الجهاد واشباع نزعة الحماس الديني في نفوس جنوده اضافة الى مساومة الامبراطور البيزنطي على تحسين علاقاته مع السلاجقة على حساب الفاطميين. وقد نجح طغرلبك في تحقيق هدفه إذ أرسل الامبراطور البيزنطي إلى طغرلبك يطلب إقامة الهدنة بينهما وإطلاق سراح ملك الابخاز ، فاستجاب طغرلبك لطلب الامبراطور قسطنطين التاسع ، وأطلق ملك الأبخاز ، وفي مقابل ذلك عمر البيزنطيون جامعاً

---

(١) انظر : شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز الى الشام ، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٤ .

(٢) ملازكرد = منازجرد وأهله يقولون منازكرد ، بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم ويعد في أرمينية ، ارزن : مدينة مشهورة قرب خلاط لها قلعة مشهورة ، قالقيلا : بأرمينية العظمى من نواحي خلاط ، والأبخاز : اسم ناحية من جبل القبق شمال أرمينية المتصل بباب الأبواب وهي جبال صعبة المسالك وعرة لا مجال للخيل فيها ، تجاور بلاد اللان ويسكنها أمة من النصارى يقال لهم الكرج . انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٥٤٩ ؛ الباز العريني ، الدولة البيزنطية ص ٨٤٨ .

بالقسطنطينية ، وأقيمت فيه الصلاة والخطبة لطغرلبك سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٩م[١] . على أن طغرلبك لم يكن يرمي إلى إقامة الخطبة له بأحد جوامع القسطنطينية إلى جانب خطبة الفاطميين فحسب ، وإنما كان يريد ضمان حياد الدولة البيزنطية عندما يسير إلى الشام ومصر لقتال الفاطميين . فبعث سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م إلى الامبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع ، يحيطه علماً بعزمه المسير الى مصر عبر بلاد الشام . ولكن الامبراطور البيزنطي اعتذر عن الاستجابة لطلب طغرلبك موضحاً له مدى المودة التي بينه وبين المستنصر « وأنه لا يرخص في أذيته »[١] . وفي العام التالي أرسل طغرلبك رسولاً آخر إلى الامبراطور طالباً منه إطلاق سراح الرسول الذي بعثه الخليفة القائم بأمر اللّٰه العباسي بالخلع والتقليد الى المعز بن باديس الذي خرج على الفاطميين في شمال أفريقية . ويظهر من خطاب طغرلبك مدى الشعور العدائي الذي يكنه ازاء الخليفة الفاطمي ، حيث وصفه بانه « ناجم ضلاله » لكن الامبراطور البيزنطي ، أكد مرة اخرى لرسول طغرلبك أنه لن ينقض الهدنة مع المستنصر والتي بقي منها سنتان[٣] .

ويبدو أن الخلافة العباسية لمست جهود طغرلبك في مناوئة الفاطميين فعملت محضراً في مدينة بغداد سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م وقع عليه الاشراف العلويون والعباسيون والفقهاء ، وتضمن القدح في نسب الفاطميين وارجاع نسبهم إلى المجوس واليهود . وأرسَلت نسخ من

---

(١) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة جـ ١ ورقة ١٩٦ ب ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ٩ ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧ .

(٢) المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٤ .

(٣) المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

المحضر الى سائر البلاد ، وهذا ما يدعم موقف طغرلبك في موقفه ضد الفاطميين[1] .

وذكر ابن الاثير أن طغرلبك قام في سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م بغزو الأراضي البيزنطية ، أي في السنة التي تنتهي فيها الهدنة بين القسطنطينية والقاهرة . وقد وصل طغرلبك في غزوته إلى ملازكرد وارزن وانزل بالبيزنطيين ضربات موجعة خلال هذه الغارة[2] . ويبدو أن طغرلبك كان يسعى لتوطيد علاقته بالبيزنطيين ـ ولو عن طريق القوة ـ على حساب الفاطميين . ووصلت أخبار محاولة طغرلبك تحسين علاقته بالبيزنطيين إلى القاهرة ، وبعد مشاورات سرية في البلاط الفاطمي تقرر العمل لمواجهة هذا الموقف ، فقام المؤيد في الدين داعي الدعاة بمراسلة الكندري وزير طغرلبك . وقد أوضح المؤيد في سيرته انه كان يهدف من هذه المراسلة الى محاولة اجتذاب بعض السلاجقة للدولة الفاطمية ، وإيقاع الشك والريبة في نفس الخليفة العباسي تجاه السلاجقة[3] .

وفي هذا الوقت بلغ الصراع أشده في بغداد بين ابن المسلمة وزير الخليفة القائم وبين القائد البويهي أرسلان التركي المعروف بالبساسيري الذي كان يدين بالتشيع . وأخذ نفوذ البساسيري في العراق يزداد قوة على حساب الخليفة ووزيره ابن المسلمة ، فاتهم ابن المسلمة البساسيري بفساد عقيدته ومراسلة الفاطميين ، مما جعل الخليفة يبعث على عجل

---

(١) ابن الأثير ، الكامل جـ ٩ ص ٥٩١ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ٢٢٣ ؛ شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز الى الشام ص ٣٢٥ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل جـ ٩ ص ٥٩٩ .
The Cambridge Medieval History Vol . IV . P . 204 .

(٣) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ص ٩٤ ـ ٩٦ .

إلى طغرلبك سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م[١] طالباً منه القدوم إلى بغداد . وبعد أن تلقى طغرلبك دعوة الخليفة ، تجهز على رأس قوات ضخمة من الترك والديلم والعجم . وعندما وصل أطراف العراق أعلن ان هدفه تقديم الولاء والطاعة للخليفة القائم والمسير إلى مكة لاداء فريضة الحج ثم فتح بلاد الشام ومصر وإزالة الخلافة الفاطمية[٢] ، ثم وصل طغرلبك إلى بغداد فاستقبله الخليفة القائم ، واقيمت الخطبة له في جوامع بغداد بعد الخليفة ، وتم القبض على الامير البويهي خسروفيروز الملقب بالرحيم وبذلك انقرضت الدولة البويهية سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م[٣] . وانسحب البساسيري قبل دخول طغرلبك من بغداد ووصل الرحبة في شمال الشام واستقبله ثمال بن مرداس وقدم له الأموال وسلمه الرحبة فاتخذ منها قاعدة لاعماله الحربية[٤] .

أدركت الخلافة الفاطمية ما يمثله دخول السلاجقة العراق من خطر

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٢ ورقة ١٩٦ب ؛ ابن العمراني ، الأنباء في تاريخ الخلفاء ص ١٨٨ - ١٨٩ ؛ ابن طباطبا الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٩٣ ؛ الأربلي ، خلاصة الذهب المسبوك ص ٢٦٥ ، ذكر الداعية الفاطمي ، المؤيد في الدين أنه هو الذي بدأ بمراسلة البساسيري بعد أن علم بجهود طغرلبك مع البيزنطيين . ويمكن ترجيح رواية المؤيد دون غيرها من الروايات لأنه ساهم في صنع حوادث هذه الفترة . انظر سيرة المؤيد ص ٩٦ .

(٢) ابن الجوزي المنتظم جـ ٨ ص ١٦٤ ؛ ابن العمراني ، الأنباء في تاريخ الخلفاء ص ١٩١ ؛ ابن الأثير ، الكامل، جـ ٩ ص ٦٠٩ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل جـ ٩ ص ٦١٠ - ٦١٢ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٣٣ ، انظر أيضاً :

Ostrogorsky. History of The Byzantine State, P. 343.

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٢ ورقة ١٩٧ أ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفا ص ٦٦٥ .

Zakkar, op. cit. p. 149 .

محقق يهدد وجودها في بلاد الشام ومصر . وقرر الوزير الفاطمي محمد اليازوري مساعدة البساسيري للوقوف في وجه السلاجقة . وارسل اليازوري رسالة إلى السلطان طغرلبك عندما عرف عزمه على قصد بلاد الشام يهنئه فيها بوصوله إلى العراق ويعرض عليه الخدمة والطاعة وأن مصر وأعمالها بحكمه وعبر عن اشفاقه على بلاد الشام من عساكر السلطان ، ويرجوه « اعفاءها من وطء العساكر لها »[1] . والرسالة في حقيقتها لا تعدو أن تكون مناورة سياسية قصد بها اليازوري ان يحول دون وصول السلطان طغرلبك الى بلاد الشام ، ريثما يفرغ الوزير الفاطمي من إعداد خططه لمواجهة السلاجقة وقد نجح اليازوري في مناورته مع السلطان طغرلبك ، حيث قال طغرلبك عندما قرأ رسالة اليازوري : « هذا كتاب رجال عاقل » وأذن لعساكره في العودة إلى بلادهم[2] .

وفي الوقت نفسه أخرج الوزير الفاطمي اليازوري معظم أموال الخزائن الفاطمية والكثير من الخلع والأسلحة وسلمها للمؤيد في الدين داعي الدعاة وسار المؤيد قاصداً الرحبة لدعم حركة البساسيري[3] .

وعندما وصل المؤيد في الدين داعي الدعاة إلى الرحبة استقبله ثمال المرداسي ومن هناك راسل المؤيد في الدين امراء الشام والجزيرة مثل ابن وثاب امير بني نمير وابن مروان امير ميافارقين وديار بكر وغيرهم من الامراء يحذرهم من الزحف السلجوقي على بلاد الشام وذلك كيما

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص ٢٣٦ .

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص ٢٣٦ .

(٣) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ص ٩٤ ـ ١٠٠ ؛ ابن ميسر ، أخبار مصر جـ٢ ص ٩ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢٣٥ .

يحثهم على الانضمام إلى حركة البساسيري ضد السلاجقة[1] .

وفي سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م ارسل السلطان طغرلبك قوة سلجوقية بقيادة ابن عمه قطلمش لمطاردة البساسيري . غير ان البساسيري انزل بها هزيمة ساحقة قرب سنجار . وكان من أثر ذلك انضمام بعض زعماء العرب الى حركة البساسيري،وعلى رأسهم قريش بن بدران العقيلي امير الموصل،ودبيس بن مزيد شيخ بن أسد[2] . وجدير بالملاحظة هنا أن تأييد امراء العرب لحركة البساسيري كان بسبب خوفهم الشديد من الغزو السلجوقي الذي بات يهدد إماراتهم بالسقوط ـ وهو ما حدث بعد ذلك ـ كما ان بعض شيوخ القبائل العربية في شمال الشام والعراق كانوا يدينون بالتشيع مثل العقيليين والمرادسيين . يضاف إلى ذلك اغراء الأموال الضخمة التي حملها المؤيد لدعم حركة البساسيري .

وفي سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٧م وقع الخلاف بين السلطان طغرلبك وبين أخيه لأمه إبراهيم ينال ، فانسحب ابراهيم ينال من العراق إلى ايران ، وأعلن عصيانه . ودارت المراسلة بين إبراهيم ينال وبين المؤيد في الدين والبساسيري وتلقى إبراهيم منهما وعوداً بالمساعدة لانتزاع عرش السلطنة السلجوقية من طغرلبك واستولى ابراهيم على بلاد الجبل وهمذان مما أجبر طغرلبك على الانسحاب من العراق عائداً إلى الري لمواجهة تمرد أخيه . وأخيراً التقى طغرلبك بإبراهيم في معركة حاسمة انتهت بهزيمة إبراهيم ومقلته سنة ٤٥١هـ/ ١٠٥٨م[3] .

---

(١) سيرة المؤيد ص ١٠٩ ـ ١٣٠ ؛ رشيد الجميلي امارة الموصل في العصر السلجوقي ص ٥٥ .

(٢) ابن الأثير الكامل جـ ٩ ص ٦٢٥ ـ ٦٢٦ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٣٤ .

(٣) سيرة المؤيد ص ١٧٤ ـ ١٧٦ ؛ ابن العمراني الأنباء في تاريخ الخلفاء ؛ ص ١٩٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٦٣٩ ـ ٦٤٥ .

انتهز البساسيري فرصة انسحاب طغرلبك من العراق لمواجهة تمرد أخيه، واندفع الى بغداد حاملاً الرايات المستنصرية الفاطمية، وكان معه حليفه قريش بن بدران العقيلي ، وتم الاستيلاء على عاصمة الخلافة العباسية في ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م . وقبض قريش بن بدران على الخليفة القائم وأرسله في صحبة عمه مهارش العقيلي الى حصنه بحديثة عانة[١] مع أهله وحاشيته . وأقيمت الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمي في جامع المنصور ببغداد وقطعت الخطبة العباسية وزيد في الأذان عبارة « حي على خير العمل »[٢] .

وإذا كان دخول البساسيري بغداد واعتقال الخليفة العباسي وإقامة الخطبة للمستنصر ، بدا وكأنه قمة النجاح بالنسبة لجهود الفاطميين ، إلا أنه في الحقيقة كان بداية الفشل والاخفاق ، ففي مصر عزل المستنصر وزيره اليازوري الذي وضع الخطط لمواجهة الزحف السلجوقي ، ولم يخلفه في الوزارة من يماثله في كفاءته وحنكته[٣] . وبعد ان نجح

---

(١) عانه بلد مشهور بين الرقة وهيت يعد في أعمال الجزيرة . انظر : ياقوت : معجم البلدان .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٢ ورقة ١٩٧ ب ؛ ابن ظافر الأزدي ، أخبار الدول المنقطعة قسم الفاطميين ص ٦٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ص ٦٤٠ ـ ٦٤٥ ؛ ابن طباطبا ؛ الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ص ٢٩٣ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفا ص ٦٦٥ ؛ الأربلي ، خلاصة الذهب المسبوك ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .

(٣) المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢٣٦ = وصف ابن ظافر الأزدي حركة البساسيري بقوله : « وكانت هذه الحادثة العظيمة آخر سعادة هذه الدولة (الفاطمية) وأول تناقص أحوالها مثل السراج الذي يلتهب عند انطفائه » . ابن ظافر ، أخبار الدول المنقطعة : قسم الفاطميين ص ٦٨ ؛ انظر أيضاً : ابن ميسر ، أخبار مصر جـ٢ ص ١١ ؛ المقريزي اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢٥٧ .

طغرلبك في القضاء على حركة أخيه إبراهيم ، عاد مسرعاً إلى العراق لإعادة الخليفة القائم إلى عاصمته . وعند اقتراب السلطان السلجوقي من بغداد هرب البساسيري منها ، ودخل طغرلبك بغداد ، وعاد الخليفة العباسي إلى عاصمته ، وعادت الخطبة العباسية إلى العراق بعد انقطاعها قرابة عام . وأرسل السلطان طغرلبك جيشاً لمطاردة البساسيري . ثم سار طغرلبك بنفسه وراء البساسيري ودارت معركة فاصلة في ذي الحجة سنة ٤٥١هـ/ يناير ١٠٥٩م انتهت بمقتل البساسيري ، وفشل الخطط الفاطمية[١] .

وبعد القضاء على فتنة البساسيري بلغت قوة طغرلبك واتساع نفوذه حداً جعله يفكر في مصاهرة الخليفة القائم ، فخطب ابنته ولم يجد الخليفة الضعيف بداً من الموافقة على طلب طغرلبك وتم الزواج سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م[٢] . ولم يفكر طغرلبك في غزو بلاد الشام بعد سيطرته على بغداد ، تاركاً هذه المهمة لغيره من السلاجقة ، ولم يلبث ان توفي سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م وعمره سبعون عاماً[٣] .

وخلف السلطان ألب ارسلان عمه طغرلبك ، وقد واجهه الكثير من الفتن داخل حدود الدولة السلجوقية ، صرفت انتباهه مؤقتاً عن بلاد الشام وغيرها من الأقاليم التابعة للدولة الفاطمية[٤] . وبعد أن وطد ألب أرسلان

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٢ ورقة ٢٠٠ ب ، ٢٠١ أ ـ ب ؛ ابن ظافر الأزدي ، أخبار الدول المنقطعة : قسم الفاطميين ص ٦٨ ؛ ابن الأثير الكامل جـ ٩ ص ٦٤٦ ـ ٦٤٩ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٠ ـ ٢٢ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٥ ص ٦٦ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٦ ؛ فامبري ، تاريخ بخارى ص ١٣٥ .

(٤) انظر ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ الصفحات ٣١ ، ٣٦ ، ٤٩ ، ٥٣ .

نفوذه أخذ يرنو ببصره نحو الغرب حيث الاقاليم الخاضعة للفاطميين ، فبعث إلى محمد بن أبي القاسم الحسني أمير مكة المكرمة بثلاثين ألف دينار وبخلع وهدايا قيمة أخرى ، وأجرى له في كل سنة عشرة آلاف دينار مقابل اسقاط اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة ، وإقامة الخطبة للسلطان السلجوقي والخليفة العباسي على منبر المسجد الحرام . وبعث أيضاً إلى أمير المدينة المنورة بعشرين ألف دينار وهدايا ونفائس ، ووعده براتب سنوي . فقطعت خطبة الخليفة الفاطمي المستنصر من الحرمين الشريفين ودعى فيهما للخليفة العباسي القائم وللسلطان ألب أرسلان ، وبذلك دخل الحجاز في طاعة السلاجقة سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م مع ما يمثله هذا الاجراء من مغزى سياسي وديني هام[١] . وبدأ السلطان ألب أرسلان يتطلع لغزو بلاد الشام .

خضوع المرداسيين في حلب للسلطان ألب أرسلان ٤٦٢هـ/ ٤٦٣هـ

وكان من الطبيعي ان يدخل محمود بن نصر المرداسي في طاعة السلاجقة وان تقام الخطبة للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي بدلاً من الفاطميين . فقد انتصر محمود في نزاعه مع عمه عطية على إمارة حلب بمساعدة ابن خان واتباعه من التركمان ، كما ان علاقة محمود بالخلافة الفاطمية تدهورت كثيراً ، فضلاً عن ان بلاد الشام أضحت تحت رحمة

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦١ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ .

القوى التركمانية الجديدة . كل هذه العوامل مجتمعة ، دفعت محموداً المرداسي الى الارتباط بالولاء للسلاجقة ، فراسل السلطان ألب أرسلان وتقرر ان يخطب بحلب سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م للخليفة العباسي وللسلطان من بعده . ووصل إلى حلب مبعوث الخلافة العباسية طراد بن علي الزينبي[١] ، حاملاً الخلع والتقليد ، والألقاب من الخليفة والسلطان لمحمود بن نصر[٢] . وجمع محمود زعماء حلب وعرض عليهم الدخول في طاعة السلاجقة قائلاً : « هذه دولة جديدة ، ومملكة شديدة ، ونحن تحت الخوف منهم وهم يستحلون دماءكم لأجل مذاهبكم ، والرأي ان نقيم الخطبة قبل أن يأتي وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل »[٣] . وقد وافق زعماء حلب على رأي محمود ، إلا ان الأمر لم يخل من المعارضة إذ أن بعضاً من سكان حلب يدينون بالمذهب الشيعي . وحينما خرج الخطيب والمؤذن يوم الجمعة وهم يلبسون الشعار العباسي ، انزعج الناس . ولما ذكر اسم الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي نفر معظم المصلين من الجامع . وفي الجمعة التالية ، طلب محمود بن نصر من ابن خان واتباعه

(١) طراد بن محمد بن علي الزينبي ، ينتهي نسبه لأبيه وأمه الى عبد الله بن عباس رضي الله عنه ، سمع الحديث وقرأ أمهات الكتب وانفرد بالرواية عن جماعة ، وشد اليه طلاب العلم الرحال ، كما أملى الحديث في بلدان مختلفة ، وكان يحضر مجلسه العلماء والأشراف ، تولى نقابة الطالبيين مدة طويلة وتوفى سنة ٤٩١ هـ وعمره يزيد على تسعين سنة ، انظر ابن كثير ، البداية والنهاية جـ١٢ ص ١٥٥ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ١٦ ، ويذكر ابن العديم أن محمود لقب من قبل القائم بأمر الله العباس بلقب : الأمير الأجل حسام الدولة العباسية ، وزعيم جيوشها الشامية ، تاج الملوك ناصر الدين شرف الأمة ذو الحسبين خالصة أمير المؤمنين » .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٦٣ ؛ انظر أيضاً : سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٤٢ أ .

التركمان ، الوقوف على باب الجامع ، وقتل كل من يخرج دون أدائه الصلاة . لكن زعماء حلب خشوا مغبة هذا الاجراء فاجتمعوا بمحمود وتكفلوا بالقيام على باب الجامع لمنع المصلين من الخروج . وبعد نهاية الصلاة عبر المصلون عن احتجاجهم بأخذ حصر الجامع[1] . وفي الوقت الذي وجد فيه محمود المرداسي معارضة من سكان حلب إزاء إقامة الخطبة العباسية السلجوقية أقامت قبيلته كلاب الخطبة في ريف حلب للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي ، وذلك درءاً لخطر التركمان[2] .

وفي هذا الوقت بلغت الأمور في مصر حداً أثار أطماع السلطان ألب أرسلان في امتلاك مصر : فالشدة المستنصرية طحنت البلاد ، ونجم عن ذلك وقوع الفتنة في مصر بين الأتراك والسودان . فقد كان يقود الأتراك ايلدكز وناصر الدولة الحسين بن حمدان القائد الفاطمي الخارج على الخليفة المستنصر ووقعت الحروب بين القوى المتنافسة من أجل التسلط على المستنصر[3] . وفي سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م بعث ناصر الدولة بن حمدان ، الفقيه ابا جعفر بن محمد البخاري قاضي حلب الى السلطان ألب أرسلان طالباً منه امداده بالعساكر ليقيم الدعوة العباسية على أن تصبح مصر ولاية تابعة لابن حمدان . وعندما ابلغ أبو جعفر رسالة ابن حمدان للسلطان ألب أرسلان رأى في ذلك تحقيقاً لحلم عمه طغرلبك

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٤٢ أ ؛ ابن العديم زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٦ ـ ١٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٣ ؛ ابن أيبك الداواداري ، كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٦ ، الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية ص ٣٨٨ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٤٢ أ .

(٣) ابن ميسر ، أخبار مصر جـ ٢ ص ١٣ ـ ١٩ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ٢٦٥ ـ ٣١٠ ؛ زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ١٤٠ .

في الاستيلاء على بلاد الشام ومصر[1] . فتجهز على رأس جيش كبير من الغز قاصداً بلاد الشام . وكان سيره من همذان في ذي القعدة سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م عن طريق اذربيجان وارمينية فوصل إلى أرجيش[2] وملازكرد في ارمينية وفتحهما . وبعث من ارمينية بسرية إلى الأراضي البيزنطية بقيادة افشين لمطاردة أحد زعماء التركمان الناوكية المتمردين ويدعي اريسيغي[3] . ويبدو أن ألب أرسلان كان يأمل من بعثه الافشين استطلاع موقف البيزنطيين من زحفه على الشام ومصر ، إذ لا يمكنه الاستمرار في زحفه نحو مصر دون حساب الموقف البيزنطي .

وكيفما كان الأمر فإن السلطان ألب أرسلان واصل زحفه حتى وصل إلى ميافارقيـن ودخل وزيره نظام الملك إلى المدينة واخرج معه نصر بن مروان امير ميافارقين وديار بكر وفرض عليه السلطان مائة الف دينار وخلع عليه واقره على امارته . وفتح ألب أرسلان في هذه المنطقة حصن السويداء وبعض الحصون الأخرى من أيدي البيزنطيين[4] .

واصل ألب أرسلان سيره حتى ضرب الحصار حول مدينة الرها الخاضعة للبيزنطيين ، وكان يحكمها دوقس يسمى باسيل بن اسار من قبل

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٣ ورقة ٢٨١ ب ؛ المقريزي؛ المقفي، ورقة ٢٠٧أ ؛ العيني، عقد الجمان جـ١١ ورقة ٥٨ ب؛ ابن ميسر أخبار مصر جـ٢ ص ١٩؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٣٠٢ .

(٢) ارجيش ، مدينة قديمة من نواحي أرمينية الكبرى قرب خلاط وأهلها أرمن نصارى . انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٥٢ أ .

(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ورقة ٢٥٢ ب ؛ السويداء بلد مشهور في ديار مضـر قرب حران بينها وبين بلاد الروم غالبية أهلها نصارى أرمن انظر ، ياقوت ، معجم البلدان .

الامبراطور رومانوس ديوجينس . أما سكان الرها فكانوا من عناصر مختلفة منهم « ثمانية آلاف ارمني وعشرون الف سرياني وستة آلاف رومي ، والف افرنجي »[1] . وأرسل ألب أرسلان إلى أهل المدينة يعرض عليهم الانسحاب عنهم مقابل بعض الأموال وفي الوقت نفسه امر بعض النقابين بالعمل سراً لفتح ثغرات في اسوار المدينة . وبينما كان سكان الرها يعملون على جمع الأموال التي طلبها ألب أرسلان اكتشفوا اماكن النقب في الحصن فأوقعوا بالعاملين فيها وأسروا بعضهم وقتلوهم ، ورموا رؤوسهم بالمنجنيقات[2] على معسكر السلطان وصاحوا عليه وشتموه من فوق الأسوار . وحاصرهم ألب أرسلان ثمانية وثلاثين يوماً وقام بالزحف على المدينة عدة مرات مستخدماً المنجنيقات والدبابات[3]

---

(١) زكار ، مختارات من كتابات المؤرخين العرب ص ١٤٦ .

(٢) المنجنيقات : جمع منجنيق وهي أصناف مختلفة وذات تراكيب متباينة فمنها العربي والفارسي ، والافرنجي . فمثلاً المنجنيق العربي يصنع من الخشب الجيد ، وأجزاؤه الرئيسية تتكون من مثلث متساوي الساقين تكون قاعدته أصغر من الساق بمقدار التسع ويركب في أعلا المثلث خنزيرة من خشب السنديان ويكتنفها من أسفل بطانة ويوجد تحت الخنزيرة سقف لمنع وصول الأذى الى الرجال الذين تحته . وتستخدم المنجنيقات لرمي السهام إلى مسافات بعيدة ولرمي الحصون بالحجارة الضخمة كما تستخدم كذلك لقذف قدور النفط والكرات المشتعلة وغير ذلك . انظر : الطرسوسي ، تبصرة أرباب الألباب ، نشر كاهن ، ص ١٦ ـ ١٧ ؛ عبد الرحمن زكي ، السلاح في الإسلام ص ٥٨ ـ ٥٩ .

(٣) الدبابات : جمع دبابة ، يستعان بها في ثقب الأسوار وما شابهها وهي تتفاوت في الكبر والصغر حسب الحاجة لها ، وتتكون في الغالب من آلة سائرة من الخشب الثخين وتغلف باللبود والجلود المنقعة في الخل لدفع النار وتركب على عجلة مستديرة وتحرك فتنجر ، وربما جعلت برجا من الخشب ، وقد يدفعها الرجال فتندفع على البكر . انظر الطرسوسي تبصرة أرباب الألباب ص ١٨ ؛ المقريزي اتعاظ الحنفا ، تحقيق الشيال ، جـ ١ ص ٨١ حاشية رقم (٣) .

بيد أنه اخفق في ذلك بسبب حصانة المدينة ومتانة أسوارها[1] . ثم أمر السلطان ألب أرسلان بوضع الأخشاب في الخندق المحيط بالحصن . لتتمكن الخيل من العبور عليه ، فتسلل المدافعون عن الحصن إلى الخندق واضرموا فيه النيران وحالوا بذلك دون زحف جيش السلطان على المدينة . وبعد المفاوضات والإقامة الطويلة تبين للسلطان صعوبة اخضاع المدينة ، خصوصاً بعد انتشار موجات الضجر والتذمر داخل صفوف التركمان ، الذين لم يتعودوا على الاقامة مدة طويلة لحصار مدينة واحدة ، بل اعتادوا على النصر السريع في معارك مكشوفة . لذلك قرر السلطان ترك حصار الرها قاصداً الفرات إلى الشام . وذكر سبط ابن الجوزي أن رحيل ألب أرسلان عن الرها كان لسببين « أحدهما تأخر خبر الافشين ، والثاني تقاعد من بقي معه من العراقيين عسكر طغرلبك عن القتال وخبث نفوسهم لتأخر أرزاقهم »[2] لذلك عندما سار قاصداً حلب لم يبق معه الا القليل من العساكر[3] .

أرسل السلطان ألب أرسلان إلى محمود بن نصر المرداسي أمير حلب يدعوه إلى الخروج اليه لتقديم فروض الطاعة والولاء اسوة بغيره من أمراء الشام والجزيرة مثل مسلم بن قريش العقيلي ، امير الموصل ونصر ابن مروان الكردي أمير ميافارقين وديار بكر وابن وثاب النميري امير حران وابن مزيد وغيرهم من أمراء الترك والديلم . غير ان محموداً المرداسي شعر بالخوف من السلطان وأرسل اليه يعلن دخوله في طاعته دون أن

---

(١) زكار ، مختارات من كتابات المؤرخين الغرب ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .
(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٥٢ ب .
(٣) ابن أيبك الداواداري ، الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية ، ص ٣٩١ ـ ٣٩٢ .

يخرج اليه بنفسه[1] . وقطع السلطان ألب أرسلان نهر الفرات نحو حلب في منتصف شهر ربيع الآخر سنة ٤٦٣هـ/ يناير ١٠٧١م . وكان لعبور ألب أرسلان نهر الفرات مغزى سياسي كبير ، اذ أنه أول ملك تركي يجتاز هذا النهر . وقد عبر عن هذا المغزى الفقيه أبو جعفر البخاري عندما خاطب السلطان ألب أرسلان قائلاً : « يا مولانا احمد الله تعالى على هذه النعمة ، وهي أن هذا النهر لم يقطعه تركي الا مملوكاً وأنت قطعته ملكاً » . فأعجب السلطان هذا القول وحمد الله وأثنى عليه[2] .

وصل السلطان ألب أرسلان بجيشه إلى مشارف حلب وقام بعض التركمان بنهب ريف حلب ووصلوا في غاراتهم الى قرى حمص ونهبوا قبيلة كلاب «وعادوا بغنائم عظيمة وهربت العرب إلى البرية »[3] . وأرسل السلطان مرة أخرى إلى محمود بن نصر طالباً منه الحضور فرفض . واستمرت المراسلة بين السلطان ألب ارسلان وبين محمود المرداسي بواسطة ايتكين السليماني حاجب السلطان ومبعوث الخليفة العباسي طراد الزينبي الذي حمل الخلع والتقليد إلى محمود من الخليفة القائم . وأصر السلطان على حضور محمود إليه واعلان خضوعه وتقديم الخدمة له ، بينما ظل محمود متمسكاً برأيه في عدم الخروج[4] .

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٣ ورقة ٢٨١ ب ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٥٢ ب ؛ العمري مسالك الأبصار جـ١٦ ورقة ١٠٢ ب ؛ العيني ، عقد الجمان جـ١١ ورقة ٦٠ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٩ . انظر أيضاً : Zakkar, op. cit. pp. 177 - 178 .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٣ ورقة ٢٨٢ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٩ - ٢٠ ؛ ابن خلكان وفيات الأعيان جـ٥ ص ٦٩ ، انظر أيضاً : Zakkar, op. cit., p. 185 .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٥٢ ب .

(٤) المصدر السابق جـ١٢ ورقة ٢٥٣ أ ؛ العيني ، عقد الجمان جـ١١ ورقة ٦٠ب ؛ =

ويبدو أن محموداً المرداسي اعتقد ان إقامة الخطبة للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي اجراء يعفيه من تقديم الخضوع الشخصي للسلطان . ولعل اخفاق ألب أرسلان في فتح الرها شجع محموداً على الاعتصام بحلب معتمداً على حصانتها ، واصرار سكانها على الوقوف ضد الغز خوفاً مما قد يجره سقوط المدينة من أضرار . ولكن السلطان لم يكن ليرضى بالاخفاق مرة أخرى أمام حلب بعد عجزه أمام الرها لأن حلب نقطة الانطلاق الهامة إلى بقية اجزاء بلاد الشام ومصر . كما أن الفشل امام حلب بعد الرها سيحط من مكانته وسمعته باعتباره سلطان المسلمين الذي أوكل إليه الخليفة العباسي مهمة توحيد الأقاليم الإسلامية[1] .

ولجأ سكان قرى حلب إلى داخل المدينة خوفاً من الجيش السلجوقي الذي حاصر حلب في جمادى الآخرة سنة ٤٦٣هـ/ مارس ١٠٧١م . ودام الحصار أكثر من شهر وقام الجيش السلطاني بعدة هجمات على المدينة اخفقت كلها في اقتحامها وبذل سكان حلب اقصى جهودهم في الدفاع عن مدينتهم ثم أمر السلطان بالزحف على المدينة وقاد الهجوم بنفسه فقتل فرسه أثناء الهجوم ثم أمر بوقف القتال . ولجأ إلى مناورة سياسية لاستدراج محمود وتخويفه فراسل زعماء بني كلاب واحضرهم من بادية حلب ، وقرر تقليد بعضهم امارة حلب . وكان هذا الإجراء كافياً لاخضاع حلب . فحينما علم محمود بما أزمع عليه السلطان خشي زوال حكمه من حلب ، فراسل ايتكين الحاجب واخبره أنه قرر

= ١٦١ أ؛ ابن الأثير، الكامل جـ ١٠ ص ٦٤؛ ابن العديم، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٠ .

(١) انظر : Zakkar , op. cit. p. 177.

الخروج إلى السلطان وخدمته . وخرج ليلاً مع والدته منيعة بنت وثاب النميري ، ودخل على السلطان وسلم له مفاتيح حلب واعتذر له عن تصرفه . فأكرمه السلطان وقبل عذره وأمره بالعودة إلى حلب والخروج في اليوم التالي علناً . فخرج محمود في صباح الأول من شعبان سنة ٤٦٣هـ/ ٤ مايو ١٠٧١ فاستقبله السلطان ألب أرسلان وخلع عليه وكتب له توقيعاً بإمارة حلب[١] .

وقد برزت أمام السلطان ألب أرسلان بعض الصعوبات جعلت استمرار حملته على بلاد الشام ومصر مهمة شبه مستحيلة . وعلى رأس هذه الصعوبات جميعاً خروج الامبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينس (الرابع) على رأس جيش كثيف إلى أرمينية قاصداً خراسان معقل الأتراك السلاجقة[٢] .

ومن الأسباب التي حدت بالسلطان ألب أرسلان إلى وقف حملته على الشام ومصر التذمر والضجر الذي حدث في صفوف عساكره من التركمان . وقد بدأ هذا التذمر اثناء حصار الرها ، فالسياسة التي سار

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٥٣ أ ـ ب ؛ ابن العديم بغية الطلب جـ ٣ ورقة ٢٨٠أ؛ العيني ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٦٠ ب ، ٦١أ ؛ ابن الشحنة روض المناظر في علم الأوايل والأواخر ورقة ٦٠ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٢ ـ ٢٣ ؛ ابن ايبك الداواداري ، الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية ، ص ٣٩٢ .

Zakkar, op. cit. p. 178.

(٢) ابن العديم، بغية الطلب، جـ ٣ ورقة ٢٨٢ ب ؛ ابن ابي الدم الحموي التاريخ المظفري ورقة ١٥٢ ب ، ١٥٣ أ ؛ المقريزي ، المقفي ورقة ٢٠٧ أ ؛ العيني ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٥٨ ب ، ٥٩ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٢ ؛ ابن ميسر أخبار مصر جـ ٢ ص ١٩ ـ ٢٠ .

عليها ألب أرسلان في حملته على الشام وهي سياسة الموادعة لاجتذاب زعماء المنطقة إلى طاعته ، ومحاولته كف أيدي التركمان عن النهب لا تتفق وطبيعة التركمان التي درجوا عليها ، ومن المرجح أن الرغبة في الغنائم هي التي دفعت اعداداً كبيرة من الغز إلى التطوع في جيش السلطان لغزو الشام . كما أن محاولة السلطان اخضاع المدن الهامة الواقعة على الطريق إلى مصر مثل الرها وحلب وما يقتضيه ذلك من حصار طويل لهذه المدن سياسية لا تتفق ونفسية التركمان الذين تعودوا على النصر السريع في معارك مكشوفة ، وما ينجم عن ذلك من غنائم وفيرة . ويضاف إلى هذا ان كثيراً من الجنود امتد غيابهم عن أهلهم إلى ما يقارب السنة ، لذلك كانوا يطالبون بالعودة الدورية إلى أهلهم وهي عادة غزية لا يستطيع السلطان حرمانهم منها[1] .

وفضلاً عن شعور السلطان بالتذمر والضجر في صفوف عساكره ، فإنه أدرك أن استمراره في حملته نحو مصر سيؤدي إلى انسحاب معظم عساكره لأنه لا يوجد في مصر ما يثير الطمع بالنسبة لهم ، فالمجاعة الشديدة المعروفة بالشدة المستنصرية أتت على كل شيء في تلك البلاد ، ويدل على هذا أن التركمان الناوكية الذين اغاروا على بلاد الشام خلال ولاية بدر الجمالي وصل بعضهم إلى بلبيس في مصر فلم يجدوا ما يأكلونه ولا ما تأكله خيولهم ، فعادوا أدراجهم إلى الشام[2] .

ومن المحتمل أن السلطان ألب أرسلان شعر أن المغامرة بالمسير إلى مصر في غاية الخطورة ، حيث لا تزال معظم موانىء الشام خاضعة

---

(١) شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز إلى الشام، ص ٣٥٧ .
(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ١٣ B ورقة ٤ ب ـ ٥ أ .

للفاطميين ، وبها حاميات فاطمية وقطع تابعة للاسطول الفاطمي ، قد تهاجم مؤخرة جيش السلاجقة وتقطع عليه خط الرجعة عند زحفه على مصر . ويضاف إلى هذه الصعوبات ان السلطان اكتشف ان الذي كان يحرض محموداً المرداسي على عدم الخروج لدوس بساط السلطان أحد اقرباء الزعيم التركماني ابن خان الذي ما ان علم بموقفه حتى تسلل هارباً إلى دمشق . وهذا يعني ان جماعات التركمان الموجودة في بلاد الشام منذ زمن ، فقد تقف موقف العداء من السلطان لما يمثله استيلاؤه على بلاد الشام من خطر على نفوذها[1] .

أما عن موقف الدولة البيزنطية ففي الحقيقة انه لم يكن بمقدورها ان تقف موقف المتفرج امام زحف التركمان على آسيا الصغرى وبلاد الشام . فالسلطان طغرلبك سبق ان هاجم ارمينية ، كما ان السلطان ألب ارسلان قام في عامي ٤٥٦هـ/ ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥ ـ ١٠٦٦م بحملات واسعة على إقليم ارمينية وبلاد الكرج ، ونجح في الاستيلاء على كثير من مناطق هذه الهضبة بما فيها مدينة اني حاضرة أرمينية[2] . وفي سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م تمكنت طوائف التركمان الأخرى من الاستيلاء على قيصرية في اقليم قيليقية[3] .

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٥٣ ب ؛ شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز إلى الشام ص ٣٥٦ .

(٢) انظر تفصيل حملات ألب أرسلان في أرمينية في : ابن شداد، الاعلاق الخطيرة جـ ١ ورقة ١٩٧ أ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٣٧ ـ ٤١ ؛ ناصر بن علي الحسيني ، أخبار الدولة السلجوقية ص ٣٨ ـ ٤٠ .
Ostrogorsky , History of the Byzantine State, P. 343.

(٣) Ostrogrosky, op. cit. , P. 343.

وكان الامبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينس جندياً فائقاً ووطنياً صادقاً[٤] ساعدته الظروف على تقلد منصب الامبراطور ، وذلك عندما توفي الامبراطور قسطنطين دوقاس سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م فآل عرش الامبراطورية إلى زوجته ايدوكيا التي أضحت وصية على أبنائها . بيد أن الاخطار التي تعرضت لها الامبراطورية جعلت ايدوكيا تسارع بالزواج من القائد العسكري رومانوس ديوجنيس ، ذي الخبرة الطويلة في حروب البجناك . وفي أواخر سنة ٤٦٠هـ/ يناير ١٠٦٨م تم الاعلان عن رومانوس ديوجينس امبراطوراً للدولة البيزنطية[١] . ولما اشتدت غارات التركمان على أراضي الدولة البيزنطية في هضبة أرمينيـة وقيليقية ، واطراف الشام الشمالية ، بذل الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينس جهداً مضنياً لوقف زحف التركمان وسد المنافذ أمامهم . وفي سبيل ذلك قام بثلاث حملات على بلاد الشام وأعالي الجزيرة في السنوات ٤٦١ - ٤٦٣هـ/ ١٠٦٨ - ١٠٧١م كانت الحملة الأولى سنة ٤٦١هـ/ ١٠٦٨م ضد حلب ، وفيها انتصر الامبراطور رومانوس على محمود المرداسي ومن معه من التركمان والعرب . واستولى رومانوس على بعض الحصون مثل أرتاح ، وواصل زحفه حتى استولى على منبج وقتل كثيراً من سكانها ، ثم شحنها بالرجال والمؤ ن . وعقد الامبراطور البيزنطي العزم على الاستمرار في حملته على بلاد الشام ، غير انه تراجع عن ذلك وانسحب عائداً إلى بلاده بسبب ورود أخبار تفيد بأن احد قادة التركمان ، ويدعى افشين بن بكجي ، قد استولى على عمورية ونهبها ، وأنه أوغل في عمق الأراضي البيزنطية[٢] .

---

(١) رونسيمان ، الحروب الصليبية جـ١ ص ٩٦ .

(٢) ostrogorsky , op. cit. PP. 343 - 344

(٣) العييني ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٥٧ أ ؛ الأصفهاني ، البستان الجامع لجميع =

وفي العام التالي ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م عاد الامبراطور رومانوس على رأس حملة أخرى إلى بلاد الشام وصل فيها إلى منبج وإلى عزاز من أعمال حلب وقام بتدمير القرى والحقول الواقعة بين الأراضي البيزنطية ومنبج ، ثم انسحب لقلة المؤن وانتشار القحط . وظلت منبج خاضعة للبيزنطيين لمدة سبعة أعوام[١] .

أما الحملة الثالثة فهي التي انتهت بمعركة ملازكرد . فقد صمم الامبراطور رومانوس ديوجينس على استرداد اراضيه . ويبدو انه قرر استغلال غياب السلطان ألب أرسلان في بلاد الشام لمهاجمة دولة السلاجقة فخرج على رأس جيش ضخم من الروم والنورمان والغز والروس وغيرهم[٢] .

وعندما كان السلطان ألب أرسلان مقيماً بمنطقة حلب في شعبان سنة ٤٦٣هـ/ مايو ١٠٧١م بلغه نبأ عودة قائده افشين الذي ارسله لرد اريسيغي . ووصله في الوقت نفسه رسول من الامبراطور البيزنطي يحمل عرضاً بإعادة بعض المناطق في ارمينية وشمال الشام وتوقيع الهدنة . بيد

= تواريخ أهل الزمان ورقة ٩٠ أ ؛ العظيمي حوادث سنة ٤٦٢ ؛ خودا بخش، حضارة الإسلام ص ٦٢. Ostrogorsky, op. cit. P. 343.

(١) العيني ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٥٩ ب؛ الذهبي، دول الاسلام جـ ١ ص ٢٧٠؛ اليافعي، مرآة الجنان جـ ٣ ص ٨٥. Ostrogorsky, op. cit., p. 343.

(٢) تبالغ المصادر العربية في عدد جيش الأمبراطور البيزنطي ، لتفاصيل ذلك ، انظر: مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٥٥ أ؛ ابن الجوزي، المنتظم جـ ٨ ص ٢٦١ ؛ ابن الأثير، الكامل جـ ١٠ ص ٦٧؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٣؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ص ١٨٥؛ ابن ايبك الداواداري، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية ، ص ٣٩٣ .

ان سبط بن الجوزي الذي اورد خبر هذه السفارة البيزنطية الغامضة لا يعطي أي تفصيل عنها ، ومن المرجح ان الامبراطور البيزنطي كان يهدف منها إلى استطلاع مدى قوة السلطان حيث لاحظ رسول الامبراطور رجوع ألب أرسلان عندما « قطع الفرات وهلك أكثر الدواب والجمال وكان عبوره شبه الهارب . . . . وعاد رسول الروم مستبشراً إلى صاحبه فقوى ذلك عزم ملك الروم على اتباعه وحربه »[1] .

وعندما اجتاز السلطان ألب أرسلان نهر الفرات عائداً من الشام لم يبق معه سوى خمسة عشر الف مقاتل ، حيث عاد الكثير من التركمان إلى أهلهم في خراسان . ولم يكن عامل الزمن في صالح السلطان حتى يتمكن من جمع عساكره ، فقرر مواجهة الامبراطور البيزنطي بمن معه ، وارسل أهله واثقاله مع وزيره نظام الملك إلى همذان ، وسار هو بفرسانه قاصداً ارمينية لصد الامبراطور البيزنطي[2] .

ورغم ان السلطان ، عندما سار بمن معه لمواجهة الامبراطور البيزنطي كان في قلة من العساكر حسب ما ذكرته المصادر فإن الأمر الذي لا شك فيه انه قد انضم إلى صفوف جيش السلطان الكثير من القبائل التركمانية التي كانت تعمل ضد البيزنطيين في آسيا الصغرى ، اضافة إلى الحاميات السلجوقية التي كانت تقيم فعلاً في بعض مدن ارمينية منذ فتح السلطان لها سنة ٤٥٦هـ - ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م - ١٠٦٦م . وأخذ السلطان

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٥٣ ب - ٢٥٤ أ .

(٢) نفس المصدر والجزء ورقة ٢٥٤ أ - ب ؛ ابن ايبك الداواداري، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية ص ٣٩٢ ؛ Cahan la Campagne de Mantzikrtd après les Sources Musulmanes in Byzantion, IX (1934), pp. 614-615.

يستثير حماس جنوده عندما خاطبهم قائلاً : « انا احتسب نفسي عند الله وهي اما السعادة بالشهادة واما النصر ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾[١] ثم سار مرتباً جيشه قاصداً جموع الروم »[٢] .

أرسل رومانوس مقدمة جيشه من الروس وعددها عشرة آلاف جندي للاستيلاء على خلاط[٣] ، وتوجه هو ببقية الجيش الى ملازكرد (منازكرد) واستولى عليها . وعندما وصل ألب أرسلان إلى أرمينية جعل لجيشه مقدمة بقيادة صندق التركي ، فسارت والتقت بمقدمة الامبراطور عند مدينة خلاط وهزمتها وأسرت قائدها ، الذي حمل إلى السلطان فجدع أنفه ، وبعث بالغنيمة إلى نظام الملك ، وأمره أن يرسلها إلى بغداد مبشراً الخليفة بمقدمات النصر[٤] .

على أن نشوة هذا النصر لم تدفع ألب أرسلان إلى المجازفة بمواجهة الامبراطور الذي يفوق جيشه جيش السلطان عدداً وعدة . كما ان حملات ألب أرسلان على أراضي الدولة البيزنطية لم يكن يسعى من ورائها إلى القضاء على هذه الدولة وانما كان هدفه اضعافها او إلزامها بموقف الحياد حتى يوجه جهوده نحو توحيد العالم الإسلامي . ولهذا ارسل إلى رومانوس يطلب الصلح والهدنة . ولم يكن الامبراطور على استعداد لقبول الهدنة بعدما انفق أموالاً طائلة في اعداد جيشه من عناصر

(١) سورة الحج آية (٤٠) .
(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٥ .
(٣) خلاط ، من أشهر مدن أرمينية وهي قصبة أرمينية الوسطى بينها وبين ملازكرد سبعة فراسخ ، انظر ياقوت : معجم البلدان ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٣٩٥ .
(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٥٤ ب ؛ ابن الجوزي : المنتظم جـ ٨ ص ٢٦١ ؛ ابن الجوزي : الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٦ ؛ ابن ايبك الداواداري ، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية ص ٣٩٣ .

مختلفة يصعب جمعها مرة أخرى ، لذا رد على السلطان قائلاً « لا هدنة إلا بالري » اي ان هدفه لا يقتصر على استرداد ارمينية فقط ، بل يريد غزو بلاد السلاجقة حتى يصل إلى قلب دولتهم بخراسان ، وعندئذ ادرك السلطان انه لم يعد هناك مفر من القتال[1] .

وتصف المصادر الإسلامية الروح المعنوية القوية التي بثها السلطان ألب أرسلان في نفوس جنوده قبل المعركة لدرجة انه عندما تلقى جواب الامبراطور رومانوس برفض الهدنة قال له إمامه وفقيهه ابو جعفر محمد البخاري : « انك تقاتل عن دين وعد الله بنصره واظهاره على سائر الأديان ، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح . . » واخذ السلطان يهيىء جنوده لخوض المعركة . وفي يوم الجمعة السادس والعشرين من ذي القعدة سنة ٤٦٣هـ/ ٩ أغسطس ١٠٧١م باغت السلاجقة جيش بيزنطة بين ملازكرد وخلاط . ودارت المعركة الفاصلة في هذا المكان وحاقت الهزيمة بالبيزنطيين ، وانتصر المسلمون انتصاراً ليس كمثله انتصار . وغنم المسلمون غنائم ضخمة من ساحة المعركة ، ووقع الامبراطور رومانوس أسيراً في أيدي السلاجقة ، وهو أول امبراطور يأسره المسلمون خلال صراعهم الطويل مع الدولة البيزنطية . وأمر السلطان باحضار رومانوس بين يديه ، ووبخه على موقفه في رفض الهدنة ، فاعتذر بأنه أنفق كل موارد بلاده في سبيل الاعداد لحملته ، ولم يعد بوسعه الرجوع قبل خوض المعركة . ثم فاوضه السلطان في مقدار الفدية ، وأبدى كرماً جماً في معاملته ، واطلق سراحه بعد ان تعهد بتقديم جزية كبيرة ، وان يعيد انطاكية والرها ومنبج إلى المسلمين ، وان يطلق سراح الأسرى

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٥٤ب ؛ ابن شداد الاعلاق الخطيرة جـ١ ورقة ١٩٧ ب ؛ سعيد عاشور الحركة الصليبية جـ ١ ص ٨٦ .

المسلمين . ثم أعطاه السلطان المسلم عشرة آلاف دينار ليتجهز بها في عودته إلى بلاده ، وارسل معه فرقة لحراسته وودعه فرسخاً[1] .

على أن الحظ عبس في وجه رومانوس ديوجينس، إذ استولى ميخائيل السابع على عرش الامبراطورية ، وأعلن نفسه امبراطوراً فأرسل رومانوس إلى الامبراطور الجديد يخبره بما تقرر مع السلاجقة من شروط ، فوافق عليها ميخائيل لأنه لم يعد بوسعه الرفض بعدما سحقت قوات الامبراطورية في ملازكرد . وجمع رومانوس مائتي ألف دينار وارسلها إلى السلطان ألب أرسلان واقسم انه لا يجد غيرها . ثم قُبض عليه وسملت عيناه وقتل في صيف عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م . وعلى هذه الصورة انتهت حياة رومانوس ديوجينس بعدما أبداه من شجاعة في ملازكرد[2] .

أما عن أهم أسباب انتصار السلاجقة وهزيمة البيزنطيين في ملازكرد فيرجع إلى ما يلي :

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ١٢ ورقة ٢٥٥ أ ـ ب ؛ ابن الجوزي ، المنتظم جـ٨ ص ٢٦١ ـ ٢٦٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ص ٦٥ ، ٦٧ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢٧ ـ ٢٩ ؛ الحسيني ، أخبار الدولة السلجوقية ص ٤٩ ـ ٥١ ؛ الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٣ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ، ابن ايبك ، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية ، ص ٣٩٤ ـ ٣٩٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٢ ص ١٠١؛ فشر، أوروبا العصور الوسطى قسم ١ ص ١٧٥.

Ostrogorsky, Op. Cit. P. 344; Cahen, Op. Cit. P. 619.

(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٥٧ أ ـ ب ؛ ابن الجوزي ، المنتظم جـ٨ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ ؛ ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٦٧ .

Ostrogorsky, Op. Cit. PP. 344 - 345; The Cambridge Medieval History , Vol. IV, PP. 210 - 211 .

أولاً : ان الجيش البيزنطي كان مفتقراً إلى التجانس ، وحسن التنظيم ، فضلاً عن انعدام الولاء ، لدى قادة الجيش البيزنطي . فقد كان جيش بيزنطة مؤلفاً من جنود مرتزقة من البيزنطيين والنورمان والروس والتركمان وغيرهم . وحينما وقعت المعركة استجاب التركمان الذين جندهم رومانوس لرابطة الدم فانضموا إلى السلاجقة[١] .

ثانياً : الثقة المفرطة التي بلغت حد الغرور لدى الامبراطور وقادته عندما اعتقدوا انهم يستطيعون الوصول إلى قلب الدولة السلجوقية في خراسان ، لدرجة ان الامبراطور اقطع قادته بلاد المسلمين بما فيها بغداد ، وكان القادة يقولون : « لا بد أن نشتو بالري ، ونصيف بالعراق ونأخذ في عودنا بلاد الشام » في الوقت الذي كان هدف معظم جنود بيزنطة الكسب السريع السهل فلما اشتدت المعركة فر الكثير من الجنود المرتزقة وتركوا الامبراطور يواجه مصيره[٢] .

ثالثاً : بطء حركة الجيش البيزنطي بسبب ما كان يحمله من عدد ضخم من العجلات والمنجنيقات وآلات الحفر والحصار ، وما تتطلبه هذه الآلات من رجال مختصين في تشغيلها ، الأمر الذي زاد من أعباء الجيش التموينية وأدى إلى إبطاء حركته ، في الوقت الذي لم تكن المعركة في ملازكرد في حاجة إلى تلك العدة الضخمة[٣] .

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ٨٥ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٥٥ أ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم جـ ٨ ص ٢٦٤ .

(٣) انظر : سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٥٥ أ ؛ ابن الجوزي المنتظم جـ ٨ ص ٢٦١ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٢٨ .

رابعاً : خفة الحركة لدى فرسان السلاجقة ، وكان لكل فارس فرسان ، واحد يركبه والآخر بجنبه ، فضلاً عن أن السلطان ألب أرسلان وضع خطة محكمة ، تتلخص في تقسيم بعض فرق الجيش إلى مجموعات من الكمائن اختفت خلف التلال المحيطة بميدان القتال ، فلما بدأت المعركة انقضت تلك الكمائن على الجيش البيزنطي ولعبت دوراً حاسماً في تمزيقه[1] .

وتعتبر هذه المعركة من المعارك الفاصلة في التاريخ البيزنطي ، ومن الصفحات الناصعة في التاريخ الإسلامي ، ولا تقل في أهميتها ونتائجها عن معركة اليرموك في رأي بعض الباحثين . فإذا كانت معركة اليرموك قررت مصير بلاد الشام فإن معركة ملازكرد قررت ايضاً مصير آسيا الصغرى التي أصبحت مفتوحة على مصراعيها امام الأتراك السلاجقة بحيث توغلوا فيها ، واقاموا بها دولتهم المعروفة بسلاجقة الروم . وبذلك انتقلت هذه البلاد نقلة كاملة من الحضارة اليونانية البيزنطية المسيحية إلى الحضارة الإسلامية ، وظلت الحضارة الإسلامية قائمة في هذه البلاد على يد الأتراك السلاجقة رغم موجات الزحف الصليبي على آسيا الصغرى[2] .

أما عن أثر هذه المعركة الحاسمة بالنسبة للأمبراطورية البيزنطية ففي الحقيقة أن هذه الموقعة تعتبر كارثة عظمى منيت بها الدولة البيزنطية بل واعتبرها المؤرخون نقطة تحول في التاريخ البيزنطي كله . حيث

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٥٤ ب ؛ الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٢ ـ ٤٣؛ ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٨ .

(٢) انظر عبد النعيم حسنين ، سلاجقة ايران والعراق ص ٥٧ ـ ٥٩ ، زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ١٤٥ .

فقدت تلك الأمبراطورية أغلى وأهم أقاليمها الشرقية ، هذه الأقاليم التي كانت تمد الأمبراطورية بخيرة جنودها وأشهر قوادها ، كما أنه لم تتعرض الدولة البيزنطية لخطر جسيم مثل الذي تعرضت له في أعقاب معركة ملازكرد ، حيث حجز السلاجقة بين البيزنطيين وأغنى أقاليمهم الآسيوية حين اتخذ السلاجقة من نيقية أولاً ثم من قونية ثانياً عاصمة لدولتهم[1] .

وعلى ضوء نتائج هذه المعركة يمكن القول : أنها رسمت مستقبل البيزنطيين حيث كانت بمثابة مسامير النعش الذي حُمِلوا عليه إلى هوة السقوط والاندثار على يد الأتراك العثمانيين عند سقوط القسطنطينية .

وفي نظر كثير من الباحثين أن موقعة ملازكرد تبرر ما حدث سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م من دعوة للحرب الصليبية في الغرب الأوروبي على أساس أن هذه الدعوة إنما جاءت كرد فعل للكارثة التي حلت بالدولة البيزنطية في ملازكرد سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م[2] .

وفي الحقيقة فإن الأمبراطور البيزنطي الجديد ميخائيل السابع طلب المساعدة ضد الترك من البابا جريجوري السابع . ثم جدد الأمبراطور الكسيوس كومنين الاستغاثة بالبابا ايربان الثاني سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ومن هنا بدأت الدعوة للحرب الصليبية[3] . إلا أن الأمر الذي لا شك فيه أن معركة ملازكرد ليست السبب الوحيد الذي تمخض عنه الحركة

---

(١) عمر كمال توفيق : تاريخ الأمبراطورية البيزنطية ص ١٣٠ ؛ فشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى القسم الأول ص ١٧٥ .

Ostrogorsky , Op. Cit., P. 345 .

(٢) انظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ١٠٠ .

(٣) Painter, A History of The Middle Ages , P. 200.

الصليبية ، بل هنـاك أسباب أخرى كثيرة ومتشـابكة ، اقتصـادية ، واجتماعية وسياسية تداخلت جميعها ونسجت حولها رداء دينياً لتخفي وراءه المطامع الصليبية في السيطرة على بلاد المشرق الإسلامي .

وهكذا كانت حملة ألب أرسلان على بلاد الشام ومصر بلا نتائج قيمة إذ لم ينجم عن الحملة ضم بلاد الشام ومصر الى السلطنة السلجوقية باستثناء خضوع المرداسيين الإسمي للسلطان ألب أرسلان . فبعد أن قرر السلطان مغادرة منطقة حلب أمر حاجبه ايتكين السليماني والأمير محموداً المرداسي بأن يتوجها إلى دمشق ومصر لفتحهما . غير أن هذه المهمة الشاقة التي أسندها السلطان الى محمود المرداسي وحاجبه السليماني أكبر من أن يستطيعا تحقيقها . فقد سار محمود بصحبة ايتكين لمهاجمة دمشق وعندما وصلا بعلبك جاءهما من الأنباء ما يفيد أن عطية عم محمود أغار على أعمال حلب مستعيناً في ذلك بحاكم انطاكية البيزنطي فاضطر محمود الى العودة للدفاع عن إمارته ، وعندئذ غادر ايتكين السليماني بلاد الشام ولحق بالسلطان[1] .

ومن أهم نتائج حملة ألب أرسلان الى الشام أنه خلف بعض جماعات التـركمان في بـلاد الشام ، وعلى رأسهم اتسز بن أوق الخوارزمي وأخوته الذين ساعدوا محموداً المرداسي ضد عمه عطية ودوق انطاكية حتى تمكن من طردهم من منطقة حلب[2] . وبقي ناصر الدولة ابن حمدان، الثائر الفاطمي الذي استنجد بالسلطان دون مساعدة حتى

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٣٠ ـ ٣١ . Zakkar, Op. Cit.PP.179 - 180 .

(٢) المقريزي ، المقفى ورقة ٢٠٧ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ، ص ٣١، المقريزي، اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٣٠٢.

قتل سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م[١] . أما ألب أرسلان فقد رجع عقب انتصاره في ملازكرد الى خراسان وجدَّ من الحوادث في شرق السلطنة السلجوقية في سمرقند وبلاد ما وراء النهر مما جعله ينصرف الى معالجتها ، حيث قتل سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣م في بلاد ما وراء النهر[٢] ، وبمقتله ظل غزو بلاد الشام ومصر معلقاً بيد غيره من التركمان .

اغارة اتسز على جنوب الشام : ٤٦٣ ـ ٤٧١ هـ

كان اتسز بن أوق الخوارزمي من أمراء ملكشاه بن ألب أرسلان[٣] . ولا يعرف شيء عن أتسز قبل ظهوره في بلاد الشام ، فلم تشر المصادر الى ذكره قبل سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م . واتسز (اطسز) كلمة تركية معناها الذي لا اسم له ، أو ليس معه فرس[٤] . ويتضح من اسمه أنه كان تركمانياً ، غير أنه لا يمت بصلة للأسرة السلجوقية . ويذكر المقريزي أنه كان مع أخوته ، جاولي وشكلي والمأمون ، ضمن الجماعات التركمانية التي خلفتها حملة ألب أرسلان على بلاد الشام[٥] . ومن غير المعروف ما إذا كان أتسز ينتمي الى جماعات

---

(١) ابن ميسر، أخبار مصر جـ٢ ص ٢٢.

(٢) ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٧٣ ؛ الحسيني ، أخبار الدولة السلجوقية ص ٥٣ ـ ٥٤ ؛ الاصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٧ ـ ٤٨ .

(٣) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، جـ ١٦ ورقة ١٠٣ أ ؛ العيني ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٦٢ أ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٦٨ ؛ ابن الوردي ، تتمة المختصر جـ ١ ص ٥٦٣ .

(٤) المقريزي ، المقفى ، ورقة ٢٠٧أ .

(٥) المصدر السابق ، ورقة ٢٠٧ أ .

الناوكية أم لا ، اذ أن كل المصادر التي تحدثت عنه لم توضح ذلك . وليس من المستبعد أن يكون أتسز خوارزمياً حسب ما جاء في اسمه .

ظهر في جنوب بلاد الشام بضعة آلاف من التركمان الناوكية الذين استدعاهم بدر الجمالي سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م لمساعدته على اخماد ثورات عرب الشام . وقد انضم اتسز بمن معه من التركمان فساعدوا محموداً المرداسي سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م على طرد عمه عطية ودوق أنطاكية من أعمال حلب . واستبقى منهم محمود ألف فارس وسار الباقون الى جنوب الشام ، حيث نزلوا على حصن عمان بالبلقاء واستولوا على ذخائر العرب وأموالهم[١] . وانتشر التركمان الناوكية في جنوب الشام ، فساروا الى الرملة التي كانت قد دمرتها الزلازل سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م وجلبوا اليها المزارعين الذين أعادوا زراعتها بعد الخراب الذي أصابها في أواخر ولاية بدر الجمالي . وقد تعهد المزارعون بدفع ضريبة مقدارها ثلاثين ألف دينار للتركمان عن محصول الزيتون ، وأثمرت جهود المزارعين في بيع محصول الزيتون بثلاثمائة ألف دينار ، أعطوا التركمان ثلاثين ألف دينار وأخذوا الباقي[٢] .

وسار الناوكية بزعامة قرلو فحاصروا دمشق ونهبوا حقولها ، فصالحهم واليها الفاطمي ابن منزو الكتامي على خمسين ألف دينار ، أعطاهم ثلاثة وعشرين ألف درهم ، وسلم أخاه رهينة على الباقي فرحلوا عن دمشق الى ميناء عكا . وانضم إلى قرلو زعيم الناوكية بعض العرب من بني كلب وغيرهم خلال حصار عكا . ولكن قرلو توفي أثناء حصار عكا ،

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ١ ب .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج B١٣ ورقة ١ أ .

فنهب التركمان العرب الذين معهم ، كما نهبوا جميع المناطق الواقعة بين عكا وصور ، ولم يكن حصار بدر الجمالي في عكا فعالاً ، حيث ظل بدر يتلقى الإمدادات والمؤن عن طريق البحر[1] .

وقد فتحت وفاة قرلو المجال أمام أتسز بن أوق لفرض زعامته على جميع التركمان في جنوب الشام . وبدأ في بسط نفوذه على منطقة الجنوب الشامي فاستولى سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م على بيت المقدس ، وجميع المناطق المجاورة ما عدا عسقلان[2] . وأدرك بدر الجمالي ، والي عكا من قبل الفاطميين ، أن فقدان بيت المقدس له معنى ديني وسياسي خطير على النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ، فسارع واستعاد بيت المقدس ، وولى فيها نائباً من قبله سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م[3] . ولكن اتسز عاد وشدد الحصار على بيت المقدس في السنة نفسها ، ومنع الغلات والمؤن من الوصول إليها ، فاشتدت الضائقة الاقتصادية بالمدينة ، حتى بلغت غرارة القمح سبعين ديناراً . وكان النائب الفاطمي في بيت المقدس تركياً فراسل أتسز قائلاً : « أنا منكم ، وما أقمت على الامتناع الا وفاء لمن كنت خادماً له . . . فان أمنتني على نفسي ومالي سلمت اليك البلد » فأجابه اتسز بالموافقة ، وأقطعه ضياعاً أخرى عوضاً عن بيت المقدس . وتسلم أتسز البلد بالأمان ، ولم يتعرض للسكان بالأذى ، وضم الحصون التابعة لبيت المقدس ، وأرسل الى بغداد مبشراً بالاستيلاء على بيت المقدس ، والغاء الخطبة الفاطمية وإقامتها للخليفة

---

(١) نفس المصدر والجزء ورقة ٤ ب ـ ٥ أ .

(٢) العيني ، عقد الجمان ، جـ ١١ ورقة ٦٢ أ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٨ ، الذهبي ، العبر ، جـ٣ ص ٢٥٢ .

(٣) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ٣ ص ٢٠٠ .

العباسي والسلطان السلجوقي . وافتخر في رسالته بأنه لم يقاتل أهل بيت المقدس احتراماً لمكانته[1] .

وهكذا أصبح اتسز يملك جميع فلسطين، ما عدا عكا وعسقلان. وكان فتحه لهذه المناطق دون مساعدة السلاجقة ، غير أنه رأى أن من مصلحته الارتباط بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، حتى يكسب الحماية من السلاجقة عندما يتعرض لهجمات الفاطميين، الذين لن يسلموا بضياع نفوذهم من بلاد الشام .

وكان بدر الجمالي لا يزال حتى سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م والياً في عكا من قبل الفاطميين . ثم استدعاه الخليفة المستنصر وعهد اليه بتولي منصب الوزارة ، وكلفه باخماد الفتن ومعالجة الأزمة الاقتصادية في مصر . ويبدو أن بدراً الجمالي لما رأى عدم قدرته في تلك السنة على إخراج اتسز ومن معه من التركمان من فلسطين ، أخذ يسعى لشق صفوف التركمان ، ومن أجل تحقيق هدفه تودد الى أخي اتسز لأمه واسمه شكلي ، ووعده بتزويجه ابنته[2] . ولما غادر بدر الجمالي عكا قاصداً مصر ، أخذ معه ستين رجلًا من أعيان عكا كرهائن لضمان ولاء المدينة ، واصطحب معه أحد أتباعه المخلصين ، ويدعى ابن سقحا ، ثم أمر بدر تابعه ابن سقحا بالعودة بأمواله الى عكا . وأثناء عودة ابن سقحا غرق المركب المحمل بالأموال فخشي ابن سقحا انتقام بدر الجمالي ، فزعم لأهل عكا أن بدراً قتل الرهائن وأشار عليهمُ بالخروج عن طاعة بدر ، وراسل ابن سقحا شكلي الذي كان يحاصر عكا ودبر معه أمر الاستيلاء

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ١٥ ب ١٦ أ .

(٢) المصدر السابق نفس الجزء ورقة ٢٣ أ ـ ب .

على المدينة ، وتمت المؤامرة بنجاح . وعندما تسلم شكلي عكا قبض على نائب بدر بعكا ، واستولى على أموال بدر وذخائره ، وذلك سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م[١] .

وبعد استيلاء شكلي على عكا أصبح للتركمان ميناء تجاري هام على ساحل الشام . وعادت الحركة التجارية الى عكا بعد حصار شكلي الشديد لها « وقوي البلد واستفحل أمره » . غير أن سقوط عكا بيد شكلي كاد أن يعصف بنفوذ أتسز في جنوب الشام ، لأن شكلي اعتبر عكا ملكاً خاصاً له ، بينما اعتبر اتسز فتح عكا استكمالاً لمقومات الدولة التي أنشأها في فلسطين . وميناء تجارياً لها . ولكي يؤكد اتسز سلطته على عكا أرسل اليها والياً من قبله ، وطلب من شكلي ارسال زوجة بدر الجمالي وابنه ونصف الأموال التي غنمها . فرد شكلي بقتل الوالي قائلاً : « أنا أخذت هذه المدينة بسيفي » . وكان لا بد من الصدام بين الأخوين ، فتحالف شكلي مع ابن منزو الكتامي المتغلب على دمشق وصاهره على أخته وكذلك تحالف مع قبيلة كلب[٢] .

شعر اتسز أنه بات محصوراً من الشمال ، حيث يسيطر ابن منزو على دمشق وبني كلب على المناطق المحيطة بها ، ومن الجنوب من جهة أخيه شكلي في عكا . فقرر اتسز القضاء على شكلي فسار الى ساحل فلسطين في رمضان سنة ٤٦٧ هـ / ابريل ١٠٧٥ م والتقى بشكلي فهزمه ، وهرب شكلي الى الشمال ونزل رفينة . وسار اتسز لحصار دمشق[٣] . على أن هزيمة شكلي لم تمنعه من البحث عن حلفاء آخرين

(١) نفس المصدر السابق والجزء والورقة .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٢٣ أ ـ ب .

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ورقة ٢٥ ب ، ورفينة : كورة ومدينة من أعمال حمص : ياقوت : معجم البلدان .

ليساعدوه على تقويض نفوذ اتسز في جنوب الشام . وتلقى شكلي وعوداً بالمساعدة المالية من الخلافة الفاطمية، التي لم يكن بمقدورها ارسال أية نجدة لشكلي، بسبب انشغالها بفتن الجند في مصر، فأرسل شكلي الى أحد أبناء قطلمش بآسيا الصغرى طالباً منه القدوم الى الشام ووعده بالانضمام اليه . وجاء في رسالة شكلي الى ابن قطلمش « أنت من السلجوقية وبيت الملك ، وإذا أطعناك وكنا في خدمتك تشرفنا بك ، واتسز ليس من بيت الملك ولا نرضى باتباعه وطاعته » . وهوّن شكلي في رسالته الى ابن قطلمش سهولة الاستيلاء على بلاد الشام . وقد أثارت هذه الرسالة أطماع ابن قطلمش في بلاد الشام ، فقصدها واجتمع بشكلي وسارا الى طبرية وانضم اليهما سكانها وأعلنوا جميعاً طاعة الخليفة الفاطمي . وفي سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م التقى بهم اتسز ، وقتل شكلي وابنه وأطلق أباه ، كما أسر ابن قطلمش ، وأخاه وابن عمه ، ونهب طبرية ، وقتل معظم سكانها انتقاماً منهم لمناصرتهم أعداءه[١] .

ولم يؤد انتصار أتسز الى استعادة عكا ، حيث يذكر سبط ابن الجوزي أن والد شكلي جاء بعد اطلاق سراحه الى عكا ، فأغلق أهلها الباب في وجهه ، وراسلوا أحد أنصار الفاطميين في صور ، فقدم اليهم وتسلم عكا ، وأعاد الخطبة للمستنصر الفاطمي[٢] . ويذكر ابن شداد رواية أخرى مخالفة خلاصتها أن والد شكلي بقي نائباً بعكا عندما خرج ابنه لقتال اتسز ، فلما قتل شكلي سار والده بحريم وأموال بدر الجمالي الى مصر ، فأعاده بدر والياً على عكا من قبله[٣] .

---

(١) المصدر السابق ورقة ٢٦ أ ـ ب .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٢٦ ب .

(٣) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة جـ٣ ص ١٧٤ .

ويبدو أن اتسز راسل السلطان ملكشاه يشكو اليه انضمام أبناء قطلمش الى أعدائه . ويؤيد هذا وصول ثلاثة آلاف جندي الى اتسز من جيش ملكشاه سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م لمعونته في بلاد الشام[١] . وأطلق اتسز على نفسه لقب « الملك المعظم » وأخذ يتطلع لبسط نفوذه في شمال الشام على حساب المرداسيين . فسار سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م الى جنوب حلب ، ونزل على نهر العاصي مما أوقع الرعب في نفوس سكان هذه المناطق ، فهربوا من أمامه ، ونهب أتسز كل ما أمكنه الوصول اليه ، واستولى على بلدة رفنية التابعة لامارة حلب ، وولى عليها أخاه جاولي . وأخذ اتسز يبعث بالسرايا الى أعمال حلب للنهب ومضايقة الإمارة المرداسية في حلب . ويذكر ابن العديم تردد الرسل بين اتسز وبين نصر بن محمود المرداسي « فلم يستقر بينهما أمر »[٢] ولم يوضح ابن العديم ما الذي أراده اتسز من حلب ، فالمعروف أن المرداسيين دخلوا في طاعة السلاجقة منذ سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م وليس هناك من مبرر لأتسز لقتالهم اللهم إلا إذا قصد القضاء على المرداسيين ، وضم شمال الشام إلى دولته التي أنشأها لنفسه مع أعلانه السيادة الاسمية للسلاجقة .

عاد اتسز الى دمشق لحصارها سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م ، وأبقى أخاه جاولي في رفنية لمضايقة حلب وشن الغارات على ريفها، مما جعل نصر بن محمود المرداسي يجهز جماعة من التركمان العاملين في خدمة الإمارة المرداسية بقيادة أحمد شاه التركي للوقوف في وجه جاولي أخي

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٢٦ ب .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٤٧ ، انظر أيضاً : Zakkar, Op. Cit. P. 187.

اتسز . فسار أحمد شاه بمن معه من التركمان لقتال جاولي ، بيد أن جاولي هزمهم عند حماة وغنم كل ما معهم[1] . وبعد هزيمة أحمد شاه جمع فلول مقاتليه التركمان ، فأبدوا له رغبتهم في العودة الى حلب فرفض أحمد شاه ذلك خجلاً من نصر بن محمود الذي استخدمهم وأعطاهم الأموال في سبيل الدفاع عن إمارته . وأشار أحمد شاه على اتباعه بالعودة لقتال جاولي ، فوافقوه على ذلك ، وساروا جميعاً إلى معسكر جاولي وباغتوه ، ونهبوا ما معه وأسروا ثلاثمائة من رجاله ساقهم أحمد شاه الى حلب ، وهرب جاولي بعد الهزيمة الى دمشق[2] . ولم يفكر اتسز في الاستيلاء على حلب خشية الاصطدام بمن فيها من التركمان ، فضلاً عن أن إمارة حلب كانت تقيم الدعوة للسلطان ملكشاه الذي لن يرضى عن سياسة اتسز ازاء شمال الشام .

وقبل رجوع اتسز من شمال الشام مر على صور وطرابلس الخاضعتين لقضاتهما .وأجبرهما على توقيع هدنة حصل بموجبها على امتيازات تجارية لدولته التي أقامها في جنوب الشام[3] .

أما عن دمشق فقد تدهورت أحوالها كثيراً أواخر الحكم الفاطمي وتغلب عليها معلى بن حيدرة بن منزو الكتامي في أعقاب هرب بدر الجمالي منها سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م[4] . واتبع ابن منزو سياسة بالغة

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٤٧ ـ ٤٨ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٤٨ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٣٢ أ ، شاكرمصطفى ،دخول الترك الغز الى الشام ص ٣٦٩ .

(٤) يصور شعر ابن حيوس مدى ما أصاب دمشق من فتن وما عمها من دمار بقوله :

لقد دُفعْنا الى حالين لست أرى ما بين ذاك وهذا حظ مختار =

القسوة ازاء السكان مثل مصادرة أموالهم وفرض الأتاوات الباهظة عليهم ، مما أجبر الكثيرين من سكان دمشق على مغادرة مدينتهم وانضم بعضهم الى اتسز ، ثم ثار من بقي في دمشق على ابن منزو فهرب منها أواخر سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م الى صور ثم الى مصر حيث قتل(١) .

وبعد هرب ابن منزو ، أجمع المصامدة(٢) بدمشق على تولية انتصار بن يحيى المصمودي ولاية دمشق في محرم سنة ٤٦٨ هـ / اغسطس ١٠٧٥ م ورضي سكان دمشق عن هذا الاختيار لما عرف عن الوالي الجديد من حسن السيرة(٣) على أن الأمور في دمشق لم تلبث أن تدهورت عندما نشبت الفتنة بين المصامدة وبين أحداث دمشق . ومما زاد أحوال دمشق سوءاً حملات أتسز المتكررة ضد دمشق وكان في كل موسم ربيع يهاجمها ويرعى زرعها، ثم يعود اليها في موسم الحصاد فينهب الغلال من أماكنها . ومنع اتسز التجار والقوافل من

= أما المقام على خوف ومسغبة أو الرحيل عن الأوطان والدار
والموت أيسر من هذا وذاك وما كرب الممات ولا في الموت من عار

انظر : ديوان ابن حيوس جـ ١ ص ١١ - ١٢، وابن حيوس أحد الشعراء الشاميين المحسنين ومن فحولهم المجيدين له ديوان شعر كبير، لقي جماعة من المعاصرين ومدحهم ونال جوائزهم مثل انوشتكين الدزبري وابن عمار وابن منقذ ، وبني مرداس وشرف الدولة مسلم بن قريش وغيرهم ، انظر ابن خلكان جـ ٤ ص ٤٣٨ - ٤٤٤ ؛ ديوان ابن حيوس جـ ١ ، مقدمة المحقق .

(١) الصفدي ، تحفة ذوي الألباب ورقة ١٣٥ أ ؛ ابن القلانسي ص ٩٥- ٩٦ ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣١٥.

(٢) المصامدة ، نسبة الى قبيلة مصمودة البربرية وهي احدى طوائف الجيش الفاطمي انظر خطط المقريزي جـ ٢ ص ٢٠ .

(٣) الصفدي ، تحفة ذوي الألباب ورقة ١٣٥ ب ؛ ابن القلانسي ص ١٠٨ ، ابن بدران ، تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٣ ص ١٣٤ .

الدخول الى دمشق حتى انتشرت المجاعة داخل المدينة ، واضطر الناس الى أكل الميتات وبلغت قيمة الغرارة من القمح أكثر من ثمانين ديناراً . وحاصر اتسز دمشق حصاراً طويلاً استمر من شعبان حتى الحادي عشر من ذي القعدة سنة ٤٦٨ هـ / مارس - يونيه ١٠٧٦ م ، وأخيراً استسلمت دمشق لاتسز(١) .

ودفعت دمشق ثمن صمودها الطويل في وجه اتسز فقد انتقم اتسز من سكانها بانزال التركمان دور الدمشقيين واغتصب ممتلكاتهم ، وقبض على زعمائهم وسجنهم بمرج راهط(٢) ، حتى افتدوا أنفسهم بأموال دفعوها اليه . وهرب كثير من سكان دمشق الى طرابلس . أما والي دمشق انتصار بن يحيى المصمودي الذي سلم المدينة الى اتسز ، فقد اقطعه اتسز قلعة بانياس ويافا على الساحل عوضاً عن دمشق ، ثم قطع اتسز خطبة الفاطميين من دمشق وأقام الخطبة للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي(٣) .

وبعد انتقام اتسز من أهل دمشق سعى لتعمير القرى الزراعية خارج دمشق فسلم الغلال للفلاحين وأمرهم بالاشتغال بالزراعة ، وعمارة الأراضي في المرج والغوطة . وعاد النشاط التجاري الى دمشق

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٣٣ ب ؛ الصفدي ، تحفة ذوي الألباب ورقة ١٣٥ ب ؛ المقريزي ، المقفى ، ورقة ٢٠٧ أ - ب ؛ ابن القلانسي ص ١٠٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٩٩ - ١٠٠ ؛ الصفدي ، امراء دمشق في الإسلام ص ٤ ؛ ابن بدران ، تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٢ ص ٣٣١ .

(٢) مرج راهط : موضع في الغوطة من دمشق في شرقيه . انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٣٣ ب ؛ الصفدي ، تحفة ذوي الألباب ورقة ١٣٦ أ ؛ ابن القلانسي ص ١٠٩ ؛ القرماني ، أخبار الدول وآثار الأول ص ٢٢٧ ؛ الصفدي : أمراء دمشق في الاسلام ص ٤ .

« فصلحت الأحوال وتواصلت من سائر الجهات الغلات ورخصت الأسعار »[1] . وتجدر الإشارة الى أن هذا الازدهار كان مؤقتاً اذ عاد الخراب والدمار الى دمشق بسبب سوء ادارة اتسز[2] .

وبعد سقوط دمشق سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م عزم السلطان ملكشاه على ارسال أخيه تتش بن ألب أرسلان الى الشام[3] . ويبدو أن هذا كان وفقاً للنظام السلجوقي القائم على إقطاع السلطان المناطق البعيدة لأمراء من البيت السلجوقي لتأكيد سلطة السلاجقة عليها ، ولإبعاد الأمراء خوفاً من الفتن والمنافسة على الحكم . وعندما علم اتسز بعزم السلطان ملكشاه انفاذ أخيه تتش الى الشام بعث الى السلطان يؤكد إخلاصه له في هذه المنطقة التي فتحها بنفسه دون أن يكلف الدولة السلجوقية أية مؤونة وأنه أقام الخطبة للسلطان ، وذكر الأموال التي بعثها للسلطان كدليل على تبعيته وولائه . وقد جاء في رسالته قوله : « . . . وقد بلغني ما عليه العزم من انفاذ الأمير تاج الدولة تتش ، وما ها هنا من يقتضي استعمال ذلك وابعادي عن الخدمة . . » وأكد اتسز أهمية موقفه العدائي ازاء الخلافة الفاطمية الشيعية ، وما يحتاجه ذلك من اعداد للوقوف في وجهها . ولما اطلع الوزير نظام الملك على رسالة اتسز آثر بقاء اتسز والياً على جنوب الشام ، وأرسل له قباء السلطان وقلنسوته وفرسه ، وسيفه تشريفاً له وتأكيداً على استمراره في إمارته[4] .

---

(١) ابن القلانسي ص ١٠٩ ؛ انظر أيضاً : سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٣٣ ب .

(٢) انظر مايلي ص ١٥٦ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ورقة ٣٢ ب .

(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ورقة ٣٢ ب ، ٣٣ أ .

ويبدو أن محاولة ملكشاه ارسال أخيه الى الشام لجني ثمار جهود اتسز دفعت الأخير الى المغامرة بغزو مصر للاستيلاء عليها والقضاء على الخلافة الفاطمية ، وتحقيق حلم الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية في القضاء على هذه الخلافة ، حتى يصبح جديراً بحكم المناطق التي فتحها أو لتكون مصر ملجأ يتحصن به اذا قرر السلطان ارسال أخيه الى الشام . يضاف الى ذلك هروب عدد من الأتراك من مصر الى اتسز وعلى رأسهم تركان شاه بن يلدكوش . وقد شارك هؤلاء الأتراك في الفتنة بمصر زمن الخليفة المستنصر ، حتى تمكن بدر الجمالي من هزيمتهم ، ففروا إلى الشام . وقدَّم ابن يدلكوش (يلدكز) الى اتسز ستين حبة لؤلؤ ، وحجر ياقوت ، وتحفاً كثيرة حصل عليها والده من خزائن المستنصر أثناء الفتنة . وحث ابن يلدكوش (يلدكوز) اتسز على غزو مصر وأغراه بها . واعتقد أتسز أن في مقدوره الاستيلاء على مصر بسهولة ، فاستقر رأيه على غزوها[1] .

حشد اتسز جيشاً كبيراً من التركمان والأكراد وقبيلة طي وغيرها من عرب الشام وصحبهم بعض الشعراء وسار اتسز بجيشه عن طريق الساحل قاصداً مصر ووصل الى ريفها في جمادى الأولى سنة ٤٦٩ هـ / يناير ١٠٧٧ م وبدلاً من الاتجاه الى القاهرة التزم اتسز بمشورة ابن يلدكوش بترك حصار القاهرة ، والاستيلاء على الريف زاعماً أنه مفتاح مصر . وكان بدر الجمالي مشغولاً بفتنة عرب الصعيد[2] . ومكث اتسز

---

(١) المقريزي ، المقفى ، ورقة ٢٠٧ ب ؛ ابن ميسر أخبار مصر جـ ٢ ص ٢٥ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٠٧ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٣٨ ب ؛ المقريزي : المقفى ورقة ٢٠٧ ؛ ابن القلانسي ص ١٠٩ ؛ ابن ميسر ، أخبار مصر جـ ٢ ص ٢٥ ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣١٧ .

بجموعه في ريف مصر قرابة الشهرين، ينهب الأموال ويسبي النساء ويذبح الأطفال، ويراسل في الوقت نفسه بدراً الجمالي طالباً الأموال. وقد أتاحت المدة التي أقامها اتسز في الريف الفرصة لبدر الجمالي للعودة من الصعيد، واستدعى من بقي فيها من الجنود، وأخذ يستعد لمواجهة اتسز. فاستمال بدر بن حازم الطائي الذي خرج مع اتسز في ألفي رجل من قومه. كما جند بدر الجمالي بعض الحجاج الذين قدموا الى القاهرة في طريقهم الى الحجاز، وأوعز الى والد شكلي أن يكاتب من يعرفه من التركمان الذين مع اتسز، فاستمال منهم سبعمائة رجل كانوا يكرهون اتسز لقسوته وبخله، واتفق معهم والد شكلي على الانضمام الى جيش بدر الجمالي عند وقوع المعركة. وسار اتسز الى القاهرة في آخر جمادى الآخرة سنة ٤٦٩ هـ / يناير ١٠٧٧ م، وانتشر الذعر بين السكان. وبلغ من شدة الضيق على الناس ان اجتمعوا أمام قصر الخليفة المستنصر يبكون ويتضرعون. ثم خرج بدر الجمالي في حشد بلغ ثلاثين ألف مقاتل فلما رآهم اتسز خشي الاصطدام معهم فآثر الانسحاب الى الشام. بيد أن أخاه المأمون، وابن يدلكوش وغيرهما، أشاروا عليه بالقتال، وأوهموه أن كل أصحاب بدر الجمالي مجرد سوقة وصيحة واحدة كفيلة بهزيمتهم وحثوه على عدم ترك ملك مصر الذي أشرف على أخذه. ونظم بدر الجمالي جيشه بحيث جعل بدر بن حازم الطائي مع قومه خلف جيش اتسز. ولما بدأت المعركة أشعل الطائيون النيران في معسكر التركمان، وانقضوا على جيش اتسز من الخلف. وفي الوقت نفسه استأمن سبعمائة من التركمان الذين استمالهم والد شكلي. وحلت الهزيمة الساحقة باتسز ومن معه، وقتل أخوه المأمون وقطعت يد أخيه جاولي، وغنم بدر الجمالي كل ما كان مع اتسز ومنها ثلاثة آلاف حصان وعشرة الاف صبي وجارية وكميات كبيرة من الأموال والثياب بحيث مكث الفاطميون مدة

شهر وهم يجمعون الأموال والخيل والأمتعة والأسرى[1] .

وقد نجم عن هزيمة اتسز في مصر اندلاع حركة عصيان عارمة في جنوب الشام ضده . فلما وصل اتسز بعد الهزيمة الى غزة في قليل من العساكر ، ثار عليه أهلها وقتلوا بعض من بقي معه ، فهرب إلى الرملة فقاتله أهلها ، وأخيراً هرب إلى دمشق « في بضع عشرة نفساً » ، فاستقبله ولده ، ومسمار أحد زعماء الكلبيين ، وكان اتسز قد استخلفهما على دمشق عند خروجه الى مصر في مائتي فارس . ونزل خارج دمشق في العاشر من رجب سنة ٤٦٩هـ ، ٧ فبراير ١٠٧٧م . ورغم كراهية أهل دمشق الشديد لاتسز وفرحهم لهزيمته . واملهم في هلاكه فانهم صانعوه لوجوده بينهم ولأنهم اصبحوا في غاية الضعف فخرجوا إليه وهنأوه بالسلامة ، وشكوا إليه حال بلدهم وما أصابه من الضعف والفاقة ، فشكرهم أتسز وكافأهم على موقفهم باعفائهم من الخراج لمدة سنة ، ووعدهم ان لا يترك مدينتهم دون حماية[2] .

بدأ اتسز في اعداد قواته لاستعادة سيطرته على جنوب الشام . فاستقدم التركمان من آسيا الصغرى، ولم يجند غيرهم، وسار إلى بيت المقدس . وعندما وصل إلى مشارفها راسل أهل المدينة وأعطاهم الأمان

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٣٨ ب ، ٣٩ أ ؛ المقريزي المقفى ورقة ٢٠٧ ب ؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار جـ ١٦ ١٠٥ أ ـ ب ؛ ابن القلانسي ص ١٠٩ ـ ١١٢ وحاشية رقم (٢) ؛ ابن ميسر، أخبار مصر، جـ ٢ ص ٢٥ ؛ ابن الأثير، الكامل، جـ ١٠ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣١٧ ـ ٣١٨ ؛ شاكر مصطفى، دخول الترك الغز إلى الشام ص ٣٧٣؛ أحمد رمضان، شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى ص ٩٢ .

(٢) مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٣٩ أ ـ ب .

مقابل التسليم ، فرفضوا ، ثم جاء بنفسه إلى تحت الأسوار وخاطبهم في الصلح، فشتموه وتوعدوه بالقتال، فرد على ذلك بفرض الحصار على المدينة . واخيراً دخل اتسز والتركمان إلى مدينة القدس،وارتكبوا فيها مذبحة شنيعة قتل خلالها ثلاثة آلاف انسان . ولجأ بعض السكان إلى الصخرة والجامع فلم يقتلهم لأجل المكان، وفرض عليهم الأموال وصادر كل أموال السكان ، وسلط التركمان لنهب الدور ، ثم أمر اتسز باعدام القاضي والشهود لتزعمهم الفتنة في بيت المقدس[1] . ثم سار اتسز بعد ذلك إلى الرملة فلم يجد بها أحداً لفرار سكانها قبل وصوله،ثم قصد غزة « وقتل كل من فيها فلم يدع بها عيناً تطرف » . وسار إلى العريش وارسل سرية من الفرسان أغارت على الريف وعادت وقصد يافا وحاصرها ، فهرب سكانها ، فدخل اتسز الى يافا وهدم سورها[2] .

وكيفما كان الامر تعتبر هزيمة اتسز في مصر ، وما قام به من تخريب وتدمير جنوب الشام نكسة للنفوذ السلجوقي في بلاد الشام . لذلك قرر السلطان ملكشاه ارسال أخيه تتش إلى الشام رغم ما قام به اتسز من الكتابة إلى بغداد يخبر انه سيعود مرة اخرى الى غزو مصر بعد انتهائه من جمع العساكر[3] . وكان في إمكان بدر الجمالي بعد هزيمة اتسز سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٧م القضاء عليه لو قام بهجوم سريع إلى الشام اثناء تمرد

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٣٩ ب ، ٤٠أ ؛ ابن واصل ، التاريخ الصالحي ، ورقة١٦٧ب ؛ الأعلاق الخطيرة جـ٣ ص ٢٠٠ ؛ ابن الاثير : الكامل ، جـ١٠ ص ١٠٣ ؛ تاريخ ابن خلدون ، جـ ٣ ص ٩٨٢ ؛ الذهبي ، العبر جـ ٣ ص ٢٦٩ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٤٠ أ .

(٣) مرآة الزمان ، جـ ١٣ ورقة ٤٠ أ .

Gibb, Op. Cit., P. 21.

سكان الشام على اتسز . غير ان بدراً لم يعاجل بالهجوم ، وإنما اكتفى بإرسال فرقة صغيرة سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧ ـ ١٠٧٨م بقيادة غلامه ناصر الدولة الجيوشي . وحاصر ناصر الدولة دمشق دون جدوى فعاد إلى مصر(١) .

وقد تميز حكم اتسز بالعنف والقسوة وسوء الادارة مما أدى إلى انهيار اقتصادي شامل في جنوب الشام ودمشق فضلاً عن ان سياسته أدت إلى جلاء الكثير من السكان عن مدنهم وقراهم ومزارعهم ، مثلما حدث في الرملة ويافا وغزة وغيرها من مدن فلسطين . وفي دمشق انخفض عدد سكانها الى ثلاثة آلاف حتى اشرفت على الفناء في عهد اتسز . وقد وصف المؤرخ المعاصر لهذه الفترة غرس النعمة محمد بن هلال الصابي ، حالة دمشق بعد عودة اتسز من جولته الانتقامية في فلسطين فقال : « ثم عاد (اتسز) إلى دمشق ولم يبق من اهلها سوى ثلاثة آلاف انسان بعد خمسمائة الف افناهم الفقر والغلاء والجلاء . وكان بها مائتان واربعون خبازاً فصار بها خبازان والاسواق خالية والدار التي كانت تساوي ثلاثة آلاف دينار ينادي عليها عشرة دنانير فلا يشتريها أحد. . . . وأُكِلَتْ الكلاب والسنانير وكان الناس يقفون في الأزقة الضيقة فيأخذون المجتازين فيذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم. . . »(٢) . ولا شك ان وصف غرس النعمة لاحوال دمشق يفسر لنا الموقف السلبي لهذه المدينة من الحملة الصليبية الأولى .

---

(١) ابن القلانسي : ص ١١٢ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص ٣١٩ .
(٢) انظر : سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٤٠ أ ـ ب .

فتوحات تتش في بلاد الشام (٤٧٠هـ/ ٤٧٩هـ)

قرر السلطان ملكشاه اقطاع اخيه تتش بلاد الشام مدفوعاً بعدة عوامل منها : فشل حملة اتسز على مصر ، وما يعنيه ذلك من نكسة للنفوذ السلجوقي في بلاد الشام ، فضلاً عن سياسة اتسز السيئة في جنوب الشام . يضاف إلى ذلك ما ساد إمارة حلب من اضطراب سياسي خلال الفترة من ٤٦٨هـ إلى ٤٧٠هـ/ ١٠٧٥ ـ ١٠٧٧م . فقد أشرنا فيما سبق إلى استخدام محمود بن نصر المرداسي للتركمان الذين تمكن بمساعدتهم من طرد عمه عطية والبيزنطيين عندما هاجموا حلب سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م(١) .

وعندما توفي محمود المرداسي سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م سار ابنه نصر على السياسة نفسها في استخدام التركمان الذين كانوا بقيادة أحمد شاه ـ التركي . وقد استعاد احمد شاه منبج(٢) من البيزنـطيين سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م لمصلحة الإمارة المرداسية(٣) . ويبدو ان أحمد شاه بدأ يفرض نفوذه على الإمارة المرداسية مما دفع نصر بن محمود إلى اعتقاله صبيحة عيد الفطر سنة ٤٦٨هـ/ مايو ١٠٧٦م . وفي اليوم نفسه خرج نصر بن محمود بمفرده الى معسكر التركمان خارج حلب لنهبهم ،

---

(١) انظر ما سبق ص ١٤٠ ـ ١٤٢ .

(٢) منبج مدينة كبيرة من مدن شمال الشام تقع في منطقة خصبة بينها وبين حلب عشرة فراسخ وبينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ . انظر: ياقوت، معجم البلدان ؛ أبو الفدا ، تقويم البلدان ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ .

(٣) ابن العديم : بغية الطلب جـ٢ ورقة ١٦٥ ب ؛ ابن أبي الدم الحموي التاريخ المظفري ، ورقة ١٥٣ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٤٦ ـ ٤٧ . Zakkar , Op. Cit. P. 186.

فرماه تركي بسهم فقتله . وزحف التركمان الى داخل حلب فسارع زعماء حلب بتولية سابق بن محمود الإمارة المرداسية فاطلق سابق سراح أحمد شاه وخلع عليه فنزل احمد شاه إلى اتباعه وهدأ ثائرتهم[١] .

وفرض أحمد شاه وصايته على سابق بن محمود ، وشعر بنو كلاب أن نفوذهم بات مهدداً من قبل التركمان فاجتمعوا إلى وثاب وشبيب ابني محمود ، وإلى مبارك بن شبل الكلابي ، وطالبوهم بانتزاع حلب من سابق بن محمود . وعندما علم سابق المرداسي بالخبر ، تحالف مع أحمد شاه وزعيم تركماني آخر يدعى محمد بن دملاج . وخرج القائدان التركيان باتباعهما إلى جموع كلاب الذين كانوا في جمع يقارب سبعين ألف فارس وراجل . فباغتهم التركمان بمنطقة قنسرين[٢] في ذي الحجة سنة ٤٦٨هـ/ يوليه ١٠٧٦م ، فانهزموا من غير قتال وتركوا نساءهم وأولادهم وأموالهم وغنم التركمان كل ما كان لبني كلاب وعادوا بالاسرى إلى حلب فاطلقهم سابق بن محمود[٣] .

وكانت هذه الهزيمة القاسية هزيمة للعنصر العربي في بلاد الشام ولنفوذهم السياسي ، وإيذاناً بمغيب الدور الذي لعبته قبيلة كلاب في تقرير مصير منطقة شمال الشام خلال فترة تنيف على قرن من الزمان .

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٢ ورقة ١٦٥ ب ، ١٦٦ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٤٩ ـ ٥٣ ؛ ابو الفدا ، المختصر جـ ٢ ص ١٩٣ ؛ Zakkar , Op. Cit. P. 188.

(٢) قنسرين : مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص ، كانت قاعدة أجناد الشام . انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٢ ورقة ١٦٦ أ ـ ب ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٥٤ ـ ٥٥ .

وقد فقد العرب وقتذاك الكثير من صفات الفروسية ، وخبت روح القتال لديهم فاستخدموا العبيد المقاتلة بينما امتاز التركمان بإجادة فنون القتال وخاصة استخدام السهام والاعتماد على النفس[١] .

وكيفما كان الأمر ، فقد ادرك بنو كلاب ان سابق المرداسي أضحى واقعاً تحت سيطرة التركمان وان نفوذهم السياسي في شمال الشام في طريقه إلى الزوال . فسار زعماء كلاب إلى بلاط السلطان ملكشاه يشكون إليه حالهم ، ويطلبون معونته على سابق بن محمود ومن معه من التركمان ، فلبى السلطان طلبهم واقطع بعض زعمائهم الاقطاعات في بلاد الشام[٢] .

وفي سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م ارسل ملكشاه إلى أخيه تتش المقيم باذربيجان يأمره بالمسير إلى بلاد الشام . فسار تتش ولما وصل إلى ديار بكر بلغه ما فعله اتسز من انتقام شديد من أهل جنوب الشام فأرسل تتش للسلطان يطلب إمداده لأنه كان في قلة من العسكر . فأمر السلطان بعض امراء التركمان بالمسير مع تتش وخدمته وعلى رأسهم أفشين بن بكجي ، وصندق التركي وابن طوطو ، وابن بريق وغيرهم . وبالإضافة إلى هؤلاء الزعماء التركمان الذين انضموا إلى تتش . فقد سار في صحبته زعماء كلاب نكاية في أميرهم سابق بن محمود . كما أمر السلطان مسلم بن قريش بالمضي مع تتش لمساعدته[٣] .

---

(١) زكار : مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ١٩٠ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٤٣ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٥٥ ـ ٥٦ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٤٧ ب ؛ ابن العديم بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٤٣ ب ؛ ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ٥٦ ـ ٥٧ .

ولما علم اتسز بمسير تتش بعث إلى السلطان بالهدايا والأموال ، وزعم انه لم يفعل ما يوجب إرسال تتش نحوه . وأكد إخلاصه للسلطان وانه نائبه المطيع في جنوب الشام . وتعهد بان يرسل للسلطان كل سنة مبلغ ثلاثين ألف دينار فأمر السلطان تتش بعدم التعرض لاتسز[1] . ويبدو ان هذا الأمر بتأثير الوزير نظام الملك بدليل موقفه السابق لمصلحةاتسز[2] . انضم إلى تتش الحاجب ايتكين السليماني ، ثم عبر الجميع بقيادة تتش نهر الفرات واستولوا على منبج . ونزل تتش بمن معه بالمروج قريباً من حلب ثم وصل إليه مسلم بن قريش العقيلي حسب أوامر السلطان ملكشاه ، وانضم بنو كلاب إلى تتش . وبدأ حصار تتش لحلب في الثالث من ذي القعدة سنة ٤٧٠هـ/ ١٨ مارس ١٠٧٨م ، ودام الحصار ثلاثة أشهر وعشرين يوماً وقتل اثناء الحصار احمد شاه زعيم التركمان بحلب[3] .

أدرك مسلم بن قريش ان استيلاء الأتراك السلاجقة على حلب سيجعل إمارته في الموصل والجزيرة مطوقة بالنفوذ السلجوقي من الشرق والغرب ، لذلك بدأ مسلم بن قريش العمل لاحباط حملة تتش على حلب . فكان أول عمل قام به مسلم في سبيل ذلك ان كتب للسلطان يطلب استدعاء الحاجب ايتكين السليماني عدو مسلم بن قريش حيث كان يقيم مع اتباعه بمنطقة الجزيرة يهدد الإمارة العقيلية فاستجاب ملكشاه لطلب ابن قريش وسحب الحاجب ايتكين[4] . ثم أخذ مسلم

(١) سبط ابن الجوزي مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٤٧ ب .

(٢) انظر ما سبق ص ١٥١ .

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٢ ورقة ١٦٦ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٥٧ .

(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٤٧ ب .

يسعى لتفريق بني كلاب عن تتش . وفي هذا يقول ابن العديم : « وكان هوى شرف الدولة (مسلم بن قريش) مع سابق ، فكان يسير اليه في الباطن بما يقوي نفسه وينكر على بني كلاب خلطتهم بعسكر الترك » . وقد اثمرت جهود مسلم بن قريش مع بني كلاب ، إذ استأذنوا تتش في ترحيل اهلهم من المعسكر فأذن لهم[١] . كما زود مسلم بن قريش أهل حلب بالغلال التي بحوزته . وعندما تأكد تتش من مراسلة شرف الدولة مسلم للأمير سابق وأهل حلب يحثهم على الصبر والصمود استدعاه وعاتبه على موقفه وطلب منه الرحيل . فانسحب مسلم وجعل عبور جيوشه على باب حلب ، وباع لسكان حلب كل ما كان في عسكره من مؤن . وأرسل إلى وثاب وشبيب ابني محمود ومن معهم من الزعماء يحثهم على الهرب من معسكر تتش[٢] .

وافلحت جهود مسلم بن قريش في إقناع زعماء كلاب بالفرار عن تتش خصوصاً بعدما راسلهم سابق بن محمود قائلاً : « إنما أذب واحامي عن بلادكم ولو صار هذا البلد إلى تتش لزال ملك العرب وذلوا » . فأدرك زعماء كلاب تناقض موقفهم ففي الوقت الذي ذهبوا فيه إلى ملكشاه لطلب المساعدة ضد تسلط التركمان على سابق ، إذا بهم يأتون بموجة تركمانية جديدة بقيادة تتش بن ألب أرسلان . كما أن مقتل أحمد شاه كان مشجعاً لزعماء كلاب للعودة إلى حلب . وانضموا إلى سابق بن محمود ضد تتش[٣] .

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٤٣ ب ؛ زبدة الحلب جـ ٢ ص ٥٧ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٤٧ ب ـ ٤٨ أ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٤٤ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٥٧ .

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٤٤ أ ؛ ابن العديم . زبدة الحلب جـ ٢ ص ٥٨ .

وأرسل تتش إلى أخيه السلطان ملكشاه تقريراً عن صعوبة موقفه وقلة عسكره بعد انسحاب مسلم بن قريش وبني كلاب . فأرسل السلطان لتتش نجدة تحمل آلات الحصار بقيادة رجل يدعى تركمان التركي في ألف فارس . فقابل مسلم بن قريش النجدة السلجوقية في منطقة الجزيرة وحاول إثناء عزم تركمان التركي عن مواصلة الزحف إلى الشام وخوَّفه من بني كلاب . ورفض القائد تركمان التركي رأي مسلم بن قريش الذي سارع بإبلاغ سابق بأمر النجدة . وتمكن سابق وزعماء كلاب بمساعدة مسلم بن قريش من جمع ألف وخمسمائة مقاتل من بني نمير وعقيل وقشير وكلاب وكمنوا للنجدة عند وادي بطنان في مكان بين حلب ومنبج يسمى الفايا[١] ، وانقضوا على تركمان ومن معه فقتلوهم وغنموا كل ما معهم بما في ذلك بعض أموال التجار الواصلين في صحبتهم[٢] . وكان لهذا النصر أثره الواضح في رفع معنويات سابق وبني كلاب[٣] .

علم تتش بهزيمة النجدة المتجهة إليه ، فترك حصار حلب في شهر

---

(١) وادي بطنان : واد بين منبج وحلب كان بينه وبين كل واحد من البلدين مرحلة خفيفة فيه انهار جارية وقرى متصلة قصبتها بزاعة والفايا : كورة بين منبج وحلب كانت في أعمال منبج قرب وادي بطنان كان لها قرى عامرة وفيها بساتين ومياه جارية . انظر : ياقوت : معجم البلدان .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٤٨ أ ؛ ابن العديم بغة الطلب جـ ٧ ص ٤٤٥ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٦١ .

(٣) مدح الشاعر ابن حيوس سابق بن محمود المرداسي بعد القضاء على نجدة تركمان التركي بقصيدة طويلة منها قوله :

ومـا نجا تـركمـان اذ نـدبت لـه	من عـامـر عصبـا اعزز بهـا عصبـا
وافـى بـلادك مغتـرا بمـالـكهـا	جهـلا وحينـا فلاقى دونهـا العـطبـا
وكـانت الترك بـالاعـراب جـاهلة	حتى أتحت لهـا أن تعرف العـربـا

انظر : ديوان ابن حيوس جـ ١ ص ٥٢ ـ ٥٣ .

صفر ٤٧١هـ/ سبتمبر ١٠٧٨م واتجه شرقاً لمطاردة كلاب وغيرهم من العرب . وترك مؤنه واثقاله قريباً من حلب ، فخرج سكانها ونهبوا مؤن تتش وقتلوا حراسها . وكان هدف تتش من المسير شرقاً الانتقام من مسلم بن قريش لموقفه من تتش ، بيد ان تتش فوجيء باستعداد مسلم للقائه فعدل عن خطته وسار شمالاً إلى ديار بكر لقضاء فصل الشتاء ، واجتاح المناطق التابعة لنصر بن مروان امير ميافارقين ونهبها ، ثم أرسل إلى ملكشاه يطلب النجدة[1] .

وبعد انتهاء فصل الشتاء سنة ٤٧١هـ/ ١٠٧٨ ـ ١٠٧٩م عاد تتش إلى شمال الشام بعدما انضم إليه جماعات اخرى من التركمان . وانتهج تتش سياسة جديدة في التضييق على حلب ، وهي الإستيلاء على الريف والحصون التابعة لحلب حتى يسهل أخذ المدينة بعد ذلك . وتطبيقاً لهذه الخطة استولى على منبج وحصني الفايا والدير وشحنها بالرجال . ثم سار إلى حصن بزاعا الذي كان يقيم به شبل بن جامع الكلابي ، فاستولى عليه ونهبه . وسار تتش إلى عزاز التي لجأ إليها الفارون منه فمنعهم والي عزاز من الصعود للقلعة ، فلجأوا بامتعتهم وأهلهم إلى سور القلعة الخارجي فاشعل التركمان النيران في امتعة الفارين وكادت النيران تلتهم القلعة ، فاستسلمت لتتش في ذي القعدة ٤٧١هـ/ مارس ١٠٧٩م . سار تتش بعد ذلك إلى حلب واستولى في طريقه على بعض الحصون مثل جبرين قورسطايا وغيره . وخسر تتش الكثير من جنوده اثناء التردد بين الحصون ، وعندما وصل حلب تمكن المدافعون من صده عنها مما كان له اثر واضح في اضعاف عسكره[2] . ورأى تتش أن الاستيلاء على حلب

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٤٧ أ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٧ ورقة ١٤٥ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص=

امر في غاية الصعوبة فقرر مهاجمة المدن الواقعة جنوب حلب ونجح في أخذ المعرة وحماة . وأدرك صاحب حمص خلف بن ملاعب أن الدور بات عليه فاعلن دخوله في طاعة تتش فأقره على ولايته . ثم رحل تتش إلى جبرين للتربص بحلب وهي صامدة رغم المجاعة الشديدة[1] .

وهكذا بدا الأمر وكأن تتش قد فشل في تحقيق نصر ذي قيمة في بلاد الشام ، فأوامر ملكشاه تقضي بعدم التعرض لاتسز في الجنوب ، كما أن حلب عاصمة شمال الشام صمدت لكل محاولاته[2] . وتهيأت لتتش فرصة لم تكن في الحسبان ساعدته في بسط نفوذه على جنوب الشام ولتصبح المنطقة كلها خاضعة خضوعاً مباشراً للبيت السلجوقي ، بعد تبعيتها للسلاجقة من الناحية الاسمية . فقد قرر الوزير الفاطمي بدر الجمالي القضاء على اتسز واسترجاع ما اغتصبه من بلاد الشام ، فجهز جيشاً كبيراً من العرب والترك والأكراد وصنهاجة والبربر والسودان وبني خفاجة ، بقيادة غلامه نصر الدولة الجيوشي وسار الجيش الفاطمي واسترد اعمال فلسطين وقصد دمشق ضارباً عليها الحصار الشديد . وشعر اتسز ان المدينة على وشك السقوط . فأرسل مستغيثاً إلى تتش وهو مقيم باعمال حلب يطلب منه النجدة ، ووعده بتسليم دمشق إليه قائلاً : « انجدني واكن نائبك بدمشق » . فسار تتش على عجل إلى دمشق وبلغ

= ٦٢ ـ ٦٣ ، وحصن الدير من أعمال حلب مشرف على عم الواقع بين حلب وانطاكية ، وبزاعا بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب كان فيها عيون ومياه جارية وأسواق حسنة وعزاز أو أعزاز ـ بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب وجيرين قورسطايا من قرى حلب من ناحية عزاز ويعرف بجيرين الشمالي . انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٥١ أ .

(٢) انظر ما سبق ص ١٦٠ .

الجيش الفاطمي خبر زحفه ففك الحصار عن دمشق وانسحب عائداً إلى مصر[1] .

وصل تتش إلى مرج عذراء بالغوطة شمال شرق دمشق واستقبله اتسز وقدم له فروض الطاعة والولاء . وتسلم تتش مدينة دمشق في ١٢ ربيع الثاني سنة ٤٧٢هـ/ ١٢ اكتوبر ١٠٧٩م . وقرر تتش التخلص من اتسز لما فعله من تخريب وتدمير لجنوب الشام ، فقتله مع أخيه جاولي ، وبذلك انتهت سيرة اتسز السيئة في جنوب الشام ، واصبح تتش أول امير سلجوقي من سلاجقة الشام يحكم في هذه البلاد[2] .

واحسن تتش السيرة في أهل دمشق وعدل فيهم . ورجع أهل دمشق الذين هربوا من جور وظلم اتسز[3] . أما القائد التركماني الافشين بن بكجي الذي أغار على آسيا الصغرى وشمال الشام سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م[4] والذي أمره السلطان ملكشاه بالانضمام إلى تتش فقد

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٥٠ أ ـ ب ؛ ابن واصل التاريخ الصالحي ورقة ١٦٨ أ ؛ ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ جـ١٣ ورقة ١ أ ؛ ابن القلانسي ص ١١٢ ؛ تاريخ العظيمي ، حوادث سنتي ٤٧١ ـ ٤٧٢ هـ ؛ ابن ميسر ، أخبار مصر جـ٢ ص ٢٦ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ١٥١ أ ؛ ابن أبي الدم ، التاريخ المظفري، ورقة ١٥٤ أ ؛ ابن واصل ، التاريخ الصالحي ورقة ١٦٨ أ ؛ ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ جـ١٣ ورقة ١ أ ـ ب ، ابن القلانسي ص ١١٢ ؛ العظيمي ، حوادث ٤٧٢ هـ ؛ ابن الأثير ، الكامل، جـ١٠ ص ١١١؛ تاريخ ابن خلدون جـ٣ ص ٩٨٢ .

The Cambridge History of Islam, P. 195.

(٣) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ورقة ١٦٨ أ ؛ ابن القلانسي ص ١١٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ١١١ .

(٤) انظر تفصيل غارات الأفشين في سنة ٤٦٠ هـ في الفصل الأول ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

استوحش من تتش عندما قتل اتسز ، وخشي ان يناله نفس المصير ، فقرر الافشين الانفصال عن تتش وتبعه معظم جيش تتش . ولا يوجد في المصادر المتداولة ما يفسر انضمام معظم العسكر إلى الافشين عند انفصاله عن الامير تتش غير أنه من المحتمل ان التركمان الذين كانوا يشكلون معظم جيش تتش ، رأوا ما أصاب دمشق وجنوب الشام من الفقر والتدهور واصبحت بالتالي لا تشكل أي اغراء لهم ، لذلك آثروا مرافقة الافشين لنهب قرى ومدن شمال الشام الذي كانت أحواله الاقتصادية أحسن من جنوب الشام . يقول ابن العديم اثناء حديثه عن تتش « ثم فسح من عسكره افشين التركي ومعه أكثر العسكر وعاد شمالاً ، ونهب عسكره ضياعاً في أعمال بعلبك » ووصل الافشين إلى رفنية في العاشر من جمادى الأولى سنة ٤٧٢هـ/ ١٠ نوفمبر ١٠٧٩م ، وكان بها قوافل تجارية متجهة إلى طرابلس فباغتها الافشين وقتل رجالها واستباح نساءهم وأولادهم ، وأقام بها عشرة أيام . ثم سار إلى حصن الجسر القريب من شيزر ، وكان يقيم به الأمير علي بن منقذ ، فأكرمه ابن منقذ وكشف الافشين للامير علي بن منقذ عن عزمه على نهب شمال الشام فطلب اليه ابن منقذ عدم التعرض لبلدته كفرطاب ، فأجابه الى ذلك وسار الافشين إلى بلدة قسطون من أعمال حلب فنهبها وقتل من فيها وأقام بها أكثر من عشرين يوماً[1] .

وهاجم الافشين أيضاً الأماكن الحصينة في أعالي الجبال وتنقل مع عسكره بالمنجنيقات على أبراج جبل السماق[2] ولم يبق بها برجاً أو

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٦٥ ـ ٦٦ ؛ وكفر طاب بلدة بين المعرة وحلب وقسطون حصن من أعمال حلب الغربية . انظر : ياقوت : معجم البلدان .

(٢) السماق ، جبل عظيم من أعمال حلب الغربية يشتمل على مدن وقرى عامتها للاسماعيلية . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

حصناً إلا اقتحمه وقتل سكانه واستباح نساءهم وأسر أولادهم . وسار إلى معرة النعمان الشرقية وفتحها وسار إلى معرتارج من ضواحي كفرطاب فتحصن سكانها بالابراج فاضرمها عليهم فاحترقوا جميعاً[1] . وعندما اصبحت المناطق الواقعة بين حلب والمعرة قاعاً صفصفاً ، سار الافشين إلى انطاكية فنهب ريفها واجبرها على دفع ثلاثين ألف دينار ، ثم توجه إلى الشرق بعد امتلاء يده ويد عسكره بالغنائم ، لذلك يقول ابن العديم : « وجرى من أمر هذا الحادث بالشام أمر لم يسمع بمثله وتلف أهله بعد ذلك بالجوع ووجد قوم قد قتلوا قوماً واكلوا لحومهم ، وبيعت الحنطة ستة ارطال بدينار . . »[2] .

وعندما بلغ تتش خبر هذا النهب الشنيع سار إلى كفرطاب ، فوجد تركمانياً آخر يدعى ارسلان تاش قد نهب قرى شرق حلب وهرب إلى آسيا الصغرى وفي الوقت نفسه لم يلحق تتش بالافشين. فسار تتش وحاصر حلب بضعة أيام واستولى على بزاعة والبيرة من أعمال حلب واحرق ربض اعزاز وعاد إلى دمشق[3] . وكان من أثر هذه الأعمال التخريبية التي ارتكبها الافشين ، انه بعد عشرين سنة مر الصليبيون في هذه المنطقة الجبلية الصعبة في طريقهم إلى بيت المقدس دون ان يواجهوا مقاومة تذكر ، وهذا يشير إلى أنه حتى بعد عشرين سنة من هذه

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٦٦ ـ ٦٧ ؛ ومعرة النعمان مدينة كبيرة قديمة ومشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٦٧ ؛ انظر أيضاً سبط ابن الجوزي ، مراة الزمان جـ١٣ B ورقة ٥٠ أ ـ ب .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٦٧ ، ابن الأثير الكامل ، جـ ١٠ ص ١١٥ تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٥٨٨ ؛ شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز إلى الشام ص ٣٨٣ .

الحوادث لم يتم تعمير هذه البلاد مما لحقها من تخريب[1] .

ونجم عن أعمال الافشين التخريبية جلاء كثير من سكان شمال الشام إلى بلاد مسلم بن قريش بالموصل ، فأحسن اليهم مما كان له أثر واضح في ضم مدينة حلب إلى امارته ، خصوصاً بعد وصول وفود بني كلاب إليه ومراسلة سابق له طالباً منه القدوم لمساعدته . وسار مسلم بن قريش واستولى على مدينة حلب سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٨٠م ودخل في نزاع مع تتش على بلاد الشام[2] .

عاد تاج الدولة تتش إلى دمشق وعمل على توطيد مركزه في عاصمة الشام وحماية نفسه فيها فقام بانشاء القلعة التي عرفت فيما بعد باسم قلعة دمشق ، وبنى فيها دار الإمارة ، وداراً أخرى لولده رضوان[3] . وسار تتش سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٨٠م لاستعادة بعض مناطق جنوب الشام ، فاستولى على طبرية ، ثم سار إلى الرملة وضمها وولى عليها والياً من قبله[4] . وبعث تتش حملة عسكرية لحصار بيت المقدس سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٨٠م وكان به بعض أقارب اتسز ونائب عنه يدعى ترمش فلم يتمكن أصحاب تتش من استعادة المدينة[5] . وذكر سبط ابن الجوزي ان تتش اعتقل في سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨١م مسماراً امير قبيلة كلب بسبب اكتشاف مراسلة تمت بين مسمار وبين الفاطميين . ويبدو ان تتش فرض **سيطرته**

---

(١) Zakkar , Op. Cit. PP. 200 - 201

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٦٧ ؛ وانظر مايلي ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ ، ٢٤٦ ـ ٢٤٨ .

(٣) ابن طولون ، الشمعة المضية في أخبار القلعة الدمشقية ورقة ١ أ .

(٤) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة جـ٣ ص ١٣١ ـ ١٣٢ ، ١٨٣ .

(٥) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٥٠ ب .

على قبيلة كلب وغيرها من قبائل جنوب الشام . ولم يطلق تتش سراح مسمار زعيم كلب إلا بشفاعة القائد التركماني ارتق بن اكسب سنة ٤٧٥هـ/ ١٠٨٣م[١] .

وفي أوائل سنة ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م جهز تتش حملة أخرى بقيادة القائد التركماني ارتق بن اكسب لاستعادة بيت المقدس ، لما لها من أهمية روحية وسياسية . فوصل ارتق إلى بيت المقدس وراسل ترمش وطيب قلبه ، فخرج إليه وسلمه المدينة . فتوسط ارتق لدى تتش ، فاقطع الاخير ترمش قلعة صرخد عوضاً عن بيت المقدس . وكان يقيم في بيت المقدس خال اتسز وزوجته وابنته فهاجروا إلى بغداد خوفاً من المقام ببلاد الشام[٢] .

وأخيراً قرر تتش بسط نفوذه على شمال الشام ، فجمع سنة ٤٧٥هـ/ ١٠٨٣م جيشاً كبيراً وسار إلى انطاكية . ويبدو أنه كان يريد فتح انطاكية حتى تصبح حلب الخاضعة لمسلم بن قريش مطوقة من الشمال والجنوب باملاك تتش ، مما يسهل عليه الاستيلاء عليها . غير أن مسلماً لما علم بمسير تتش إلى الشمال حشد جيشاً كبيراً من قبائل عقيل ونمير والأكراد وغيرهم ، وقرر الاستيلاء على دمشق نفسها . فلما سمع تتش بعزم مسلم بن قريش عاد مسرعاً وتمكن من دخولها قبل وصول الأمير العقيلي . وعندما وصل الأخير حاصر دمشق ، إلا أنه أخفق في الاستيلاء عليها لأسباب عديدة ثم فك مسلم حصار دمشق وسار إلى حران للقضاء

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٥٣ أ ؛ ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١١٥ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٥٩ .

على تمردها[1] .

هاجم تتش حلب بعد انسحاب مسلم بن قريش عن دمشق ، ونهب بعض غلالها وباعها بثمن قليل . وكان ملكشاه قد كتب لتتش بمال على مسلم بن قريش فماطله فرد تتش بنهب الغلال وبيعها . ولما علم مسلم بن قريش باغارة تتش على حلب ارسل اليها نجدة بقيادة وزيره ابي العز بن صدقة فانسحب تتش غرباً واقام بجسر الحديد وأمر القائد التركي ارتق بشن الغارات على حلب . وتمكن ارتق من أسر أكثر من ثمانين رجلاً من العرب فقتلهم . وهنا تدخل السلطان ملكشاه وامر اخاه تتش بعدم التعرض لحلب والعودة إلى دمشق كما أمر ارتق بك بالعودة إلى بلاط السلطان مما ادى إلى إضعاف تتش فانسحب عائداً إلى دمشق[2] . ويبدو ان ملكشاه ، أدرك انه إذا تم اخضاع شمال الشام والجزيرة الفراتية الغنية بمواردها المالية لأخيه تتش مضافاً إليها دمشق وجنوب الشام ، فإن ذلك قد يغري تتش بالمطالبة بعرش السلطنة السلجوقية ، لذلك آثر ملكشاه ابقاء تتش في نطاق الموارد المحدودة لدمشق وجنوب الشام ، ونهاه عن محاولة بسط نفوذه على حلب وشمال الشام .

ولما رأى تتش أن محاولة الاستيلاء على حلب سوف تصطدم بمقاومة خصمه العنيد مسلم بن قريش العقيلي فضلاً عن رفض السلطان ملكشاه لهذه السياسة اتجه إلى ساحل بلاد الشام في مطلع سنة ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م

---

(١) ابن القلانسي ص ١١٤ ـ ١١٥ ، ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ، وانظر مايلي ص ٢٤٦ ـ ٢٥٠ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٦٢ أ ؛ ابن القلانسي ص ١١٦ ؛ يقع جسر الحديد في الشمال الشرقي من انطاكية على مسافة نصف يوم سيراً على الأقدام بين انطاكية وحارم . انظر: زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٣٦ حاشية رقم (١) .

فاستولى على بيروت وطرد منها الوالي الفاطمي[١] . ثم سار إلى طرطوس وانتزعها من صاحبها خلف بن ملاعب ، كما اخذ في طريقه بانياس . ويبدو ان تتش احتاج للأموال فسلم طرطوس لحاكم طرابلس ابن عمار مقابل مبلغ من المال[٢] . ثم سار تتش في سنة ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م إلى بعلبك التي كان يليها رجل يدعى عود بن الصقيل من قبل الفاطميين وباغته تتش في احدى ضياع بعلبك واسره وتسلم منه بعلبك وولي فيها غلامه كمشتكين الخادم . ثم عاد تتش إلى دمشق[٣] .

ويبدو أن اصرار السلطان ملكشاه على عدم السماح لأخيه تتش بتوسيع نفوذه في بلاد الشام كان من الأسباب التي دفعت تتش إلى محاولة اقامة علاقة ودية مع الفاطميين ، حيث يذكر كل من سبط ابن الجوزي وابن تغري بردى أن تتش عزم سنة ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م على مصاهرة الوزير الفاطمي بدر الجمالي على ابنته ، فتدخل ابن عمار حاكم طرابلس واقنع تتش بخطورة هذا الزواج على علاقته مع أخيه السلطان فتراجع تتش عما عزم عليه[٤] .

---

(١) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة جـ٣ ص ١٠٢ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٦٩ ب ؛ الأصفهاني ، البستان الجامع ورقة ٩١ ب ؛ ابن ايبك الداواداري الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية ص ٤٠٧ ؛ الذهبي ، العبر جـ ٣ ص ٢٨٠ ، وطرطوس بلد بالشام مشرفة على البحر قرب المرقب وعكا ، انظر ياقوت ، معجم البلدان ، وبانياس اسم لبلدة صغيرة تبعد عن دمشق مرحلة ونصف جهة الغرب وتقع في لحف جبل لبنان ، انظر أبو الفدا ، تقويم البلدان ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٦٤ب؛ تاريخ العظيمي حوادث سنة ٤٧٦هـ ؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة جـ ٣ ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٤) مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٦٥ ب ؛ النجوم الزاهرة جـ٥ ص ١١٦ .

على انه تجدر الإشارة إلى ان محاولة تتش هذه لا تعني حدوث تغير في شعور الفاطميين العدائي ازاء سلاجقة الشام . ويبرهن على هذا قيام الوزير الفاطمي بدر الجمالي في ربيع الأول سنة ٤٧٨هـ/ يوليه ١٠٨٥م بحملة على دمشق بغية استردادها من السلاجقة . وحاصر بدر تتش بدمشق ووقع القتال بين الجانبين . وعندما ادرك بدر الجمالي انه لا يستطيع قهر تتش في دمشق رحل عائداً إلى مصر[1] .

وإذا كان السلطان ملكشاه استطاع وقف اطماع اخيه تتش في شمال الشام فإن استيلاء سليمان بن قطلمش على انطاكية سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م نجم عنه اندلاع النزاع على نطاق واسع حول منطقة شمال الشام بين مسلم بن قريش وسليمان بن قطلمش ثم بين تتش وسليمان مما استدعى تدخل ملكشاه بنفسه لحسم هذا النزاع .

بلاد الشام بين سلاجقة الروم وسلاجقة الشام

لم يكن استيلاء سليمان بن قطلمش على انطاكية سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م والنزاع بين تتش وسليمان بن قطلمش على السيطرة على شمال الشام سوى نهاية متوقعة لطبيعة العلاقات بين سلاجقة الروم وسلاجقة الشام . فعندما توفي طغرلبك سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م وآلت زعامة

(١) العيني ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٩٠ أ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ، ص ١٤٥ ؛ أبو الفدا ، المختصر جـ ٢ ص ١٩٦ ؛ الذهبي ، العبر جـ ٣ ص ٢٨٩ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ١٣٧ ؛ ابن الوردي ، تتمة المختصر ، جـ ١ ص ٥٧٦ ؛ محمد كرد علي ، خطط الشام جـ ١ ص ٢٤١ ؛ الحصيني ، منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٣٦ .

السلاجقة إلى ألب أرسلان، ابن شقيق طغرلبك، رأى قطلمش وهو ابن عم طغرلبك انه احق بالملك من ألب ارسلان ، لأن اباه كان ارشد افراد الأسرة السلجوقية واعظمهم مكانة . فأعلن قطلمش العصيان على ألب أرسلان في إقليم الجبال الواقع جنوب بحر قزوين ، وهاجم قطلمش الري ونهب قراها . وأرسل ألب ارسلان يحذره من شق عصا الطاعة ويدعوه إلى اعلان التوبة ، فرفض قطلمش ذلك ، الأمر الذي اجبر السلطان ألب أرسلان على الخروج بنفسه للقضاء على عصيان قطلمش . والتقى السلطان بقطلمش سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م بالقرب من الري وانزل به الهزيمة ، وقتل قطلمش في المعركة[١] .

وكان لقتل قطلمش آثار بعيدة المدى ، فقد رسم هذا الحادث اول خطوط الانقسام بين فرعي السلاجقة فأخذ اولاد قطلمش يبحثون عن ملك خاص بهم ، فساروا بعد معركة ملازكرد إلى آسيا الصغرى في نوع من الهرب العدائي لاولاد عمهم في ايران ، وتمكن ابناء قطلمش بمساعدة قبائل التركمان من تأسيس حكم لهم في آسيا الصغرى على اراضي الدولة البيزنطية[٢] .

وتطلع أبناء قطلمش لبسط نفوذهم على بلاد الشام لا سيما أن اجزاء من شمال الشام مثل شيزر وانطاكية كانت خاضعة للبيزنطيين .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٣٦ . ٣٧ ؛ تاريخ ابي الفدا جـ ٢ ص ١٨٤ ـ ١٨٥ ؛ تامارا تالبوت رايس ، السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ص ٢٩ ؛ الباز العريني ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية جـ ١ ص ٨ .

(٢) تامارا تالبوت رايس ، السلاجقة ، تاريخهم وحضارتهم ص ٤٣ ـ ٤٤ ؛ شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز إلى الشام ، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ .

The Cambridge Medieval History. Vol. IV. p. 740.

ونجح ابناء قطلمش في بسط نفوذهم في عمق الأراضي البيزنطية . وكان من اثر ذلك ان حجز ابناء قطلمش بين الدولة البيزنطية وبين ممتلكاتها في شمال الشام . وكان اول تدخل لأبناء قطلمش في شؤون بلاد الشام سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م عندما ارسل شكلي إلى ابن قطلمش طالباً قدومه إلى الشام للقضاء على اتسز . وقد رأينا كيف نجح اتسز في قتل ابن قطلمش واسر اخيه الآخر وابن عمه[١] . على ان تدخل ابناء قطلمش في بلاد الشام لم ينته بمقتل احدهم واسر الآخرين ، فقد جاء سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م إلى الشام ابن آخر لقطلمش فحاصر حلب ، وتمكن نصر بن محمود المرداسي من الوقوف في وجه ابن قطلمش بمساعدة احداث حلب الذين قاتلوا ابن قطلمش ونهبوا اصحابه وقتلوا بعضهم . وارسل نصر بن محمود المرداسي إلى ابن قطلمش محتجاً بأنه ـ اي الأمير المرداسي ـ مطيع للسلطان ملكشاه ، وقال في رسالته الى ابن قطلمش : « فإن كنت مطيعاً للسلطان فارحل عنا » ولم يكن بمقدور ابن قطلمش اعلان العداء الصريح للسلطان ملكشاه ولهذا قبل ما عرضه الأمير المرداسي من المال مقابل انسحابه عن حلب[٢] .

وظل ابن قطلمش في بلاد الشام ، وسار إلى سلمية[٣] من اعمال حماه ، وارسل إلى اتسز طالباً منه اطلاق سراح اخيه فرد اتسز قائلاً : « قد راسلت السلطان بسببه وانا متوقع الجواب فإن رسم انفذته إليه وان

---

(١) انظر ما سبق « الفصل الثاني » ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٢٦ أ ـ ب .

(٣) سلمية بليدة في اعمال حماة . بناها عبد الله بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس وسكنها بنو هاشم . انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ابو الفدا ، تقويم البلدان ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ .

رسم شيئاً آخر كان » . ولم يستطع ابن قطلمش ان يفعل شيئاً لفك أسر أخيه ، بعد ان اصبح ذلك متعلقاً بأمر السلطان ملكشاه . لذلك آثر ابن قطلمش الرحيل إلى شمال الشام ، وحاصر انطاكية وفرض عليها عشرين الف دينار مقابل حماية ريفها من الغارات . وعلم ابن قطلمش ان جماعة من التركمان مروا بحلب في طريقهم إلى الانضمام إلى اتسز ، وخرج اليهم كثير من سكان حلب ، فسار ابن قطلمش إلى حلب وقاتل جماعة التركمان وقبض على بعض سكان حلب وقطع اناملهم انتقاماً لموقف احداث حلب منه ثم عاد إلى ريف انطاكية للقيام بأعمال الحماية والخفارة[1] .

وفي سنة ٤٧٥هـ/ ١٠٨١م فتح سليمان بن قطلمش مدينة طرسوس وبعث إلى ابن عمار حاكم طرابلس « يستدعي لها قاضياً وخطيباً »[2] وسار إلى نيقية في غرب آسيا الصغرى وفتحها واتخذ منها عصمة لدولته . كما فتح الدروب التي تربط انطاكية بآسيا الصغرى مثل أذنه والمصيصة وعين زربة ، واجزاء أخرى من آسيا الصغرى[3] . وبدأ

---

(١) سبط ابن الجوزي مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٢٦ ب .

(٢) نفس المصدر والجزء ورقة ٦٢ ب ، طرسوس ، مدينة بثغور الشام بين انطاكية وحلب ، وكانت من اجل الثغور وهي تشرف على المدخل الجنوبي لدرب ابواب قيليقية ويقع بينها وبين بلاد الروم سلسلة جبال منيعة متفرعة من جبال (اللكام) (طوروس) وقد بنيت طرسوس في عهد الخليفة الرشيد وظلت بأيدي المسلمين حتى انتزعها الامبراطور البيزنطي نقفور فوكاس سنة ٣٥٤هـ انظر : فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية جـ١ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧٠ ب ؛ تامارا تالبوت رايس السلاجقة ، تاريخهم وحضارتهم ص ٤٩ ؛ Ostrogorsky, op Cit. pp. 349-357; The Cambridge Medieval History, Vol. IV., P. 740. ؛ لفظ الدرب المراد به ما بين طرسوس وبلاد الروم ، والثغر كل موضع قريب من أرض العدو كأنه مأخوذ من الثغرة وهي الفرجة في ـ

سليمان يتطلع لبسط نفوذه على انطاكية لينطلق منها إلى بلاد الشام .

وتعتبر انطاكية من أكثر مدن الشام تحصيناً ، فالمرتفعات تحيط بها من جهتي الجنوب والشرق ، ويكتنفها نهر العاصي من جهة الغرب في حين تكثر الغياض والمستنقعات بشمال المدينة ويحرسها سور بالغ التحصين به ثلاثمائة وستون برجاً ، وتقع قلعة انطاكية على قمة الجبل داخل أسوار المدينة . وقد زاد البيزنطيون في تحصين انطاكية خلال فترة بقائها تحت حكمهم (٣٥٨ ـ ٤٧٧هـ/ ٩٦٩ ـ ١٠٨٤م) مما جعل اقتحام المدينة عنوة أمراً في غاية الصعوبة[١] . وكان يحكم انطاكية من قبل الدولة البيزنطية فيلاريتوس Philaretus وتسميه المصادر العربية « الفردوس » وهو أرمني الأصل . وكان اقليمه يمتد فيما بين انطاكية والرها . وسعى فيلاريتوس لتوطيد علاقاته مع التركمان ومع مسلم بن قريش العقيلي ، غير انه أساء السيرة مع رعاياه داخل انطاكية فصادر اموالهم ونكل بجماعات الاحداث داخل المدينة وبلغ من تعسفه ان قبض على ابنه وزج به في السجن[٢] . وقد أدت سياسة فيلاريتوس السيئة إلى

= الحائط ، وبين كل ثغر وأرض العدو درب وعقبة ، انظر ياقوت معجم البلدان ، فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية ، جـ ١ ص ٢١٣ ـ ٢١٥ ، واذنه : بلد من الثغور قرب المصيصة على الشاطىء الأيمن لنهر سيحان الذي يصب في البحر المتوسط وتبعد اذنه عن طرسوس مسافة ١٢ ميلاً . المصيصة مدينة على شاطىء نهر جيحان من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم ، تقارب طرسوس ، وعين زربة عين زربى بالثغر من نواحي المصيصة . انظر : ياقوت : معجم البلدان ، ابو الفدا تقويم البلدان ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ ، فتحي عثمان : الحدود الإسلامية جـ ١ ص ٢٤٧ ، ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

(١) رونسيمان ، الحروب الصليبية جـ١ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، حسن حبشي ، الحرب الصليبية الأولى ص ١١٠ ـ ١١١ ، الباز العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ص ٢٣٤ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧٠ب ؛ رونسيمان ، الحروب الصليبية =

سخط سكان انطاكية عليه . ولما غادر انطاكية إلى آسيا الصغرى لقضاء بعض شؤونه انتهز ابنه وشحنه[1] انطاكية فرصة غياب فيلاريتوس ، فراسلوا سليمان بن قطلمش وطلبوا منه القدوم إلى انطاكية ووعدوه بالمساعدة على دخول المدينة[2] .

وكان سليمان بن قطلمش يدرك تمام الإدراك أهمية موقع انطاكية ، وسيطرتها على الطرق البحرية والتجارية بين بلاد الشام وآسيا الصغرى ، لذلك بادر بمغادرة نيقية على عجل ومعه قرابة ثلاثمائة رجل . وركب بمن معه البحر ثم نزل منه وسار في جبال وعرة ومضايق شديدة حتى يكتم خبره ، ووصل إلى انطاكية ليلاً ، وحينما وصل بمن معه إلى اسوار انطاكية ساعدهم الشحنة وابن فيلاريتوس فتسلق الأسوار منهم جماعة وفتحوا أحد ابواب المدينة . ودخل سليمان بعسكره إلى انطاكية . وكان فتح انطاكية في العاشر من شعبان سنة ٤٧٧هـ/ اول ديسمبر ١٠٨٤م . ووصل إلى سليمان أحد أعوانه ويدعى ابن منجاك في ثلاثمائة فارس . وظل اتباع سليمان يتواردون على انطاكية فازداد بذلك قوة . واتبع سليمان ابن قطلمش سياسة عادلة مع سكان انطاكية وأمر جنوده بعدم التعرض للنصارى مما جعلهم يميلون اليه ويفضلون حكمه على حكم فيلاريتوس وكان لسياسة سليمان بن قطلمش احسن الأثر في حياة انطاكية الاقتصادية

= جـ١ ص ١١٥ ـ ١١٦ ؛ العريني ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٨ ؛ العريني الدولة البيزنطية ص ٨٦٤ حاشية رقم (٢) .

(١) الشحنة ، هو المسؤول عن حفظ الأمن في المدينة ، والشحنكية اسم الوظيفة انظر : Dozy, Supplement Aux Dictionnaires Arabes Vol. I p. 733.

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧١ أ ؛ العمري ، مسالك الأبصار جـ١٦ ورقة ١٠٧أ ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ؛ ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ص ١٤ .

حتى اضحت احسن حالاً من سائر بلاد الشام . وحاصر سليمان بن قطلمش قلعة انطاكية حتى استسلمت في رمضان سنة ٤٧٧هـ/ يناير ١٠٨٥م[١] . وارسل إلى السلطان ملكشاه يبشره بفتح انطاكية ، فأمر السلطان بإقامة البشائر احتفالاً بفتح انطاكية ، وقدم الناس والشعراء إلى ملكشاه لتهنئته بهذه المناسبة[٢] .

أخذ سليمان يوطد نفوذه في انطاكية وفتح الحصون المجاورة لها ثم سار إلى الثغور الشامية وفتحها وضم اليه الساحل الواقع جنوب انطاكية حتى حدود طرابلس واصبح بذلك يسيطر على جزء هام من ساحل البحر المتوسط يمتد فيما بين طرابلس الشام ونيقية في آسيا الصغرى[٣] . وكان يتبع انطاكية بعض القرى التي تغلب عليها محمود المرداسي بمساعدة التركمان وضمها إلى حلب ولما فتح سليمان بن قطلمش انطاكية سار إلى تلك القرى والحقها بانطاكية[٤] .

وكان لا بد من وقوع النزاع بين مسلم بن قريش العقيلي وسليمان ابن قطلمش، وسبب ذلك أن انطاكية كانت تؤدي الجزية لمسلم بن

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧١أ ؛ النويري ، نهاية الأرب جـ ٢١ ورقة ١٢٤أ ؛ ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار جـ ١٦ ورقة ١٠٧ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٨٦ ـ ٨٨ ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ؛ ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ١٤ ؛ ابو شامة ، الروضتين جـ ١ قسم ١ ص ٦٠ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٣٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ١٤ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٨٨ ، واهم الثغور الشامية ، عين زربة ، والهارونية، وسيس والمصيصة ، واذنه ، وطرسوس . انظر فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية جـ ١ ص ٢٤٧ ـ ٢٥٧ .

(٤) المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٩ .

قريش الذي اعتبر انطاكية داخل دائرة نفوذه . وشعر مسلم بن قريش ان سليمان بات يهدد نفوذه في حلب وشمال الشام ، لذلك بعث الأمير العقيلي إلى حلب فرقة عسكرية مكونة من ألف فارس لحمايتها وارسل إلى ابن قطلمش يطلب منه المال المفروض على انطاكية[١] . وقد رفض سليمان بن قطلمش ارسال المال إلى مسلم بن قريش ورد عليه قائلاً : « اما طاعة السلطان فهي شعاري ودثاري ، والخطبة له والسكة في بلادي وقد كاتبته بما فتح الله على يدي بسعادته من هذا البلد واعمال الكفار واما المال الذي يحمله صاحب انطاكية قبلي ، فهو كان كافراً ، وكان يحمل جزية رأسه واصحابه ـ وانا بحمد الله مؤمن ولا احمل شيئاً »[٢] . وبعث مسلم بن قريش نائبه بحلب ابن الحلزون إلى سليمان بن قطلمش يطالبه بالأموال . وألح ابن الحلزون في الطلب فغضب سليمان وارسل جيشه فنهب ريف حلب من منبج إلى المعرة وساق الجمال والدواب والماشية إلى انطاكية . فسار اصحاب المواشي المنهوبة إلى سليمان ، ورجوه ارجاع اموالهم فاخبرهم أن النهب ليس من عادته وإنما اجبره على ذلك أميرهم مسلم بن قريش ، واعاد سليمان الأموال إلى أصحابها[٣] . وجمع مسلم بن قريش جيشاً من قبائل العرب واحداث حلب ومن التركمان بقيادة جبق التركماني[٤] وسار قاصداً انطاكية . والتقى بسليمان بن

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧١ أ .

(٢) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار جـ ١٦ ورقة ١٠٦ أ ؛ ابن الشحنة روض المناظر ورقة ٦٢ أ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ؛ ابن واصل مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧١ أ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ١٤٠ ؛ ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٦ .

(٤) انظر مـايلي ، الفصل الثالث ص ٢٥٨ ـ ٢٦٠ .

قطلمش بين حلب وانطاكية وانضم جبق التركماني باتباعه إلى سليمان ابن قطلمش مما ادى إلى هزيمة العرب وفرارهم عن مسلم الذي لم يصمد معه سوى احداث حلب ، فقتل منهم أربعمائة شخص في المعركة كما قتل مسلم بن قريش وذلك في صفر سنة ٤٧٨هـ/ يونيه ١٠٨٥م[١] . وانتهى بمقتله جميع محاولاته في سبيل اقامة دولة عربية في بلاد الشام وليسدل الستار على ما تبقى للعرب من نفوذ سياسي في هذه البلاد. وهذا يفسر الموقف السلبي الذي وقفه العنصر العربي في بلاد الشام عند وصول الحملة الصليبية اذ لم يبق لهم من السلطان والنفوذ ما يحفزهم على الوقوف في وجه الغزاة من الفرنج .

كان مسلم بن قريش قد اناب عنه في حلب قائد الأحداث الشريف الحسن ابن هبة الله الهاشمي المعروف بالحتيتي ، كما ولي مسلم في قلعة حلب ابن عمه سالم بن مالك بن بدران العقيلي . وعندما قتل مسلم ابن قريش حمل سليمان بن قطلمش جثته وسار إلى حلب ووضع الجثة امام باب المدينة ظاناً انه بهذا الإجراء سوف يتسلم حلب[٢] . ورفض أهل حلب بزعامة الحتيتي وسالم بن مالك تسليم المدينة، مما جعل سليمان يضرب الحصار حول حلب . واخيراً قبل سليمان هدنة مؤقتة مع حلب، وكان هدفه من ذلك تجريد حلب من مواردها بالاستيلاء على المناطق التابعة لها . فسار إلى المعرة وكفرطاب من اعمال حلب

---

(١) ابن فضل اللّه العمري ، مسالك الأبصار ، جـ ١٦ ورقة ١٠٧أ ؛ ابن الشحنة ، روض المناظر ، ورقة ٦٢ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص٩٠-٩٢؛ ابن الاثير، الكامل جـ ١٠ ص ١٤٠ ؛ مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥ ؛ ابو شامة ، الروضتين جـ١ قسم ١ ص ٦٠ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٩١ - ٩٢ ؛ Salibi, Syria Under Islam. p. 144 .

واستولى عليها، ثم قصد شيزر وقاتلها وأجبرها على دفع مبلغ من المال مقابل انسحابه عنها . ثم سار سليمان إلى حصن لطمين قرب حلب واستولى عليه وشحنه بالرجال . ووصل إلى المعرة في جمادى الأولى سنة ٤٧٨هـ/ سبتمبر ١٠٨٥م حسن بن طاهر وزير سليمان بن قطلمش ، فثار عليه اهل المعرة واخرجوه منها ، فعاد وقاتل اهل المعرة وعاقبهم بدفع اتاوة قدرها عشرة آلاف دينار(١) .

قرر سليمان ـ بعد ذلك ـ تعديل سياسته لاستمالة سكان شمال الشام ، فأمر أتباعه بحسن السيرة ونشر العدل بين السكان . واعاد سليمان بناء قلعة قنسرين وسكنها ، مما يشير إلى عزمه على الاستيلاء على كل شمال الشام . وتزوج منيعة بنت محمود المرداسي ارملة مسلم ابن قريش ، ويبدو ان هدفه من هذا الزواج كان استمالة بني كلاب وامراء بني مرداس(٢) . ولما رأى الشريف الحتيتي زعيم أحداث حلب ، وسالم ابن مالك العقيلي تصميم ابن قطلمش على الاستيلاء على حلب ، اتفقا عل مراسلة السلطان ملكشاه وحثاه على القدوم لتسلم حلب ، او ارسال نجدة تدفع سليمان بن قطلمش(٣) .

ولما طال انتظار الشريف الحتيتي زعيم الأحداث لنجدة تصله من السلطان ارسَل مبارك بن شبل زعيم كلاب إلى تاج الدولة تتش طالباً مساعدته على سليمان بن قطلمش ووعده بتسليم حلب له ومؤكداً رغبة سكان حلب في حكمه . وكان تتش ينتظر هذه الفرصة لبسط نفوذه على

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٩٥ ، لطمين كورة بحمص وبهاَ حصن ، انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٩٥ ـ ٩٦ .

(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٩٦ .

حلب ، بعدما اخفقت كل محاولاته السابقة للاستيلاء عليها . وفي الوقت نفسه أدرك تتش ان سقوط حلب بيد سليمان بن قطلمش سيهدد نفوذه في بلاد الشام ، لذلك بادر تتش بحشد جيشه وخرج من دمشق في أول المحرم سنة ٤٧٩هـ/ ١٨ أبريل ١٠٨٦م قاصداً حلب وحاصر تتش حصن قنسرين ثم رحل إلى الناعورة من اعمال حلب ، فسارع سليمان ابن قطلمش واعترض طريق تتش وتقابل الفريقان على عين سيلم من اعمال حلب . وقام القائد التركماني الكفء ارتق بن اكسب بتنظيم وقيادة جيش تتش . ولما نشبت المعركة حاقت الهزيمة بجيش سليمان بن قطلمش وقتل في المعركة في شهر صفر ٤٧٩هـ/ يونيه ١٠٨٦م[١] وقد وقف تتش امام جثة سليمان وعبر عن حقيقة النزاع بين فرعي السلاجقة قائلاً : « ظلمناكم وابعدناكم ونقتلكم »[٢] . وكان لمقتل سليمان بن قطلمش نتائج بعيدة المدى فقد أصبحت آسيا الصغرَى بعد مقتله دون حاكم قوي الأمر الذي مكّن الصليبيين عند وصولهم إلى آسيا الصغرى من شق طريقهم إلى الشام دون صعوبة كبيرة ومن تحقيق انتصار على سلاجقة الروم عند ضوريليوم. فقد أثار مقتل سليمان الفرقة في صفوف السلاجقة ، وجعل سلاجقة الروم لا يغفرون لأقربائهم سلاجقة الشام وفارس ذلك الجرم . ولم يقدر للسلاجقة مطلقاً ان يتحدوا لمواجهة

---

(١) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، جـ ١٦ ورقة ١٠٧ ب ، ١٠٨ أ ؛ العيني ، عقد الجمان ، جـ ١١ ورقة ٩٢أ ـ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٩٦ ـ ٩٧ ؛ تاريخ العظيمي حوادث سنة ٤٧٩هـ ؛ ابن الاثير الكامل ، جـ ١٠ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ . ص ١٥ ـ ١٦ ؛ The Cambridge History of Islami Vol. I A. p. 195; Zakkar, op. cit. pp. 216-217.

الناعورة موضع بين حلب وبالس ، وعين سليم موضع بينه وبين حلب نحو ثلاثة أميال . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٩٨ .

الزحف الصليبي . وهكذا خدم الحظ الصليبيين في مواجهة كل فرع من بني سلجوق على انفراد مما مكنهم من انزال الهزيمة بكل قسم منهم على حدة[1] .

وكيفما كان الأمر ، فإن تتش بعد انتصاره على سليمان بن قطلمش وقتله سار الى حلب ليتسلمها حسب الاتفاق السابق مع الشريف الحتيتي زعيم الأحداث بها . ولكنه عندما وصل الى حلب وجد أبوابها مغلقة والحراسة على أسوارها مشددة ، فراسل الحتيتي مستفسراً عن أسباب غلق المدينة في وجهه فرد عليه الحتيتي مخبراً أنه جاء من جهة السلطان ملكشاه ما يفيد بقدومه الى حلب ولذلك لن يسلم المدينة الا للسلطان . وكان ابن الحتيتي قد سلم كل برج من أبراج حلب الى أحد أعيان المدينة لحراسته وكان يحرس أحد الأبراج تاجر حلبي يدعى ابن الرعوي ، فاتصل ابن الرعوي بتتش واتفق معه على تسليم المدينة وساعده في تسلق بعض اتباعه للبرج ونزلوا وفتحوا أحد الأبواب فدخل تتش بجيشه الى حلب واستولى عليها في ٢٦ ربيع الأول ٤٧٩ هـ / ١١ يوليه ١٠٨٦ م . غير أن سقوط حلب بيد تتش لم يكن كاملاً ، اذ ظل الشريف الحتيتي معتصماً مع الأحداث في قلعة بناها لهم ، فضلاً عن أن قلعة حلب الكبيرة تحصن بها سالم بن مالك العقيلي ورفض تسليمها الا للسلطان حسب وصية مسلم بن قريش . وأخيراً تمكن تتش من فتح قلعة الشريف الحتيتي وقبض عليه وسلمه لقائده ارتق الذي نفاه الى بيت المقدس . ثم ضيق تتش محاصرته لقلعة حلب ودام حصاره لها قرابة الشهر دون أن يستطيع فتحها ، ثم بلغه وصول طلائع جيش أخيه السلطان الى مشارف

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

حلب ، فانسحب تتش عائداً الى دمشق[1] . وأخيراً وصل السلطان ملكشاه الى الشام ليجني ثمار مقتل مسلم بن قريش وسليمان بن قطلمش .

السلطان ملكشاه في بلاد الشام ٤٧٩ هـ

تلقى السلطان ملكشاه استغاثة والي قلعة حلب سالم بن مالك العقيلي والشريف الحتيتي زعيم الأحداث أثناء حصار سليمان بن قطلمش لحلب بعد مقتل مسلم بن قريش . ومن أصفهان قاد ملكشاه جيوشه قاصداً بلاد الشام في جمادى الآخرة سنة ٤٧٩ هـ / اكتوبر ١٠٨٦ م[2] .

وكان التركمان يشكلون غالبية جيش السلطان ملكشاه . وكان جل اعتمادهم في القتال على شجاعتهم الفردية وطبيعتهم الحربية . ولهذا افتقروا الى استقرار وتدريب القوات النظامية[3] . وقد درج التركمان على النهب أثناء العمليات الحربية ، ولم يستطع ألب أرسلان خلال حملته

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٨٢ أ ـ ب ؛ ابن فضل اللّٰه العمري ، مسالك الأبصار جـ ١٦ ورقة ١٠٨ أ ـ ب ؛ ابن واصل ، التاريخ الصالحي ورقة ١٦٩ ب ؛ العيني ، عقد الجمان ، جـ ١١ ورقة ٩٢ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٩٧ ـ ٩٨ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ١٦ ـ ١٧ ، Zakkar, op. cit. pp. 217- 218. .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٨١أ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٩٧ ب ؛ العيني ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٩٢أ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ١٤٨ .

(٣) Gibb, op. cit. pp. 36-37.

على الشام كبح جماح التركمان ومنعهم من ممارسة هذه العادة . ولهذا حاول ملكشاه أثناء مسيره الى الشام تعويد التركمان على التزام النظام وعدم التعرض للسكان[1] . وسلك السلطان بجيشه الطريق الذي سلكه والده ألب أرسلان الى الشام فمر بالموصل وسار منها الى حرَّان وسلمها اليه ابن الشاطر فاقطعها ملكشاه لمحمد بن مسلم بن قريش . ووصل الى ملكشاه وفد من الرها يعلنون دخولهم في طاعته لأن فيلا ريتوس عاملهم بنفس السياسة القاسية التي انتهجها في أنطاكية . وأرسل ملكشاه مع وفد الرها شخصاً يعرف بالعميد لإدارة شؤون المدينة[2] .

وأصل السلطان ملكشاه زحفه الى الشام ومر على قلعة جعبر ، وصاحبها جعبر بن سابق القشيري ، وكانت هذه القلعة ملجأ لعصابات اللصوص ، وقطاع الطرق . فحاصر ملكشاه القلعة حتى فتحها ، وقتل جعبر بن سابق ، وولديه اللذين كانا ينظمان عمليات الإغارة على المسافرين ونهب القوافل التجارية . واستأصل السلطان شأفة اللصوص وقطاع الطرق الذين كانوا يتحصنون بالقلعة[3] وعندما اقترب السلطان

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٨١ أ ـ ب .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ١٨١ أ ـ ب ؛ العيني عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٩٢ ب ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٤٩ ؛ ابن واصل مفرج الكروب جـ ١ ص ١٧ ؛ ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ، جـ ٢ ص ١٩٧ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٨١ ب ؛ الأصفهاني ، البستان الجامع ورقة ٩٢ أ ، الذهبي ، تاريخ الإسلام جـ ١٢ ورقة ١٣ B ؛ ابن الجوزي المنتظم جـ ٩ ص ٢٨ ؛ ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ ١ ص ٣٧٤ ؛ قلعة جعبر على نهر الفرات بين بالس والرقة على الطرف الشمالي للنهر . وتقوم القلعة على هضبة صخرية صعبة المنال . انظر ياقوت، معجم البلدان ؛ ابو الفدا ، تقويم البلدان ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

ملكشاه من الشام أشار القائد ارتق بن أكسب على تتش بانتهاز فرصة وصول جيش ملكشاه في غاية التعب والارهاق من أثر السفر والانقضاض عليه وتدميره ، فرفض تاج الدولة تتش مشورة ارتق قائلاً : « لا أكسر جاه أخي الذي أنا مستظل بظله فإنه يعود بالوهن علي أولاً »[١] .

عبر السلطان ملكشاه الفرات ، وملك في طريقه منبج . وتقدمت طلائع الجيش السلجوقي الى مشارف حلب بقيادة برسق واياز وبوزان وغيرهم من القادة . وعلى أثر وصولهم انسحب تتش عائداً الى دمشق ثم وصل السلطان ملكشاه الى حلب في **٢٣** شعبان سنة **٤٧٩ هـ / ٣** ديسمبر **١٠٨٦** م ودخل المدينة . ونزل سالم بن مالك العقيلي من قلعة حلب وسلمها للسلطان الذي شكره على حفظه للقلعة أمام هجمات ابن قطلمش وتتش . وباستسلام حلب تسلم السلطان جميع القلاع والحصون التابعة لها في شمال الشام[٢] .

وبعد أيام من دخول السلطان ملكشاه حلب ، سار السلطان ملكشاه الى انطاكية التي كان يليها الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قطلمش . وعند وصول ملكشاه الى انطاكية استقبله الحسن بن طاهر وأخذ منه الأمان لنفسه ولأولاد سليمان وسلمه مدينة انطاكية . ومن انطاكية أخذ ملكشاه الابن الأكبر لسليمان ، قلج أرسلان ، ليعود به الى أصفهان واقطعه اقطاعاً بخراسان . أما انطاكية فقد اقطعها السلطان لقائده ياغي سيان

---

(١) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٤٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ١٨ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٨١ ب ؛ ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٩٨أ ؛ الأصفهاني ، البستان الجامع ورقة ٩٢أ ؛ النويري نهاية الأرب جـ ٢١ ورقة ١٢٤أ ؛ ابن القلانسي ص ١١٩ ؛ تاريخ العظيمي حوادث سنة ٤٧٩هـ ، . Zakkar, op. cit. p. 218; Salibi, op. cit. pp. 146-147

وأعطاه فرقة من الفرسان لحماية المدينة[1] . ومن انطاكية سار السلطان الى مينائها المعروف بالسويدية على ساحل البحر المتوسط وصلى شكراً لله « على أن ملكه من بحر المشرق الى بحر المغرب »[2] .

عاد السلطان من انطاكية الى حلب في رمضان ٤٧٩ هـ / ديسمبر ١٠٨٦ وشرع في تقسيم بلدان الشام كاقطاعات حربية ومنحها لقادته وغيرهم من الأمراء ، فمنح سالم بن مالك العقيلي ، قلعة جعبر وعانة وهيت عوضاً عن قلعة حلب . ووصل إلى حلب وفد من نصر بن منقذ أمير شيزر يعلن دخول ابن منقذ في طاعة السلطان وتنازله عن اللاذقية وأفامية وكفرطاب ، فكتب السلطان لابن منقذ توقيعاً بإمارة شيزر . كما وصله وفد من أخيه تتش يجدد الطاعة والولاء للسلطان . فجدد ملكشاه اقطاعه لتتش في دمشق وجنوب الشام . وقدم الى حلب خلف بن ملاعب حاكم حمص ، وقدم للسلطان خيلاً وهدايا فاخرة ، فشكره السلطان على هديته وأقره على ولاية حمص . وزاد السلطان ملكشاه في اقطاع محمد ابن مسلم بن قريش العقيلي ، الذي أقطعه حران وهو في طريقه الى الشام ، فأضاف اليه الرحبة وأعمالها وسروج والرقة ، والخابور كما زوجه باخته زليخا خاتون ابنة السلطان ألب أرسلان[3] .

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٨١ ب ـ ٨٢ أ ؛ العيني عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٩٣ أ ؛ تاريخ العظيمي ، حوادث سنة ٤٧٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠١ ؛ تامارا تالبوت رايس ، السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ص ٥٤ .

(٢) تاريخ العظيمي ، حوادث سنة ٤٧٩ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠١ ؛ الراوندي ، راحة الصدور وآية السرور ص ٢٠٢ ؛ ابن النظام الحسيني ، العراضة في الحكاية السلجوقية ص ٦٤ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٨١ ب ، ٨٢ أ ؛ العيني عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٩٣ أ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٩٨ أ ـ ب ؛ ابن العديم ، =

وهنا لا بد من أعطاء فكرة عن طبيعة الاقطاع الحربي السلجوقي . فالمعروف أن الدولة السلجوقية تميزت بالصفة الحربية العامة ، وقد تطلبت هذه الصفة منذ أواسط تاريخ هذه الدولة ، وكثرة انغماسها في الحروب ، أن ينتقل النظام المالي فيها انتقالاً حتمياً من نظام الرواتب والمهايا والأعطية النقدية الى نظام المكافأة والتعامل على قاعدة اقطاعية . فألغى الوزير السلجوقي نظام الملك ، عادة جباية الأموال من البلاد وصرفها على الجيش ، وأحل محلها اقطاع البلاد لكبار القادة العسكريين حتى ينصرفوا الى الاهتمام بشؤونها وعمارتها[1] . يقول نظام الملك : « ينبغي لأهل الاقطاع أن يعلموا أن ليس لهم على الرعية من أمر (أي سلطة قضائية) إلا أن يجبوا منهم المال الذي عهدت اليهم جبايته بالحسنى . فاذا جبوه وجب أن يأمن الناس على أنفسهم ونسائهم وأموالهم وعيالهم ويطمئنوا على أسبابهم وضياعهم . وما لأهل الاقطاع عليهم بعد ذلك من سبيل . فإذا ارادت الرعية أن ترد باب الملك لتطلعه على أمرها وجب عليهم ألا يحولوا بينهم وبين ذلك . وكل من سار من المقطعين في الناس بغير ذلك وجب أن تغل يداه وأن يسترد منه اقطاعه وأن يؤاخذ على ذلك حتى يعتبر به الآخرون . ومهما يكن من شيء فينبغي لهم أن يعلموا أن الملك والرعية للسلطان جميعاً وأنهم (أي المقطعون) وكذلك الولاة ، وهم على رأس الرعية شحنة لا ينبغي أن يكون لهم على الرعية الا ما يكون للسلطان عليها من حسنى تنعم بها ان شاءوا أن يأمنوا عذاب الآخرة وعقابها »[2] . وفي نظام الاقطاع الحربي

= زبدة الحلب جـ ٢ص ١٠٠ ـ ١٠١؛ ابن الاثير، الكامل جـ ١٠ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ؛ ابو شامة ، الروضتين جـ ١ قسم ١ ص ٦٠ ـ ٦١ .

(١) حسنين ربيع ، النظم المالية في مصر زمن الايوبين ص ٢٦ .

(٢) نظام الملك ، سياسة نامة ص ٦١ (الترجمة العربية) .

الذي وضعه نظام الملك ضمان لعدم تكليف ميزانية الدولة أية مصاريف اضافية . ويدل على هذا أن نظام الملك أثناء توزيع ملكشاه لبلدان الشام والجزيرة كاقطاعات أشار على السلطان باقطاع قلعة جعبر لسالم بن مالك العقيلي وقال للسلطان : « أن قلعة جبر تريد منا في كل عام جملة من المال ، وليس لها عمل جيد وهو - (أي سالم) - يرضى بها »[1] .

ومع أن هذا النظام قد أفاد الدولة من الناحية الاقتصادية ، عندما ترك للقادة والأمراء حرية تنظيم اقطاعاتهم الا أنه كان سيئاً من الناحية السياسية، خصوصاً في بلاد الشام . فهؤلاء الأمراء والقادة المقطعون احتفظوا بجيوش خاصة بهم ، الأمر الذي أغراهم بالنزوع الى الاستبداد ومحاولة تأكيد استقلالهم عن السلطان السلجوقي ، وحاول كل واحد منهم في بلاد الشام توسيع اقطاعه على حساب غيره من المقطعين مما أوجد حالة من الحروب المستمرة بين هؤلاء الأمراء بحيث بات من الصعب إعادة الأمن والنظام الى بلاد الشام[2] .

وعندما قرر السلطان ملكشاه مغادرة حلب عائداً الى خراسان ، خلف وراءه قسيم الدولة اقسنقر ، ومنحه اقطاعاً ضخماً اشتمل على حلب وحماة ومنبج واللاذقية والمعرة وأعمالها . وترك السلطان لقسيم الدولة فرقة عسكرية مؤلفة من أربعة آلاف فارس كما ترك له قائداً تركياً يدعى نوح لمساعدته في إدارة شؤون القلعة . وعهد السلطان بجمع

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٩٨ أ - ب .

(٢) Gibb, op. cit. pp. 23-24.

وعن النزاع بين أمراء السلاجقة واثره على بلاد الشام قبيل الحملة الصليبية الأولى انظر مايلي ص ٢٨٤ - ٢٩٣ .

الأموال في ديوان حلب الى تاج الرؤساء أبي منصور بن الخلال الحلبي[1] .

وبعد أن رتب السلطان ملكشاه أمور بلاد الشام غادر حلب أواخر سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٧ م وفي طريقه بلغه أن العميد الذي ولاه على الرها صادر أموال السكان مما أدى الى قيامهم ضده وطردهم له ، فأقطع السلطان مدينة الرها لقائده بوزان ، فسار بوزان وتسلم الرها . ومر ملكشاه على ميافارقين وديار بكر فعزل ابن جهير عنها وولي فيها أبا علي البلخي . وعاد السلطان الى خراسان[2] .

ورغم أن حملة السلطان ملكشاه الى الشام بدت وكأنها أوصلت الدولة السلجوقية الى أقصى اتساعها فإنها في حقيقتها لم تؤد الى تكوين جبهة اسلامية متحدة في بلاد الشام ، ذلك أن السلطان ملكشاه أخضع فعلاً بلاد الشام للحكم السلجوقي المباشر ، الا أنه أسهم في تمزق بلاد الشام والجزيرة عندما منحها كاقطاعات حربية لقادة جيشه وغيرهم . فلو قدر لبلاد الشام أن تصير موحدة نتيجة حملة ملكشاه لتغير مصير الحملة الصليبية الأولى . يضاف الى هذا أن السلطان ملكشاه أقر وجود بعض الامارات المستقلة في بلاد الشام مثل امارة بني منقذ في شيزر وإمارة خلف بن ملاعب في حمص وإمارة تتش في دمشق وجنوب الشام ، فضلاً عن استقلال طرابلس وصور عن السلاجقة . وأدى هذا الى انقسام وتفتت بلاد الشام قبيل وصول الصليبيين .

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٣ ورقة ٢٥٨ب ؛ ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ١٥٠ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ١٩ ؛ ابن ايبك الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية ص ٤٣٠ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية في مصر زمن الايوبين ص ٢٧ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٨٢ ب .

وأثناء وجود ملكشاه في بلاد الشام لم يحاول الاتصال بالفاطميين وبالتالي ظل العداء السياسي والخلاف المذهبي قائماً بين السلاجقة والفاطميين . كما أن منطقة شمال الشام خضعت لأول مرة لحكم السلاجقة المباشر . والمعروف أن معظم سكان شمال الشام يدينون بالمذهب الشيعي خلال هذه الحقبة ، بينما السلاجقة يعتنقون المذهب السني ويتعصبون له ، وأخذ الخلاف المذهبي يتفاقم بين الجانبين مما أدى في نهاية الأمر الى ظهور حركة الباطنية[1] في شمال الشام كرد فعل على انتصار السلاجقة وضمهم بلاد الشام الى حظيرة الدولة السلجوقية . وكل ذلك أفاد منه الصليبيون فيما بعد .

النفوذ السلجوقي في بلاد الشام بعد رحيل ملكشاه (٤٨٠ ـ ٤٨٥ هـ)

ترك السلطان ملكشاه،آقسنقر الحاجب في شمال الشام كنائب له . وشمل اقطاع اقسنقر مدناً هامة،مثل حلب،واللاذقية،وحماة،وحمص،ومنبج والمعرة . وينتمي اقسنقر بن عبد الله آل ترغان الى قبيلة الساب يوالتركمانية[2] وقد حظى آقسنقر باهتمام المؤرخين لما قام به من جلائل الأعمال خلال حكمه لحلب وشمال الشام . وكان اقسنقر مملوكاً للسلطان ملكشاه ومن المقربين لديه . وقد نشأ معه ورافقه في طفولته وصباه . وعندما آلت السلطنة الى ملكشاه سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م جعل آقسنقر من كبار أمرائه وأخص أصدقائه واعتمد عليه في كثير من الأمور

---

(١) عن ظهور الباطنية في بلاد الشام انظر الفصل الرابع ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٣ ورقة ٢٦٧ ب .

وصار يعرف بلقب قسيم الدولة[1] ، كما عرف اقسنقر بلقب الحاجب[2] . ويبدو أنه كان كبير حجاب السلطان ملكشاه اذ يذكر ابن الأثير أن قسيم الدولة اقسنقر « كان يقف الى جانب تخت السلطنة عن يمينه ولا يتقدمه أحد »[3] . ويظهر أن تقريب السلطان ملكشاه لاقسنقر واشراكه في مهام الأمور أثار منافسة الوزير نظام الملك الذي أشار على السلطان باقطاعه حلب كيما يبعده عن بلاط السلطان[4] .

وهكذا نشأ قسيم الدولة آقسنقر مع السلطان ملكشاه وتتلمذ معه على يد الوزير السلجوقي نظام الملك الذي قام بدور هام في تنظيم الدولة السلجوقية الواسعة . فوضع لها نظمها السياسية والإدارية والاقتصادية . وكتب نظام الملك (سياسة نامة) الذي ضمنه أفكاره وتصوره لما ينبغي أن يكون عليه نظام الحكم في الدولة السلجوقية[5] .

وكان من الطبيعي أن يتأثر أقسنقر ـ بحكم نشأته في البلاط السلجوقي ـ بأفكار نظام الملك في الحكم والإدارة . لذلك ما إن أصبح اقسنقر والياً لمنطقة حلب حتى تدخل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٤ ، ابو شامة ، الروضتين جـ ١ قسم ١ ص ٥٨ ـ ٥٩ ؛ ابن واصل مفرج الكروب جـ ١ ص ١١ ؛ عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ص ٣١ .

(٢) العيني ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١١٢أ ؛ ابن خلكان جـ ١ ص ٢٤١ ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات جـ ٨ ص ٣٠٩ .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٤ .

(٤) العيني ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١١٢ أ ـ ب؛ ابن الاثير، التاريخ الباهر ص ٤ ؛ أبو شامة ، الروضتين جـ ١ قسم ١ ص ٥٨ ـ ٥٩ ؛ عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ص ٣٢ .

(٥) ترجم السيد محمد العزاوي كتاب نظام الملك الى اللغة العربية وصدر في القاهرة سنة ١٩٧٥م .

ولايته وأصبح دوره بارزاً وراء كل حدث . وأدخل كثيراً من التغييرات التي لم تعهدها حلب من قبل . وكان من أهم أعمال اقسنقر هو توطيد الأمن في شمال الشام ، في وقت ازداد فيه نشاط اللصوص وقطاع الطرق . وقد باشر قسيم الدولة آقسنقر بنفسه تحقيق الأمن لمنطقة شمال الشام فشرع في « مطاردة الحرامية وقطاع الطرق ومخيفي السبيل ، فأوقع بهم واستأصل شأفتهم قتلاً وأسراً » . وأصدر أوامره الى جميع أعماله بتتبع المفسدين والقبض عليهم ، وتوفير الحماية الكاملة للمسافرين عبر المناطق التابعة لحلب . وتشدد اقسنقر في معاقبة اللصوص وقطاع الطرق. فقبض على الكثير منهم، وصلبهم على أبواب حلب، كيما يثير الرعب في قلوب الآخرين . كما طبق مبدأ العقوبة الجماعية فأصدر أمراً يقضي بتغريم كل قرية تتعرض للقوافل التجارية المارة بها بالنهب ، بمقدار ما سلب منها من الأموال قلت أم كثرت ، مما أجبر سكان القرى على بذل أقصى جهودهم لحراسة المسافرين والقوافل التجارية والسهر على حمايتها ليلاً ونهاراً حتى تستأنف مسيرها[1] .

وعمد اقسنقر الى تكليف رئيس أحداث حلب بركات بن فارس الفوعي المعروف بالمجن بمطاردة اللصوص وقطاع الطرق لمعرفته السابقة بهم، لأنه كان «من جملة اللصوص الشطار وقطاع الطرق الذعار» فاستتابه قسيم الدولة وعهد اليه برئاسة أحداث حلب ومطاردة اللصوص وقطاع الطرق . وظل المجن الفوعي يلي هذه الوظيفة طوال حياة اقسنقر

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٣ ورقة ٢٦٧ب ؛ ابن القلانسي ص ١٢٠ ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٣٣ ؛ ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٧ ؛ الداواداري ، الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية ص ٤٣٠ ؛ عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ص ٣٤ .

مما يدل على نجاحه في مهمته[1] . وقد بلغ من سيطرة اقسنقر على الأمن في قرى حلب وحقولها أن أرسل من ينادي فيها أن لا يغلق أحد بابه وأن يتركوا آلاتهم الزراعية في أماكنها ليلاً ونهاراً ومن ثم جاءت شهرته بناء على ما أنجزه في هذا المجال[2] .

وأفضت هذه السياسة الأمنية الحازمة التي نفذها آقسنقر الى نتائج هامة على حلب وشمال الشام، فساد الاطمئنان، وأمنت الطرق، مما جعل الناس يمارسون أعمالهم في نشاط جم ، فانتشر العمران وزاد الانتاج الزراعي، وتضاعف قدوم التجار والجلابين الى حلب، فازدهرت الحياة الاقتصادية مما أدى الى انخفاض الأسعار[3] .

وقام قسيم الدولة آقسنقر بالعديد من المنشآت العمرانية ، فأمر بتجديد سور حلب ونقش اسمه عليه كما قام بتحصين قلعة حلب وترك بها بعض الآثار الحسنة[4] . وأمر ببناء منارة جامع حلب ، وأنفق عليها الكثير من الأموال ونقش اسمه عليها[5] .

وعمل آقسنقر على فرض سيادته على حلب ومن أجل ذلك قضى

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٣٨ ـ ٤٠ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٣ ورقة ٢٦٨ ب ؛ عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ص ٣٥ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٨٥أ ؛ ابن العديم بغية الطلب جـ ٣ ورقة ٢٦٧ ب ، ٢٦٨أ ؛ ابن القلانسي ص ١١٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٤) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ١ ص ١٧ ، ٢٤ .

(٥) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار جـ ١٦ ورقة ١٠٩ب ؛ ابن الشحنة ، روض المناظر ، ورقة ٦٢أ ؛ العظيمي حوادث سنة ٤٨٢هـ ؛ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة جـ ١ ص ٣٤ .

على الزعماء الذين يمكن أن يشكلوا عامل تهديد لحكمه ، فقبض سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م على شبل بن جامع أمير بني كلاب وعلى ابنه مبارك ابن شبل ومحمد بن زائدة الكلابي ، واعتقلهم بالقلعة ، وبذلك أضعف قبيلة كلاب ، وقضى على تأثيرها السياسي في شؤون حلب[١] . كما قبض اقسنقر على الوزير أبي نصر محمد بن الحسن بن النحاس ، وهو من الشخصيات المشهورة زمن حكم المرداسيين، وسلمه قسيم الدولة اقسنقر الى رئيس أحداث حلب بركات الفوعي وأمره بقتله سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ [٢] .

أما عن نفوذ تتش في بلاد الشام بعد رحيل أخيه السلطان ملكشاه فقد استطاع تتش صد محاولات الفاطميين المتتالية لاستعادة نفوذهم على المناطق الداخلية من بلاد الشام . أما المناطق الساحلية فلم يستطع تتش مواجهة البحرية الفاطمية . ولذلك احتفظ الفاطميون في قبضتهم بالعديد من موانىء الشام . والدليل على عدم قدرة تتش التصدي للأسطول الفاطمي أن تتش تمكن من انتزاع صيدا من الفاطميين سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٨٠ م ، الا أن قوة بحرية فاطمية تمكنت من استعادة المدينة في السنة التالية[٣] .

وقد حاول تتش بعد رحيل ملكشاه بسط نفوذه على ساحل الشام ، وتمكن سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م من الاستيلاء على صيدا مرة أخرى وبيروت . وحاصر تتش صور سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م وانتزعها من أيدي

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٧ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ١١٠ .
(٣) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ ٣ ص ٩٨ ـ ٩٩ .

أبناء عين الدولة ابن أبي عقيل قاضيها وحاكمها السابق[1] . على أن بدراً الجمالي أرسل على الفور حملة بحرية بقيادة غلامه ناصر الدولة الجيوش فاستعاد صور وصيدا وعكا واستولى على جبيل ، وقتل جماعة من أصحاب تتش ، واستولى على أمواله وذخائره الموجودة في هذه الموانىء . ولما وصلت الحملة الفاطمية الى جبيل قدم اليها حاكم حمص خلف بن ملاعب ودخل في طاعة الفاطميين فأرسل اليه بدر الجمالي الخلع والتقليد[2] .

أجبر هذا النشاط البحري الفاطمي تاج الدولة تتش على مراسلة أخيه السلطان ملكشاه وطلب منه أن يأمر نوابه على الشام بتقديم المساعدة له ، لبسط النفوذ السلجوقي على موانىء الشام . وفي الوقت نفسه تلقى ملكشاه شكاوى رفعها اليه سكان الشام وولاته طالبين من السلطان تخليصهم من خلف بن ملاعب، لأنه كان «جباراً ظالماً يقطع الطريق ، ويخيف السبيل » فضلاً عن أن ابن ملاعب دخل في طاعة الفاطميين، وأقام الخطبة لهم. فأصدر السلطان ملكشاه أوامره الى آقسنقر حاكم حلب وياغي سيان حاكم انطاكية ، وبوزان حاكم الرها بالانضمام بقواتهم الى أخيه تتش، ومحاصرة ابن ملاعب في حمص، وانتزاع أملاكه وارساله أسيراً الى السلطان[3] .

---

(١) الاصفهاني ، البستان الجامع ، ورقة ٩٢ب ؛ العظيمي ، حوادث سنتي ٤٨٠ ، ٤٨٢هـ ؛ ابن ميسر ، أخبار مصر جـ ٢ ص ٢٨ ؛ المقريزي اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٢٦ .

(٢) مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ورقة ٩٠ أ ؛ المقريزي ، المقفي ورقة ٢٤٣ ب ؛ ابن ميسر ، اخبار مصر جـ ٢ ص ٢٨ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٢٦ ، جبيل بلد مشهور يقع شرقي بيروت على مسافة ثمانية فراسخ عنها انظر ياقوت معجم البلدان .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٩٠ أ ؛ ابن العديم بغية الطلب جـ ٥ =

ولم يجرؤ هؤلاء القادة على مخالفة أوامر السلطان رغم ادراكهم أن تنفيذ أوامر السلطان سينجم عنها توسيع ممتلكات تتش في بلاد الشام، وبالتالي زيادة قوته مما يهددهم مستقبلاً ، فانضموا الى تتش ، وساروا جميعاً الى حمص ، وحاصروا خلف بن ملاعب حتى اقتحموا حمص وقبضوا على ابن ملاعب وولديه ووضعوه في قفص من حديد وبعثوا به الى بلاط السلطان في اصفهان سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م وكتب كل واحد من هؤلاء الأمراء الى السلطان طالباً اليه اضافة حمص الى اقطاعه ، فجاء رد السلطان باقطاع حمص الى أخيه تاج الدولة تتش[١] .

ومن حمص سار اقسنقر وبوزان وياغي سيان تحت قيادة تتش ، واستولوا في طريقهم الى ساحل الشام على عرقة، وضمها تتش الى أملاكه[٢] . وأخيراً وصلوا الى طرابلس التي كانت خاضعة لقاضيها جلال الملك بن عمار. وأعد ابن عمار عدته للدفاع عن طرابلس، ولكنه أدرك أنه لا يستطيع المقاومة أمام قوة أمراء السلاجقة بالشام ، وفي الوقت نفسه

= ورقة ٢٢٠ ب ، ٢٢١ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٠٦ ؛ ابن واصل مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٠ ـ ٢١ ؛ ماهر حمادة ، الوثائق السياسية والادارية للعصور العباسية ص ٤٤٧ .

(١) مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٩١ أ ؛ ابن فضل اللّٰه العمري ، مسالك الابصار جـ ١٦ ورقة ١١١ أ ـ ب ؛ ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٥ ، ورقة ٢٢١ أ ـ ب ؛ ابن القلانسي ص ١٢٠ ؛ العظيمي حوادث سنة ٤٢٣ ؛ زكار ، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢١٧ ، Gibb, op. cit., p. 20.

(٢) ابن فضل اللّٰه العمري ، مسالك الأبصار جـ ١٦ ورقة ١١١ب ؛ العيني عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١٩ أ ؛ ابن شداد الاعلاق الخطيرة جـ ٣ ص ٩٤ ؛ العظيمي ، حوادث سنة ٤٨٣ ؛ عرقة من أعمال دمشق وهي بلدة في ساحل الشام على مسافة أربعة فراسخ شمال شرقي طرابلس ، انظر ياقوت، معجم البلدان ؛ ابو الفدا ، تقويم البلدان ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

لا يأمل في معونة فاطمية، لأن علاقته بالفاطميين كانت سيئة، فأرسل الى المحاصرين محتجاً على الحصار، وأبرز وثائق من السلطان ملكشاه بإقراره حاكماً على طرابلس. ويبدو أن ابن عمار أدرك خلال المفاوضات مدى ما بين تتش واقسنقر من الحسد والنفور، فأراد استغلال ذلك لمصلحته فراسل اقسنقر سراً وعرض عليه مبلغ ثلاثين ألف دينار مقابل انسحابه، ووجد عرض ابن عمار هوىً في نفس آقسنقر الذي يبدو أن اضافة حمص الى اقطاع تتش قد اغضبه، فضلاً عن أن سقوط طرابلس المشهورة بثرائها بيد تتش سيجعل له ميناء تجارياً هاماً، مما سيزيد في قوة تتش، ويهدد في الوقت نفسه آقسنقر في حلب، لذلك قرر آقسنقر قبول عرض ابن عمار، وأبلغ تتش بصحة الوثائق التي عرضها ابن عمار، وأنه باستمرار حصارهم لطرابلس يخالفون أوامر السلطان. ودار نقاش حاد بين آقسنقر وتتش، قرر آقسنقر على أثره الانسحاب الى حلب وتبعه بوزان الى الرها. وكان لهذا التصرف من آقسنقر أسوأ الأثر في نفس تتش، وأدرك أنه بات عاجزاً بمفرده عن الاستمرار في حصار طرابلس. فآثر الانسحاب عائداً الى دمشق سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م[١].

وفي طريقه الى حلب، استولى قسيم الدولة آقسنقر على افامية التي كانت تابعة لخلف بن ملاعب وسلمها الى نصر بن علي بن منقذ امير

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٩٤أ؛ ابن الاثير، الكامل جـ ١٠ ص ٢٠٣؛ ابن واصل، مفرج الكروب جـ ١ ص ٢١ ـ ٢٢؛ ابن ايبك الدواداري، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية ص ٤٣١ ـ ٤٣٢؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٢٢؛ ابن تغري بردي النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٣٣؛ سيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ص ٧١، ٧٢، Zakkar, op. cit. pp. 226-227; Salibi, op. cit. p. 151.

شيزر ، وكان هدف آقسنقر من تسليم افامية لابن منقذ هو ان يحرم تتش منها ، وليوسع من املاك امارة بني منقذ حتى تصبح اراضيها حاجزة بين شمال الشام الخاضعة لاقسنقر وبين جنوب واواسط الشام الخاضعة لتتش(١) .

وفي هذه الفترة وصل السلطان ملكشاه الى بغداد في رمضان سنة ٤٨٤هـ/ نوفمبر ١٠٩١م ومكث فيها عدة اشهر واستدعى ولاته ليبحث معهم مشاكلهم وقضايا بلادهم . ووصل الى حضرة السلطان تاج الدولة تتش وآقسنقر وغيرهما اوائل سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م . ويصف المؤرخون وصول آقسنقر في ابهة عظيمة بحيث لم يكن في اتباع السلطان من يماثله . وأمام السلطان اشتكى تتش من آقسنقر ، ولكن السلطان ملكشاه اقتنع بحجة آقسنقر وحكم له على اخيه تاج الدولة تتش(٢) . وكشف آقسنقر للسلطان حقيقة نوايا تتش ازاء السلطنة السلجوقية ، لذلك قام ملكشاه باستبقاء احد ابناء تتش في بلاطه كرهينة . وعهد مرة اخرى الى تتش وآقسنقر وبوزان وياغي سيان باستعادة ساحل الشام من الفاطميين ، ومن ثم الزحف على مصر للقضاء على الخلافة الفاطمية(٣) . غير ان هذا

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٦ ؛ زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ورقة ٩٥أ ؛ ابن العديم ،بغية الطلب ، جـ ٣ ورقة ٢٦٨ ب - ٢٦٩أ ؛ ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار جـ ١٦ ورقة ١١١ أ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ١٩٩ ؛ ابو الفدا المختصر في اخبار البشر جـ ٢ ص ٢٠١ - ٢٠٢ ؛ الذهبي ، دول الإسلام ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٣) سبط ابن الجوزي مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٩٥ أ ؛ ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار جـ ١٦ ورقة ١١١ أ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٠٢ ؛ الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧١ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٣٣ .

الأمر لم ينفذ بسبب وفاة السلطان ملكشاه بعد فترة وجيزة ، وما كان لهذه الوفاة من آثار بالغة الخطورة على بلاد الشام وغيرها من أجزاء الدولة السلجوقية .

موت ملكشاه سنة ٤٨٥هـ ونتائجه على الغزو السلجوقي لبلاد الشام

بلغت الدولة السلجوقية في عهد ملكشاه أقصى اتساعها ، واصبحت تمتد شرقاً إلى اقليم ما وراء النهر ، وغرباً الى البحر المتوسط وآسيا الصغرى . وفي اواخر عهد ملكشاه بدأ الخلاف بينه وبين وزيره نظام الملك(١) . وقد تمخض عن هذا الخلاف اغتيال نظام الملك في رمضان سنة ٤٨٥هـ/ اكتوبر ١٠٩٢م ثم توفي بعده بفترة وجيزة السلطان ملكشاه في شوال من نفس السنة(٢) .

كان لوفاة ملكشاه نتائج بالغة الخطورة على الدولة السلجوقية عامة وعلى بلاد الشام خاصة . فالانقسام الذي حدث بين افـراد البيت السلجوقي بعد ملكشاه كان بداية تفكك الدولة السلجوقية الفتية ، فدب الوهن والضعف الى جيوشها . وخلف ملكشاه عدداً من الابناء وقام التنافس بين ابنه الأكبر بركياروق، يؤيده اتباع نظام الملك، وبين أخيه الأصغر محمود وهو ابن تركان خاتون زوجة ملكشاه المدللة، ذات النفوذ الكبير في الدولة . وقد انقسم قادة السلاجقة الى حزبين يناصر كل منها

---

(١) عن اسباب الخلاف بين ملكشاه ونظام الملك . انظر ابن الاثير الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢١٠ .

احد الأخوين في سبيل فرض سيطرته على الدولة السلجوقية[1] .

ولما علم تتش بوفاة ملكشاه، قرر العمل للافادة من الانقسام الذي حدث بين أولاد ملكشاه . واخذ يستعد لاعلان نفسه سلطاناً على الدولة السلجوقية، فراسل آقسنقر حاكم حلب، وياغي سيان صاحب انطاكية، وطلب منهما الدخول في طاعته. ولم يكن بمقدور آقسنقر معارضة تتش، لا سيما وان ملامح النزاع بين ولدي ملكشاه لم تتضح بعد حتى ينضم الى صاحب الكفة الراجحة . فانضم اقسنقر وياغي سيان الى تتش فازداد بهما قوة وخطبوا له في بلادهم[2] .

بدأ تتش في إعداد خططه لاخضاع اقاليم الدولة السلجوقية. وقرر الاستيلاء على مدينة الرحبة الواقعة على نهر الفرات لما تمثله من موقع عسكري هام يمكنه من الانطلاق منها الى العراق والجزيرة، فضلاً عن اشرافها المباشر على بلاد الشام ، فسار تتش الى الرحبة واستولى عليها ورتب امورها ، واتخذها قاعدة لبسط نفوذه على منطقة الجزيرة . ومن الرحبة أعلن تتش نفسه سلطاناً على الدولة السلجوقية في المحرم ٤٨٦هـ/ فبراير ١٠٩٣م[3] .

---

(١) المصدر السابق جـ ١٠ ص ٢١٤ ـ ٢١٦ ؛ عبد النعيم حسنين ، سلاجقة ايران والعراق ص ٨٣ ـ ٨٥ .

(٢) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار جـ ١٦ ورقة ١١٢ ب ، ابن القلانسي ص ١٢٢ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٠٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٢٢ ـ ٢٣ ؛ القرماني ، اخبار الدول وآثار الأول ص ٢٧٧ .

(٣) ابن القلانسي ص ١٢٢ ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٢٠ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٩٩٥ ؛ الحصيني ، منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٣٧ ؛ والرحبة هي رحبة مالك بن طوق على شاطيء الفرات بين الرقة وبغداد . كانت محط القوافل بين العراق والشام . انظر ياقوت، معجم البلدان، ابو الفدا تقويم البلدان ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

سار تتش من الرحبة الى نصيبين في شمال الجزيرة ، وعند وصوله الى مشارف نصيبين انضم اليه بوزان حاكم الرها . وحاصر تتش نصيبين التي أصرت على المقاومة، وتمكن تتش من الاستيلاء على المدينة وقتل الكثير من رجالها ، واباح المدينة لعسكره فارتكبوا فيها اعمالاً شنيعة من القتل والنهب والسبى . وبعد ذلك سلم تتش نصيبين لمحمد بن مسلم ابن قريش. ووصل الى تتش الكافي بن فخر الدولة بن جهير فاتخذه وزيراً. وأخذ تتش يستعد للاستيلاء على الموصل، ليسير منها الى بغداد للحصول على الاعتراف الشرعي بسلطانه من الخليفة المقتدى بالله العباسي[١] . وكان يلي امرة الموصل في هذه الفترة ابراهيم بن قريش العقيلي ، فراسله تتش وطلب منه اقامة الخطبة له بالموصل وان يفسح له المجال للمسير الى بغداد، لطلب الخطبة له بالسلطنة من الخلافة العباسية[٢] . ورفض ابراهيم بن قريش طلب تتش وحشد جيشاً من العرب والاكراد لمواجهة تتش . والتقى الفريقان في مكان يسمى المضيع على نهر الهرماس شرق مدينة نصيبين .وكان يقود ميمنة جيش تتش آقسنقر بينما يقود بوزان الميسرة ،ونشبت المعركة في ربيع الأول سنة ٤٨٦هـ/ مارس ، ١٠٩٣م ، ولم ينجح اي من الفريقين في انزال الهزيمة بالآخر . وعندما رجع كل فريق الى معسكره ، قاد تتش جيشه على الفور وباغت جموع ابراهيم بن قريش وهم غافلون . وحاقت الهزيمة بالعرب والاكراد ، وقتل ابراهيم بن قريش ، وعمه بدران وكثير من زعماء بني عقيل. واستولى تتش على الموصل وما يتصل بها، وأناب فيها علي بن

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ١٠٤ب ، ١٠٥أ ؛ ابن القلانسي ص ١٢٢ ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٢٠ ؛ ابن واصل مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٣ ؛ ابن ايبك ، الدرة المضية ص ٤٣٢ .

(٢) انظر مايلي : الفصل الثالث ص ٢٦١ .

مسلم بن قريش وامه صفية عمة تتش[1] .

ثم ارسل تتش إلى الخليفة المقتدي طالباً اقامة الخطبة له بالسلطنة . وخلط طلبه بشيء من التهديد ، فلم يعبأ الخليفة بتهديد تتش، وارسل اليه رسالة يرفض فيها طلبه، موضحاً أن الخطبة لا يحق له المطالبة بها إلا اذا فرض حكمه على اجزاء الدولة السلجوقية بكاملها بما فيها اصفهان عاصمة السلاجقة ولم يبق من ابناء ملكشاه من يعارضه[2] . وحينذاك شرع تتش في العمل على السيطرة على اقاليم الدولة السلجوقية ، فسار إلى ديار بكر سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م وقابله وفد من ميافارقين يعلنون دخولهم في طاعته واعترافهم به سلطاناً . وسار معهم ودخل آمد وملكها وقصد ميافارقين واستولى عليها ايضاً بالامان[3] .

وعندما استولى تتش على ديار بكر والجزيرة والموصل هرب بنو عقيل من ديارهم ، ولجأوا الى السلطان بركياروق ، ولم يعد يوجد أحد يعارض في وجه تتش بمنطقة الجزيرة[4] .

واستقر رأي تتش على المسير إلى خراسان للقضاء على ابن اخيه

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ورقة ١٠٤ أ ، ابن فضل اللّه العمري ، مسالك الأبصار جـ ١٦ ورقة ١١٣ أ ؛ ابن القلانسي ص ١٢٣ ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٧ ـ ١٠٨ ؛ تاريخ ابن خلدون ، جـ ٣ ص ٩٩٥ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم جـ ٨ ص ٢٩٣ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٣٧ ـ ١٣٨ ؛ محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية والادارية للعصور العباسية ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠ .

(٣) تاريخ الفارقي ص ٢٣٦ .

(٤) ابن القلانسي ص ١٢٣ .

بركياروق والانفراد بحكم الدولة السلجوقية وشجعه على ذلك مراسلة زوجة اخيه ملكشاه تركان خاتون طالبة اليه القدوم ، ووعدته بالزواج منها[1] . فسار تتش نحو خراسان سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م ، وخضعت له جميع المدن الواقعة على الطريق الى خراسان . وعند وصول تتش إلى تبريز، حدث ان انفصل آقسنقر وبوزان باتباعهما عن تتش، وسارا إلى مدينة الري وانضما إلى بركياروق الذي ازداد بهما قوة . وامام هذا الموقف الجديد رأى تتش ان قواته باتت ضعيفة امام قوات ابن اخيه فقرر العودة إلى بلاد الشام[2] .

قدّم آقسنقر وبوزان المساعدة للسلطان بركياروق، حتى تخلص من إسماعيل ابن ياقوتي خال بركياروق الذي مال الى مساعدة تركان خاتون وابنها محمود ضد بركياروق[3] . وحث آقسنقر وبوزان السلطان بركياروق على الإسراع في القضاء على عمه تتش قبل ان يتمكن من حشد قوات جديدة . وطلبا منه ان يسير معهما بنفسه إلى الشام لمواجهة تتش ، فسار بركياروق مع آقسنقر حتى وصلوا جميعاً الى الرحبة . وهناك عقد بركياروق حلفاً مع آقسنقر وبوزان وعلي بن مسلم بن قريش العقيلي . وارسل بركياروق مع آقسنقر فرقة لمساعدته في الرجوع إلى حلب . وفي الوقت نفسه عاد بوزان الى الرها وذلك في شوال سنة ٤٨٦هـ/ نوفمبر ١٠٩٣م[4] .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٨ .

(٢) ابن القلانسي ص ١٢٤ ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٢٢ ؛ ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ؛ الذهبي ، العبر جـ ٣ ص ٣١٠ ـ ٣١١ ؛ ابو الفدا ، المختصر جـ ٢ ص ٢٠٤ ، Gibb, op. cit. p. 22. .

(٣) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٢٤ ؛ ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٠٩ .

(٤) ابن القلانسي ص ١٢٤ ؛ ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

أما عن تتش ، فانه لما عاد قاصداً بلاد الشام مر على الجزيرة ونزل على مدينة سروج وملكها ، وعين عليها وعلى مدن الجزيرة الأخرى ولاة من اخلص اتباعه . وعندما سمع بوصول بركياروق وآقسنقر وبوزان إلى الرحبة انسحب إلى إنطاكية، ومكث بها مع حليفه ياغي سيان . وانضم إلى تتش في انطاكية بعض زعماء بني كلاب بأتباعهم خوفاً على أنفسهم من آقسنقر ، وكان اهم هؤلاء الزعماء وثاب بن محمود المرداسي . وترتب على وجود عسكر تتش في انطاكية قلة الأقوات وارتفاع الأسعار فاضطر تتش الى العودة بجيشه إلى دمشق في ذي القعدة سنة ٤٨٦ هـ / ديسمبر ١٠٩٣ م[١] .

أخذ تتش يعد نفسه للانتقام من آقسنقر وبوزان بعد ان ساهما في افشال حملته على خراسان، وجند تتش جيشاً معظمه من العرب، لأنه وزع الاتراك على المدن التي اخضعها . وخرج من دمشق في ربيع الأول سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م وقابل حليفه ياغي سيان عند حماة وخطب لابنه رضوان ابنة ياغي سيان ليوطد العلاقة مع ياغي سيان حاكم انطاكية[٢] .

واستعد اقسنقر منذ عودته إلى حلب لمواجهة تتش ، فجند الكثير من قبيلة كلاب واطلق سراح زعيم كلاب شبل بن جامع وابنه مبارك بن شبل ومحمد بن زائدة الكلابي، بعد ان سجنهم اقسنقر منذ مدة . كما حشد في جيشه معظم احداث حلب[٣] . ولم يدرك آقسنقر خطأ

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٢٤ ، ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ١١٠ ، وسروج من اقليم الجزيرة قريبة من حران . انظر ياقوت معجم البلدان ، ابو الفدا ، تقويم البلدان ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١١٠ .

(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ١١٠ ـ ١١٢ .

استخدامه لزعماء كلاب واحداث حلب ، لان بني كلاب واحداث حلب لا يمكن ان يخلصوا له بعد أن فقدوا الكثير من نفوذهم خلال حكمه لحلب . ويبدو أن الذي اجبر آقسنقر على حشد قوات من كلاب واحداث حلب هو قلة القوات التركية لديه . وسار تتش حتى نزل تل منسى قرب معرة النعمان، وبلغه وصول الامير كربوقا وبوزان حاكم الرها ويوسف بن ابق في الفين وخمسمائة فارس نجدة لاقسنقر . ثم خرج الجميع لقتال تتش ، وفي يوم السبت التاسع من جمادى الأولى ٤٨٧هـ/ ٢٦ مايو ١٠٩٤م تقابل الفريقان عند نهر سبعين على مسافة ستة فراسخ شرقي حلب ، وانهزم العرب الذين جندهم آقسنقر ، ولحقهم أيضاً كربوقا وبوزان ودخلا حلب واعتصما بها ، انتظاراً لوصول نجدة من السلطان بركياروق ، وانتصر تتش انتصاراً حاسماً ووقع في أسره قسيم الدولة آقسنقر فاحضره بين يديه وقتله بنفسه[1] .

تعقب تتش فلول المنهزمين حتى اسوار حلب وحاصرها حصاراً شديداً ، فقام جماعة من الأحداث بفتح أحد ابوابها فدخل تتش بجيشه وتسلم حلب وقلعة الشريف . ثم نزل اليه نوح التركي والي القلعة الكبيرة وسلمها لتتش، وقبض تتش على بوزان وقتله . كما قبض على كربوقا واعتقله بحمص ، ثم سار تتش من حلب واستولى على حران والرها ، وبذلك اكمل سيطرته على شمال الشام والجزيرة[2] .

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ١٠٦أ ـ ب ؛ ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٣ ورقة ٢٦٩ أ ـ ب؛ ابن ابي الدم ، التاريخ المظفري ورقة ١٥٦أ ، ابن الشحنة ، روض المناظر ورقة ٦٢ ب ؛ ابن القلانسي ص ١٢٦ ؛ العظيمي حوادث سنة ٤٨٧هـ ؛ Zakkar, op. cit. p. 232.

(٢) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار جـ ١٦ ورقة ١١٣ ب ؛ ابن القلانسي ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ؛ ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ١١٧ ـ ١١٨ ؛ ابن الاثير ، الكامل =

وسار تتش مرة اخرى قاصداً خراسان سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م وجعل طريقه على ديار بكر لان بركياروق كان قريباً من الموصل . ولما علمت تركان خاتون ارملة ملكشاه بمسير تتش خرجت من اصفهان للقائه . ودارت بينهما المراسلات واتفقا على الزواج ومحاربة بركياروق . بيد ان خاتون توفيت في الطريق ، فانقسم أتباعها إلى قسمين ، انضم احدهما الى تتش ، وقصد القسم الآخر بركياروق ودخل في طاعته . وسار بركياروق واستولى على أصفهان[1] .

وصل تتش إلى أذربيجان، فاستولى عليها، وأرسل فرقة عسكرية باغتت بركياروق عند سرخاب ، احدى قرى الري ، وهزمته . فهرب بركياروق الى أصبهان . وعلى اثر هذا النصر ارسل تتش إلى بغداد يطلب اقامة الخطبة له بالسلطنة فاجابه الخليفة المستظهر بالله الى طلبه[2] . ثم سار تتش الى همذان واستولى عليها . وكيما يجذب الناس الى طاعته اسند تتش منصب الوزارة الى فخر الملك بن نظام الملك،وذلك لشدة ميل الناس إلى بيت نظام الملك[3] .

واصل تتش زحفه حتى استولى عـلى مدينة الري،وأرسل الى قادة جيش بركياروق المقيم باصبهان يطلب منهم الانضمام إليه . ولما كان بركياروق مريضاً بالجدري ارسل قادة جيشه الى تتش يزعمون انهم

= جـ ١٠ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ . ، Gibb, op. cit. p. 22 .

(١) ابن القلانسي ص ١٢٧ ؛ ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ١١٨ .

(٢) العيني ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١١١ ب ؛ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٣٣ ؛ ابو الفدا المختصر جـ ٢ ص ٢٠٥ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ٢٠٠ ؛ القلقشندي ، مآثر الانافة جـ ٢ ص ١٢ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٣٣ .

سيدخلون في طاعته حتى لا يزحف على اصفهان واخبروه انهم ينتظرون مصير بركياروق[1] . ولما شفي بركيا روق خرج على راس قواته لمواجهة عمه تتش ، والتقى به قرب مدينة الري . ودارت معركة حاسمة في شهر صفر سنة ٤٨٨هـ/ فبراير ١٠٩٥م وفي ميدان المعركة قتل اتباع آقسنقر تتش ، بعدما انضموا إليه وتظاهروا له بالطاعة والاخلاص في الخدمة . وحلت الهزيمة الساحقة بجيش تتش الذي حُمِلَ رأسه إلى بغداد وطيف بها[2] .

وكان لهذه المعركة نتائج بالغة الأهمية على تاريخ بلاد الشام قبل الغزو الصليبي . فهذه المعركة قضت على تتش ومملكته في بلاد الشام . ولو قدر للصليبيين أن يواجهوا تلك المملكة القوية التي اقامها تتش في بلاد الشام بمواردها الضخمة وقوتها العسكرية ، لكان من المحتمل أن الحركة الصليبية قد اجهضت في سنواتها الأول .

* * *

---

(١) ابن القلانسي ص ١٢٨ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٤٤ .

(٢) ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ ، جـ ١٣ ورقة ١ أ ؛ ابن فضل اللّه العمري ، مسالك الابصار جـ ١٦ ورقة ١١٤ ب ؛ ابن القلانسي ص ١٢٩ - ١٣٠ ؛ العظيمي حوادث سنة ٤٨٨هـ ؛ ابن الاثير، الكامل جـ ١٠ ص ٢٤٤ ؛ الاصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨٣ - ٨٤ ؛ الحصيني ، منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٣٧ ، Gibb, op. cit. p. 22.

الفصل الثالث

الإمارات العربية فى بلاد الشام
قبيل الغزو الصليبى

- إمارة بنى مرداس فى حلب ٤١٥ - ٤٧٢ هـ / ١٠٢٤ - ١٠٧٩ م
- إمارة مسلم بن قريش العقيلى فى الجزيرة وشمال الشام ٤٥٣ - ٤٧٨ هـ / ١٠٦١ - ١٠٨٥ م
- إمارة بنى منقذ فى شيزر ٤٧٤ - ٤٩١ هـ / ١٠٨١ - ١٠٩٧ م
- إمارة بنى عمار فى طرابلس ٤٦٢ - ٤٩١ هـ / ١٠٧٠ - ١٠٩٧ م
- إمارة ابن أبى عقيل فى صور ٤٥٥ - ٤٨٢ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٨٩ م
- إمارة خلف بن ملاعب فى حمص وأفاميه ٤٦٦ - ٤٩١ هـ ١٠٧٣ - ١٠٩٧ م



إمارة بني مرداس في حلب
٤١٥ ـ ٤٧٢هـ/ ١٠٢٤ ـ ١٠٧٩م

لم يكن الغزو السلجوقي لبلاد الشام هو الحادث التاريخي الهام الذي شهدته بلاد الشام قبل الحملة الصليبية الأولى ، بل قامت الامارات العربية في بلاد الشام بدور لا يقل اهمية عن دور الغزو السلجوقي في مجريات الحوادث في بلاد الشام قبل الغزو الصليبي . واولى هذه الامارات الامارة المرداسية في حلب وشمال الشام .

ينتسب المرداسيون الى قبيلة كلاب العربية العدنـانية ، التي هاجرت افخاذ منها اثناء الفتوحات الإسـلامية الى اطـراف الفرات الشمالية ، وبطون أخرى وصلت إلى اطراف الفرات الشمالية وشمال الشام ، خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي[١] . وفي سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م استولى زعيم قبيلة كلاب صالح بن مرداس على مدينة الرحبة على نهر الفرات ، وأقام الخطبة للخليفة الفاطمي ، وبدأ يتطلع لبسط نفوذه على حلب وشمال الشام[٢] . ولتحقيق هدفه تحالف مع

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض ٢٠٥ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٠٤ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ص ٢١٠ ـ ٢١١ . Zakkar, op. cit. p. 89.

زعماء طيء، وكلب لاقتسام بلاد الشام وتمكن سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٥م من انتزاع حلب من الفاطميين وظل يعمل من اجل السيطرة على كل شمال الشام الى أن قتل سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م[١].

لم يسترد الفاطميون حلب بعد مقتل صالح بن مرداس اذ تمكن ابنا صالح ، ثمال ونصر ، من السيطرة على حلب بعد مقتل والدهما سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م بيد أنه نشب النزاع بين الأخوين بسبب منافسة نصر لاخيه ثمال على امارة حلب[٢] . ومن المؤكد ان ثمالاً كان الوريث الشرعي لامارة حلب ، ويدل على ذلك ديناران معروفان من عصر صالح ابن مرداس ، نقش عليهما اسم ثمال بن صالح بالاضافة الى اسم ابيه واسم الخليفة الظاهر الفاطمي[٣] على أن نصراً لم يرض بذلك واستولى على قلعة حلب ، الأمر الذي دفع ثمالاً الى محاصرة أخيه نصر بالقلعة فاستنجد نصر بالامبراطور البيزنطي رومانوس الثالث ، واخيراً عقد الصلح بين ثمال ونصر وتنازل ثمال عن حلب لاخيه نصر مقابل الرحبة وبالس . وتمكن نصر من انزال الهزيمة بالامبراطور رومانوس الثالث سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م . ولم يكن استنجاد نصر بالامبراطور البيزنطي امراً جديداً لانه منذ قيام الامارة المرادسية في حلب حاول المرداسيون التحالف مع الدولة البيزنطية لمساعدتهم ضد محاولات الفاطميين للسيطرة على حلب[٤] .

---

(١) انظر ما سبق ، الفصل الأول ص ٦٥ ـ ٦٩ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٣٧ .

(٣) Zakkar op. cit. p. 105.

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩ ـ انظر ما سبق من الفصل الأول ص ٩٢ .

وتعرضت حلب في عهد ثمال بن صالح للتهديد من قبل الدروز[1] .

فقد اجتمع دعاة الدرزية بجبل السماق غرب حلب وجاهروا بمذهبهم ودعوا اليه وتبعهم عدد كبير من فلاحي حلب ، وهدد خطرهم كل شمال الشام . واخيراً تعاون نصر بن صالح وحاكم انطاكية البيزنطي وحاصرا الدروز في اعالي الجبال وتمكنوا من القبض على دعاتهم وقتلوهم سنة ٤٢٣هـ/ ١٠٣٢م[2] .

عمل نصر بن صالح بن مرداس على حماية امارته في حلب فقام بعد هزيمة الامبراطور رومانوس الثالث بالاتصال به وعقد صلحاً مع الدولة البيزنطية[3] وتقرب في الوقت نفسه الى الخلافة الفاطمية وأرسل معظم الغنائم التي حصل عليها بعد هزيمة الامبراطور البيزنطي الى القاهرة . وقد كان لهذا التصرف من نصر، أحسن الأثر في نفس الوزير الفاطمي الجرجرائي ، فأكرم رسول نصر وأرسل اليه الخلع، واعترف به حاكماً على حلب[4] .

---

(١) ينتسب الدروز الى داع اعجمي يدعى محمد بن إسماعيل الدرزي ، قدم الى مصر سنة ٤٠٨هـ/ ١٠١٧ م واتصل بالحاكم بأمر اللّٰه الفاطمي فانعم عليه وقربه فدعا الدرزي الى القول بألوهية الحاكم فانكر الناس ذلك واخيراً تمكن احد الأتراك من قتله وهو في موكب الخليفة الحاكم ونهبت داره واستمرت الفتنة ثلاثة ايام قتل اثنائها جماعة من الدرزية وبعد مقتل الدرزي قام داعية آخر يدعى حمزة بن أحمد الملقب بالهادي، وأقام خارج القاهرة ودعا الى مذهب الدرزي وبث دعاته في مصر والشام . ومنذ ذلك الحين ظهر مذهب الدروز في بعض مناطق بلاد الشام . انظر = المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ١١٣ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

(٣) انظر ما سبق ، الفصل الأول ص ٨٧ ـ ٨٨ .

(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٥٧ ب .

وتجدر الإشارة هنا الى أن نصراً اعتنق المذهب الإسماعيلي الذي تدين به الخلافة الفاطمية . ومما يبرهن على هذا دينار وحيد يرجع إلى عصر نصر ضرب بحلب سنة ٤٢٧هـ ، وفيه لقب الأمير السيد شبل الدولة ـ نصر ابن صالح ونقش في الاطار الداخلي للدينار الشعار الشيعي الكامل ، وفي خلف الدينار لقب الخليفة الظاهر الفاطمي(١) .

ومهما يكن من أمر ، فقد قتل نصر بن صالح سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٢٨م على أيدي قوات انوشتكين الدزبري ، وسقطت حلب بيد الفاطميين(٢) . وظل حكم الفاطميين لحلب حوالي اربع سنوات حتى تمكن ثمال بن صالح بن مرداس سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤٢م من استعادة حلب في اعقاب وفاة انوشتكين الدزبري وقد سبق الحديث عن علاقة ثمال بالخلافة الفاطمية والدولة البيزنطية(٣) .

أما عن علاقة الامارة المرداسية في عصر ثمال بالامارة النميرية(٤)

---

(١) Zakkar, op. cit. p. 126.

(٢) انظر ما سبق الفصل الاول ص ٧١ .

(٣) عن علاقة ثمال بالفاطميين انظر ما سبق الفصل الأول ص ٧٤ ـ ٨٠ وعن علاقته بالبيزنطيين انظر ما سبق ص ٩٢ .

(٤) نمير قبيل عدنانية من بني عامر بن صعصعة هاجرت إلى شمال الشام والجزيرة في أوائل القرن الرابع الهجري / العاشرالميلادي ، وأقام بنو نمير بعدوتي الفرات ودخلوا الى منطقة الجزيرة وملكوا حران والرقة وسروج . ومن اشهر زعماء بني نمير في حران وثاب بن سابق النميري وابنه شبيب . وفي واوئل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي سيطر فرع من بني نمير بزعامة عطير النميري على مدينة الرها ثم فقدها لحساب البيزنطيين سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م . اما حران وسروج فظلتا خاضعيتن لبني نمير حتى سنة ٤٧٤هـ حين انتزعهما مسلم بن قريش العقيلي . انظر ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٣٢١ ، ٣٤٧ ـ ٣٤٨ ، ٤١٣ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٤١ ؛ زامباور ، معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، ص ٣٤١ ، وانظر مايلي الفصل الثالث ص٢٤١ ، ٢٤٩. Zakkar, op. cit., p. 70.

في حـران فيستدل من قصيـدة للشاعـر ابن ابي حصينة ، شـاعـر المرداسيينَ ، على أن العلاقات بين كلاب وبين قبيلة نمير (وكلاهما من قيس) لم تكن طيبة بشكل عام ، بسبب تجاور ديار القبيلتين في غرب الجزيرة الفراتية وشمال الشام ، حيث كانت مواطن نمير حول حران والرقة وسروج ، بينما كانت مواطن كلاب تمتد من الرحبة الى حلب وقد ادى ذلك التزاحم الى وقوع الحرب بينها في اوائل عهد ثمال بسبب طمع بني نمير في بعض مواطن الكلابيين الذين تمكنوا من صدهم عنها[١] .

وقد اشار المؤرخ ابن العديم إلى أن عهد ثمال بن صالح المرداسي (٤٣٣ ـ ٤٤٨هـ/ ١٠٤١ ـ ١٠٥٦م) تميز بالرخاء « ودرت الارزاق في ايامه على الناس ، واحسن السيرة معهم وجاد بالعطاء »[٢] . وقد وصف الرحالة ناصر خسرو ، مدينة حلب عندما زارها سنة ٤٣٨هـ/ ١٠٤٧م وقال : « وهي مدينة عامرة . . وفيها تحصل المكوس عما يمر بها من بلاد الشام والروم وديار بكـر ومصر والعراق ، ويذهب اليها التجار من جميع هذه البلاد »[٣] . أما الطبيب ابن بطلان ، فقد زار حلب سنة

---

(١) قال ابن أبي حصينة من قصيدة له مدح بها ثمالاً أشار فيها إلى الحرب مع نمير :

سـل الجمعين جمـع بني نميـر	ومـن سكـن المـديبـر والفـراعـا
غـداة اتـوا يـهـزون الـمـواضـي	الـيـنـا والـمـطـهـمـة الـسـراعـا
ارد جـمـوعـهـم إلـى ثـمـال	وقـد مـلأت جمـوعهم الـوسـاعـا
بضـرب يصـبـغ الأمـواج حمـرا	ويحمي در من صـدق المصـاعـا
نـهـاهـم عـن ممـالكـة اقتسـارا	وقـد ملكـوا المعـاقـل والقـلاعـا
وحـطهـم وقـد كـرهـوا المنـايـا	ومـا كـانـوا الظمـاء ولا الجيـاعـا

انظر ديوان ابن أبي حصينة جـ ١ ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٦٢ .

(٣) ناصر خسرو ، سفرنامة ص ٤٤ ـ ٤٥ .

٤٤٠هـ/ ١٠٤٧م واقام بها فترة وجيزة « وأحسن اليه معز الدولة ثمال بن صالح واكرمه اكراماً كثيراً »[١] .

وقد أورد ياقوت الحموي نص رسالة بعث بها ابن بطلان من حلب الى المؤرخ هلال بن الصابي وصف فيها ابن بطلان مدينة حلب ، واشار الى بعض النشاط التجاري داخل حلب قائلاً : « ومن عجائب حلب ان في قيسارية البز عشرين دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون الف دينار ، مستمر منذ عشرين سنة والى الآن »[٢] . ورغم ما ذكره ابن العديم وناصر خسرو ، وابن بطلان فانه يصعب الحديث عن الاحوال الاقتصادية لمدينة حلب خلال حكم الامارة المرداسية ، وذلك لقلة المعلومات عن هذا الموضوع ، اذ ركزت جميع المصادر التي تحدثت عن امارة حلب على الجانب السايسي للامارة وعلاقتها بغيرها من القوى ذات النفوذ في بلاد الشام .

لعب ثمال بن صالح دوراً هاماً في حركة البساسيري الذي خرج الى الرحبة سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م بعد وصـول السلاجقة بزعامة طغرلبك

---

(١) ابن أبي اصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٣٢٦ . والطبيب أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعد بن بطلان ، نصراني من أهل بغداد تعلم الطب على يد أبي الفرج عبد اللّه بن الطيب وتتلمذ له واتقن عليه قراءة كثير من كتب الطب . ولازم الحسن بن ثابت بن إبراهيم الحراني الطبيب وانتفع به في صناعة الطب ومزاولته . وكان ابن بطلان معاصراً للطبيب المصري علي بن رضوان وكانت بينهما مراسلات ومناظرات انظر ابن أبي اصيبعة ، عيون الأنباء ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ .

(٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ . (مادة حلب) ، Zakkar, op. cit., pp. 236-237. قيسارية كلمة غير عربية ربما اشتقت من كلمة (Ceasaria) وجمعها قياسر وهي الأسواق المقفلة ، فريد شافعي ، العمارة في مصر الإسلامية ، المجلد الأول ص ٣٤٨ ، انظر أيضاً : المقريزي ، الخطط جـ ٢ ص ٨٦ ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ٣٨ ، حاشية رقم (٣) .

الى العراق . وقد استقبله ثمال في الرحبة واكرمه وقدم اليه مالاً كثيراً ، ويذكر ابن العديم ان بني كلاب هموا بالقبض على البساسيري فمنعهم ثمال من ذلك ، ولم يوضح ابن العديم السبب الذي دفع كلاباً لمحاولة القبض على البساسيري . ويبدو ان ثمالاً رأى ان نجاح البساسيري في حركته يعتبر ضماناً لعدم سقوط امارته امام الزحف السلجوقي على بلاد الشام . وقد واصل البساسيري زحفه حتى وصل بالس وشتى بشط العرب . واثناء اجتماعه بثمال سلم اليه الأخير الرحبة حيث جعل فيها امواله وذخائره[١] . غير ان امتداد نفوذ البساسيري الى شمال الشام كان من العوامل التي اجبرت ثمالا المرداسي على التنازل عن حلب وتسليمها للفاطميين سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م[٢] .

لم تستمر السيادة الفاطمية على حلب طويلاً ، اذ اجتمع بنو كلاب بالأمير المرداسي محمود بن نصر بن صالح وولوه عليهم ، وهاجموا حلب سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م ورغم أن الوالي الفاطمي الحسن بن ملهم استطاع الصمود أمام محمود المرداسي وقبيلته ، فإن تمرد الأحداث داخل المدينة أدى إلى سقوط حلب في السنة التالية بيد محمود بن نصر ، وأخفقت جهود الخليفة الفاطمي المستنصر في استعادتها[٣] . فعزل المستنصر ثمالا بن صالح من ولايات عكا وبيروت وجبيل ، وأرسله الى

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ .

Zakkar. Op. Cit. PP. 148 - 149 .

(٢) انظر ما سبق الفصل الأول ص ٧٧ ـ ٧٨ .

(٣) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ، ورقة ١٦٢ ب ، ١٦٣ أ ؛ ابن القلانسي ، ص ٩٠ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١١ ـ ١٢ .

Zakkar, Op. Cit. PP. 156 - 157.

الشام لاسترداد حلب من ابن أخيه محمود ، ولما وصل ثمال إلى الشام استمال اليه عدداً كبيراً من رجال قبيلة كلاب ، وشن عدة هجمات على حلب وتمكن أخيراً من الاستيلاء عليها سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م . وتوسط زعماء كلاب في الصلح بين ثمال وابن أخيه محمود ، فغادر محمود حلب إلى أخواله بني نمير بحران ، وانفرد ثمال بحكم حلب ، وراسل المستنصر موطداً علاقته معه . حكم ثمال حلب حتى توفي في ٢٣ ذي القعدة سنة ٤٥٤ هـ / ١٨ نوفمبر ١٠٦٢ م وخلفه في إمارة حلب حسب وصيته ، أخوه عطية بن صالح بن مرداس[1] .

لم يكد عطية يستقر في إمارة حلب حتى نازعه ابن أخيه محمود بن نصر على الإمارة . واحتج محمود بأنه انتزع حلب من الفاطميين بالقوة ولم يتنازل عن حلب لعمه ثمال الا بعد أن تعهد الأخير بأن تعود امرة حلب الى محمود بعد موت ثمال . يضاف الى ذلك أن محموداً اعتبر حلب ارثه عن أبيه نصر بن صالح . وأيد زعماء كلاب حجج محمود وانضموا اليه ضد عمه عطية . وهاجم محمود حلب غير أن عمه باغته على عين سيلم قرب حلب وهزمه سنة ٤٥٥ هـ / ٦٣ م . ولكن هزيمة محمود بن نصر لم تقلل من عزمه على استعادة حلب وبخاصة بعد تأييد بني كلاب له . وفي الوقت نفسه انضم ثابت بن ثمال الى ابن عمه محمود وسلم اليه معرة النعمان وكفرطاب وحماة وكان يحكمها من قبل عمه عطية . واحتشد بنو كلاب بمنطقة شيزر وهاجموا حلب وتقدم محمود بن نصر سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م وحاصر حلب حصاراً شديداً حتى انتشرت بها المجاعة بيد أنها ظلت صامدة أمام الحصار لوقوف

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٨١ ـ ٢٨٨ .

Zakkar, Op. Cit. PP. 161 - 165.

أحداث حلب الى جانب عطية بن صالح[1] .

وعندما أدرك عطية أنه لم يعد بمقدوره الصمود طويلاً أمام ابن أخيه محمود بن نصر استنجد بالزعيم التركماني ابن خان وأتباعه . وترك محمود بن نصر حصار حلب . غير أن عطية كاد يفقد سلطته لحساب التركمان داخل حلب فأغرى بهم أحداث حلب فقتلوا منهم عدداً كبيراً ونهبوا معسكرهم . وأخيراً انضم التركمان الى محمود بن نصر وتمكن بمساعدتهم من انتزاع حلب من عمه عطية سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م[2] .

وكان دخول التركمان الى شمال الشام ايذاناً ببدء مرحلة جديدة في تاريخ بلاد الشام . فقد بدأ يتضاءل الدور السياسي للعنصر العربي في بلاد الشام وأصبح التركمان يتحكمون في تقرير مصير المنطقة . ومما يبرهن على هذا القول أن محموداً بن نصر لم يستطع استعادة حلب من عمه عطية رغم مساعدة قبيلة كلاب له الا بعد انضمام التركمان اليه وأصبح يعتمد على التركمان في تحقيق مآربه دون أن يدرك أنه بعمله هذا يضع بداية النهاية ليس لحكم المرداسيين في شمال الشام فحسب ، بل ولدور العنصر العربي في هذه المناطق . وذكر ابن العديم ، على سبيل المثال أن محموداً ابن نصر خرج ومعه ابن خان وأتباعه التركمان سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م وقصد بهذه الجموع جنوب حلب حتى نزل قرب حماة « ثم أتى حماة ووطىء جميع العرب وأذلها »[3] . ومهدت أعمال التركمان في شمال الشام الطريق أمام خضوع هذه البلاد للحكم

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ص ٢٩١ ـ ٢٩٤ .

Zakkar, Op. Cit. P. 166.

(٢) انظر ما سبق ، الفصل الأول ص ٩٨ ـ ١٠١ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٠ .

السلجوقي اذ دخل الأمير محمود بن نصر في طاعة السلاجقة سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م . وفي السنة التالية قام السلطان ألب أرسلان بحملته الشهيرة على الجزيرة وشمال الشام والتي نجم عنها معركة ملازكرد ضد الأمبراطور رومانوس الرابع[١] .

وبعد رحيل السلطان ألب أرسلان عن حلب سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م قاد محمود بن نصر جيشه ومعه حاجب السلطان ألب أرسلان واسمه ايتكين السليماني ، وساروا جميعاً قاصدين دمشق للاستيلاء عليها حسب أوامر السلطان . وعندما وصلوا الى بعلبك جاءهم من الأنباء ما يفيد بأن عطية بن صالح بن مرداس استعان بالبيزنطيين وهاجموا معرة مصرين[٢] ، وأحرقوا جزءاً منها وقتلوا بعض سكانها فعاد محمود بن نصر مسرعاً الى حلب ولحق الحاجب ايتكين بالسلطان ألب ارسلان . ولم يستطع محمود الوقوف في وجه البيزنطيين بمفرده فاستنجد بالتركمان الذين أغاروا على فلسطين بقيادة قرلو التركي واتسز بن أوق الخوارزمي وأخوته . وتمكن محمود بمساعدة هؤلاء التركمان من وقف تقدم البيزنطيين واجبارهم على الانسحاب من منطقة حلب . وعاد زعماء التركمان إلى جنوب الشام بعد أن استبقى محمود ألف فارس من اتباعهم لخدمته[٣] . واستطاع محمود بمساعدة هؤلاء التركمان من هزيمة البيزنطيين مرة أخرى سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م عندما هاجموا عزاز ، وتتبع

---

(١) انظر ما سبق ، الفصل الثاني ص ١٢٠ ـ ١٤٠ .

(٢) معرة مصرين قرية من أعمال حلب تبعد عنها خمسة فراسخ . انظر : ياقوت معجم البلدان .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ b ورقة أ ـ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٣٠ ـ ٣١ .

Zakkar, Op. Cit. P. 180.

فلولهم حتى دخلوا انطاكية واحتموا بها[1] . كما تمكن محمود بمساعدة التركمان أيضاً من استعادة مدينة الرحبة على نهر الفرات سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م من مسلم بن قريش الذي انتزعها من بني كلاب سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٦٨ م[2] . ولاسترجاع الرحبة أهمية بالغة بالنسبة للإمارة المرداسية لوقوع الرحبة على نهر الفرات وإشرافها على ضفتي النهر ، فضلاً على أن الرحبة من المواطن الأساسية لقبيلة كلاب في شمال الشام والجزيرة ومنها نشأت الإمارة المرداسية وبسطت نفوذها على شمال الشام . ومد محمود بن نصر نفوذه الى منطقة الجزيرة ، ففي سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م فتح قلعة السن الخاضعة للبيزنطيين وبذلك وصل نفوذه الى أعالي الجزيرة[3] .

غير أنه منذ سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م حدث تغير كبير في أخلاق وسياسة محمود بن نصر ، فبعد أن كان « حسن الأخلاق ، كريم النفس ، عفيفاً عن الفروج والأموال . . تنكر وزاد عليه حب الدنيا وجمع المال ، فلحقه من البخل ما لا يوصف »[4] . وفسر ابن العديم ذلك بأنه تنكر لأصحابه المخلصين وعلى رأسهم وزيره الكفء أبو بشر النصراني ، الذي استمال اليه العرب وساعده بماله حتى استعاد حلب من عمه

---

(١) ابن القلانسي ص ١٠١ ـ ١٠٤ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٤٢ .
Zakkar, Op. Cit. P. 181.

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٣٤ ب ؛ ابن القلانسي ص ١٠٦ ؛ العظيمي حوادث سنة ٤٦٥ هـ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٣١ ـ ٣٢ .

(٣) العظيمي ، حوادث سنة ٤٦٦ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٤٢ ، قلعة السن بالجزيرة قرب سميساط وتعرف بسن ابن عطير . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٤٢ ؛ انظر أيضاً أبو الفدا المختصر ، جـ ٢ ص ١٩٣ .

عطية . فلم يراع محمود اخلاص وزيره في الخدمة ، فصادر أمواله واعتقل ولديه وقتلهما ، ثم أمر بقتله سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م[١] . كما أدى التغير في أخلاق محمود الى وحشة علي بن منقذ ، وكان أخاً لمحمود من الرضاعة ، فغادر علي بن منقذ حلب سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م ، وسار الى طرابلس وأقام في كنف ابن عمار حتى وفاة محمود[٢] . كما دبر محمود بن نصر اغتيال ابن سنان الخفاجي وهو من كبار الشخصيات المشهورة داخل حلب الذين خدموا الإمارة المرداسية[٣] .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن النقش الوحيد الموجود من العصر المرداسي ينتمي الى عهد محمود بن نصر ، وهذا النقش موجود على قطعة من الحجر مقاسها ٥١ × ٣١ سم ، وهي موجودة الآن في داخل الجامع الكبير بقلعة حلب وليس من المعروف أكان ذلك الحجر موجوداً في القلعة أو أنه أحضر اليها . ويتكون النقش المحفور على الحجر من خمسة سطور مكتوبة بالخط الكوفي ، ويحتوي على أسماء وألقاب محمود ويرجع الى سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٢ م) ونصه :[٤]

بسم الله الرحمن الرحيم (أمر بعمله الأمير)
الأجل تاج الملوك شمس الدين شر (ف)
الأمة ذو الحسبين خالصة أمير
المؤمنين أبو سلامة محمود بن
نصر بن صالح سنة خمس وستين وأربعمائة .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٣٢ ـ ٣٣ .
(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٣٤ ـ ٣٦ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٧ ـ ٤١ .
(٤) Zakkar, op. cit. p. 183.

وأخيراً توفي محمود بن نصر في جمادى الأولى سنة ٤٦٧ هـ / يناير ١٠٧٥م[١] ويصف ابن العديم مقدار ما أحصى في خزائنه من الأموال والمتاع والثياب والمراكب بما قيمته مليون ونصف مليون دينار[٢] . ورغم المبالغة في هذا المبلغ فإنه يدل على أن محموداً جمع أموالاً كثيرة فيما بين سنتي ٤٥٩ ـ ٤٦٧ هـ ، بدليل أنه أثناء النزاع بين محمود وعمه عطية عانى محمود من قلة المال سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م مما دفعه الى مهادنة البيزنطيين واقترض منهم أربعة عشر ألف دينار . وسلم ابنه نصراً رهينة عندهم ، وتعهد بهدم حصن أسفونا القريب من معرة النعمان[٣] . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن السياسة المالية التي اتبعها محمود أرهقت الإمارة المرداسية ، وانعكس ذلك على أحوال الناس الاقتصادية داخل حدود الإمارة .

ومهما يكن من أمر ، فقبل وفاة محمود أوصى بالإمارة من بعده لابنه شبيب بيد أن هذه الوصية لم تنفذ اذ بايع رجال الدولة وقادة العسكر الابن الأكبر نصر بن محمود . وكان على رأس هؤلاء القادة أحمد شاه التركي زعيم التركمان بمنطقة حلب، والذي عرف بإخلاصه في خدمة الأمير نصر بن محمود[٤] .

وأشار ابن العديم الى انتشار الأمن بين الناس في عهد الأمير نصر

---

(١) ابن العديم جـ٢ ص ٤٢ .

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص ٤٥ . Zakkar, op. cit. pp. 181 - 182.

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٥ ؛ ياقوت ، معجم البلدان .

(٤) مرآة الزمان ـ ١٣ b ورقة ٣٠ ب ؛ ابن الجوزي ، المنتظم جـ٨ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٤٥ ؛ ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة جـ٥ ص ١٠٠ ـ ١٠١ ، Zakkar, op. cit. pp. 185 - 186 .

ابن محمود والى أن سيرته كانت أصلح من سيرة أبيه ، فأحسن الى أهل حلب وأطلق سراح أحداث حلب الذين اعتقلهم والده ونشر كرمه بين الناس[١] .

ويبدو أن هذه السياسة الحكيمة كانت بتأثير الأمير علي بن المقلد ابن منقذ، عم نصر من الرضاعة والذي عاد من طرابلس بعد وفاة والد نصر ، وعهد اليه نصر بتدبير شؤون إمارته[٢] . غير أن فترة حكم نصر لم تدم طويلاً ففي عيد الفطر سنة ٤٦٨ هـ / ٩ مايو ١٠٧٦ م قبض نصر بن محمود على أحمد شاه مقدم التركمان واعتقله بالقلعة مما أدى الى مقتله على أيدي التركمان . وقد أدى مقتل نصر وزحف التركمان على حلب الى انتشار الفزع بين السكان الذين كانوا يحتفلون بعيدهم . وخشي رجال الإمارة وقوع الفتنة بين التركمان وعامة أهل حلب فسارع سديد الملك علي بن منقذ ومن معه من الخواص بمبايعة سابق بن محمود ، وأشاروا عليه بإطلاق أحمد شاه فأطلقه وخلع عليه ، فنزل أحمد شاه الى أتباعه التركمان وأخمد فتنتهم[٣] .

كان سابق بن محمود يفتقر الى الحكمة وقوة الشخصية وحرية الإرادة ، ولذلك وصفه ابن العديم بقوله : « وكان سابق من متخلفي بني مرداس » حيث أضحى خاضعاً لسيطرة أحمد شاه فعهد إلى التركمان

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٤٥ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٧ ورقة ١٤٢ ب .

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٢ ورقة ١٦٥ ب ، ١٦٦ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٤٨ ـ ٤٩ ؛ أبو الفدا ، المختصر جـ ٢ ص١٩٣ ؛ انظر ما سبق الفصل الثاني ص ١٥٧ .

Zakkar , op. cit. pp. 187 - 188 .

بوظائف الإمارة وأحسن إليهم وأصبح يفضلهم على أهله وعشيرته بني كلاب[1] . وقد أدى خضوع سابق بن محمود للتركمان الى اجتماع بني كلاب الى أخيه وثاب، وأشاروا عليه بانتزاع حلب من أخيه سابق . وانضم إليه أخوه شبيب بن محمود، ومبارك بن شبل ابن خالهما[2] . ولما سمع سابق بتحالف كلاب بزعامة أخيه وثاب ضده، عرض الأمر على أحمد شاه التركي الذي أخذ يعمل للقضاء على تحالف كلاب، فاستدعى قائداً تركمانياً يدعى محمد بن دملاج ـ كان يقيم بأتباعه في أطراف الدولة البيزنطية ـ لمساعدته وهاجم التركمان جموع كلاب بقنسرين ، وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة في أول شهر ذي القعدة سنة ٤٦٨ هـ / ٧ يوليه ١٠٧٦ م[3] .

ويستدل من قصيدة ألقاها ابن حيوس أثناء اجتماع كلاب بقنسرين الى أن ابن حيوس وبعض أصدقاء سابق ، نصحوه بعدم الاصطدام مع قبيلته كلاب لأن هزيمة كلاب تعني القضاء على نفوذ العرب وتعريض حكم بني مرداس للخطر[4] .

وأضاع سابق بن محمود فرصة نادرة للخلاص من التركمان ،

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٢ ورقة ١٦٦ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٥٣ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٤٣ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٥٤ . Zakkar, op. cit. pp. 189.

(٣) عن هذه المعركة انظر ما سبق ، الفصل الثاني ص ١٥٨ .

(٤) مما قال ابن حيوس مخاطباً سابق بن محمود :

ففي آل ذبيان وأبناء وائل ... مواعظ لا تخفى على من تأملا
فلا ترض يا عز الملوك بذلهم ... وأن يردوا من غير بحرك منهلا
وصنواك لا تعص ابن عمك منهما ... وكن غير مأمور الى السلم أميلا

انظر ديوان ابن حيوس جـ ٢ ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣ .

وتسوية النزاع بينه وبين قبيلة كلاب ، فبعد ثلاثة عشر يوماً من انتصار التركمان على كلاب دعا محمد بن دملاج التركي أحمد شاه ، فخرج اليه بشمال حلب ، وبعد أن خرج قبض محمد بن دملاج على حليفه أحمد شاه . ولم ينتهز سابق الفرصة لإثارة اتباع أحمد شاه ضد ابن دملاج وأتباعه وبذلك يوقع الحرب بين طائفتي التركمان فيتخلص منهم ، بل سارع الى الاتصال بمحمد بن دملاج ، وافتدى منه أحمد شاه بمبلغ عشرة آلاف دينار ، وعشرين فرساً[١] .

بعد هزيمة كلاب سار وثاب بن محمود وأخوه شبيب ومبارك بن شبل وغيرهم من زعماء كلاب الى السلطان ملكشاه بخراسان طالبين اليه نصرتهم على سابق . واستجاب السلطان ملكشاه لطلبهم وأقطع أخاه تتش على بلاد الشام . وسار تتش وحاصر حلب وأنزل بالإمارة المرداسية خسائر كبيرة وفشل في الاستيلاء على حلب بسبب موقف مسلم بن قريش المعادي لتتش[٢] .

وفي سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٧٩ م استولى تتش على دمشق ، وقام القائد التركماني افشين بنهب شمال الشام وتخريبه وهدد شبح المجاعة اقليم شمال الشام . ونتيجة لذلك جلت جموع كثيرة من سكان شمال الشام إلى بلاد مسلم بن قريش « فأحسن اليهم وتصدق عليهم وكان ذلك الاحسان منه أكبر الأسباب في امتلاكه حلب »[٣] . وفي الوقت نفسه سار تتش من دمشق وحاصر حلب من جديد . وأدى الحصار الى حدوث

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٢ ورقة ١٦٦ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٥٥ . Zakkar, op. cit. p. 190.

(٢) انظر ما سبق ص ١٥٩ - ١٦٣ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٦٧ ، انظر أيضاً: Zakkar, op. cit. p. 200.

مجاعة شديدة في المدينة فخرج الكثير من أهل حلب الى الموصل وطالبوا مسلم بن قريش بالمسير الى حلب لانقاذها من الغز . وتلقى مسلم بن قريش دعوة من أحداث حلب للقدوم إليها كما استقبل وفداً أرسله بنو كلاب طالباً مساعدته ، بل أن سابقاً بن محمود لما شعر بأنه لم يعد بمقدوره الصمود أمام تتش ، بعث الى مسلم يطلب معونته ، ووعده أن يعطيه حماة والمعرة وكفرطـاب ، وأن يكتفي سابق بمدينة حلب . ومما جاء في رسالة سابق الى مسلم بن قريش قوله : « أنت أولى من الغير ، والعربية تجمعنا ، فإن كنت ماكولاً فكن أنت آكلي »[1] ويتضح من هذه العبارة أن سابق عندما شعر أن إمارته على وشك السقوط أمام هجمات الأمير السلجوقي تتش وبالتالي زوال نفوذ العرب السياسي من حلب ، لذلك آثر سابق تسليم إمارته الى مسلم ابن قريش كيما يبقى الحكم للعنصر العربي في شمال الشام .

وفي ظل هذه الظروف الصعبة والأوضاع الحرجة لم يعد لسابق بن محمود من الطاقة والقدرة ما يمكنه من عمل شيء يحسن به الموقف ويخفف الآلام التي حلت بسكان شمال الشام الذين تطلعوا الى شخص يخلصهم مما هم فيه . ولم يجدوا سوى مسلم بن قريش العقيلي ، فبعثوا اليه ليخلصهم مما هم فيه من شدة . وبعد أن تلقى مسلم بن قريش كل هذه النداءات،قرر الاستيلاء على شمال الشام . ولما كان مسلم بن قريش يخشى أن يقوم السلطان السلجوقي ملكشاه أو أحد قادته بالاستيلاء على الموصل أثناء غيابه عنها ، احتاط للأمر فأرسل الى ملكشاه ابنه من زوجته صفية خاتون عمة ملكشاه،وعرض على السلطان السماح له بالمسير الى حلب . وتعهد مسلم بن قريش بأن يؤدي

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٥١ أ ـ ب .

للسلطان عن حلب كل سنة مبلغ ثلاثمائة ألف دينار فأجابه السلطان الى طلبه وسمح له بالمسير الى حلب . فسار مسلم بن قريش ومعه كلاب ونمير ، ومعظم قبائل الشام الذين انضموا اليه خوفاً من الغز . ومر على قلعة جعبر فحاصرها وكان بها جعبر بن سابق القشيري وعشيرته يقطعون الطريق فصالحوا مسلم بن قريش وتعهدوا بالكف عما درجوا عليه من قطع الطريق وإخافة السبيل[1] . ثم سار مسلم بن قريش العقيلي الى حلب فوصلها في الثاني عشر من ذي الحجة ٤٧٢ هـ / ٥ يونيه ١٠٨٠ م . وعند وصوله أغلقت أبواب حلب في وجهه ، اذ رفض شبيب ووثاب ابني محمود السماح لشقيقهما سابق، التسليم للأمير العقيلي في الوقت الذي كان يتوق فيه سكان حلب وأحداثها لوصول مسلم بن قريش. وكان نقيب الأحداث بحلب هو الشريف حسن بن هبة الله الهاشمي الحسيني، وكان ابنه منصور أسيراً لدى بعض التركمان من أتباع أحمد شاه المقيمين في أعمال حلب . فلما وصل مسلم بن قريش حضر اليه هؤلاء التركمان وتقربوا اليه بابن رئيس أحداث حلب . وأخذه مسلم بن قريش منهم وأطلقه ، فدخل منصور الى حلب، وجند جماعة من الأحداث وفتح باب حلب، ونادى بشعار شرف الدولة مسلم بن قريش فدخل مسلم الى حلب في العشرين من ذي الحجة ٤٧٢ هـ / ١٣ يونيه ١٠٨٠ م . واستبشر أهل حلب بدخول الأمير مسلم الى حلب ، فأحسن إليهم ووزع عليهم الأموال والغلال وخلع على أحداثهم[2] .

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٥١ أ . Zakkar, op. cit., p. 203.

(٢) مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٥١ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٧ ورقة ١٤٦ أ ؛ ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار جـ١٦ ، ورقة ١٠٦ أ ؛ العظيمي حوادث سنة ٤٧٢هـ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٦٨ ـ ٦٩ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ١١٤ ـ ١١٥ . Zakkar, op. cit., p. 203.

أما سابق بن محمود فقد اعتصم بقلعة حلب ، فراسله مسلم بن قريش ، واتفق معه على تسليم القلعة مقابل مبلغ من المال وأن يتزوج مسلم أخت سابق ، ولما رضي سابق بعرض مسلم بن قريش،وثب عليه أخواه شبيب ووثاب واعتقلاه واستوليا على القلعة . وتسلم شبيب كل ما في القلعة من أموال وسلاح ، فحاصر مسلم بن قريش القلعة حصاراً دام أكثر من أربعة أشهر[1] . ولما ضاق مسلم ذرعاً بالحصار جمع زعماء كلاب وقال لهم : « قد علمتم أني أنفقت الأموال وبعدت عن بلادي في حراسة بلادكم وكف عادية الغز عنكم ، وهذه مقابلة ما أعرفها فإن رجعتم ، فها أنا راجع الى بلادي ومتبرىء منكم» فأنكر زعماء كلاب موقف أبناء محمود بن نصر ، وتعهدوا بالعمل على تسليم القلعة[2] . وكان الأمير سديد الملك علي بن منقذ قد وفد على مسلم بن قريش عند وصوله إلى حلب . وقام علي بن منقذ بدور السفارة بين مسلم بن قريش وبين أولاد محمود بن نصر . وتمكن ابن منقذ من اقناعهم بتسليم القلعة للأمير العقيلي، مقابل اقطاع شبيب ووثاب قلعتي عزاز والأثارب وعدة قرى ، وإقطاع سابق بن محمود مواضع أخرى في منطقة الرحبة على نهر الفرات ، وأن يتزوج مسلم بن قريش أختهم منيعة بنت محمود . وهكذا نزل الأمراء المرداسيين من قلعة حلب وتسلمها شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي في ربيع الثاني سنة ٤٧٣ هـ / سبتمبر ١٠٨٠ م . وبذلك انقرضت إمارة بني مرداس ، بعد حكم دام أكثر من نصف قرن من الزمان ، وأصبح مسلم بن قريش سيداً على حلب وشمال الشام[3] .

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٥١ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٧٠ ، انظر أيضاً : Zakkar, op. cit., p. 203.

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ b ورقة ٥١ أ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ b ورقة ٥١ أ ـ ب ؛ ابن العديم ، بغية الطلب =

ولا يمكن الحديث عن الإمارة المرداسية في حلب دون الحديث عن جماعات الأحداث داخل حلب والتي شهدت أزهى عصورها في حلب أثناء حكم الأسرة المرداسية . فقد كانت سيطرة الأحداث على شؤون مدينة حلب واسعة خلال حكم المرداسيين . يقول المؤيد في الدين داعي الدعاة الفاطمي ، الذي كان في حلب سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م « وفي نفس المدينة قوم يسمون الأحداث هم لها أملك من مالكها ، وأكثر استيلاء عليها من واليها ، وبينهم وبين المغاربة (يقصد الفاطميين) من قديم الوقت أحن وطوائل لا تنام عينها ولا ينقضي دينها »[١] .

ومن المعروف أن صالح بن مرداس تمكن سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٥ م من الاستيلاء على حلب بمساعدة الأحداث حيث هرع زعيم الأحداث ويدعى سالم بن المستفاد وهو ابن أحد غلمان سيف الدولة الحمداني الى فتح بوابة قنسرين، ورحب بصالح بن مرداس باسم سكان حلب . وقام سالم ومن معه من الأحداث بتقديم العون لقوات صالح بن مرداس، أثناء قتال الحامية الفاطمية التي كانت تحتمي داخل قلعة حلب . وبعد سقوط القلعة بيد صالح بن مرداس ، عين سالماً زعيماً على أهل حلب، ومنحه لقب راعي المدينة ، وعهد اليه بقيادة الأحداث[٢] . ويبدو أنه كان من بين الأحداث العديد من الجند الذين

= جـ ٧ ورقة ١٤٦ أ ؛ ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، جـ ١٦ ورقة ١٠٦ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٧٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١١٥ ، انظر أيضاً : Zakkar, op. cit. pp. 203 - 204 ; Gibb, op. cit. pp. 17 - 18 .

(١) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ص ١٧٢ ، Zakkar, op. cit. pp. 258 - 259 . وانظر أيضاً : العريني ، الدولة البيزنطية ص ٦٨٨ - ٦٩١ .

(٢) Zakkar, op. cit., p. 259; The Encyclopaedia of Lslamic , Vol. I. p. 250.

تركوا الخدمة العسكرية وانخرطوا في صفوف الأحداث وأعطوا تلك الطائفة صفة حربية أحياناً .

وبعد موت صالح وتولي ابنه نصر إمارة حلب احتفظ زعيم الأحداث سالم بمناصبه حتى سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣٢ م ، عندما نشب النزاع بينه وبين نصر بن صالح . ولا يعرف شيء عن أسباب ذلك النزاع الذي أخذ يتزايد حتى تحول في النهاية الى فتنة علنية سافرة . وقام سالم بتعبئة الأحداث في المدينة، وانضمت إليهم جماعات الغوغاء . وجهز سالم خطة لحصار القلعة حيث كان يقيم نصر ، وقام رجل مسيحي يدعى توما (توماس Thomas) بدور السفارة بين نصر وسالم ، الا أن توما لم يكن يتوخى الأمانة والصدق في نقل الرسائل التي كان يبعثه بها سالم الى نصر ، بل كان يبالغ ويغالي كثيراً في مطالب سالم دون سبب معروف . وكان من نتيجة ذلك أن انقض نصر بن صالح على سالم وهزمه وقبض عليه وقتله[١] .

ويروي العظيمي أن نصراً قتل سالماً بعد مشورة الحاكم البيزنطي لانطاكية ، ولكنه لا يذكر السبب ، وعلى الرغم من عدم وجود سبب يبرر الصراع الذي نشب بين سالم ونصر فإننا نعرف ان نصراً طلب العفو والحماية من البيزنطيين في اعقاب انتصاره على الامبراطور البيزنطي رومانوس الثالث . واعلن استعداده لدفع اتاوة سنوية . وربما يكون سالم قد استاء لهذا التصرف الذي أساء إلى شعور سكان حلب ، وهكذا يكون سالم قد حاول اغتنام هذه الفرصة لتحقيق مآربه الشخصية[٢] .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

Zakkar, op. cit., p. 259 - 260 .

(٢) Zakkar, op. cit., p. 260. ؛ أنظر ما سبق الفصل الأول ص ٨٦ ـ ٨٨ .

لم يكن لمقتل سالم أثر في التقليل من شأن الأحداث كما لم يؤثر ذلك على تفضيلهم امراء الأسرة المرداسية . فبعد سقوط حلب بيد الفاطميين سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م ساعد الاحداث ثمال بن صالح على استعادة حلب سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤٢م[١] . وعندما اضطر ثمال إلى التخلي عن حلب للخليفة الفاطمي المستنصر سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م قاوم الاحداث ذلك وثاروا على الوالي الفاطمي الحسن بن ملهم وساعدوا محموداً بن نصر على استعادة المدينة من الفاطميين سنة ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م[٢] .

وقام الاحداث ايضاً بدور بارز في النزاع بين امراء الأسرة المرداسية حول الحكم في حلب ، ومثال ذلك النزاع الذي نشأ بين ثمال ابن صالح وابن اخيه محمود بن نصر ، والنزاع الذي وقع بين محمود وعمه عطية ، كما لعبوا دوراً هاماً في كبح تسلط التركمان على حلب[٣] . واحياناً تحولت جماعات الأحداث إلى قوات عسكرية . ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن عطية استخدم الأحداث في الإغارة على الأراضي البيزنطية ، كما انتظم ستمائة من أفراد الأحداث في جيش مسلم بن قريش عندما حارب سليمان بن قطلمش[٤] . واخيراً لعب الأحداث دوراً حاسماً عندما فتحوا ابواب حلب امام مسلم بن قريش ، الأمر الذي نجم عنه سقوط الإمارة المرداسية[٥] .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٦١ ، Zakkar, op. cit., p. 260.

(٢) انظر ما سبق ص ٧٩ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٩٥ ؛ Zakkar, op. cit., p. 261.

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٩٠ ـ ٩٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل، جـ١٠ ص ١٤٠ . Zakkar, op. cit., p. 261.

(٥) انظر ما سبق ص ٢٢٨ .

ومن هذه الأمثلة يتضح ما كان لدور الأحداث من أهمية بالغة في حلب خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، كما اتضحت مواقفهم من الفاطميين والتركمان والسلاجقة ، ودورهم في كثير من الحوادث التي وقعت في حلب .

امارة مسلم بن قريش العقيلي في الجزيرة وشمال الشام ٤٥٣هـ ـ ٤٧٨هـ

وإذا كانت الإمارة المرداسية في حلب وشمال الشام قد انهارت بسبب الغزو التركماني لبلاد الشام ، فإن إمارة مسلم بن قريش لا تقل اثراً في تاريخ بلاد الشام عن الإمارة المرداسية فعلى الرغم من ان إمارة مسلم ابن قريش العقيلي نشأت اصلاً في الموصل فإن قيام مسلم بن قريش العقيلي ببسط نفوذه على حلب وشمال الشام جعله مرتبطاً بتاريخ هذه البلاد ، وذلك بسبب الدور الهام الذي لعبه اثناء الغزو السلجوقي وما بذله من جهود لوقف تدفق السلاجقة على بلاد الشام والجزيرة ومحاولته اقامة دولة عربية في بلاد الشام والجزيرة .

وسبقت الإشارة إلى ان منطقة الجزيرة دخلتها خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، عدة قبائل عربية من بينها قبيلة عقيل العدنانية[١] . وكانت منطقة الجزيرة تابعة للدولة الحمدانية . وبدءاً من سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م ضعفت الدولة الحمدانية مما سهل القضاء عليها . وورثتها دولتان ، واحدة كردية في ديار بكر عرفت باسم الإمارة

---

(١) انظر ما سبق الفصل الأول ص ٥٨ .

المروانية ، والثانية عربية في الموصل هي الإمارة العقيلية[١] .

ويرجع تاريخ الإمارة المروانية إلى سنة ٣٧٤هـ/ ٩٨٥م عندما تمكن المغامر الكردي باذ بن دوستك من انشاء اول إمارة كردية في التاريخ وبسط نفوذه على ميافارقين وديار بكر[٢] . وفي سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م هاجم باذ بن دوستك مدينة الموصل الخاضعة لابي طاهر واخيه الحسين بن حمدان فطلب الاخوان المعونة من محمد بن المسيب امير قبيلة عقيل، فاشترط عليهما تسليمه نصيبين، وبلد، وجزيرة ابن عمر[٣]، مقابل انضمامه اليهما ضد الاكراد ، فاجاباه إلى طلبه ، فانضم اليهما الأمر الذي ادى إلى صد الأكراد ومقتل زعيمهم باذ بن دوستك[٤] . على ان ابنا حمدان طمعا في الاستيلاء على إمارة باذ الكردي في ميافارقين وديار بكر ، والتي آلت إلى ابن اخته الحسن بن مروان . وتمكن ابن مروان من انزال الهزيمة الساحقة بابني حمدان . فاستغل محمد بن المسيب العقيلي هزيمتهما لصالحه فقبض على ابي طاهر بن حمدان وكثير من قادته ، وانقض على الموصل واستولى عليها واقرت الدولة البويهية على ذلك سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م[٥] .

---

(١) سهيل زكار ، تاريخ الغرب والاسلام ص ٣٦٥ .
(٢) تاريخ الفارقي ص ٤٩ ـ ٥٢ .
(٣) بلد مدينة قديمة كانت تقع على نهر دجلة شمال الموصل وبينهما سبعة فراسخ وجزيرة ابن عمر بلدة شمال الموصل أيضاً تشبه الهلال يحيط بها نهر دجلة . انظر ياقوت ، معجم البلدان .
(٤) أبو شجاع ، ذيل تجارب الأمم ص ١٧٦ ـ ١٧٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ٩ ص ٧١ ـ ٧٢ ، ٧٥ .
(٥) ابو شجاع ، ذيل تجارب الأمم ص ١٧٨ ـ ١٧٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ٩ ص ٧١ ـ ٧٢ ، ٧٥ .

عادت الدولة البويهية وانتزعت الموصل من محمد بن المسيب العقيلي سنة ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م[١] . ولم يدم الأمر طويلاً اذ تمكن المقلد ابن المسيب شقيق محمد من الاستيلاء على الموصل سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م ، واعاد الإمارة العقيلية إليها وحصل من الخليفة العباسي القادر بالله على الاعتراف به اميراً على الموصل[٢] .

ظل المقلد بن المسيب يحكم الإمارة العقيلية حتى سنة ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م حين اغتاله بعض مماليكه الاتراك فخلفه ابنه قرواش بن المقلد[٣] . وحكم قرواش الموصل فترة طويلة من الزمن امتدت إلى سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م حين قبض عليه أخوه بركة بن المقلد وسجنه وتولى زعامة الإمارة العقيلية . ولم تطل مدة حكم بركة بن المقلد ، فتوفي سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م ، وخلفه على الإمارة ابن أخيه قريش بن بدران . وأخرج قريش عمه قرواش من سجنه وقتله ، وفرض سيطرته الكاملة على الإمارة العقيلية[٤] .

ظل قريش بن بدران يحكم الإمارة العقيلية في الموصل وبعض مناطق الجزيرة حتى توفي سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م وخلفه ابنه مسلم بن قريش ، أعظم شخصيات هذه الأسرة ، الذي امتد نفوذه إلى بلاد الشام

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٩٢ ـ ٩٣ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل جـ ٩ ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٦١ .

(٣) ابن الأثير، الكامل جـ٩ ص ١٦٤ ـ ١٦٥ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٦٣ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ص ٥٦٤ ـ ٥٧٩ ؛ ابن خلكان جـ ٥ ص ٢٦٧ ، أبو الفدا ، المختصر جـ ٢ ص ١٧٠ ـ ١٧٢ .

ولعب دوراً هاماً في حوادث بلاد الشام والجزيرة خلال الغزو السلجوقي[1] .

أخذ مسلم بن قريش ، بعد أن آلت اليه الإمارة العقيلية يسعى جاهداً لتوطيد حكمه . وكان أول خطر واجهه من قبل عمه مقبل بن بدران الذي طلب الإمارة لنفسه وساعده في ذلك اعداد من الأكراد . والتقى مقبل بابن اخيه مسلم بن قريش على نهر الخابور[2] سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م ، فحلت الهزيمة بمسلم واستولى عمه مقبل على الجزيرة . على أن مسلماً عاد وانفق الأموال وجمع جيشاً جديداً وانزل الهزيمة بعمه مقبل ، واخيراً تم الصلح بينهما على ان يكون لمقبل ثلث خراج الموصل[3] .

وذكر ابن الأثير انه في أعقاب موت السلطان طغرلبك سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م بعث ديوان الخلافة إلى شرف الدولة مسلم بن قريش ودبيس بن مزيد زعيم بني أسد وغيرهم من الأمراء بالقدوم إلى بغداد ، فسار ابراهيم بن مسلم بن قريش إلى أوانا[4] وتسلم اصحابه الانبار ، وانتشر اتباعه من الأعراب في البلاد ، وقطعوا الطرقات . ثم غادر مسلم ابن قريش بغداد بعد ذلك ، ونهب بعض المناطق ، مما اضطر دبيس بن مزيد والأكراد وبني خفاجة إلى المسير لقتاله . واخيراً جاءه من ديوان

---

(١) ابن الأثير ، الكامل جـ١٠ ص ١٧ ؛ ابن خلكان جـ٥ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .
(٢) نهر الخابور يقع بمنطقة الجزيرة ويصب في نهر الفرات عند قرقيسياء ، انظر ياقوت . معجم البلدان .
(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ١٩٨ أ ؛ ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٧٠ .
(٤) أوانا قرية قرب بغداد كانت تبعد عنها سبعة فراسخ . انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

الخلافة ما يفيد بالرضى عنه . وحمل إليه الرسول الخلع من الخليفة القائم ، ثم التقى بدبيس بن مزيد واصطلح معه[1] . ويبدو ان مسلماً بن قريش كان يهدف إلى بسط نفوذه على بعض مناطق العراق اذ يذكر ابن خلكان ان مسلماً بن قريش طمع في الاستيلاء على بغداد بعيد موت السلطان طغرلبك سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م الا انه عاد وتخلى عن عزمه ذلك[2] .

عمل مسلم بن قريش على توطيد علاقته بالسلطان السلجوقي ألب أرسلان ، فسار اليه سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م فأكرم السلطان وفادته واقطعه الأنبار وحربى وهيت والسن والبوازيج ، اضافة إلى الموصل[3] . وتوج مسلم بن قريش علاقته الودية مع البيت السلجوقي بالزواج من صفية بنت جغري بك، شقيقة السلطان ألب أرسلان، والتي توفي عنها زوجها[4] .

أخذ مسلم بن قريش يتطلع لبسط نفوذه على شمال الشام ، فسار

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٧ .

(٢) ابن خلكان جـ ٥ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٤٨ أ ؛ ابن الأثير ، الكامل، جـ ١٠ ص ٥١؛ الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٣٣؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٥٧١ ؛ والأنبار مدينة على نهر الفرات غربي بغداد كان بينهما خمسة فراسخ . وهيت بلدة على نهر الفرات من نواحي بغداد شمال الأنبار ، وحربي بليدة تقع بين بغداد وتكريت ، والسن مدينة شمال تكريت عند مصب الزاب الأسفل في نهر دجلة ، والبوازيج بلد قرب تكريت عند مصب الزاب الأسفل في نهر دجلة . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٤) مرآة الزمان ، جـ١٢ ورقة ٢٤٨ أ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٦١ ؛ الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٣٨ .

في سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م إلى الرحبة الواقعة على نهر الفرات ، وهزم قبيلة كلاب ، وانتزع منهم الرحبة ، وارسل اعلامهم وعليها سمات الخليفة المستنصر إلى بغداد « وكسرت وطيف بها في بغداد ، وبعث الخليفة إلى مسلم بالخلع والتشريفات »[١] . وعندما قاد السلطان ألب أرسلان حملته الشهيرة إلى الشام سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م كان مسلم بن قريش بين الأمراء الذين وفدوا على السلطان وقدموا له فروض الطاعة والولاء[٢] .

جمع مسلم بن قريش كل شؤون الإمارة العقيلية في يده ، فقبض على أخيه ابراهيم واعتقله بقعلة سنجار[٣] . وأبعد زعماء عشيرته وحاشيته عن التصرف في شؤون الإمارة . وفي سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م اكتشف مسلم بن قريش مؤامرة حاك خيوطها كاتبه ابو جابر بن صقلاب ، وحاجبه شرويه ، اذ كاتبا السلطان ملكشاه يحثانه على القبض على مسلم ابن قريش، وطرد العرب من العراق، وإقامة أحد أصحاب السلطان مقامه . فقبض مسلم على ابي جابر بن صقلاب وحاجبه وقتلهما . واستدعى مسلم بن قريش والي قلعة سنجار واخبره بعزمه على المسير إلى بلاط السلطان بخراسان . وامره بالمحافظة على أخيه ابراهيم بن قريش حتى يعود وفيما لو حدث له مكروه لدى السلطان فيجب اطلاق سراح ابراهيم ومبايعته اميراً مكان أخيه مسلم[٤] . ويبدو انه نجح في توطيد علاقته مع

---

(١) مرآة الزمان ، جـ١٢ ورقة ٢٣٨ ب ؛ العيني عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٥٦ أ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٥٧١ .

(٢) انظر ما سبق الفصل الثاني ص ١٢٥ .

(٣) سنجار : مدينة مشهورة من مدن الجزيرة كان بينها وبين الموصل مسيرة ثلاثة أيام . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ١٣ B ورقة ٦ ب ـ ٧ أ .

السلطان ملكشاه ، وخاصة بعد ان ساعد ملكشاه سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م في اخماد فتنة عمه قاروت بك . ولعب مسلم بن قريش ومعه جموع العرب دوراً حاسماً في انزال الهزيمة بجيش قاروت بك مما كان له احسن الأثر في نفس السلطان ملكشاه[١] .

وفي سنة ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م سار تاج الدولة تتش إلى بلاد الشام ، واسهم مسلم بن قريش في احباط حملة تتش على حلب[٢] . فقد ادرك مسلم أن نجاح تتش في الاستيلاء على حلب سيجعله مطوقاً بقوى الغز من الشرق والغرب . وهذا ما يعرضه للخطر ، لذلك قدم المساعدة إلى سابق المرداسي ، وأمده بالغلات والمؤن كيما يمكنه من الصمود امام هجمات الغز بقيادة تتش بن ألب ارسلان ، وتبع ذلك استيلاء مسلم بن قريش على حلب[٣] . وتوسم سكان شمال الشام في مسلم بن قريش القائد الذي سيخلصهم من الترك الغز ، والدليل على ذلك قصيدة ألقاها الشاعر ابن حيوس امام مسلم بن قريش بعد دخوله حلب حيث تميزت هذه القصيدة بصدق مشاعرها وجزالة الفاظها ، واشار ابن حيوس في قصيدته إلى ما يأمله سكان بلاد الشام في ان يتمكن مسلم بن قريش من طرد الترك من هذه المناطق واعادة مجد العرب اليها[٤] . بيد أن هذا

---

(١) ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٧٨ ـ ٧٩ ؛ الحسيني ، أخبار الدولة السلجوقية ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٢) انظر ما سبق الفصل الثاني ، ص ١٦٠ ـ ١٦٣ .

(٣) انظر ما سبق الفصل الثاني ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

(٤) قال ابن حيوس مخاطباً مسلم بن قريش بعد فتحه حلب :

يا رحمة بعثت فأحيت أمة	قد طالما منيت بمن لم يرحم
ان الرعايا في جنابك آمنت	كيد الغشوم وفتكة المتغشرم
في يوم قار راية لك فهمت	من قادة الأتراك من لم يفهم
وغداً ستخلى الشام منهم مثلما	أخلت خزاعة مكة من جرهم =

الأمل لم يتحقق رغم ما بذله مسلم بن قريش من جهود، إذ لم يكن قادراً بمفرده من وقف تدفق الغز على بلاد الشام .

بعد ان بسط مسلم بن قريش نفوذه على حلب سنة **٤٧٣هـ/** ١٠٨٠م قام بتحسين احوالها الاقتصادية بعدما سببته غارات التركمان من دمار ، فنقل إلى شمال الشام كمية كبيرة من الحبوب « ومن البقر والغنم والمعز والدجاج شيء كثير وعاش الناس في ايامه ورخصت الأسعار بحسن تدبيره » كما يذكر ابن العديم[١] . وفي سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م عهد مسلم بن قريش بولاية حلب إلى اخيه علي بن قريش وترك معه فرقة من جيشه ، وراسل السلطان ملكشاه يعلمه بما جرى،ويسأله في تقرير مبلغ من المال يحمله إلى السلطان عما بيده من بلاد الشام ، فأجابه السلطان إلى طلبه . ولكن كان لهذا المال المقرر للسلطان آثار سيئة على حلب، إذ قام ابو العز بن صدقة البغدادي ، وزير مسلم بن قريش بمصادرة جماعة من الناس، وضاعف الخراج، لجمع المال المقرر للسلطان السلجوقي[٢] .

وبعد ان فرض مسلم بن قريش نفوذه على حلب استقر رأيه على بسط نفوذه على بلاد الشام ، وجَعْلَها جزء من دولته . ومن أجل ذلك شرع في إخضاع الحصون والقلاع التي لا تزال خارجة عن طاعته في

= أصفيت للعرب المشارب بعد أن كانت كرمح لا يعان بلهذم
أنت الذي نفق الثناء بسوقه وجرى الندى بعروقه قبل الدم

انظر ديوان ابن حيوس جـ٢ ص ٥٦٩ ـ ٥٧٥ ، وانظر أيضاً القصيدة في العماد الأصفهاني ، خريدة القصر جـ٢ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٩ .

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٧٥ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

شمال الشام كيما يفرغ بعد ذلك لمقارعة النفوذ السلجوقي في بلاد الشام . وكان اول عمل قام به بعد سيطرته على حلب هو فتح الحصون والقلاع التابعة لها مثل حصن عزاز ، وقلعة الاثارب ، وجميع القرى والحصون القريبة من حلب ، التي انتزعها تتش من حلب اثناء حصاره لها[1] .

وفي اوائل سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م سار مسلم بن قريش إلى حران بإقليم الجزيرة ، واستولى عليها وقضى على الإمارة النميرية بها . وحران ذات موقع هام لوقوعها على مفترق الطرق التي تربط بين الموصل وبلاد الشام واراضي الدولة البيزنطية . كما فتح بلدة سروج الخاضعة لحسن ابن وثاب النميري وأقطعه عوضاً عنها نصيبين . وقرر مسلم العمل على عزل تتش في دمشق وجنوب الشام ، فمنع تدفق التركمان اليه عبر اراضي الجزيرة . ومن أمثلة ذلك انه أثناء وجوده بالجزيرة سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م منع نجدة تركمانية بقيادة أرتق بن أكسب من الوصول إلى تتش ، ولم يسمح الا بمرور أم تتش وخدمها . وبعد أن فرض مسلم طاعته على معظم اقليم الجزيرة وشمال الشام هدد مدينتي الرها وانطاكية حتى اعلن حاكمها فيلاريتوس Philaretus في سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨٠م دخوله في طاعة مسلم بن قريش ، وتعهد بتقديم الجزية لمسلم ونقش اسمه على السكة . وأرسل مسلم بن قريش إلى ديوان الخلافة مبشراً بدخول الرها وانطاكية في طاعته[2] .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٧٥ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ b ورقة ٥٥ ب ـ ٥٦ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٧٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ١٠ ص ١٢٢ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ٤ ص ٥٧٢ ؛ ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ص ١٣٥ ؛ ابن كثير ، جـ١٢ ص ١٢٢ ؛ الذهبي دول الاسلام جـ٢ ص ٦ .

تعرض مسلم بن قريش في جمادى الأولى سنة ٤٧٤هـ/ ديسمبر ١٠٨١م لمؤامرة اغتيال قام بها مملوكان له ، ونجا مسلم وعرف ان وراء المؤامرة جماعة من عشيرته . وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر في نفس مسلم بن قريش ، فاحتجب عن معظم خواصه ، وقبض على جماعة من زعماء قبيلته واعتقلهم ، وجمع كل سلطات الإمارة في يده ، مما جعل مصير الإمارة متعلقاً بمصيره[1] .

وفي أواخر سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨٢م طالب مسلم بن قريش فيلاريتوس الارمني حاكم انطاكية والرها بمال الهدنة المقرر بينهما فرفض فيلاريتوس تسليم المال المقرر . وكان لسياسة فيلاريتوس السيئة في انطاكية اسوأ الأثر في نفوس أهلها ، فكاتبوا مسلم بن قريش طالبين اليه القدوم ، ووعدوه بالمساعدة في تسليم انطاكية اليه . على ان هذه المكاتبات سرعان ما علم بها فيلاريتوس ، عن طريق كاتب مسلم بن قريش النصراني ، الذي ما ان تحقق من عزم مسلم على فتح انطاكية حتى فر اليها وسلم الكتب الى فيلاريتوس الارمني . وقتل فيلاريتوس ثلاثمائة رجل من اهل انطاكية . وكتب فيلاريتوس الى ملكشاه يتهم مسلم ابن قريش بمراسلة الخليفة الفاطمي ، وانه يتلقى من الفاطميين الخلع والأموال . وتعهد فيلاريتوس بتقديم مال الهدنة للسلطان نفسه . وبعث الوزير السلجوقي نظام الملك الى مسلم بن قريش عاتباً عليه اتصاله بالخلافة الفاطمية . فرد مسلم على نظام الملك قائلاً : « ان كانت الكتب مني الى صاحب مصر ، توجَّه العتب علي وان كانت منه فاحفظوا صاحباً لكم يرغب فيه صاحب مصر ، لا تخرجوه عن ايديكم وارغبوا فيه

---

(١) مرآة الزمان ، جـ١٣ b ورقة ٥٦ أ ـ ب ؛ ابن الجوزي ، المنتظم جـ٨ ص ٣٣١ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٧٦ .

كما رغب غيركم »[1] . ويبدو ان مسلماً بن قريش لم يكن مخلصاً في ولائه للسلاجقة ، فقد كان متشيعاً على مذهب الامامية الأثني عشرية . ورغم انه لم يدن بالولاء للخلافة الفاطمية ، فانه اراد الحصول على مساعدة الفاطميين لتحقيق مطامحه في بلاد الشام .

وبعد أن سيطر مسلم بن قريش على معظم اقليم الجزيرة اخذ يتطلع لبسط نفوذه على كل بلاد الشام . وكان علي بن المقلد بن منقذ قد لعب دوراً هاماً في اقناع سابق واخوته بتسليم قلعة حلب الى مسلم بن قريش . وذكر ابن العديم انه لما سقطت حلب وقلعتها سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م بيد مسلم بن قريش، أكرم ابن منقذ ووعده وعوداً جميلة[2]. بيد أن مسلماً لم يكن يتوقع ان علياً بن منقذ سينجح في سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م من انتزاع شيزر من أسقفها البيزنطي ، ويصبح بذلك عقبة جديدة امام خطط مسلم بن قريش في بسط نفوذه على اواسط الشام وسواحله[3] . وما ان علم مسلم بن قريش بسقوط شيزر بيد علي بن منقذ حتى أمر أخاه عليا بن قريش بالمسير اليها . فسار علي قاصداً شيزر واستولى في طريقه على حصن لابن منقذ يقال له اسفونـا[4] غـربي كفرطاب . ووصل علي ابن قريش إلى شيزر في ذي الحجة سنة ٤٧٤هـ/ مايو ١٠٨٢م وضرب الحصار حول شيزر . على ان ابن منقذ كان قد احتاط للحصار منذ استيلائه على شيزز فجلب اليها كميات كبيرة من الغلال والمؤن وسائر الاقوات بما يكفيه لتحمل الحصار مدة طويلة . وحاصر علي بن قريش

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ b ورقة ٦٠ ب ، ٦١ أ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٧٥ .

(٣) انظر ما يلي ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦ .

(٤) اسفونا : اسم حصن كان قريب من معرة النعمان ، ياقوت ، معجم البلدان .

شيزر دون جدوى حتى قدم مسلم بن قريش بنفسه الى الشام في السنة التالية . وفي آخر المحرم ٤٧٥هـ/ ٣٠ يونيه ١٠٨٢م وصل مسلم بن قريش إلى شيزر ، ثم رحل عنها بعد اربعة ايام الى حمص وامر اخاه علياً بمواصلة حصار شيزر .

وأخيراً ارسل علي بن منقذ ابنه ابا العساكر سلطان في صحبة امرأته منصورة بنت المطوع واخته رفيعة بنت المقلد الى مسلم بن قريش، فدخلوا عليه ورجوه ترك شيزر، وقدموا له مبلغ عشرة آلاف دينار مقابل رفع الحصار عن شيزر . وقبل مسلم بن قريش الصلح واصدر امره الى أخيه علي برفع الحصار عن شيزر[١] .

ولما انسحبت قوات مسلم بن قريش عن شيزر انتزع مسلم مدينة حمص من صاحبها خلف بن ملاعب الذي تحصن بالقلعة وارسل الى تتش طالباً مساعدته ضد مسلم بن قريش فارسل تتش الى مسلم يخبره بتبعية ابن ملاعب له . فرد مسلم على تتش مبرراً هجومه على حمص بسبب سلوك ابن ملاعب وقطعه طرق القوافل . فخرج تتش من دمشق لقتال شرف الدولة مسلم بن قريش ، فخشى الاخير أن يتهمه السلطان ملكشاه بقتال اخيه ، كما ان مسلما لم يكن قد استعد لمنازلة تتش . فسار ابن قريش الى ساحل الشام متظاهراً بحصار مدينة صور ، ثم عاد تتش إلى دمشق ولما علم مسلم بذلك رجع مرة اخرى الى حمص وحاصرها « فخرج نساء ابن ملاعب وحريمه فتعلقن بذيل مسلم فاستحى منهن ،

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ b ورقة ٦١ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٧٦ ـ ٧٧ ، العظمى حوادث سنة ٤٧٥ هـ .

Zakkar, op. cit. pp. 204-205.

وأبقاه على حاله ولم يطالبه بما تقرر عليه ، واستحلفه ، وحلف له وعاد إلى حلب »[1] .

ولا شك ان مسلماً بن قريش كان يهدف من حصار شيزر وحمص الى مد نفوذه على المدن والقلاع الواقعة شمال دمشق حتى يتسنى له بعد ذلك انتزاع دمشق من تتش والاستيلاء على بقية بلاد الشام . وذكر ابن شداد انه عندما تظاهر مسلم بالمسير لحصار صور ، استولى على بعلبك ، وولى عليها عود بن الصقيل واقطعه البقاع[2] . ويفهم من هذا ان مسلماً بن قريش حاول تطويق تتش من جهتي الغرب والشمال ، وربما كان لديه الأمل في الاستعانة بالخلافة الفاطمية ، لتساعده بجيوشها من جهة الجنوب ، كيما يسهل القضاء على تتش ، وبالتالي يستولي مسلم بن قريش على جميع بلاد الشام . يضاف الى ذلك انه عندما غادر مسلم بن قريش حمص عائداً إلى حلب، قام بالقضاء على بقايا التركمان الذين كانوا يخدمون امراء بني مرداس في شمال الشام ، فأخذ منهم الحصون الباقية في ايديهم ، وقبض عليهم جميعاً وعددهم ثلاثمائة فارس، واعتقلهم ووزعهم على الكثير من القلاع وظلوا في سجونهم حتى مقتل مسلم بن قريش . وقام مسلم ايضاً بتقليم اظافر زعماء العرب في شمال الشام ، حتى لا يبقى لهم من القوة ما يستطيعون به الوقوف في وجهه . فقبض على وثاب وشبيب ابني محمود بن نصر المرداسي واخذ منهما قلعتي عزاز والاثارب من أعمال حلب ، ثم اطلق سراحهما وعوضهما مناطق بعيدة عن انصارهما مثل الخانوقة وقرقيسياء ، وبعض الضياع في منطقة الجزيرة ، وقبض مسلم ايضاً على حسن بن وثاب النميري امير قبيلة

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٦١ أ .

(٢) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة جـ٣ ص ٤٤ .

نمير ، واعتقله بحلب فترة قصيرة ثم قتله[1] .

أما بالنسبة لموقف مسلم بن قريش من قبيلة كلاب في هذه الفترة التاريخية فيذكر ابن العديم انه استولى على أكثر اقطاعات بني كلاب حتى اجحف بهم[2] . ولقد كان هذا الاجراء خطأً سياسياً ارتكبه مسلم بن قريش إذ كان يجب عليه التقرب إلى قبيلة كلاب ، حتى تقف باخلاص الى جانبه في صراعه التالي مع السلاجقة . ويجدر الإشارة الى انه رغم الضربات الموجعة التي حلت بكلاب على أيدي التركمان فانها كانت اكبر قبائل الشام ، وكان في امكان مسلم بن قريش الاستعانة بها لا سيما وقد نظرت اليه في البداية كمنقذ لها امام زحف الغز على بلاد الشام .

وكيفما كان الأمر فان مسلماً بن قريش عاد الى الجزيرة ، ليعد قواته لمنازلة تتش . وفي الوقت نفسه اتفق زعماء الشام الذين قاتلهم مسلم بن قريش على الاستعانة بتاج الدولة تتش . فاستقر رأي وثاب وشبيب ابني محمود المرداسي، وخلف بن ملاعب حاكم حمص وامير شيزر علي بن منقد ، ومنصور بن الدوح حاكم حماة ، على مراسلة تاج الدولة تتش بدمشق ، وشكوا اليه حالهم وعرضوا عليه الدخول في طاعته ووعدوه بالمساعدة على استخلاص بلاد الشام من مسلم بن قريش، ووضع تتش مع حلفائه خطة تتلخص في مسير تتش إلى انطاكية للاستيلاء على المناطق الواقعة شمال وغرب حلب، في الوقت الذي يزحف فيه حلفاؤه

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ١٣ B ورقة ٦١ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٧٨ ، والخانوقة مدينة على نهر الفرات قرب الرقة ، وقرقيسياء بلد عند مصب الخابور على نهر الفرات . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٧٨ ـ ٧٩ .

من الجنوب لحصار حلب والاستيلاء عليها . اما مسلم بن قريش فقد رأى الاستعانة بالخلافة الفاطمية في مصر لترسل له جيشاً يأتي من جهة الجنوب إلى دمشق بينما يحاصرها مسلم بن قريش من جهة الشمال . وسار تتش إلى انطاكية. وباغت وثاب بن محمود المرداسي فرقة من الجند تابعة لمسلم بن قريش عند حماة وهزمها، وعادت فلولها إلى حلب . وقام وثاب ومنصور بن كامل بن الدوح وابن ملاعب وابن منقذ بمهاجمة معرة النعمان ، وقطعوا الكثير من أشجارها، ورعوا مزارعها بمواشيهم وحاصروها عدة ايام ولم يستطيعوا فتحها . ولما سمع شرف الدولة مسلم ابن قريش بتحرك اعدائه ، عبر الفرات على رأس قواته المكونة من قبائل عقيل ونمير والاكراد وبني شيبان وكلاب ومر على حلب قاصداً دمشق . واخيراً انضمت اليه قبائل وسط وجنوب الشام وهم طيء وكلب وعليم وغيرهم . ولقد اجبر تحرك مسلم السريع اعداءه الى الانسحاب الى مدنهم للدفاع عنها امامه . فعاد تتش إلى دمشق ووصلها في أول محرم سنة ٤٧٦هـ/ مايو ١٠٨٣م . ووصل مسلم بن قريش الى ضواحي دمشق في آخر المحرم سنة ٤٧٦هـ/ يونيه ١٠٨٣م ، وعقد العزم على الاستيلاء على دمشق ليحقق بذلك هدفه ، وهو تأسيس دولة عربية تضم كل بلاد الشام(١) .

حاصر شرف الدولة مسلم بن قريش مدينة دمشق مدة شهر ، واخفق في الاستيلاء عليها لعدة أسباب ، أهمها التركيب القبلي لقواته ،

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٦٤ ب ؛ ابن القلانسي ص ١١٤ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٧٩ ـ ٨٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ١٠ .

Zakkar, op. cit. pp. 206 - 207 .

كما ان معظم القبائل التي انضوت تحت لوائه كان دافعها الرغبة في الحصول على الغنائم عند سقوط دمشق، أو الخوف من بطشه . يضاف إلى ذلك ان سياسته السابقة ازاء قبيلتي كلاب ونمير كان لها اثر عكسي ، فقد انسحبت عنه كلاب ونمير وكلب وطيء اثناء حصار دمشق، ولم يبق معه سوى قبيلته عقيل . هذا فضلاً عن الهجمات الخاطفة التي شنها تتش من داخل دمشق على معسكر مسلم بن قريش، والتي نجم عنها تضعضع عسكره . وكاد مسلم ان يقع بنفسه في الاسر . كما ان الوزير الفاطمي بدر الجمالي لم يف بوعده له بارسال نجدة فاطمية لمساعدته يضاف الى هذه الاسباب ان مسلماً بن قريش تلقى خبراً يفيد قيام فتنة ضده في حران التي كان لها اهمية كبيرة لدولة مسلم بن قريش لموقعها بين الموصل وبلاد الشام واراضي الدولة البيزنطية . كل هذه العوامل مجتمعة اجبرت مسلم ابن قريش على التخلي عن حصار دمشق . وخوفاً من قيام تتش بمطاردته اثناء انسحابه عمد مسلم بن قريش الى القيام بمناورة عسكرية خدع بها تتش اذ انسحب الى جنوب دمشق في صفر سنة ٤٧٦هـ/ يونيه ١٠٨٣م موهما تاج الدولة تتش واتباعه انه قاصد فلسطين ، مما اوقع القلق والاضطراب في نفس تتش ، خوفاً من ان يعيد مسلم الكرة بمهاجمة دمشق من الجنوب . ثم قاد مسلم بن قريش جيشه مسرعاً نحو الشرق . وفقد مسلم بن قريش أثناء مسيره الكثير من الخيول والجمال واعداداً كبيرة من افراد جيشه في الصحراء . ثم اتجه مسلم شمالاً ماراً بشرق حماة ، وراسل خلف بن ملاعب صاحب حمص وطيب نفسه الى أن خرج إليه فخلع عليه، وعاهده وسلمه بلدتي رفنية وسليمة، واتفق مسلم ابن قريش مع خلف بن ملاعب على ان تكون حمص حاجزاً بين تتش وبين املاك مسلم بن قريش الواقعة شمال حمص ليحول دون قيام تتش بمهاجمة حلب اثناء انشغال مسلم بفتنة حران . كما اقطع شبيب بن

محمود المرداسي حماه وجعله والياً عليها من قبله[1] .

وفي سنة ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م استطاع مسلم بن قريش اعادة تثبيت سيادته على حران . وكان مسلم بن قريش قد بسط نفوذه على حران سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨٠م بعد موت وثاب النميري زعيم بني نمير الذي كانت سياسته في حران قبل موته تتسم بالعدل والرفق بالسكان . وعهد مسلم بن قريش بولاية حران الى رجل يدعى جعفر العقيلي، انتهج فيها سياسة مخالفة لما عرفه اهل حران من العدل زمن وثاب النميري . واظهر جعفر العقيلي مذهب التشيع في حران، في الوقت الذي كان فيه سكان حران يدينون بالمذهب السني . واتفق قاضي حران واسمه ابن جلبة مع اهل حران على العصيان على مسلم بن قريش . واتصل ابن جلبة بيحيى بن الشاطر مملوك وثاب النميري الذي سلم حران الى مسلم بن قريش بعد موت سيده ، فقدم ابن الشاطر مع جماعة من بني نمير، ومعهم ولد صغير لمنيع بن وثاب النميري . وهاجموا جميعاً اصحاب مسلم بن قريش وألجأوهم الى حصن المدينة . فأرسل امير الحصن الى شرف الدولة مسلم بن قريش طالباً النجدة . ووصل مسلم بن قريش الى حران في ربيع الأول سنة ٤٧٦هـ/ اغسطس ١٠٨٣م وضرب الحصار حول حران وتظاهر القاضي ابن جلبة بانه سيسلم المدينة لشرف الدولة، في الوقت الذي بعث فيه باحد زعماء بني نمير الى القائد التركماني جبق ، المقيم بأتباعه باقليم الجزيرة طالباً مساعدته ضد مسلم بن قريش ، ووعده

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٦٤ ب ، ٦٥ أ ؛ الذهبي تاريخ الإسلام جـ١٢ ورقة ١١ ب ؛ ابن القلانسي ص ١١٤ ـ ١١٥ ؛ ابن العديم زبدة الحلب جـ٢ ص ٨١ ـ ٨٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ١٠ ص ١٢٧ ، ١٢٩ ـ ١٣٠ ، Gibb, op. cit. p. 20; Zakkar, op. cit. pp, 207 - 208 .

بتسليم حران اليه . ولما علم مسلم بن قريش بتدبير ابن جلبة، شدد الحصار على حران . ووصل جبق بمن معه من التركمان فعهد مسلم بن قريش الى بعض اصحابه بمواصلة حصار حران ، وقاد فرسانه للقاء التركمان . ووقعت المعركة بين الجانبين فأمر مسلم اصحابه بجعل النهر المعروف بالجلاب(١) وراءهم حتى يمنعوا التركمان من الوصول إليه . وجرت معركة بجوار ضفاف هذا النهر ، انهزم فيها التركمان وقتل معظمهم وغنم العرب الكثير من اسلابهم . وعاد شرف الدولة لمحاصرة حران وكلما رمى قطعة من السور نصب ابن جلبة ازاء الثلمة مجانيق وعرادات(٢) تمنع كل من يحاول الاقتراب منها . واخيراً امر مسلم بن قريش العرب بالتأهب لمهاجمة المدينة وارسل في احدى الليالي فرقة قامت بتطهير الحجارة من طريق الخيل . وارسل الى ابن جلبة طالباً منه تسليم المدينة ، ووعده بالامان . فرد ابن جلبة بالرفض قائلاً « السيف أصدق انباء من الكتب » . وتقدم العرب واحرقوا المجانيق والعرادات واقتحموا المدينة في جمادى الأولى سنة ٤٧٦هـ/ اكتوبر ١٠٨٣م بعد حصار دام قرابة الشهرين . وقتل عدد كبير من سكان حران وقبض مسلم بن قريش على قاضي حران ابن جلبة وولديه وثلاثة وتسعين رجلاً من زعماء حران وامر بقتلهم جميعاً، وصلبهم على اسوار حران . ثم قام شرف الدولة بتنظيم شؤون مدينة حران، ثم غادرها عائداً إلى الموصل(٣) .

---

(١) جلاب : اسم نهر بمدينة حران . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) العرادة : آلة أصغر من المنجنيق تلقى بها الأحجار على أبعاد طويلة ، انظر : عبد الرحمن زكي ، السلاح في الإسلام ص ٤٠ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ B١٣ ورقة ٦٥ أ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام جـ ١٢ ورقة ١١ ب ـ ١٢ أ ؛ ابن العديم زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٨١ ـ ٨٣؛ ابن الأثير، الكامل جـ ١٠ ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ؛ العظيمي حوادث سنة ٤٧٦ هـ ؛ ابن العماد العنبلي ، شذرات الذهب جـ ٣ ، ص ٣٤٩ .

وفي السنة التالية سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م واجه مسلم بن قريش هزيمة مريرة على ايدي جماعات التركمان وذلك اثناء الحملة التي ارسلها السلاجقة للقضاء على الامارة المروانية الكردية في منطقة الجزيرة . ففي سنة ٤٧٦هـ اقتنع السلطان ملكشاه برأي وزيره نظام الملك فارسل جيشاً اسند قيادته إلى فخر الدولة بن جهير[١] للقضاء على الامارة المروانية . وسمح السلطان لفخر الدولة بان يذكر اسمه في الخطبة وينقش اسمه على السكة الى جانب السلطان . وقاد ابن جهير الجيش السلجوقي الى الجزيرة وديار بكر[٢] .

ولما علم منصور بن احمد بن مروان الكردي امير ميافارقين

---

(١) تعتبر أسرة آل جهير من الأسر الشهيرة التي عملت بشؤون الحكم والإدارة فترة طويلة من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي . وكان زعيم هذه الأسرة هو فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير الموصلي ، الذي أصبح وزيراً للامارة العقيلية في الموصل ثم غادرها الى حلب وعينه ثمال المرداسي ناظراً للديوان . وبعد ذلك رحل ابن جهير الى ميافارقين سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م وعمل وزيراً للامارة المروانية حتى استدعاه الخليفة القائم الى بغداد سنة ٤٥٥ هـ /١٠٦٣ م وأسند إليه شؤون وزارته . وفي بغداد وطد ابن جهير علاقته مع الوزير السلجوقي نظام الملك وزوج ابنه عميد الدولة من ابنة نظام الملك . ولما عزل الخليفة المقتدي ابن جهير من الوزارة عاد الخليفة وأسند الوزارة الى ابنه عميد الدولة بتأثير نظام الملك . وفي سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م غادرت أسرة آل جهير بغداد الى أصفهان واستقبلت بحفاوة بالغة من قبل السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك . انظر مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٩١ ب ، ٩٢ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٢٦٩ ؛ ابن خلكان ، جـ٥ ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ؛ تاريخ الفارقي ص ١٨١ ؛ ابن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٩٣ ـ ٣٩٧ ؛ الاربلي ، خلاصة الذهب المسبوك ص ٢٦٨ ـ ٢٩٦ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣B ورقة ٦٦ أ ؛ ابن فضل الله العمري مسالك الأبصار جـ١٦ ورقة ١٠٦ ب ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ١٠ ص ١٢٩ ؛ تاريخ الفارقي ص ٢٠٨ ؛ الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٥ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ١٣ .

وديار بكر ، بمسير حملة ابن جهير للاستيلاء على بلاده ، لجأ الى شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي،وطلب مساعدته على صد ابن جهير عن بلاده . وتعهد ابن مروان بان يسلم لمسلم بن قريش مدينة آمد مقابل التحالف معه « وحلف كل واحد لصاحبه وكل منهما يرى ان صاحبه كاذب لما كان بينهما من العداوة المستحكمة »(١) . ولا شك ان الدافع لهذا التحالف بين قوتي الجزيرة المتخاصمتين هو المصير المشترك الذي يهددهما من قبل السلاجقة . فمسلم بن قريش كان يعلم أن سقوط الامارة المروانية المجاورة لامارته في منطقة الجزيرة سيهدد امارته بالمصير نفسه حيث لن يكون بمقدوره بعد ذلك الوقوف امام الخطر السلجوقي المباشر.

دخل ابن جهير بقوات السلاجقة منطقة الجزيرة ، وعلم بخبر التحالف بين مسلم بن قريش وابن مروان ، فأرسل الى السلطان ملكشاه يشرح له موقف الامير العقيلي،ويطلب ارسال النجدة لمواجهة الموقف الجديد . فأمر السلطان القائد التركماني ارتق بن اكسب بجمع التركمان والمسير لنجدة ابن جهير فسار ارتق باعداد كبيرة من التركمان قاصداً ديار بكر(٢) . ولما التحق ارتق بمن معه من التركمان بفخر الدولة بن جهير انضم اليهم بعض التركمان في منطقة الجزيرة بقيادة جبق التركماني الذي سبق وقاتل مسلم بن قريش عند حران . ودارت المراسلة بين ابن جهير ومسلم بن قريش العقيلي . وابدى ابن جهير رغبة في الصلح حتى لا

---

(١) ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٣٤ ، وأمد، مدينة حصينة، كانت مبنية من الحجارة على هضبة مرتفعة وتقع في ديار بكر بالجزيرة، ويحيط بها نهر دجلة من ثلاث جهات . انظر ياقوت ، معجم البلدان جـ ١ ص ٥٦ ؛ القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد ص ٤٩١ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٦٩ ب ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٣٤ ؛ الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٥ .

يكون سبباً في كارثة تحل بالعرب . واقترح ابن جهير على مسلم بن قريش الانسحاب الى بلاده ، وترك الامارة المروانية تواجه مصيرها . كما أشار بعض اصحاب مسلم على اميرهم بقبول الصلح. بيد ان مسلماً بن قريش ـ بما عرف عنه من اعتداد بنفسه ـ طلب من ابن جهير سحب الجيش السلجوقي مقدار مرحلة الى الوراء حتى لا يشاع ان مسلماً بن قريش عاد مهزوماً . فرفض ارتق بن اكسب العودة الى الخلف قائلاً : « انا لا أرد رايات السلطان على عقبها » وبينما كانت المفاوضات جارية بين قادة السلاجقة وبين مسلم بن قريش، علم التركمان الذي يتكون منهم معظم الجيش السلجوقي بأمر المفاوضات فقالوا : « نحن جينا من البلاد البعيدة لطلب النهب ، وهؤلاء يسارعون في الصلح » . وسار التركمان ليلاً بزعامة القائد التركماني جبق، دون علم ابن جهير ، وفاجأوا قبيلة عقيل فجر يوم الجمعة التاسع عشر من ربيع الأول سنة ٤٧٧هـ/ ٢٥ يوليه ١٠٨٤م . ورغم ان العرب كانوا اكثر عدداً من التركمان فانهم فوجئوا بالهجوم التركماني ، وحلت بهم الهزيمة ووقع معظمهم في الأسر . وذكر سبط ابن الجوزي انه لما علم ابن جهير وارتق سارا الى مكان المعركة وما ان وصلا الا « وقد استولى التركمان على الحلل والمواشي وكان مما لا يحد ولا يحصر وأخذوا النساء وفضحوهن ، وربطوا امراء بني عقيل بالحبال وباعوهم بالقراريط . وأشعل التركمان عشرة آلاف رمح تحت القدور وجرى على العرب ما لم يجر عليهم قبله مثله ، وسبوا نساءهم ، وبلغ الفرس الجيد ديناراً وكذا الجمل ، والرأس الغنم نصف قيراط والعبيد والاماء من دينار الى دينارين ، وما سوى ذلك فما اشترى ولا بيع » . وتمكن مسلم بن قريش من النجاة ولجأ إلى مدينة آمد وتحصن بها[1] .

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٦٩ ب ، ٧٠ أ ب ، انظر أيضاً ابن =

تعتبر هذه المعركة ضربة قاصمة حلت بالقوة البدوية العربية في بلاد الشام والجزيرة فقدت فيها قبيلة عقيل ـ ثاني كبرى قبائل الجزيرة بعد كلاب ـ الكثير من رجالها وماشيتها . وهذه المعركة هي ثاني كارثة تحل بالقوى العربية بعد الهزيمة الساحقة التي حاقت بقبيلة كلاب امام التركمان سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م[١] . وكان من الصعب على مسلم بن قريش استرداد قواه بعدَ هذه المعركة بحيث بات عاجزاً عن الصمود أمام سليمان بن قطلمش بعد عشرة اشهر من هزيمته . ودفع حياته اخيراً ثمناً لمحاولاته الوقوف امام الزحف السلجوقي على بلاد الشام .

ومهما يكن من أمر ، فان فخر الدولة بن جهير حاول استغلال هذا النصر لمصلحة السلطان فأشار على ارتق بن أكسب بارسال اسرى بني عقيل الى السلطان ملكشاه ، ومنع مسلم بن قريش من الخروج من آمد . غير أن ارتق رفض اوامر ابن جهير ، واستجاب لنداء مسلم بن قريش الذي ارسل الى ارتق يرجوه السماح له بالخروج من آمد مقابل مبلغ من المال وعده به . وخرج مسلم بن قريش من آمد في ٢١ ربيع الأول ٤٧٧هـ/ ٢٧ يوليه ١٠٨٤م، وتوجه الى الرقة وارسل الى ارتق بن اكسب الأموال التي وعده بها[٢] .

= فضل الله العمري ، مسالك الأبصار جـ ١٦ ، ورقة ١٠٦ ب، ١٠٧ أ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٣٤ ؛ الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٦؛ ابن واصل مفرج الكروب جـ ١ ص ١١ ـ ١٢ ؛ ابن ابيك ، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية ص ٤٠٩ .

(١) انظر ما سبق « الفصل الثاني » ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧٠ أ ؛ ابن الأثير ، الكامل، جـ ١٠ ص ١٣٥ ؛ الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٦، ابن واصل، مفرج الكروب جـ ١ ص ١٢ ـ ١٣ ؛ ابن ابيك ، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية ص ٤٠٩ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ١٣ ـ ١٤ .

أرسل ابن جهير الى السلطان ملكشاه يشرح له موقف ارتق بن اكسب الذي ما ان علم بشكوى ابن جهير ضده حتى قاد معظم التركمان وسار بهم الى سنجار[1]، خوفاً من السلطان ملكشاه . ولما سمع السلطان بنبأ هزيمة قبيلة عقيل ، وحصر مسلم بن قريش في آمد، جهز حملة اخرى بقيادة عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير للاستيلاء على الموصل عاصمة مسلم بن قريش وعين السلطان آقسنقر الحاجب قائداً للحملة . وعندما وصلت الى الموصل رفض أهلها التسليم الا للسلطان ملكشاه . فسار السلطان إلى الموصل وتسلمها سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م . وبعد تسلم السلطان ملكشاه الموصل ، وصلته اخبار قيام أخيه تكش بن ألب أرسلان بفتنة ضده في خراسان واستيلائه على بعض مدن خراسان ، بغية اعلان نفسه سلطاناً مكان أخيه منتهزاً فرصة غياب ملكشاه عن عاصمته . واضطر السلطان ملكشاه لقبول مشورة الوزير نظام الملك بالصفح عن مسلم بن قريش والاحسان اليه . فسارع ملكشاه بعقد صلح مع مسلم بن قريش ، وأرسل أبا بكر بن نظام الملك إلى الامير العقيلي، وأمنه وعاد به إلى السلطان . وقدم مسلم بن قريش إلى السلطان اموالاً اقترضها كما قدم اليه فرسه الخاص ، فخلع ملكشاه على مسلم بن قريش واعاده إلى امارته بعد ان جدد له التوقيع بالبلاد الشامية والجزرية ، وكل ما كان في يده . وعاد ملكشاه الى خراسان لمواجهة تمرد اخيه . وهكذا انقذت فتنة تكش امارة مسلم بن قريش من السقوط بيد السلطان ملكشاه سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م[2] .

---

(١) سنجار : مدينة مشهورة في نواحي الجزيرة . كان بينها وبين الموصل مسيرة ثلاثة أيام . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٧٠ أب ؛ ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار جـ١٦ ورقة ١٠٧ أ ؛ العيني ، عقد الجمان جـ١١ الورقة ٨٩ أ ؛ =

أرسل السلطان ملكشاه الى فخر الدولة بن جهير الكثير من الجند بقصد القضاء على الامارة المروانية التي تدهورت احوالها . فقد عهد اميرها منصور بن مروان بشؤون البلاد الى وزير نصراني يدعى ابا سالم الطبيب ، فاسند الوزير الى النصارى العديد من المناصب، ومنحهم الكثير من الامتيازات ، مما أدى الى انتشار السخط والتذمر بين صفوف المسلمين في ميافارقين وآمد[1] . وأمر ابن جهير بحصار مدينة آمد ، ودام حصارها فترة طويلة حتى عدمت فيها الأقوات . واخيراً فتح المسلمون ابواب المدينة ونادوا بشعار السلطان ملكشاه ، فدخل ابو القاسم بن جهير بقواته مدينة آمد وتسلمها في شهر صفر ٤٧٨هـ/ يونيه ١٠٨٥م[2] .

واصل فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير حصار ميافارقين عاصمة الدولة المروانية . ونتج عن هجمات الجيش السلجوقي على اسوار المدينة سقوط احد الابراج ، فنادى السكان داخل ميافارقين بشعار

= النويري ، نهاية الأرب جـ ٢١ ورقة ١٢٤ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٨٥ ـ ٨٦ ؛ ابن الأثير ، التاريخ الباهر ص ٥ ؛ الأصفهاني تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٦ ـ ٧٧ ؛ لا غرابة في مشورة نظام الملك للسلطان ملكشاه بالصفح عن مسلم بن قريش . فقد كان ذلك من قواعد السياسة التي وضعها الوزير السلجوقي في كتابه (سياسة نامة) فقد جاء عن واجبات السلطان قوله : « أنه إذا قاتل أعداءه وخصومه قاتلهم قتالاً يبقى فيه على الصلح والسلام . ويعقد لنفسه بين الصديق والعدو أواصر يمكنها أن تنقطع ، وإذا انقطعت أمكنها أن تتصل » انظر سياسة نامة ص ٣٠٤ .

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧٥ ب؛ العيني، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٨٩ ب ، ٩٠أ ؛ تاريخ الفارقي ص ٢١٢ ، ابن الأثير الكامل جـ ١٠ ص ١٤٤ . B ورقة ٧٥ب؛

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧٦ أ؛ العيني، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٨٩ ب ، ٩٠ أ؛ تاريخ الفارقي ص ٢١٢ ، ابن الأثير الكامل جـ ١٠ ص ١٤٤ .

السلطان ملكشاه . وتسلم ابن جهير ميافارقين ، واستولى على اموال وذخائر بني مروان وارسلها مع ابنه ابي القاسم الى السلطان السلجوقي بأصفهان ، وذلك في جمادى الثانية سنة ٤٧٨هـ/ اكتوبر ١٠٨٥م[1] . وسيّر ابن جهير فرقة من الجند استولت على جزيرة ابن عمر ، آخر معاقل الامارة المروانية في اقليم الجزيرة . وبذلك انقرضت دولة بني مروان ودخلت الجزيرة وديار بكر تحت الحكم السلجوقي المباشر[1] . ولم يحقق السلطان ملكشاه حلم فخر الدولة بن جهير في تأسيس حكم خاص باسرته في ديار بكر على انقاض الامارة المروانية اذ عزله بعد سنتين من فتحها[2] .

وكيفما كان الأمر ، فبعد نجاة مسلم بن قريش من امد وصلحه مع السلطان تأكد مسلم من تدهور العلاقة بين السلطان ملكشاه وبين القائد التركماني ارتق بن اكسب وسبب هذا التدهور هو سعاية بن جهير لدى السلطان ضد أرتق واتهامه باخراجه مسلم بن قريش من آمد سالماً، ونهبه بعض قرى في خراسان تابعة السلطان ملكشاه . وانتهز مسلم بن قريش الفرصة واتفق مع ارتق بن اكسب على المضي الى حلب، ومكاتبه الخلافة الفاطمية والتحالف معها ضد السلاجقة . وقررا العمل لادخال تاج الدولة تتش معهما في الحلف . وانفرد مسلم بن قريش بارسال عمه مقبل بن بدران الى مصر ، وقابل مقبل بدر الجمالي ، واخبره بانتماء ابن اخيه الى دولتهم ، واكد له ان مسلماً بن قريش سوف يأخذ لهم العراق والجزيرة وبلاد الشام . وطلب من بدر الجمالي ارسال جيشه الى الشام حتى يقابل

---

(١) العيني ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١٩٠أ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٤٤ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية جـ ١٢ ص ١٢٧ ؛ ابن الوردي ، تتمة المختصر جـ ١ ص ٥٧٦ .

(٢) تاريخ الفارقي ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

جيش مسلم بن قريش ليبدأ الجميع العمل ضد السلاجقة . ويبدو أن بدراً الجمالي آثر عدم التسرع في ارسال جيشه الى الشام قبل دراسة الموقف من جميع جوانبه . لذلك أرسل بدر الجمالي ابنه والوزير ابن المغربي وجماعة من اصحابه مع مقبل بن بدران الى الشام لمقابلة مسلم ابن قريش والتشاور معه في خطة العمل . ووصلوا إلى دمشق في اوائل سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م ومن دمشق سار مقبل ليخبر ابن اخيه مسلم بن قريش بوصولهم . بيد انه ما ان وصل الى حلب حتى بلغه نبأ مقتل ابن اخيه مسلم بن قريش امام سليمان بن قطلمش[1] . أما بدر الجمالي فسار على رأس جيشه في ربيع الأول ٤٧٨هـ/ يوليه ١٠٨٥م ، وحاصر دمشق دون جدوى . ويبدو أن مقتل مسلم بن قريش فت في عضده مما جعله يقرر العودة إلى القاهرة[2] .

أما بدر الجمالي فسار على رأس جيشه في ربيع الأول ٤٧٨هـ/ يولية ١٠٨٥م ، وحاصر دمشق دون جدوى . ويبدو أن مقتل مسلم بن قريش فت في عضده مما جعله يقرر العودة إلى القاهرة[2] .

ففي سنة ٤٧٧هـ/ يناير ١٠٨٥م استولى سليمان بن قطلمش على انطاكية مما أثار حفيظة مسلم بن قريش لأن بعض ضياع انطاكية كانت تابعة لحلب منذ زمن محمود بن نصر المرداسي وآلت بعد ذلك مع حلب إلى مسلم بن قريش . فلما استولى سليمان على إنطاكية ضم تلك الضياع إلى دولته كما أن حاكم انطاكية فيلاريتوس الارمني كان يؤدي

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٧٥ ب، ٧٦ أ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٨٤ ـ ٨٥ .

(٢) انظر ما سبق الفصل الثاني ص ١٥٨ .

الجزية لشرف الدولة مسلم بن قريش . ورغم ان سليمان بن قطلمش ابدى حسن نيته ازاء مسلم بن قريش وبعث إليه بهدية قيّمة من غنائم انطاكية فان ذلك لم يقنع مسلم بن قريش فسارع بمطالبة سليمان بن قطلمش بالمال المقرر على انطاكية . ورفض سليمان محتجاً بان ما كان يؤديه أهل انطاكية على سبيل الجزية المقررة على الكفار. واشتط مسلم في مطالبة سليمان بالمال وتوترت العلاقات بينهما[1] .

وفي الحقيقة لقد ارتكب مسلم خطأً جسيماً باعلانه النزاع مع سليمان بن قطلمش،في وقت كان يمكنه فيه مصالحته،وإعطاء فسحة من الوقت لافراد قبيلته لاستعادة قواهم،وبناء جيشه وانتظار نتيجة الصراع القادم بين ابن قطلمش وتتش . ولم يستجب ابن قريش لمشورة الناصحين بعدم قتال سليمان بن قطلمش فجمع جيشاً بلغ ستة آلاف مقاتل من كلاب،وأحداث حلب وعقيل والتركمان بقيادة جبق . وهكذا كانت عناصر جيشه غير متجانسة وتفتقر إلى الإخلاص فكلاب سبق ان انتزع منهم مسلم اقطاعاتهم وأجحف بهم فتخلوا عنه عندما حاصر دمشق . كما ان التركمان بقيادة جبق سبق ان قاتلوه اثناء تمرد حران وهزموا قواته قرب أمد قبل أشهر قليلة.بيد أن مسلماً قدم الأموال لجبق واتباعه ظاناً انه بذلك يدفعهم إلى الإخلاص في خدمته في الوقت الذي انقص فيه رواتب جنوده المخلصين إلى النصف. وقاد مسلم بن قريش هذه العناصر المختلفة لقتال سليمان بن قطلمش الذي كان يقود جيشاً بلغت عدته أربعة آلاف مقاتل . والتقى الفريقان في ٢٤ صفر ٤٧٨هـ/ ٢١ يونية على نهر عفرين بمكان يقال له قرزاحل . وكانت الشمس في وجوه عساكر شرف الدولة . ولم تستمر المعركة إلا فترة قصيرة حتى

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٨٨ ـ ٨٩ ، وانظر ما سبق ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

انهزمت كلاب وانضم التركمان بقيادة جبق إلى جيش سليمان بن قطلمش . ولم يصمد مع مسلم غير احداث حلب واربعمائة رجل من عقيل ، وانتهت المعركة بمقتل مسلم بن قريش[1] . وبمقتله ضاعت كل جهوده في سبيل إقامة دولة عربية في بلاد الشام والجزيرة ، كما انتهى النزاع بين العرب والغز للسيادة على بلاد الشام والجزيرة بانتصار الغز وانحسار الدور السياسي للعنصر العربي في بلاد الشام والجزيرة ليصبح النزاع بعد ذلك بين قادة الأتراك انفسهم .

أما عن أحوال العقيليين بعد مقتل مسلم بن قريش فقد سارت من سيء إلى أسوأ . فبعد مقتله سار بنو عقيل إلى الجزيرة واخرجوا اخاه إبراهيم من سجنه بقلعة سنجار وبايعوه بالإمارة عليهم فاقطعهم الاقطاعات وأحسن إليهم[2]، ولم يبق بيد إبراهيم سوى الموصل وما يتصل بها من أرض الجزيرة . اما املاك مسلم بن قريش في بلاد الشام ومناطق الجزيرة الأخرى فقد سقطت جميعها بيد السلطان ملكشاه . وتزوج إبراهيم أرملة أخيه صفية خاتون عمة السلطان ملكشاه . ومع ذلك فقد اعتقل ملكشاه إبراهيم في سنة ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م وولى على الموصل محمد بن مسلم بن قريش . وظل إبراهيم سجيناً في أصفهان حتى وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م ثم سارت صفية خاتون مع ولدها علي بن

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٧١ أ ـ ب ؛ ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار جـ١٦ ورقة ١٠٧ أ ؛ ابن العديم زبدة الحلب جـ٢ ص ٨٨ ـ ٩٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ١٠ ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ؛ ابن واصل مفرج الكروب جـ١ ص ١٥ ؛ ابو شامة ، الروضتين جـ١ قسم ١ ص ٦٠ ، .Zakkar, op. cit. pp. 213- 214 عفرين اسم نهر في نواحي المصيصة يخرج إلى اعمال حلب وقرزاحل من نواحي حلب : انظر ياقوت معجم البلدان .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٧٥ أ .

مسلم وانتزع الموصل من محمد بن مسلم بن قريش[1] . وأخيراً اطلقت تركان خاتون ارملة ملكشاه سراح ابراهيم بن قريش ، فسار إلى الموصل وتسلمها من زوجته صفية[2] . وقد لقي إبراهيم هزيمة مروعة في سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م امام تاج الدولة تتش نجم عنها مقتل إبراهيم وسحق البقية الباقية من قوة عقيل العربية . واستولى تتش على الموصل واقطعها لعلي بن مسلم بن قريش الذي ظل يحكمها لمدة ثلاث سنوات حتى فقدها سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م لحساب القائد التركي كربوقا[3] .

وهكذا انتهى دور قبيلة عقيل العربية ولم يعد لها من القوة ما يجعلها تسهم بدور فعال في احداث بلاد الشام والجزيرة وفقد العرب نفوذهم السياسي لحساب العنصر التركي ولعل هذا يفسر الموقف السلبي الذي وقفه العرب من الغزو الصليبي ثم من حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين .

إمارة بني منقذ في شيزر[4]

وإذا كانت إمارة مسلم بن قريش في بلاد الشام قد سقطت امام

---

(١) محمد بن مسلم من زوجة اخرى غير صفية شقيقة ألب أرسلان .

(٢) ابن القلانسي ص ١٢٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٣ ـ ٢٤ .

(٣) انظر ما سبق صفحات ٢٠٢ وانظر ما يلي ص ٣٠٦ .

(٤) تقع شيزر إلى الشمال من حماة على هضبة صخرية منتصبة على صفة نهر العاصي الغربية ، يكللها حصن لم يزل قائماً إلى اليوم معروفاً باسم (سيجر) تحريف (سيزر) الهضبة مرتفعة ويحيط بها النهر من جهاتها الثلاث بحيث اصبحت شبه جزيرة وقد اكمل الانسان حصانتها بحفر خندق يمر في الصخر الواصل بين شبه الجزيرة والبر . =

زحف السلاجقة مثلها في ذلك مثل الإمارة المرداسية في حلب فان امارة بني منقذ في شيزر نجت من السقوط أمام السلاجقة بسبب اعتصامها بقلعة شيزر وعدم دخولها في نزاع مع السلاجقة .

ويرجع بنو منقذ إلى قبيلة كنانة العربية القحطانية ، ولكن هذه القبيلة كانت قليلة العدد في بلاد الشام بحيث لا يمكن مقارنتها قط بالقبائل العربية الكبيرة في بلاد الشام والجزيرة مثل كلاب وعقيل وطيء وكلب . والشهرة التي نعم بها آل منقذ لا تعود الى قوة عصبيتهم بل الى ما تمتع به افراد هذه الاسرة من صفات الشجاعة والشهامة والى اهتمامهم بالعلم والادب ، واشتهارهم بقرض الشعر حتى غدوا من الشخصيات البارزة[1] . وأول ذكر لبني منقذ يرجع إلى سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م عندما ثار جنود الخلافة الفاطمية على انوشتكين الدزبري وخرج هارباً من دمشق وازمعت قبيلة كلاب على مهاجمته ونهب أمواله وذخائره ، فاستنجد انوشتكين بالمقلد بن نصر بن منقذ ، فقدم اليه في الفي رجل من عشيرته وغلمانه ودافع عنه حتى ادخله إلى حلب[2] .

وبني على الخندق جسر من الخشب للوصول إلى القلعة مما زاد في مناعتها وفي تعذر الوصول إليها وقت الحرب . وشيزر قسمان : قسم واقع ضمن القلعة وهو البلد وقسم قرب الجسر على العاصي وهو المدينة وللقلعة ثلاثة ابواب اهمها يفتح نحو حصن اطلق عليه اسم (حصن الجسر) انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ابو الفدا ، تقويم البلدان ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ ، ابن منقذ الاعتبار ، مقدمة المحقق ص ت جـ .

(١) مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٨٤ ، ٨٥ أ ؛ الداواداري ، درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ورقة ١٦٥ ب ـ ١٦٦ أ ؛ الذهبي تاريخ الإسلام جـ ١٢ ورقة ١٠٠ أ ؛ العماد الأصفهاني ، خريدة القصر جـ ١ ص ٤٩٧ ، ٥٥٢ ـ ٥٥٣ ، ياقوت معجم الأدباء جـ ٢ ص ١٨٧ ـ ١٩٦ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٧٠ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل جـ ٩ ص ٥٠١ ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات جـ ٩ ص ٤٢٦ .

وكان المقلد بن نصر يقيم وقتذاك بعشيرته بالقرب من قلعة شيزر ، عند جسر بني منقذ المنسوب إليهم ، ويتردد مع أقاربه من حين لآخر إلى حلب وحماة لتوطيد علاقته مع زعماء بلاد الشام[١] . ويبدو ان صالحاً بن مرداس منح بني منقذ اقطاعاً حول بلدة كفرطاب ، وتمكن المقلد بعد ذلك من بسط نفوذه على أجزاء من وادي العاصي[٢] . وبعد وفاة المقلد سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٩م خلفه ابنه سديد الملك علي بن المقلد واخذ سديد الملك يوطد نفوذه عن طريق إقامة علاقات الود والصداقة مع بعض حكام بلاد الشام . فقد كانت علاقة بني منقذ مع امراء بني مرداس جيدة ، إذ كان علي بن منقذ اخاً لمحمود بن نصر المرداسي من الرضاعة[٣] . وظل علي بن منقذ بحلب إلى سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م عندما استوحش من اخيه محمود المرداسي ، فسار إلى طرابلس حيث عاش في كنف ابن عمار[٤] . وفي طرابلس استقبل علي بن منقذ سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م الشاعر المشهور ابن حيوس الذي خرج من دمشق بسبب هجمات اتسز عليها وسوء سيرة واليها الفاطمي ابن منزو . وقدّم ابن منقذ الشاعر ابن حيوس الى صديقه جلال الملك بن عمار . على ان ابن عمار لم يأنس لابن حيوس بسبب ولاء الشاعر للخلافة الفاطمية ، الأمر الذي جعل ابن منقذ يشير على ابن حيوس بالرحيل الى حلب . وأرسل في صحبته ابنه نصر بن علي حتى اوصله إلى محمود المرداسي الذي سمع قصائده وخلع عليه[٥] . وبعد وفاة محمود المرداسي سنة ٤٦٧هـ/

---

(١) ابن خلكان جـ ٥ ص ٢٧٠ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل جـ ٩ ص ٥٠١ ؛ الاعتبار مقدمة المحقق ص ح ، خ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٣٤ .

(٤) المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٤ ـ ٣٦ .

(٥) ديوان ابن حيوس جـ ١ ص ١٤ ـ ١٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٤٠ ـ ٤١ .

١٠٧٥م عاد ابن منقذ إلى حلب . وقد سبق الحديث عن الدور الذي لعبه ابن منقذ في حوادث حلب أواخر زمن المرداسيين[١] .

وفي سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م غادر علي بن المقلد بن منقذ حلب وقام ببناء حصن على تل الجسر غربي شيزر قاصداً بذلك التربص بشيزر لانتزاعها من أيدي البيزنطيين . وبعد ان اكتمل بناء حصن الجسر قام علي بن المقلد بنقل أهله وعشيرته إليه وبدأ التخطيط للاستيلاء على شيزر[٢] .

وعندما استقر علي بن منقذ في حصن الجسر، أدرك انه من المستحيل الاستيلاء على قلعة شيزر من اسقفها البيزنطي دمتري إلا بالحيلة والسياسة، وذلك لشدة حصانتها وطبيعتها الجغرافية . فقام ابن منقذ بالإستيلاء على حصن يعرف بالخراص يقع بين شيزر وحصن الجسر . وبعد الاستيلاء على حصن الخراص قام سديد الملك بالإحسان إلى أهله من البيزنطيين ، ولم يكلفهم ما لا يطيقون وأخذ يتقرب إليهم ليحقق بذلك اهدافه لدى أهل شيزر . ونقل سبط ابن الجوزي عن المؤرخ المعاصر غرس النعمة محمد بن هلال الصابي نص رسالة قرأها غرس النعمة بخط علي بن منقذ عن طريقة استيلائه على شيزر ، جاء فيها عن معاملته لأهل حصن الخراص من البيزنطيين قوله : « وخلطت خنازيرهم بغنمي ، ونواقيسهم بأصوات المؤذنين عندي وصرنا مثل الأهل مختلطين »[٣] .

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٢٩ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٥٦ ب ؛ ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ٣١ .

(٣) سبط ابن الجوزي مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٥٧ أ ؛ انظر ايضاً ابن الوردي تتمة المختصر جـ٢ ص ٨٩ ـ ٩٠ .

ولما رأى أهل شيزر من البيزنطيين احسان علي بن منقذ إلى أهل الخراص اطمأنوا لجواره ووفدوا عليه فأجري لهم الرواتب والعطايا واختلطوا بأهله وعشيرته . وساعدهم ضد كل من أراد حصنهم بسوء . وهاجمهم مسلم بن قريش بعد استيلائه على حلب وقتل منهم عشرين رجلاً ، فقام علي بن منقذ باعطاء أهل شيزر عشرين رجلاً عوضهم . ثم جرى بين أهل شيزر وبين حاكمهم دمتري خلاف ادى إلى نفورهم منه . وتقدم أهل شيزر إلى سديد الملك علي بن منقذ بتسليم شيزر اليه دون علم أسقفهم . فتظاهر ابن منقذ بالرفض في بادىء الأمر . واخيراً استرضى الأسقف دمتري واتفق معه على تسليم شيزر ، مقابل مال يدفعه ابن منقذ للاسقف وعدم المساس بأملاكه داخل شيزر، ودفْع راتب ستة اشهر للحامية البيزنطية داخل القلعة . وتم الصلح وتسلم علي بن منقذ شيزر في شهر رجب سنة ٤٧٤هـ/ ديسمبر ١٠٨١م ونقل إليها سبعمائة رجل من عشيرته . وقد أثمرت سياسة التسامح التي اتبعها علي بن منقذ مع أهل شيزر في قيام أهل عين تاب وبرزية وبقية الحصون الخاضعة للبيزنطيين على نهر وادي العاصي بتسليمها إلى ابن منقذ، والدخول في طاعته ، وبعد ان بسط ابن منقذ نفوذه على شيزر وما يحيط بها سمح لحاميتها البيزنطية بالرحيل عنها . وقام بترميم قلعة شيزر ونقل إليها كثير من المؤ ن والغلال بما يكفيه ومن معه مدة طويلة(١) .

ولوقوع شيزر على نهر العاصي كانت تشرف على الوادي مما جعل

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ b ورقة ٥٦ ب ، ٥٧ أ ب ؛ ابن ايبك الداواداري درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ١٦٥ ب ، ١٦٦ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٧٧ ؛ ابو الفدا ، المختصر جـ ٣ ص ٣١ ـ ٣٢ ؛ ابن الوردي ، تتمة المختصر جـ ٢ ص ٨٩ ـ ٩٠ ؛ Gibb, op. cit., pp. 19-20. عين تاب قلعة حصينة بين حلب وانطاكية ياقوت ، معجم البلدان .

لموقعها اهمية عسكرية بالغة حيث يمكن لأي جيش كبير ان ينطلق منها للسيطرة على الساحل الشامي وعلى الأجزاء الداخلية من بلاد الشام . لذلك أصبحت شيزر محط انظار كل من اراد بسط نفوذه على بلاد الشام . وعلى سبيل المثال ما كاد علي بن منقذ يستولي على شيزر حتى حاصره مسلم بن قريش الذي كان يعمل جاهداً للاستيلاء على بلاد الشام ، ويبدو ان حصانة شيزر، فضلاً عن صمود ابن منقذ أمام الحصار، وتهديده بتسليم شيزر مرة اخرى للبيزنطيين ، هو الذي جعل مسلماً يقبل الصلح ويسحب قواته من أمام شيزر[1] .

أدرك سديد الملك علي بن منقذ أنه ليس بمقدوره ان يلعب دوراً هاماً في تاريخ بلاد الشام التي كانت تشهد في هذا الوقت الزحف السلجوقي ، ومحاولة مسلم بن قريش توحيد القبائل العربية لوقف هذا الزحف . ويرجع ذلك إلى الموارد المحدودة لإمارة شيزر إضافة إلى أنه لم يكن لدى ابن منقذ من العصبية القبلية ما يستطيع بها فرض زعامته على القبائل الأخرى ، وبالتالي الإسهام في حوادث بلاد الشام ، فقبيلته كانت عبارة عن عشيرة قليلة العدد لن تقبل القبائل الشامية الكبرى مثل كلاب وعقيل وكلب وطيء زعامتها . ولذلك فان علي بن منقذ آثر عدم التدخل في شؤون بلاد الشام إلا بالقدر الذي يحافظ على إمارته من السقوط أمام تنازع القوى المختلفة . وخوفاً من عودة مسلم بن قريش لمهاجمة شيزر ، فان علي بن منقذ انضم سنة ٤٧٥هـ/ ١٠٨٣م مع زعماء الشام الآخرين في تحالفهم مع تاج الدولة تتش لوقف اطماع مسلم ابن قريش في بلاد الشام[2] .

---

(١) مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٥٧ أ ، وانظر ما سبق ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

(٢) انظر ما سبق ، الفصل الثالث ص ٢٤٦ .

ويبدو ان تتش شعر بان إمارة شيزر تمثل عقبة أمام جهوده في سبيل ضم شمال الشام إلى املاكه . فلما اغار تتش على حلب سنة ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م ارسل علي بن منقذ ابنه نصر إلى تاج الدولة تتش لتقديم فروض الطاعة والـولاء . ولما وصل نصر إلى تتش ، قبض عليه واعتقله دون سبب معروف ، ومن المرجح ان تتش كان يهدف من ذلك إلى مساومة والده على تسليم شيزر او بعض الحصون الأخرى مقابل إطلاق سراح ابنه . ولكن نصراً تمكن من الخروج من سجنه ، وهرب عن طريق غلام له[1] . وتحسنت العلاقات بين بني منقذ وبين تتش وبخاصة بعد ان تزوج سلطان بن علي بن منقذ من خاتون ابنة تتش ، وبالتالي سادت علاقات الود والصداقة بين الجانبين[2] .

وقد تعرضت إمارة شيزر للتهديد سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م من قبل سليمان بن قطلمش ، الذي قتل مسلم بن قريش قرب حلب ، وأخذ يسعى جاهداً لتوسيع املاكه في بلاد الشام . فاستولى ابن قطلمش على معرة النعمان . وكفر طاب التابعة لابن منقذ فسارع سديد الملك علي بن منقذ بإيفاد ابنه مرشد ، والد اسامة صاحب كتاب الاعتبار ، وغيره ، إلى بلاط السلطان ملكشاه مستنجداً به ضد سليمان بن قطلمش . وبادر ابن قطلمش بالهجوم على شيزر فاضطر علي بن منقذ لدفع مبلغ من المال له مقابل وقف هجومه على شيزر[3] .

ولم يلبث علي بن المقلد بن نصر بن منقذ ان توفي في السادس

---

(١) ابن منقذ ، الاعتبار ص ٥٣ ـ ٥٥ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٨ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٩٥ ؛ ابن منقذ ، الاعتبار ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

من شهر محرم سنة ٤٧٩هـ/ ٢٣ ابريل ١٠٨٦م وخلفه في حكم إمارة شيزر ابنه أبو المرهف نصر بن علي[١] . واستغل نصر بن علي بن منقذ النزاع الذي نشب بين سليمان بن قطلمش وبين تاج الدولة تتش والذي انتهى بمقتل سليمان ، واستعاد نصر ما فقده ابوه من الحصون والقرى مثل كفرطاب وأفامية . وعندما قدم السلطان ملكشاه إلى حلب سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م راسله الامير نصر بن علي بن منقذ واعلن دخوله في طاعته وسلمه اللاذقية وكفرطاب وأفامية ، فرضي عنه السلطان وأقره على إمارة شيزر[٢] .

وبعد رحيل السلطان ملكشاه من بلاد الشام سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٧م لم يشأ نصر بن علي الاشتراك في منازعات نواب السلطان ملكشاه ببلاد الشام متبعاً في ذلك سياسة والده ولا سيما انه لا يملك من الموارد البشرية والمادية ما يجعله قادراً على التأثير في سير الحوادث . على ان موقفه الحيادي هذا لم يمنع عنه الخطر ففي سنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م وقع خلاف بين نصر بن منقذ وبين أهل قرية لطمين ، فانتهز قسيم الدولة آقسنقر هذه الفرصة وحاصر شيزر ونهب ربضها وقتل من أصحاب نصر بن منقذ مائة وثلاثين رجلاً . ويبدو أن آقسنقر أدرك ان تاج الدولة تتش لن يسمح له بالإستيلاء على شيزر ، فدفعه ذلك إلى قبول عرض ابن منقذ بمصالحته وتوقيع الهدنة مقابل انسحابه عن شيزر[٣] . واخذ نصر بن

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٨٤ ب ، ٨٥ أ ؛ ابو الفدا ، المختصر جـ٣ ص ٣١ ـ ٣٢ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٨١ ب ، ٨٢ أ ؛ ابن العديم بغية الطلب جـ٧ ورقة ١٩٨ أ ـ ب ؛ العيني ، عقد الجمان ورقة ٩٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ١٠ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ؛ الذهبي ، تاريخ الإسلام جـ٩ ورقة ٩ ب ـ ١٠ أ .

(٣) ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار جـ١٦ ورقة ١٠٩ أ ؛ العيني ، عقد لجمان =

علي بن منقذ يوطد علاقته مع قسيم الدولة آقسنقر فقام الاخير بإظهار حسن نيته ازاء إمارة شيزر فتنازل في سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م عن أفامية وسلمها للامير نصر بن علي بن منقذ[١] واستطاع نصر بن علي بن منقذ خلال حكمه ان يضم إلى إمارته بعض القرى والحصون والقلاع مثل لطمين قرب حمص وحصن اسفونا القريب من معرة النعمان ، وحصن ابي قبيس في قبالة شيزر ، وحصن مصياف قرب ساحل الشام[٢] .

وفي أعقاب موت السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م واندلاع النزاع على نطاق واسع بين القادة السلاجقة في بلاد الشام ، آثر امراء بني منقذ عدم الزج بانفسهم في ذلك النزاع . ومما يدل على ذلك ان المصادر المعاصرة لم تذكر شيئاً عن دور بني منقذ في هذا النزاع . ولعل هذا الموقف الذي اتخذه امراء شيزر هو الذي حمي الامارة من السقوط اثناء تنازع القادة السلاجقة وحكم نصر بن علي بن منقذ شيزر حتى وفاته سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م فآلت الامارة إلى أخيه مجد الدين أبي سلامة مرشد بن علي والد أسامة . على أن شغف مجد الدين مرشد بنسخ القرآن الكريم جعله يتنازل عن الإمارة لاخيه الأصغر عز الدين أبي

= جـ ١١ ص ٩٧ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٥ ؛ ابن القلانسي ص ١١٩ - ١٢٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٦٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ١٩ ؛ ابو الفدا ، المختصر جـ ٢ ص ١٩٩ ؛ الداواداري ، الدرة المضيئة في اخبار الدولة الفاطمية ص ٤٣١ .

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٦ ؛ احمد رمضان ، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ص ٤٤ - ٤٥ .

(٢) احمد رمضان ، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام ص ٤٦ ، ابو قبيس ، حصن مقابل شيزر ومصياف او مصياب كان حصناً حصيناً مشهوراً للإسماعيلية بالساحل الشامي قرب طرابلس ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

العساكر سلطان ، الذي نعمت الامارة في عهده برخاء اقتصادي كبير[1] .

أخذت امارة بني منقذ في شيزر بالكثير من اسباب التمدن، على ان امراء بني منقذ لم يتخلوا مطلقاً عن مظاهر حياتهم القديمة ، إذ مارسوا حياة جمعت بين القديم والجديد فاتصف امراؤهم وفرسانهم بالشجاعة والشهامة ، وظهر بين صفوفهم فحول الشعراء والنحويين واللغويين ، وانتشر بعضهم حول شيزر يتصيدون ويزرعون ويرعون . وهكذا جاء تاريخ بني منقذ في شيزر مزيجاً من الحروب والفروسية من ناحية، وحياة الزراعة والرعي والصيد من ناحية اخرى ، وسكن امراؤهم القصور وعقدوا مجالس العلم والأدب وعنوا بقرض الشعر ونسخ القرآن الكريم وجمع الكتب[2] . وعندما وصل الصليبيون إلى انطاكية لم تسهم إمارة شيزر بأي جهد لمساعدة انطاكية او الدفاع عن بلاد الشام أمام الصليبيين .

امارة بني عمار في طرابلس من
سنة ٤٦٢هـ حتى سنة ٤٩١هـ

ومن الإمارات العربية في بلاد الشام قبل الغزو الصليبي إمارة بني عمار في طرابلس وهي الإمارة الثانية التي ظلت قائمة في بلاد الشام حتى

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ١٢٥أ ؛ الذهبي ، تاريخ الإسلام جـ١٢ ورقة ١٠٠أ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١١ ص ٢١٩ ، احمد رمضان المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ص ٤٦ .

(٢) سعيد عاشور ، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٤٤ ـ ٤٥ .

الغزو الصليبي لتواجه بمفردها جحافل الصليبيين وهجماتهم العنيفة على طرابلس الى ان سقطت بايديهم سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٩م .

أسس هذه الإمارة القاضي أمين الدولة أبو طالب عبد الله بن محمد ابن عمار الطائي الذي كان فيما يبدو يتولى قضاء طرابلس في منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي[1] . وفي سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م تغلب على طرابلس احداثها بزعامة ابناء احدى الاسر في طرابلس ، ويدعون بني أبي الفتح ، الامر الذي دفع والي دمشق الفاطمي معلى بن حيدرة بن منزو ، في السنة التالية (٤٥٧ هـ/ ١٠٦٤م) إلى المسير مع قائد حامية الرملة لاخضاع طرابلس وإعادتها للحكم الفاطمي . وقبل وصول ابن منزو الى طرابلس ، انضم اليه أبو طالب بن عمار قاضي طرابلس الذي قام بدور هام لإعادة المدينة للحكم الفاطمي . واستطاع ابن عمار اقناع احد اخوة بني أبي الفتح بترك اخوته والخروج إلى ابن منزو . كما استمال ابن عمار « جماعة من احداث البلد . . فاستأمن منهم ثمانية وعشرون نقيباً ، فضعف امر بني أبي الفتح واختلف أهل البلد ففتحوا الأبواب ونادوا بشعار المستنصر » . وعندما

---

(١) لا توجد صلة بين بني عمار حكام طرابلس وبين بني عمار المغاربة الذين قدموا مع المعز الفاطمي من المغرب وتولى احدهم وزارة الحاكم الفاطمي ، واورد المقريزي في الخطط جـ ٢ ص ٣٦ نسب وزير الحاكم وهو الحسن بن عمار بن علي بن ابي الحسن الكلبي زعيم قبيلة كتامة . اما نسب ابن عمار قاضي طرابلس فهو ابو طالب عبد الله بن محمد بن عمار بن الحسين بن ادريس ابن ابي يوسف الطائي . انظر ديوان ابن حيوس جـ ١ ص ١٣٢ ـ ١٣٣ ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٠٧ ، وقد اختلط الأمر على محقق الجزء الثالث من كتاب اتعاظ الحنفا فأرجع اصل بني عمار اصحاب طرابلس إلى الحسن بن عمار وزير الحاكم الذي قتل سنة ٣٩٠ . انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٨ حاشية رقم (٠٣) .

دخل ابن منزو وابن عمار الى طرابلس قبضا على بني أبي الفتح وجميع انصارهم ، وقتلوا بعضهم ، وطردوا الآخرين وأعادوا الحكم للخليفة الفاطمي[(١)] .

انتهز أبو طالب بن عمار اضطراب أحوال بلاد الشام خلال الشدة المستنصرية وانحسار النفوذ الفاطمي عن بلاد الشام وانهيار نفوذ الاحداث داخل طرابلس بعد القضاء على زعمائهم من أسرة بني أبي الفتح فتغلب على طرابلس سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م[(٢)] . غير انه لم يرفض السيادة الروحية للخلافة الفاطمية . إذ كان ابن عمار نفسه يدين بالمذهب الشيعي إضافة إلى الغالبية الشيعية من سكان طرابلس . ولذلك ظلت الخطبة الفاطمية قائمة[(٣)] . كما أن السكة في طرابلس ظلت في عهد أبي طالب باسم الخليفة الفاطمي المستنصر ويدل على ذلك الدينار الذي ضرب في طرابلس سنة ٤٦٣هـ[(٤)] .

عمل القاضي أبو طالب ابن عمار على توطيد نفوذه داخل طرابلس ، وبعد أن تم له ذلك استولى على مدينة جبيل الواقعة جنوب طرابلس وشمال شرق بيروت وبسط نفوذه على الشريط الساحلي الممتد فيما بين طرابلس وبيروت[(٥)] .

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٢٣ أ ـ ب .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٤٦ أ ؛ عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ص ٦٤ ؛ Gibb, op. cit. p. 19.

(٣) مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٣٠ أ ـ ب ؛ ناصر خسرو ، سفرنامة ص ٤٨ ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة جـ٣ ص ١٠٧ ؛ فيليب حتي ، لبنان في التاريخ ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ .
Gibb, p. cit., p.19.

(٤) Lavoix, Catalogue des Mannaies, Musulmanes, Vol. III.P. 130.

(٥) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، جـ ٣ ص ٩٦ ـ ٩٧ .

اشتهرت طرابلس بالازدهار الاقتصادي فقد زارها ناصر خسرو سنة ٤٣٨هـ وذكر بانها مدينة غنية بمزروعاتها وفاكهتها وبها مصانع الورق الجيد الجميل ، وتحصل بها المكوس على السفن القادمة من أراضي الدولة البيزنطية وأوروبا والاندلس والمغرب[١] . وقد استغل ابن عمار ما تمتعت به طرابلس من ازدهار اقتصادي فاهتم بالناحية العلمية وقرب العلماء وأنشأ مدرسة سماها دار العلم وألحق بها مكتبة قيل انها ضمت مائة ألف مجلد ، بحيث غدت دار العلم مركزاً هاماً لنشر العلم والثقافة[٢] .

توفي ابو طالب بن عمار سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م وخلفه في إمارة طرابلس ابن أخيه جلال الملك علي بن عمار بن محمد بن عمار ، غير ان اخوة أبي طالب نازعوا جلال الملك عرش الإمارة فقام سديد الملك علي بن منقذ الذي كان مقيماً بطرابلس بمساعدة جلال الملك وعضده بمماليكه وعشيرته حتى انفرد بالإمارة . وتمكن جلال الملك من ضبط الأمور بطرابلس وكافأ صديقه ابن منقذ بان منحه الكثير من النفوذ والمكانة داخل طرابلس[٣] . وكان جلال الملك أكثر افراد اسرته دهاء ، وتميزت فترة حكمه التي دامت قرابة الثلاثين عاماً بالحنكة والاقتدار ،

---

(١) ناصر خسرو ، سفرنامة ص ٤٧ ـ ٤٨ ، انظر ايضاً ، سعيد عاشور ، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية في بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٣٠ .

(٢) الأعلاق الخطيرة جـ ٣ ص ١٠٧ ؛ محمد كرد علي ، خطط الشام جـ ٦ ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ؛ فيليب حتي ، لبنان في التاريخ ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ ، سيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ص ٦٤ ـ ٦٦ ؛ احمد رمضان ، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام ص ٤٠ ـ ٤١ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٣٤ ـ ٣٦ ؛ ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة جـ ٣ ص ١٠٨ ، ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٧١ .

وخاصة في سياسة المهادنة التي اتبعها حيال القوى المختلفة في بلاد الشام[1] .

عمل جلال الملك علي بن عمار على درء الأخطار التي تعرضت لها إمارته في عهده . فعندما بسط اتسز نفوذه على جنوب الشام ضايق طرابلس سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م ، الأمر الذي جعل ابن عمار يفضل مهادنة التركمان وعدم الدخول معهم في نزاع قد يهدد امارته بالخطر . فقد عقد هدنة مع اتسز وقدم له بعض المال وسمح لاتباعه التركمان بالمتاجرة مع طرابلس[2] . ويبدو أن مهادنة جلال الملك ابن عمار للتركمان أثارت حفيظة الوزير الفاطمي بدر الجمالي ، فدبر في سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م مؤامرة مع بعض أعيان طرابلس للإطاحة بجلال الملك والقبض عليه ، وإعادة المدينة للحكم الفاطمي المباشر . واكتشف جلال الملك المؤامرة فقبض على المتآمرين وصادر اموالهم وقتل بعضهم ، ونفى الآخرين[3] . وعلى الرغم من سوء العلاقات بين جلال الملك بن عمار وبين الخلافة الفاطمية فان جلال الملك ظل معترفاً بالسيادة الروحية للفاطميين ويدل على ذلك الدنانير التي ضربت في طرابلس في سنوات ٤٦٥هـ ، ٤٧١هـ ، ٤٧٥هـ ، وعليها اسم الخليفة المستنصر وشعار الدولة الفاطمية[4] .

عمل جلال الملك علي بن عمار جاهداً لتوسيع دائرة نفوذه وبخاصة على المناطق الواقعة شمال طرابلس ولا سيما قلعة جبلة .

---

(١) احمد رمضان ، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ص ٤٠ ـ ٤١ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٣٢ أ .

(٣) نفس المصدر والجزء والورقة .

(٤) Lavoix, op. cit. Vol. III. p. 132- 133.

وكانت قلعة جبلة خاضعة للبيزنطيين منذ سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٧م ، وفي سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م كان يلي قضاء جبلة القاضي منصور بن الحسين التنوخي ، المعروف بابن صليحة ، فاتصل بجلال الملك علي بن عمار طالباً مساعدته على تحرير جبلة من أيدي البيزنطيين . فجهز علي بن عمار فرقة من التركمان عددها ثلاثمائة رجل في صحبة بعض البحارة . ودبر امر دخول جبلة مع ابن صليحة حتى تم ذلك واصبح ابن صليحة والياً على جبلة من قبل ابن عمار . وامتد بذلك نفوذ ابن عمار من جنوب اللاذقية شمالاً إلى مشارف بيروت جنوباً . ولم تستمر جبلة طويلاً خاضعة لجلال الملك بن عمار اذ توفي منصور بن صليحة وخلفه ابنه ابو محمد عبيد الله بن منصور الذي احب الجندية وكون جيشاً خاصاً به . وحاول ابن عمار القبض على عبيد الله بن صليحة فاستعصى عليه واستقل بجبلة واقام الخطبة للخليفة العباسي المقتدي وللسلطان ملكشاه . ولم تنجح محاولات ابن عمار في سبيل استعادة جبلة ، رغم استعانته بدقاق بن تتش الذي حاصر جبلة دون جدوى . وظل ابن صليحة يحكم جبلة إلى ان تنازل عنها سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠١م لصالح طغتكين اتابك دقاق ، بعد ان تكررت محاولات الصليبيين للاستيلاء عليها . وبعد أن آلت جبلة إلى طغتكين تمكن فخر الملك بن عمار من استعادتها سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠١م[(١)] . وظلت جبلة تابعة لبني عمار حتى سقوطها بيد الصليبيين سنة ٤٩٩هـ/ ١١٠٧م[(٢)] . وكان لسقوط جبلة خطورة بالغة على

---

(١) سبط ابن الجوزي مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٥٤ أ ـ ب ؛ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٣١٠ ـ ٣١٢ ؛ تاريخ ابي الفدا جـ ٢ ص ٢١٣ ـ ٢١٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١١١ ؛ جبلة قلعة مشهورة بساحل الشام ، كانت من اعمال حلب جنوب اللاذقية ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٤١١ ؛ تاريخ ابي الفدا ، جـ ٢ ص ٢٢٠ .

طرابلس ، نظراً لأنها كانت بمثابة القاعدة الأمامية للدفاع عن طرابلس امام الصليبيين . ولما سقطت ركز الصليبيون هجماتهم على طرابلس حتى استولوا عليها .

وكيفما كان الأمر ، فقد عمل جلال الملك على تحسين علاقته مع تاج الدولة تتش خشية أن يحاول تتش الاستيلاء على طرابلس . وقد اثمرت تلك العلاقة الطيبة عن تنازل تتش لجلال الملك بن عمار من طرطوس سنة ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م مقابل مبلغ من المال[١] . وفي السنة نفسها (٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م) قرر تتش مصاهرة الوزير الفاطمي بدر الجمالي على ابنته . فتدخل ابن عمار لدى تتش واقنعه بخطورة هذا الإجراء على علاقاته مع أخيه السلطان ملكشاه « فثنى عزمه عن ذلك »[٢] . ويدل هذا على ما تمتع به ابن عمار من دهاء وحنكة ، اذ لو قدر لهذا الزواج النجاح لنجم عنه تحالف تتش مع بدر الجمالي مع ما يحمله ذلك من خطر محقق على إمارة طرابلس .

وفي سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م واجه جلال الملك خطر الزحف السلجوقي على طرابلس بقيادة تتش . واستغل ابن عمار ما بين تتش واقسنقر من تنافس ، فاستمال اقسنقر بالأموال فتخلى عن تتش مما جعل الأخير يقرر العودة إلى دمشق تاركاً طرابلس على حالها[٣] . ولم يحاول تتش بعد ذلك مهاجمة طرابلس حيث توفي ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م ودخل تتش في منازعات الوراثة في البيت السلجوقي التي راح

---

(١) انظر ما سبق الفصل الثاني ص ١٧١ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٦٥ ب ؛ ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة جـ٥ ص ١١٦ .

(٣) انظر ما سبق ، الفصل الثاني ص ١٩٧ ـ ١٩٨ .

ضحيتها . وترتب على موت تتش انقسام بلاد الشام بين ولديه رضوان ودقاق وغيرهما من قادة السلاجقة . ولم يعد في بلاد الشام قوة لها القدرة على تهديد امارة بني عمار في طرابلس . وما لبث ان توفي جلال الملك ابن عمار سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م وخلفه أخوه فخر الملك الذي وقع على عاتقه مهمة الدفاع عن طرابلس أمام الصليبيين[١] .

وتجدر الإشارة هنا ، إلى أن تدهور علاقة إمارة طرابلس بالفاطميين وانهيار قوة السلاجقة في بلاد الشام جعل طرابلس تقف بمفردها أمام الصليبيين بحيث لم تستطع المقاومة طويلاً حتى سقطت سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٩م .

امارة ابن أبي عقيل في صور
٤٥٥ ـ ٤٨٢هـ/ ١٠٦٣ ـ ١٠٨٩م

ومن الإمارات العربية في بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ، امارة ابن أبي عقيل في صور ، وإمارة خلف بن ملاعب في حمص وافامية . أما إمارة ابن أبي عقيل في صور فكانت اقصر عمراً واقل اثراً في تاريخ بلاد الشام. أسسها القاضي عين الدولة علي بن عبد الله بن علي بن عياض ابن أحمد بن ابي عقيل . وينتمي ابن أبي عقيل إلى اسرة يبدو انها توارثت قضاء صور زمناً طويلاً . وكان علي بن عياض جد مؤسسي الإمارة يلي قضاء صور . فقد ذكره الرحالة الفارسي الشهير ناصر خسرو ، اثناء

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة جـ٣ ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ؛ ابن الفوطي ، مجمع الآداب في معجم الألقاب جـ ٤ القسم الثالث ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ ، سيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ص ٧٤ ـ ٧٦ .

زياراته لصور وهو في طريقه إلى مصر سنة ٤٣٨هـ/ ١٠٤٧م . فبعد ان ذكر ناصر خسرو موقع صور وحصانتها ونافوراتها ، واسواقها وثراءها، اضاف بأن معظم سكانها شيعة وان القاضي هناك رجل اسمه ابن ابي عقيل ، وهو رجل طيب ثري »[١] .

وسبق الحديث عن النزاع بين ثمال بن صالح المرداسي وبين الخلافة الفاطمية[٢] . وقد قام القاضي علي بن عياض في تسوية النزاع بين الجانبين . ونجم عن جهود علي بن عياض اطلاق ثمال سراح الأسرى الفاطميين ، ودخوله في طاعتهم من جديد . وكان لدور علي بن عياض بن أبي عقيل اثره الطيب لدى الخلافة الفاطمية فاضفت عليه لقب « عين الدولة »[٣] .

وفي سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م زار المؤيد في الدين داعي الدعاة الفاطمي ميناء صور واستشار ابن ابي عقيل في اصطحاب افراد من قبيلة كلب إلى شمال الشام لحراسة الأموال المرسلة معه لدعم حركة البساسيري ضد السلاجقة . فأشار القاضي ابن ابي عقيل على المؤيد بخطورة اصطحاب كلب خوفاً من إثارة روح العصبية القبلية بين قبيلتي كلب وكلاب ، واندلاع الحرب بينهما ، وبالتالي انشغال المؤيد عن مهمته التي ذهب لتحقيقها . وقد اقتنع المؤيد بمشورة ابن ابي عقيل فلم يصطحب أحداً من قبيلة كلب[٤] . كما ساهم القاضي علي بن عياض بن أبي عقيل في اقناع ثمال بالتنازل عن حلب للفاطميين . وكان ابن ابي

---

(١) ناصر خسرو ، سفرنامة ، ص ٥٠ .

(٢) انظر ما سبق ص ٧٣ - ٧٩ .

(٣) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ٢١٣ .

(٤) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ص ١٠٠ - ١٠١ .

عقيل على رأس الوفد الذي تسلم حلب من ثمال ابن صالح المرداسي سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م(١) .

أخذ النفوذ الفاطمي في بلاد الشام يتدهور منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي ، وانتهز القاضي عين الدولة علي بن عبد الله بن علي بن عياض الفرصة وتغلب على صور « وعصى فيها واستبد بها وخلع طاعة المستنصر وذلك في سنة خمس وخمسين واربعمائة »(٢) . وفي سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م حاول بدر الجمالي استعادة صور من ابن ابي عقيل فحاصر صور بضعة ايام ثم تركها خوفاً من القائد الفاطمي حيدرة بن منزو ، الذي خرج عن طاعة الفاطميين وقاد عسكره مع بعض الدمشقيين وقرر مهاجمة بدر الجمالي اثناء حصاره لميناء صور ، فانسحب بدر عائداً إلى عكا(٣) .

شعر ابن ابي عقيل انه سيتعرض للخطر من قبل الاسطول الفاطمي ولما كان لا يملك جيشاً قوياً يستطيع به الدفاع عن صور لجأ إلى استخدام التركمان الذين وفدوا على بلاد الشام(٤) . واستقبل الزعيم التركماني ابن خان الذي سبق وخدم لدى الإمارة المرداسية ، واقام ابن خان في كنف ابن أبي عقيل ، فوصله واكرمه ومنح اتباعه الاعطيات . وعاد بدر الجمالي في سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م وحاصر صور ونجح في استمالة ابن خان ، الذي خرج من صور وانضم إلى بدر الجمالي .

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ .
(٢) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، جـ٣ ص ٢٦٥ .
(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ١٢ ورقة ٢٤٤ أ ـ ب .
(٤) المقريزي ، المقفى ، ورقة ٢٤٢ ب .

عندئذ اتصل ابن أبي عقيل ببعض أتباع ابن خان ، وحرضهم على قتله ، واغراهم بالمال « فوثب عليه منهم اثنان وقتلاه ، وحملا رأسه إلى ابن ابي عقيل ، فطيف به في صور » . وترتب على مقتل ابن خان فرار اتباعه من صور ، وانضمامهم إلى بدر الجمالي « فقوي بهم »(١) . ولما اشتد حصار بدر لصور استنجد ابن ابي عقيل بالأمير قرلو زعيم التركمان الناوكية في جنوب الشام ، فسار الأمير التركماني على رأس قواته لفك حصار صور . ولما كان بدر الجمالي يحتفظ بأهله وأمواله وذخائره في صيدا ، فإن قرلو ضرب الحصار عليها ، مما أجبر بدراً على التخلي عن حصار صور ، بعد أن استمال اليه الكثير من سكانها وعساكرها . وحينما انسحب بدر عن صور عاد قرلو باتباعه إلى فلسطين للعمل لحسابهم الخاص ، الأمر الذي أتاح الفرصة من جديد لبدر الجمالي لمعاودة حصار صور . وحاصرها بدر الجمالي براً وبحراً لمدة سنة ، حتى ارتفعت بها الأسعار ، وبلغ ثمن رطل الخبز نصف دينار ، ومع ذلك ظلت صور صامدة واخيراً قرر بدر انهاء حصار صور سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م بسبب ازدياد خطر التركمان في جنوب الشام ، ووقوع الفتنة في مصر ، التي أثارها القائد الفاطمي ناصر الدولة بن حمدان ضد الخليفة المستنصر . وهكذا حالت هذه الظروف دون سقوط إمارة ابن أبي عقيل(٢) .

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٤٨ ب ، ٢٤٩ أ . ، انظر ايضاً : شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز إلى الشام ص ٣٤٦ .

(٢) المقريزي ، المقفى ، ورقة ٢٤٢ب ؛ ابن القلانسي ص ٩٨ ؛ ابن ميسر اخبار مصر ، جـ ٢ ص ٢٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٠ ؛ ابن شداد الأعلاق الخطيرة ، جـ ٣ ص ١٦٥ ، العظيمي ، حوادث سنة ٤٦٢ ، الذهبي ، دول الإسلام جـ ١ ص ٢٧٠ ؛ عبد العزيز سالم ، دراسة في تاريخ صيدا في العصر الإسلامي ص ٨١ـ ٨٢ .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن استقلال ابن أبي عقيل بصور لم يؤد إلى قطع الخطبة الفاطمية ، فقد ظلت الدعوة للمستنصر قائمة في صور شأنها في ذلك شأن طرابلس[1] . كما أن السكة في صور ظلت تضرب باسم الخليفة المستنصر والشعار الشيعي للدولة الفاطمية . ويدل على ذلك ديناران ضربا في صور سنة ٤٥٥هـ ، ودينار آخر ضرب في سنة ٤٦٨هـ[2] .

ظل عين الدولة علي بن عبد الله بن أبي عقيل يحكم صور حتى توفي سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م ، فخلفه في الإمارة ابنه نفيس ومعه أخواه[3] . وظل أبناء عين الدولة مستقلين بصور عن القوى المتنازعة في بلاد الشام . ولم يرد في المصادر أي ذكر لدور إمارة ابن أبي عقيل بعد سنة ٤٦٥هـ في حوادث بلاد الشام ولا عن علاقتهم بغيرهم من القوى المختلفة بها ، سوى ما ذكره سبط ابن الجوزي من ان اتسز حاصر طرابلس وصور سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م « واخذهما خفاوة » . واضطر ابناء ابي عقيل إلى عقد هدنة مع اتسز سمح للغز بموجبها بالدخول إلى صور « يبيعون ويشترون ولا يقيمون بها »[4] . وذكر سبط ابن الجوزي أيضاً ان حيدرة بن منزو ، الذي تغلب على دمشق ثم هرب منها سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م واستقر في بانياس ، وانتقل في سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠ ـ ١٠٨١م مع امواله وذخائره إلى ميناء صور فاعتقله ابن أبي عقيل وصادر جميع أمواله[5] .

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٣٢ أ ، Gibb, op. cit. p. 19.

(٢) Lavoix, Catalogue des Monnaies Musulmanes, Vol.III, p. 128.

(٣) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، جـ٣ ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ١٣ B ورقة ٣٢ أ .

(٥) نفس المصدر والجزء ، ورقة ٥٣ أ ـ ب .

ويفهم مما أورده ابن القلانسي أنه على الرغم من ثراء صور وطرابلس فإن ضعف مواردهما البشرية جعلهما غير قادرتين على الاسهام بدور فعال في حوادث بلاد الشام ، في الوقت الذي أخذت فيه طوائف التركمان تصل تباعاً إلى بلاد الشام . وحفاظاً على المدينتين من خطر التركمان لجأ قضاتهما إلى مصانعة الأتراك « بالهدايا والملاطفات » على حد قول ابن القلانسي[1] .

ولم تفد سياسة العزلة التي اتبعها ابناء القاضي عين الدولة ابن أبي عقيل في حماية امارتهم في صور من السقوط سنة ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م بيد تاج الدولة تتش ، الذي سرعان ما فقدها في السنة نفسها لحساب حملة فاطمية أرسلها بدر الجمالي لاستعادة سواحل الشام[2] .

ولقد أدى تنازع السلاجقة والفاطميين على صور إلى تدهور احوالها وبخاصة بعد ان عادت إلى الحكم الفاطمي المباشر ، الأمر الذي زاد في ضعفها وجعلها تسير من سيء إلى أسوأ ، مما سهل في نهاية الامر سقوطها بأيدي الصليبيين .

امارة خلف بن ملاعب في حمص وافامية
٤٦٦ ـ ٤٩١هـ/ ١٠٧٤ ـ ١٠٩٨م

أما إمارة خلف بن ملاعب ، فقد أسسها سيف الدولة خلف بن ملاعب الأشهبي ، وهو من الشخصيات المشهورة بمغامراتها . وذكر ابن

---

(١) ابن القلانسي ص ١١٢ .

(٢) انظر ما سبق الفصل الثاني ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .

أبي الدم الحموي أنه استولى على مدينة حمص سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٤م[١] . ويبدو أن ابن ملاعب انتهز فرصة ضعف النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ، واستيلاء التركمان بزعامة اتسز بن اوق على جنوب الشام ، وتمزق القبائل العربية في بلاد الشام، فتغلب على حمص التي كانت من املاك قبيلة كلب اليمنية[٢] .

استطاع خلف بن ملاعب المحافظة على إمارته في حمص ، عن طريق مداهنة حكام بلاد الشام الأقوياء ، ومثال ذلك عندما حاصر تتش حلب سنة ٤٧١هـ / ١٠٧٩م واستولى على الأقاليم الواقعة جنوب حلب كالمعرة وحماة واعمالها ، أعلن خلف بن ملاعب دخوله في طاعة تاج الدولة تتش الذي أقره على حكم حمص[٣] . واستفاد خلف بن ملاعب من تبعيته لتاج الدولة تتش في نجاته من السقوط امام مسلم بن قريش سنة ٤٧٥هـ / ١٠٩٢م . وعاد مسلم بن قريش في السنة التالية وصالح ابن ملاعب وزاد في املاكه رفنية وسلمية ليجعله بذلك حاجزاً بين املاكه في

(١) ابن ابي الدم الحموي ، التاريخ المظفري ، ورقة ١٥٣أ ، انظر ايضاً ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ص ٢٠ ـ ٢١ ، وذكر ابن أبي الدم ، تاريخ تأسيس ابن ملاعب لامارته في حمص سنة ٤٦٦هـ ، ويزكي رأي ابن ابي الدم ما ذكره ابن واصل من ان ابن ملاعب حكم حمص سبعة عشر سنة حتى سقوطها بيد السلاجقة ٤٨٣هـ ، كما أشار سبط ابن الجوزي إلى انه كان موجوداً في حمص سنة ٤٧١هـ (انظر مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٥١ أ) . وقد ظن المستشرق جب Gibb أن خلف بن ملاعب اسس إمارته في حمص سنة ٤٧٥هـ / ١٠٨٢ م بمساعدة مسلم بن قريش . واعتمد جب على نص أورده ابن القلانسي ص ١١٥ ، والنص لا يوحي بهذا الرأي . (انظر ما سبق « إمارة مسلم بن قريش ص ٢٤٤ ، ٢٤٨) » .

انظر : Gibb, op. cit., p. 20.

(٢) انظر ما سبق ، الفصل الأول الصفحات ٥٩ ، ٧٨ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٥١ أ .

حلب وبين تتش في دمشق وجنوب الشام[1] . وفي سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م قدم السلطان ملكشاه إلى الشام وكان خلف بن ملاعب في جملة زعماء الشام الذين وفدوا على السلطان السلجوقي ، وقدموا له فروض الطاعة والولاء[2] .

لم يحافظ خلف بن ملاعب على علاقته الودية مع السلاجقة . ففي سنة ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م دخل في طاعة الفاطميين نظراً لأنه كان شيعياً[3] . كما درج على قطع الطريق . واخافة السبيل ، اضافة إلى سوء سيرته مع رعاياه . ففي سنة ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م قبض على أحد أعيان سلمية ، ويدعى الشريف بن ابراهيم الهاشمي ، وقذفه بالمنجنيق إلى برج سلمية ، واعتقل عدداً من أبناء عمه فهرب الباقون إلى السلطان ملكشاه ، وشكوا له سلوك اميرهم خلف بن ملاعب . فأصدر السلطان ملكشاه أوامره إلى أخيه تتش ، وآقسنقر ، وبوزان ، وياغي سيان بالمسير إلى حمص وفتحها ، والقبض على ابن ملاعب وارساله اسيراً إلى السلطان بخراسان . وقام قادة السلاجقة بتنفيذ اوامر السلطان . وتم القبض على خلف بن ملاعب سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م وأرسل في قفص حديد إلى بلاط السلطان بأصفهان[3] .

ظل خلف بن ملاعب سجيناً في اصفهان حتى وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م فقامت تركان خاتون ، ارملة السلطان ملكشاه باطلاق سراحه فسار إلى مصر واقام بها حتى سنة ٤٨٩هـ /

---

(١) انظر ما سبق ، إمارة مسلم بن قريش الصفحات ٢٤٤ ، ٢٤٨ .

(٢) انظر ما سبق الفصل الثاني ص ١٨٧ .

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٥ ورقة ٢٢١ ب ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٠ ـ ٢١ ؛ وانظر ما سبق ص ١٩٦ ـ ١٩٧ .

١٠٩٦م . وفي تلك السنة قدم إلى مصر وفد من أهل أفامية . وكانوا يعتنقون المذهب الشيعي ، ويرفضون خضوع مدينتهم للحكم السلجوقي السني ، فطلبوا من الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي تعيين خلف ابن ملاعب حاكماً عليهم ، فأجابهم إلى طلبهم بعد أن أخذ ابن خلف رهينة لديه لضمان ولاء أبيه[١] .

استقر خلف بن ملاعب في أفامية وما لبث أن خلع طاعة الفاطميين ، فأرسلوا اليه يهددونه بولده الذي ما زال رهينة لديهم ، فأجابهم : « انني لا أنزل من مكاني وابعثوا إلي ببعض أعضاء ولدي حتى آكله » . ثم أعاد سيرته الأولى في قطع الطريق واخافة السبيل ، واجتمع حوله الكثير من اللصوص وقطاع الطرق حتى كثرت أمواله[٢] . وبدأ خلف بن ملاعب في شن الغارات على أراضي إمارة بني منقذ في شيزر مما جعل نصر بن علي بن منقذ يخرج لقتاله غير ان ابن منقذ انهزم أمامه ، واخيراً تم الصلح بين إمارة شيزر وإمارة خلف بن ملاعب[٣] . وظل ابن ملاعب يحكم أفامية إلى أن اغتيل سنة ٤٤٩هـ / ١١٠٥ - ١١٠٦م[٤] .

---

(١) ابن أبي الدم ، التاريخ المظفري ورقة ١٥٧ أ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٥ ورقة ٢٢١ أ ؛ الأصفهاني ، البستان الجامع ورقة ٢٩٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٠ ، ص ٤٠٨ ؛ ابن ميسر ، اخبار مصر جـ ٢ ص ٣٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٢١ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٨ ؛ العريني ، الشرق الأوسط ص ١٦ - ١٧ ، Gibb, op. cit. p. 20 .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٤٠٨ ؛ أبو الفدا ، المختصر جـ ٢ ص ٢٢٠ .

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٥ ورقة ٢٢١ أ .

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٥ ورقة ٢٢١ أ - ب ؛ ابن القلانسي ص ١٤٩ - ١٥٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٤٠٨ - ٤٠٩ .

وهكذا أدى قيام الإمارات العربية المستقلة في بلاد الشام وانتشار العصبية القبلية فيما بينها الى زيادة التمزق في بلاد الشام . وأصبح هم كل إمارة المحافظة على كيانها غير عابئة بما تتعرض له بقية أجزاء بلاد الشام الأخرى من أخطار . وقد ساعد هذا التمزق الصليبيين في المضي قدماً في حملتهم على بلاد الشام دون صعوبة كبيرة حيث لم يواجهوا قوة متحدة تستطيع صدهم عن بلاد الشام .

الفصل الرابع

تنازع القوى في بلاد الشام حتى وصول الصليبيين إلى أنطاكية ٤٨٨ - ٤٩١هـ/١٠٩٥-١٠٩٧م

- أثر سياسة الأخوين رضوان ودقاق ابني تتش في انهيار النفوذ السلجوقي.
- تنازع القادة العسكريين السلاجقة في بلاد الشام ونتائجه ٤٨٨ - ٤٩١ هـ.
- انهيار النفوذ الفاطمي في بلاد الشام.
- دور الأقليات الدينية والعرقية في انقسام وتمزق بلاد الشام.
- وصول الصليبيين إلى أسوار انطاكية ٤٩٠-٤٩١هـ



أثر سياسة الأخوين رضوان ودقاق ابني تتش
في انهيار النفوذ السلجوقي

كان لمقتل تاج الدولة تتش سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م آثار بالغة الخطورة على بلاد الشام . فقد استطاع تتش بعد موت أخيه ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م توحيد معظم بلاد الشام والجزيرة تحت لوائه . غير أن أطماعه في السلطنة السلجوقية أودت بحياته ، الأمر الذي انعكست نتائجه على بلاد الشام والجزيرة . فتمزقت بلاد الشام بين ولديه رضوان ودقاق وغيرهما من القادة السلاجقة ، كما ظهرت النزعات الانفصالية في كثير من بلدان الشام والجزيرة فضلاً عن ازدياد خطر الأقليات العرقية والدينية في بلاد الشام . ونتج عن ذلك كله اندلاع النزاع على نطاق واسع بين جميع القوى في بلاد الشام والجزيرة الأمر الذي يفسر نجاح الصليبيين في الاستيلاء على انطاكية سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ والمضي في حملتهم على بقية بلاد الشام دون صعوبة كبيرة .

وكان تتش عندما وصل الى خراسان سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م لقتال ابن أخيه بركياروق ، أرسل الى ابنه رضوان المقيم بدمشق طالباً منه القدوم الى خراسان للاقامة بحاضرة السلطنة التي أزمع الانفراد بها . كما أمر ابنه رضوان باحضار بقية عساكره المقيمين بالشام . وخرج رضوان بعساكره من دمشق سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م وفي صحبته العديد من الأمراء الترك والعرب ، مثل ايلغازي بن ارتق والأمير وثاب بن محمود بن نصر بن صالح بن مرداس وغيرهما . وحينما وصل رضوان الى هيت بشمال العراق بلغه نبأ مقتل أبيه وهزيمة جيشه . وعاد رضوان مسرعاً في بعض خاصته الى حلب تاركاً باقي عسكره من ورائه . وكان تتش بعد استيلائه على حلب قد ولي على حلب وقلعتها وزيره أبا القاسم الحسن ابن علي الخوارزمي . ولما كان رضوان صبياً في الثالثة عشرة من عمره ، فإنه لم يكن قادراً على انتزاع حلب من وزير والده ، وأصبح هو وأخواه الصغيران ، أبو طالب وبهرام كالأضياف لدى الحسن بن علي الخوارزمي . وكان أتابك[1] رضوان ، واسمه جناح الدولة حسين بن ايتكين في صحبة تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان فلما قتل تتش في معركة الري سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ، هرب جناح الدولة حسين وعاد إلى الشام . وعندما وصل جناح الدولة إلى حلب قام بتدبير أمور رضوان واستمال إليه حامية القلعة . وفي إحدى ليالي ربيع الثاني سنة ٤٨٨ هـ / ابريل ١٠٩٥ م باغت أنصار رضوان القلعة واستولوا عليها وقُبض على الحسن بن علي الخوارزمي ونودي بشعار رضوان ، وأقيمت له الخطبة على منابر حلب وأعمالها ، بعد أن ظلت الخطبة تقام لتاج الدولة تتش مدة شهرين بعيد مقتله . وقام جناح الدولة حسين بإدارة

(١) عن اتابك واتابكة انظر ما يلي ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ .

مملكة رضوان في حلب[1] .

أما شمس الملوك دقاق الابن الثاني لتاج الدولة تتش فكان أبوه قد خطب له ابنة السلطان ملكشاه وبعثه الى بغداد قبل وفاة ملكشاه . ولما توفي ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م غادر دقاق بغداد مع أرملة عمه تركان خاتون وابنها محمود ، وأقام معهما في أصبهان . وبعد ذلك لحق دقاق بأبيه تتش عند الري ، وشهد معه المعركة التي لقى فيها تتش مصرعه . وبعد معركة الري عاد دقاق الى حلب في صحبة أحد غلمان أبيه ، ويدعى ايتكين الحلبي . وأقام دقاق في كنف أخيه رضوان فترة قصيرة ، ثم راسله نائب والده بدمشق ، ويدعى ساوتكين الخادم ، وعرض عليه القدوم الى دمشق ، وتعهد بتسليم دمشق اليه . ويبدو أن ساوتكين الخادم لم يكن زاهداً في حكم دمشق، وإنما كان يرمي الى اضفاء طابع الشرعية على حكمه ، بوجود أحد أمراء البيت السلجوقي في دمشق ، لذلك تظاهر بالإخلاص لدقاق الصغير، بينما أراد الاستبداد بحكم دمشق . وهرب دقاق من حلب نحو دمشق في سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م . ولما علم رضوان بهرب أخيه أرسل فرقة من الخيالة لمطاردته فلم تدركه . ووصل دقاق الى دمشق، فاستقبله الأمير ساوتكين وأظهر السرور لمقدمه ،

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٦ ورقة ٨٩ أ ، ابن ابي الدم ، التاريخ المظفري ورقة ١٥٧ أ ؛ الأصفهاني البستاني الجامع ورقة ٩٣ أ ؛ ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار جـ ١٦ ورقة ١١٤ أ ؛ ابن شاكر الكتبي ، عيون التاريخ ، جـ ١٣ ورقة أ ؛ العيني ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١١٤ ب ، ١١٥ أ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٤٦ ؛ الصفدي ، امراء دمشق في الإسلام ص ٣٣ ؛ ابن الفوطي ، مجمع الآداب في مجمع الألقاب جـ ٤ قسم ٣ ص ١٧٠ ـ ١٧١ ؛

Gibb, op. cit. p. 30;

The Cambridge History of Islam Vol. IA. p. 195.

وأخذ له البيعة من عسكر دمشق وأهلها . وكان أتابك دقاق ومربيه طغتكين[1] قد أسر في معركة الري ، واحتفظ به السلطان بركياروق رهينة لمبادلته بقائده كربوقا الذي كان معتقلاً بقلعة حمص . وأطلق رضوان سراح كربوقا مقابل طغتكين وأصحابه . وحالما وصل طغتكين الى دمشق ، استقبله شحنة دمشق حصن الدولة بختيار ودقاق بن تتش ، وأعاد إليه دقاق منصب الاسفهسلارية[2] . واطمأن دقاق بوصول أتابكه وعهد إليه بتدبير شؤون مملكته . ودبر طغتكين مؤامرة راح ضحيتها ساوتكين الخادم ، الذي أعاد دقاق إلى دمشق وتزوج طغتكين من صفوة الملك والدة دقاق ليصبح بذلك أتابكاً له[3] .

وعمل دقاق على توطيد نفوذه داخل دمشق ، فأمر بترميم قلعة دمشق التي أنشأها والده ، وزاد فيها وحصنها[4] . واحتفظ دقاق ببعض المدن التي كانت في حوزة والده ، مثل بعلبك التي كان قد اقطعها تتش لغلامه كمشتكين الخادم ، فأقره دقاق عليها[5] . وبسط دقاق نفوذه على

---

(١) انظر ما يلي ص ٣١١ .

(٢) اسفهسلار كلمة مكونة من لفظين احدهما فارسي وهو (اسفه) ومعناه المقدم ، والثاني تركي وهو (سلار) ومعناه العسكر ، وبالتالي الاسفهسلار هو مقدم العسكر انظر : القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٣ ص ٤٨٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٢ حاشية رقم (١) ؛ حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

(٣) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ، ورقة ١٧٣ ب ، ١٧٤ أ ؛ ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار جـ ١٦ ورقة ١١٥ أ ؛ ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ جـ ١٣ ورقة ١ أ ـ ب ؛ العيني عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١١٥ أ ؛ الصفدي تحفة ذوي الألباب ورقة ١٣٧ أ ـ ب ؛ الذهبي تاريخ الإسلام جـ ٩ ورقة ٤٨ أ ـ ب ؛ ابن القلانسي ص ١٣٠ ـ ١٣١ ؛ ابن عساكر ، تاريخ دمشق المجلد ٥ ص ٢٤٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

(٤) ابن طولون ، الشمعة المضية في اخبار القلعة الدمشقية ورقة ١ أ .

(٥) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة جـ ٣ ص ٤٤ ـ ٤٥ .

بلدة عرقة الواقعة شرقي طرابلس[1] . كما أقر دقاق أخويه تكين وفلوس على اقطاعهما من قبل والدهما تتش في بصرى وصرخد[2] . واحتفظ دقاق باقطاعه من قبل والده في ميافارقين وديار بكر وعهد بولايتها الى أحد القادة التركمان ويدعى التاش[3] .

وترتب على استقلال رضوان بحلب ودقاق بدمشق ، عودة التفكك والانقسام من جديد الى بلاد الشام وأضحت مرتعاً خصباً للفتن والمنازعات والمنافسات بعدما بذله تاج الدولة تتش من جهود في سبيل توحيد شمال الشام مع جنوبه . وتمخض عن استقلال دقاق بحكم دمشق ، أن خشي رضوان من هروب أخويه الصغيرين ابي طالب وبهرام من حلب والانفراد ببعض بلدان الشام الأخرى كما فعل دقاق ، فبادر بقتلهما سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م[4] .

وترتب على انقسام دولة تتش بعد موته تأرجح القادة الأتراك في ولائهم ازاء رضوان ودقاق حسب ما تمليه مصالحهم ، فعلى سبيل المثال فإن القائد عضب الدولة ابق بن عبد الرزاق ، راسل رضوان وطلب الاذن له بالعودة الى حلب ، والانضمام اليه . غير أن ابق مر أثناء عودته بمدينة دمشق فطاب له المقام بها ، وانضم الى دقاق ، وأرسل إلى أتباعه بعزاز

---

(١) المصدر السابق جـ٣ ص ٩٤ .

(٢) المصدر السابق جـ٣ ص ٥٦ : وبصري من اعمال دمشق وهي قصبة حوران ، وصرخد بلد ملاصق حوران من اعمال دمشق ، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) تاريخ الفارقي ص ٢٤٤ ـ ٢٤٧ ،

Gibb, op. cit. p. 31.

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٦ ورقة ٩١ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ١٢١ .

يأمرهم بتسليمها الى رضوان ، فأجابوه الى طلبه . ويبدو أن ابق بن عبد الرزاق لم يحقق ما كان يسعى اليه من التسلط على دقاق لا سيما بعد أن عاد الأتابك طغتكين الى دمشق وانفراده بتدبير شؤون دقاق ، الأمر الذي حمل ابق بن عبد الرزاق على الرحيل الى حلب والانضمام مرة أخرى الى رضوان(١) .

أما صاحب انطاكية ياغي سيان بن محمد بن ألب التركماني الذي ساعد تتش أثناء مطالبته بعرش السلطنة السلجوقية فقد خالف رضوان في البداية ، ثم ما لبث أن رأى أن مصلحته تقتضي الانضمام اليه حتى يتمكن عن طريقه من بسط نفوذه على بعض مناطق الجزيرة . فبعث ياغي سيان الى رضوان وأصحابه وصالحهم وقدم الى حلب . وأشار ياغي سيان على رضوان بالمسير الى اقليم الجزيرة وديار بكر للاستيلاء عليها . ووجد اقتراح ياغي سيان هوى في نفس رضوان ، فسار بعسكره ومعه أتابكة جناح الدولة حسين ، وياغي سيان ، ويوسف بن ابق التركماني . وعندما وصلوا إلى إقليم الجزيرة وفد على رضوان وقادته العديد من الولاة الذين عينهم تتش في بعض مدن الجزيرة وأعلنوا طاعتهم للملك الجديد رضوان . واستقر رأي رضوان وأصحابه على الاستيلاء على سروج . فلما سمع بذلك القائد سكمان بن أرتق ، سبقهم واستولى عليها وحصنها ، وأمر بعض أعيان بلدة سروج بالخروج لمقابلة رضوان ، وإبداء تظلمهم من عساكره ، واقناعه بالانسحاب وترك بلدتهم وشأنها . فاقتنع رضوان بحجج أهل سروج ، وتركها على حالها(٢) . وسار مع أصحابه نحو مدينة الرها

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

(٢) العيني ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١١٤ ب ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ، ص ٢٤٦ .

ليتسلمها من نواب والده تتش الذي كان قد أخذ من سكان الرها عدداً من الرهائن لضمان ولائهم . ودخل رضوان وقادته مدينة الرها واعتصم بقلعتها أحد القادة الأرمن ويدعى ثوروس Thoros (الفارقليط) وكان موالياً لبوزان قائد ملكشاه الذي قتله تتش واستولى على الرها سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م وأظهر ثوروس بسالة فائقة في الدفاع عن القلعة غير أنه لم يستطع الصمود بمفرده أمام قادة السلاجقة فآثر مصالحتهم وتسلم رضوان قلعة الرها سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م . وبدلاً من أن يعمد رضوان الى توطيد نفوذه بالرها لما تمثله من موقع هام يمكنه من الانطلاق لبسط نفوذه على اقليم الجزيرة، استجاب لطلب ياغي سيان باقطاعه قلعة الرها . وعمد ياغي سيان إلى تحصينها وشحنها بالرجال والمؤ ن . على أن استجابة رضوان لأطماع ياغي سيان في قلعة الرها أدى الى انهيار النفوذ السلجوقي في الرها بعد خروجهم منها ، الأمر الذي سهل فيما بعد على الصليبيين الاستيلاء عليها . وأثناء وجود رضوان مع غيره من قادة السلاجقة بالرها تلقوا دعوة من أهل حران يحثونهم على القدوم الى مدينتهم . وعندما سمع أمير حران قراجه التركماني بمراسلة أهل مدينته لرضوان اتهم أحد أعيان حران ويدعى ابن المفتي وقبض عليه وعلى بني أخيه وصلبهم . وسار رضوان وأصحابه الى مدينة حران للاستيلاء عليها . وقبل وصول رضوان إلى حران تحقق مدى ما بين ياغي سيان وجناح الدولة حسين من الحسد والتنافر . فقد سعى ياغي سيان مع الزعيم التركماني يوسف بن ابق الى الاستئثار بتدبير شؤون مملكة رضوان على حساب أتابكة حسين . وانسحب الأتابك جناح الدولة حسين الى حلب ، وأعقب ذلك فرار رهائن الرها من المعسكر . مما جعل رضوان يعدل عن قصد حران ويعود الى حلب . ولما علم ياغي سيان بدخول جناح الدولة الى حلب ، قرر مفارقة رضوان والعودة إلى أنطاكية في صحبة القائد

يوسف بن ابق التركماني وأبي القاسم الحسن بن علي الخوارزمي الذي كان يحكم حلب قبيل استيلاء رضوان عليها[1] .

وتدهورت العلاقات بين رضوان وياغي سيان . وخشي رضوان مغبة تحالف ياغي سيان مع قائد والده يوسف بن ابق فقام بعيد وصوله الى حلب بإرسال فرقة عسكرية بقيادة عضب الدولة ابق بن عبد الرزاق والأمير وثاب بن محمود المرداسي زعيم قبيلة كلاب ، لانتزاع معرة النعمان من ياغي سيان . وتمكن عسكر رضوان من طرد ابن ياغي سيان وأتباعه من المعرة وألحقوها بمملكة حلب . وبعث رضوان الى سكمان بن ارتق حاكم سروج طالباً مساعدته ضد ياغي سيان . فسار سكمان بن ارتق وقطع الفرات سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م فاعترض طريقه يوسف بن آبق التركماني حليف ياغي سيان فخشى سكمان عاقبة الاصطدام به فتظاهر بمصالحته وصار في صحبته، وحينما علم جناح الدولة حسين بأمر الصلح بين سكمان ويوسف بن ابق خاف أن يؤدي ذلك الى تحالف سكمان مع ياغي سيان ضد رضوان وأتابكة . فخرج جناح الدولة من حلب على عجل، ومعه ابق بن عبد الرزاق، والأمير وثاب بن محمود المرداسي، وقابلوا يوسف بن ابق وسكمان عند مرج دابق ، فانضم سكمان الى جناح الدولة حسين واشتبكوا جميعاً مع يوسف بن ابق حليف ياغي سيان وأنزلوا به الهزيمة ونهبوا عسكره فلاذ بالفرار الى انطاكية . ورجع جناح الدولة حسين ، وسكمان بن ارتق ، ووثاب بن محمود ، وابق بن عبد الرزاق الى

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٦ ورقة ٨٩ أ ب ؛ العيني عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١١٤ب ، ١١٥أ ؛ ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٤٧ ؛ تاريخ ابي الفدا ، جـ ٢ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٣١٣ ـ ٣١٤ .

حلب ، فكافأ رضوان سكمان بن ارتق واقطعه معرة النعمان وأعمالها[١] .

أثارت هذه الأعمال العدائية الفزع والاضطراب في نفس ياغي سيان . فذهب الى دمشق وأخذ معه أبا القاسم الخوارزمي نائب تتش السابق بحلب وطلب ياغي سيان من دقاق تعيين أبي القاسم وزيراً له في دمشق فأجابه دقاق الى طلبه . واستنجد ياغي سيان بدقاق وحليفه ايلغازي بن ارتق لمساعدته على صد هجمات رضوان وحلفائه[٢] .

وكان رضوان يتوق الى الاستيلاء على دمشق وإعادة الوحدة بين دمشق وحلب فضلاً عن ميله الى دمشق لأنه ولد ونشأ فيها . وعندما علم رضوان بخروج دقاق وطغتكين وايلغازي لتقديم المساعدة لياغي سيان استغل فترة غيابهم عن دمشق وبادر بالمسير مع سكمان وضربا الحصار حول دمشق سنة ٤٨٩ هـ / ١٩٠٦ م . وشن رضوان وحلفاؤه هجوماً قوياً على دمشق حتى وصلوا الى سوق الغنم بجوار الأسوار . بيد أن دمشق صمدت أمام الهجوم رغم غياب عسكرها مع دقاق اذ قاد حركة الدفاع عن دمشق محمد بن الوزير أبي القاسم وشحنة البلاد السلار بختيار . كما انضم إلى المدافعين عن دمشق طائفة الأحداث بزعامة رئيسهم وقتذاك ، أمين الدولة أبو محمد بن الصوفي . وقام المدافعون عن دمشق برشق معسكر رضوان بالسهام وأحجار المنجنيق . وفي الوقت الذي أمر فيه رضوان بوقف الهجوم على دمشق حدث نزاع بين دقاق وحليفه نجم الدين ايلغازي بن ارتق . واعتقل دقاق ايلغازي فخشى سكمان انهيار نفوذ

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٣ ـ ١٢٤ ، Gibb, op. cit. p. 31. .

(٢) العيني ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١١٤ ب ، ١١٥أ؛ ابن القلانسي ص ١٣٢ ، Gibb, op. cit. pp. 31-32.

أسرته في بيت المقدس بعد اعتقال أخيه فسار سكمان الى بيت المقدس وتسلمها من نواب أخيه وأقام بها . ورجع ياغي سيان الى انطاكية كما قرر دقاق العودة الى دمشق للدفاع عنها أمام أخيه رضوان ، الذي أضحى وحيداً بعد ذهاب سكمان الى بيت المقدس . وتخلى رضوان عن حصار دمشق وانسحب الى منطقة حوران جنوب دمشق ونهبها ثم عاد إلى حلب[1] .

وزادت شقة الخلاف والنزاع بين الأخوين رضوان ودقاق للسيادة على بلاد الشام . ففي سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م خرج رضوان من حلب ومعه أتابكة جناح الدولة حسين وفتحا تل باشر وشيخ الدير[2] ، وهما من أملاك ياغي سيان حليف دقاق . كما أغارا على أعمال انطاكية ثم رجعا الى حلب ، وتأهبا من جديد لمنازلة دمشق . وخرج رضوان وأتابكة حسين في أول رمضان سنة ٤٨٩ هـ / أواخر أغسطس ١٠٩٦ م قاصدين دمشق في محاولة أخرى للاستيلاء عليها . وحينما علم ياغي سيان بخطة رضوان وأتابكة بادر على الفور لنجدة دقاق . وقطع ياغي سيان على رضوان طريق العودة الى حلب . واضطر رضوان الى الـ سير الى بيت المقدس حيث كان يقيم حليفه سكمان ابن ارتق . وقام دقاق وطغتكين وياغي سيان بالتضييق على رضوان وحالوا بينه وبين العودة شمالاً الى حلب حتى أشرف جيش رضوان على الهلاك ، وأخيراً انسحب جناح

---

(١) الصفدي ، تحفة ذوي الألباب ورقة ١٣٧ أ ـ ب ؛ العيني عقد الجمان ، جـ ١١ ورقة ١١٩ أ ؛ الذهبي ، تاريخ الإسلام جـ ٩ ورقة ٤٨أ ـ ب؛ ابن القلانسي ص ١٣١ ـ ١٣٢ ؛ ابن عساكر تاريخ دمشق المجلد ٥ ص٢٤٧؛ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٤ .

(٢) تل باشر قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب وشيخ الدير من أعمال حلب انظر ياقوت ، معجم البلدان .

الدولة حسين من معسكر رضوان وسلك طريقه شرقاً ثم قطع الصحراء شمالاً وعاد سالماً إلى حلب . وسار رضوان بجيشه على الطريق نفسه ليتحاشى مواجهة دقاق وحلفائه على طريق حلب . وأخيراً توجه دقاق وطغتكين الى حلب ورجع ياغي سيان الى انطاكية[1] .

وعندما عاد رضوان الى حلب لحق به سكمان بن ارتق . واجتمع سكمان بجناح الدولة واتفق معه على مهاجمة أملاك ياغي سيان . وأرسل رضوان إلى سليمان بن ايلغازي حاكم سميساط[2] طالباً مساعدته فلبى سليمان النداء وقدم إلى حلب في أعداد كبيرة من التركمان . وأقنع ياغي سيان دقاق وأتابكة طغتكين باتخاذ موقف المبادرة للحيلولة دون قيام رضوان وحلفائه بمهاجمة دمشق مرة أخرى . وخرج دقاق وطغتكين وياغي سيان من دمشق في أوائل سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م وهاجموا حماة وعاثوا في أعمالها، ثم ساروا الى كفرطاب وقاتلوها ونهبوها وفرضوا الأتاوة على أهلها، ثم استولوا على معرة النعمان التي هرب منها أتباع سكمان وضمها ياغي سيان الى أملاكه، وفرض عليها فدية كبيرة جزاء طاعتهم سكمان بن ارتق[3] . وحينما علم رضوان بأنباء هذا الزحف حشد أعداداً أخرى من الترك والعرب وأحداث حلب، فضلاً عن سكمان بن ارتق وابن أخيه سليمان بن ايلغازي . وخرج بجموعه الى منطقة قنسرين حيث يقيم

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٦ ورقة ٨٩ ب ؛ ابن واصل ، التاريخ الصالحي ورقة ١٧٤ أ ؛ العيني عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١١٩ أ ؛ ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٥ ؛ ابن الأثير الكامل جـ ١٠ ص ٢٦٩ ؛ تاريخ ابي الفدا جـ ٢ ص ٢٠٩ ؛ القرماني ، اخبار الدول وآثار الأول ، ص ٢٧٧ .

(٢) سميساط مدينة على شاطىء الفرات الغربي عند اطراف بلاد الروم . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٢٥ .

دقاق مع حلفائه . وتبودلت الرسائل بين الفريقين المتنازعين وتم الاتفاق بينهما على الاجتماع على ضفتي نهر قويق[1] . ودارت المفاوضات ، والنهر يفصل بينهما ، وفشلت المفاوضات بين الجانبين . وأخيراً قام سكمان بتنظيم جيش رضوان وتولى قيادته . ووقعت المعركة يوم الاثنين الخامس من شهر ربيع الأول سنة ٤٩٠ هـ / ٢٥ مارس ١٠٩٧ م وحلت الهزيمة بدقاق وأصحابه، وغنم رضوان معسكرهم، وعاد ياغي سيان الى انطاكية بينما رجع دقاق وطغتكين الى دمشق . وأرسل دقاق الى أخيه رضوان معلناً قبوله بإقامة الخطبة له بدمشق . ويبدو أن دقاق لجأ إلى هذا الاجراء ليمنع رضوان من مواصلة زحفه على دمشق . ورضى رضوان بإقامة الخطبة له بدمشق وعاد إلى حلب[2] .

ولم يستطع رضوان استرداد دمشق وفشل في توطيد نفوذه في شمال الشام كما أن سياسته داخل مدينة حلب أصابها الاضطراب . ويرجع سبب فشل سياسته في حلب إلى أسباب كثيرة، منها ذلك الدور الذي لعبه بركات بن فارس الفوعي الملقب بالمجن ، رئيس أحداث حلب . وظل بركات متولياً رئاسة الأحداث بحلب منذ عهد قسيم الدولة اقسنقر وحتى

---

(١) قويق : نهر مدينة حلب ، يخرج من قرية على ستة أميال من دابق ، ثم يمر بمدينة حلب ثم يمتد إلى قنسرين ثم يغيض في أجمة هناك . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٦ ورقة ٨٩ب ؛ العيني ، عقد الجمان ، جـ ١١ ورقة ١١٩ أ ؛ ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار جـ ١٦ ورقة ١١٧ب ؛ ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ جـ ١٣ ورقة ٣٠ أ ـ ب ، الاصفهاني ؛ البستان الجامع ورقة ٩٣ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٥ ـ ١٢٧ ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٢٦٩ ؛ الذهبي دول الإسلام جـ ٢ ص ١٩ ؛ الذهبي ، العبر ، جـ ٣ ص ٣٢٧ ؛ ابن الفوطي ، مجمع الآداب في معجم الالقاب جـ ٤ قسم ٣ ص ١٧١ ؛ Gibb, op. cit. p. 32.

عهد الملك رضوان . وسعى جاهداً لتجريد رضوان من أنصاره المخلصين ، وكان هدفه فرض سيطرته على حلب . ففي سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م ـ على سبيل المثال ـ راسل القائد يوسف بن آبق رضوان واعتذر له عما بدر منه وطلب منه السماح له بالدخول الى حلب لتقديم فروض الطاعة والولاء ، فأجابه رضوان الى طلبه . وما إن استقر يوسف بن ابق في حلب حتى نفر منه المجن الفوعي رئيس الأحداث ، وقام بتدبير مكيدة ضده ، فاتهمه لدى رضوان وجناح الدولة حسين بأنه يراسل ياغي سيان ، مما أثار الشك والريبة في نفس رضوان وأتابكة حسين فأوعزا إلى المجن الفوعي بالتخلص منه . وقتل المجن الفوعي يوسف ابن آبق ، وتسلم رضوان اقطاع ابن آبق في بزاعا ومنبج ، كما استرد رضوان اقطاع شقيق يوسف ابن ابق وأتباعهما ، فهربوا من حلب[١] .

وبعد أن تخلص المجن الفوعي من يوسف بن آبق تمكن من إثارة الريبة والنفور بين رضوان وأتابكة حسين . واجتمع المجن بجناح الدولة حسين ، وأوهمه أن رضوان أمره بقتله وزعم لجناح الدولة أن صداقته منعته من تنفيذ أمر رضوان وأعطاه مهلة للهرب وخرج جناح الدولة من حلب سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م قاصداً حمص ، وكانت اقطاعه من قبل تتش والد رضوان . وأصبح المجن الفوعي هو المسيطر على أمور حلب . وعندما شعر رضوان بحرج موقفه طلب من المجن مغادرة حلب فأعلن المجن العصيان على رضوان وحاصره في القلعة فأمر رضوان بالمناداة بعزل المجن الفوعي من رئاسة الأحداث ، وتولية صاعد بن بديع مكانه . وكان ابن بديع محبوباً لدى طائفة الأحداث ، فتفرقوا عن المجن الفوعي . وقبض عليه رضوان وصادر أمواله وقتله سنة

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٤ .

٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م[1] .

أخذت العلاقات تتحسن بين رضوان وياغي سيان لا سيما وأن ياغي سيان كان يتوق لمساندة رضوان منذ بدأ الأخير حكم حلب . على أن الكراهية الشخصية المتبادلة بين ياغي سيان وجناح الدولة حسين حالت دون تحقيق ياغي سيان لهدفه . ولما وقعت الوحشة بين رضوان وأتابكة جناح الدولة، والتي أفضت الى هرب جناح الدولة واستقلاله بحمص ، اهتبل ياغي سيان هذه الفرصة وقدم الى حلب سَنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م واعتذر لرضوان وانحى باللائمة في مواقفه السابقة على جناح الدولة . وخدم ياغي سيان رضوان وزوجة ابنته خاتون جنجك ، وجعل نفسه أتابكاً لرضوان بدلاً من جناح الدولة حسين[2] .

وعندما خرج جناح الدولة الى حمص ، شرع رضوان في اعداد نفسه من جديد لقتاله ، وكذلك لقتال دقاق في دمشق . وفي الوقت نفسه وصله رسول الوزير الأفضل بن بدر الجمالي من مصر يدعوه الى طاعة الخليفة المستعلي الفاطمي ، وإقامة الدعوة له . ووعد الوزير الأفضل رضوان بأن يمده بالعساكر والأموال لمعاونته على استعادة دمشق . واغتنم رضوان الفرصة واقترح أن يجري القيام بهجوم مشترك على دمشق وحمص مقابل الاعتراف بالسيادة الروحية للخليفة الفاطمي . غير أن هذا

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ، ١٣٨ ـ ١٤١ ؛ ابن القلانسي ص ١٣٥ ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ ؛ تاريخ العظيمي حوادث سنة ٤٩٠هـ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٣١٤ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٦ ورقة ٩٠ أ ؛ العيني ، عقد الجمان ، جـ ١١ ص ١٢٠ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٧ ؛ ابن القلانسي ص ١٣٣ ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٠ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٣١٥ ـ ٣١٦ .

المشروع لم ينفذ إذ قدم الى حلب ياغي سيان، وسكمان بن ارتق، وأنكرا على رضوان الانتماء إلى الخلافة الفاطمية بسبب العداء المذهبي بين السلاجقة والفاطميين ، فأعاد رضوان الخطبة العباسية بعد أن استمرت الدعوة للخليفة الفاطمي على منابر حلب وأعمالها نحو شهر(١) .

جرت هذه الحوادث في الوقت الذي أحرز فيه الصليبيون انتصارات متتالية في آسيا الصغرى على السلاجقة . ولم يعبأ رضوان بذلك بل ظل أمل الاستيلاء على دمشق هو المسيطر على تفكيره . ففي سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م تقدم رضوان وياغي سيان وسكمان بن ارتق نحو شيزر لاتخاذها مركزاً لمهاجمة حمص ودمشق وأقاموا بشيزر مدة شهر . فتواصلت الأخبار بوصول الصليبيين الى الحدود الشمالية لبلاد الشام ، فأثار ذلك الفزع والاضطراب بين رضوان وحلفائه . وعدلوا عن المضي الى حمص ودمشق . غير أنهم بدلاً من الابقاء على وحدة جيوشهم وتماسكها وتناسي الخلافات الشخصية أمام العدو الصليبي المشترك تفرقوا ، فسار رضوان عائداً إلى حلب بينما توجه ياغي سيان الى انطاكية للدفاع عنها ، أما سكمان بن ارتق فقد وجه كل طاقاته للاستيلاء على ديار بكر التي استقل بها حكامها . وترك الجميع ياغي سيان بمفرده أمام الصليبيين . بل وأكثر من ذلك حاول سكمان اقناع رضوان وياغي سيان بأن يصحباه الى الجزيرة وألا يحفلا بأمر الصليبيين ، وصارا لزاماً على ياغي سيان أن يواجه أولى ضربات الجيوش الصليبية بمن بقي معه من

---

(١) ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ جـ١٣ ورقة ١٣٠ أ ـ ب ؛ العيني ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١١٩ أ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٢٧٠ ؛ ابن ميسر ، أخبار مصر، جـ ٢ ص ٣٨ ؛ اليافعي ، مرآة الجنان جـ ٣ ص ١٥٢ ؛ ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٥٨ ؛ العريني ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٤٢ ـ ٤٣ .

الجند ، وأن يتحمل بمفرده حصار الصليبيين لانطاكية ، وانتظار معونة دقاق وطغتكين وجناح الدولة حسين وكربوقا وزعماء التركمان وغيرهم من أمراء الشرق وملوكه(١) .

وهكذا أدى التنافس والنزاع بين الأخوين رضوان ودقاق الى انهيار النفوذ السلجوقي في بلاد الشام .

تنازع القادة العسكريين السلاجقة في بلاد الشام
ونتائجه (٤٨٨ ـ ٤٩١ هـ)

وإذا كانت سياسة رضوان ودقاق قد ساهمت في انهيار النفوذ السلجوقي في بلاد الشام ، فقد أدى تنازع القادة العسكريين السلاجقة الى القضاء على هذا النفوذ .

ومنذ وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م بدأ الضعف التدريجي يدب في أوصال السلطنة السلجوقية ، بسبب أطماع القادة وتنافسهم في جهات عديدة من الدولة السلجوقية . وساد الاضطراب أرجاء السلطنة ونشبت الحروب الداخلية وكانت بلاد الشام أكثر الجهات قلقاً واضطراباً . وخير دليل على ذلك ما واجهه تتش من تمرد الولاة بشمال الشام ، عقب وفاة ملكشاه وعلى الرغم من أن تتش نجح في

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ؛ ابن القلانسي ص ١٣٣ ـ ١٣٤ ؛ الباز العريني ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٤٣ ، Gibb, op. cit. pp. 23-24.

اخماد الفتنة فان روح التمرد لم تلبث أن أطلت برأسها من جديد في بلاد الشام عقب وفاته مباشرة[1] . ولم يحظ ابنا تتش رضوان ودقاق بالقدر اللازم من الكفاءة السياسية وقوة الشخصية ، الأمر الذي جعلهما عاجزين عن فرض سيادتهما على بلاد الشام وكبح جماح أمراء السلاجقة .

وكان أقوى الأمراء السلاجقة في بلاد الشام عقب مصرع تاج الدولة تتش هو ياغي سيان الذي أقطعه السلطان ملكشاه انطاكية منذ سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م . وامتدت أملاك ياغي سيان بعد موت تتش الى منبج وتل باشر والمعرة في شمال الشام[2] . وقد عمل ياغي سيان شأنه في ذلك شأن قادة تتش ببلاد الشام على اذكاء نار النزاع والفرقة بين الأخوين رضوان ودقاق ، لتصبح بلاد الشام نهباً للفوضى والانقسام . فقد خشي القادة السلاجقة استمرار المملكة السلجوقية الموحدة التي أقامها تتش في بلاد الشام والجزيرة ،لأن في تداعي هذه المملكة وانهيارها الضمان الوحيد لبقاء إماراتهم وتحقيق أطماعهم . ومن أمثلة ذلك ما فعله ياغي سيان عندما بلغه وصول دقاق الى دمشق سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م فأرسل اليه مشيراً بالانفراد بدمشق والاستقلال بحكمها عن أخيه رضوان ، وما فعله ياغي سيان أيضاً وغيره من الزعماء بالانضمام تارة الى رضوان وأخرى الى دقاق حسب ما تمليه مصالحهم الشخصية[3] .

وظهر في بلاد الشام والجزيرة جماعة من القادة الترك لم يكن لهم امارات خاصة بهم قبيل وفاة السلطان ملكشاه إلا انهم تمكنوا بعد موته

---

(١) Gibb, op. cit. pp. 23-24.

(٢) Ibid., p. 24.

(٣) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٤٨ ؛ انظر ما سبق الفصل الرابع ص ٢٩٤ - ٣٠٢ .

سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م من استغلال الاضطراب الذي ساد بلاد الشام والجزيرة فاسسوا لهم امارات مستقلة . ومن أشهر هؤلاء القادة قوام الدولة أبو سعيد كربوقا بن عبد اللّه الجلالي. ففي سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م قام تتش بأسر كربوقا اثناء المعركة التي قتل فيها اقسنقر ، واعتقله في قلعة حمص .ولما قتل تتش سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، وملك ابنه رضوان حلب،أرسل السلطان بركياروق الى رضوان سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م يأمره باطلاق سراح كربوقا وسراح أخيه التونتاش . وما ان اطلق رضوان سراح كربوقا حتى سعى هذا القائد في تأسيس امارة خاصة به . فسار سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م بصحبة أخيه التونتاشي بعد ان تمكنا من حشد جيش كبير ، وقصدا حران وتسلماها ، وراسلهما محمد بن شرف الدولة مسلم ابن قريش طالبا مساعدتهما ضد أخيه علي بن مسلم ، الذي استخلفه تتش على الموصل بعد معركة المضيع[1] . وسار كربوقا وانضم اليه محمد بن مسلم العقيلي عند نصيبين . بيد ان كربوقا اعتقله وحاصر نصيبين اربعين يوماً وتسلمها، ثم توجه نحو الموصل وحاصرها دون جدوى .وسار بعد ذلك إلى مدينة بلد في شمال الموصل واستولى عليها. وقتل كربوقا محمد بن مسلم بن قريش . وعاد كربوقا مرة اخرى لحصار الموصل،فاستنجد علي بن مسلم بالأمير جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر ، فهب جكرمش لنجدة الامير العقيلي . غير ان التونتاش اعترض طريق جكرمش وسحق قواته ، فاضطر الاخير الى الدخول في طاعة كربوقا ، ومساعدته على حصار الموصل . واستمر حصارها تسعة أشهر حتى ندرت بها المؤ ن والأقوات فهرب علي بن مسلم إلى الأمير العربي صدقة بن مزيد امير بني أسد ، وتبع ذلك سقوط الموصل بيد كربوقا في

---

(١) عن معركة المضيع انظر ما سبق الفصل الثاني ص ٢٠٢ .

ذي القعدة سنة ٤٨٩هـ/ نوفمبر ١٠٩٦م[١] .

وكعادة العلاقات بين القادة السلاجقة دب الخلاف بين كربوقا وبين أخيه التونتاش بسبب سياسة الأخير القاسية ازاء سكان الموصل وتطاوله على أخيه . فأمر كربوقا بقتله وأحسن الى أهل الموصل . ثم سار كربوقا الى الرحبة على نهر الفرات، وضمها الى مملكته الجديدة، وأخذ يتطلع لبسط سلطانه على بقية أنحاء الجزيرة، ومن أجل ذلك دخل في نزاع خطير مع سكمان بن أرتق[٢] .

وساعد تدفق التركمان على بلاد الشام والجزيرة على ازدياد تنازع القادة العسكريين . والمعروف أن هؤلاء التركمان اشتهروا بتربية الخيل والسلب وحب المغامرة فكانوا بذلك مصدراً دائماً للازعاج والقلق . وزاد من خطورتهم ما اشتهر به زعماؤهم من الطيش والتهور، وشدة القلق والمطامع السياسية . ومن أشهر زعماء التركمان، ارتق بن أكسب الذي ظهرت مطامحه أبان عهد السلطان ملكشاه، لدرجة أنه تآمر ضد السلطان ملكشاه وحالف مسلم بن قريش ، وحاول تحويل ولاء جماعات التركمان الى الخلافة الفاطمية[٣] . غير أن قوة ونفوذ ملكشاه وتتش ساهمت إلى

---

(١) ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار ، جـ ١٦ ورقة ١١٦ ب ؛ العيني عقد الجمان ، جـ ١١ ورقة ١١٧ ب ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٥٨ ؛ ابن الاثير ، الباهر ص ١٥ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ١١٠ ؛ إبراهيم خليل ، كربوقا صاحب الموصل ودوره في مقاومة الصليبيين ، مجلة المؤرخ العربي العدد الخامس ص ٩٨ .

(٢) ابن فضل الله العمري مسالك الأبصار جـ ١٦ ورقة ١١٦ ب ؛ العيني ، عقد الجمان ورقة جـ ١١ ورقة ١١٧ ب ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٥٨ ؛ ابن الاثير ، الباهر ص ١٥ ـ ١٦ ؛ تاريخ أبي الفدا ، جـ ٢ ص ٢٠٨ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٣٤ ـ ٣٥ ؛ الذهبي ، العبر جـ ٣ ص ٣٢٤ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧٦ أ .

حد كبير في الحد من مطامع زعماء التركمان فترة من الزمن ، ودخل كثير منهم في خدمة الجيوش السلجوقية .

على أن ما أصاب الدولة السلجوقية من ضعف وتمزق بعد وفاة ملكشاه ، هيأ للقادة التركمان الفرصة لتحقيق أطماعهم . فلم يمض ثلاث سنوات من وفاة ملكشاه حتى نجح كثير منهم في إقامة إمارات مستقلة . ومن أشهر هؤلاء الزعماء التركمان ايلغازي وسكمان ابني القائد التركماني ارتق بن اكسب . وكان ارتق قد انضوى تحت لواء تتش وكافأه على خدماته وأقطعه بيت المقدس[1] . وعندما توفي ارتق سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م خلفه على اقطاعه ابنه ايلغازي ، بينما تفرق أخوته في سائر الجهات يلتمسون أرزاقهم وحظوظهم . فاستولى سكمان على سروج ثم انحاز إلى رضوان فاقطعه معرة النعمان . أما سليمان ابن ايلغاز فقد تمكن هو الآخر من إقامة إمارة مستقلة في سميساط . ولما انتزع الفاطميون بيت المقدس من بني ارتق سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م اتجه بنو ارتق جميعاً الى الجزيرة ،فحاول سكمان الاستيلاء على الرها ، ولما أخفق أنشأ إمارة في حصن كيفا . واستقرت أسرة ارتقية أخرى في ماردين بزعامة ايلغازي بن ارتق وأقام أفراد آخرون من بيت أرتق إمارات بمنطقة الجزيرة لم تستمر زمناً طويلاً[2] .

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ ١ ص ١٩١ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٣ ـ ١٢٤ ؛ ابن خلكان جـ ١ ص ١٩١ ؛ ابو الفدا ، المختصر ، جـ ٢ ص ٢٠٦ ؛ ابن ايبك الداواداري الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية ص ٤٢٨ ، حصن كيفا بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين أمد وجزيرة بن عمر وديار بكر . وماردين : قلعة على قنة جبل الجزيرة كان لها ربض عظيم به اسواق وخانات . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

واستقر في ميافارقين أمير تركماني اسمه التاش، كان نائباً لدقاق بها . واتبع التاش في ميافارقين سياسة بالغة القسوة ، الأمر الذي دفع كثيراً من السكان إلى الهرب منها ، لما عانوه من شدته واستبداده[1] . كما خرج على طاعة دقاق سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م زعيم تركماني آخر اسمه اينال ، فاستولى على آمد وأقام بها أسرة حاكمة لم تلبث أن ارتبطت بصلة المصاهرة مع الأراتقة في ماردين[2] . كما استقل في سنجار أحد الزعماء التركمان ويدعى أرسلان تاش[3] .

وبالإضافة الى أولئك الأمراء الترك الذين أنشأوا لهم إمارات خاصة ، فقد وجد الكثير من القادة السلاجقة والتركمان في بلاد الشام والجزيرة ، أمثال يوسف بن آبق ، وساوتكين الخادم ، وآبق بن عبد الرزاق ، وأبو القاسم الخوارزمي ، وقراجه وغيرهم[4] . وعلى الرغم من أنهم أخفقوا في تأسيس إمارات خاصة بهم فإنه كان لأطماعهم وتقلباتهم السياسية أثر بالغ في زيادة الفوضى السياسية الضاربة أطنابها في بلاد الشام عشية الحملة الصليبية الأولى .

ومما أدى الى ظاهرة تنازع القادة العسكريين السلاجقة ظهور نظام الأتابكيات . وأتابك لقب يتكون من لفظين ، أتا بمعنى أب ، وبك بمعنى أمير . ولما كانت نظرية السلاجقة في الحكم ترتكز على أن يتولى أفراد من الأسرة السلجوقية حكم الأقاليم ، فقد ارتبط بكل فرد من هؤلاء

(١) تاريخ الفارقي ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧ .

(٢) تاريخ الفارقي ص ٢٣٩ ، .Gibb, op. cit. p. 27

(٣) العيني ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١٢١ أ ـ ب ؛ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٧٦ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

(٤) انظر ما سبق ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

الأمراء السلاجقة قائد تركي يحمل لقب أتابك ، أي الأمير الوالد، الذي يعتبر مسؤولاً عن تربية ابن الأمير وتلقينه أصول الإدارة والحكم . ودرج أمراء السلاجقة على تزويج الأتابك من إحدى مطلقاتهم ، أو قيام الأتابك نفسه بالزواج من والدة الأمير الصغير عقب وفاة والده ، ويتزوج الأمير بدوره من ابنة الاتابك ، وبالتالي أصبحت العلاقة بينهما شبه أبوية . وأضحى للأتابك من السلطان والنفوذ ما جعله أكثر من قائد عسكري . وأول من تلقب بهذا اللقب هو الوزير السلجوقي نظام الملك حين فوض اليه السلطان ملكشاه تدبير شؤون دولته[1] .

ووفقاً لما جرى من تطبيق النظم السلجوقية ، فقد جعل تتش قائده جناح الدولة حسين بن ايتكين أتابكاً لابنه رضوان وأقطعه حمص ووكل اليه تدبير شؤون رضوان . فلما قتل تتش سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م لعب جناح الدولة دوراً هاماً في وصول رضوان الى سدة الحكم بحلب ، وقام بإدارة مملكة الأمير السلجوقي ابن تتش . على أنه سرعان ما وقعت الوحشة بين رضوان وأتابكه حسين بسعاية رئيس أحداث حلب المجن الفوعي ، كما سبقت الإشارة اليه .

وانفصل جناح الدولة عن رضوان بمن معه من الجند ، وغادر حلب بصحبة زوجته أم رضوان . ودخل جناح الدولة الى حمص سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م وتسلمها من نائبه بها وشرع في تحصينها استعداداً

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٦٥ ؛ القلقشندي صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨ ؛ حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ؛ الباز العريني ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٢٠ ـ ٢١ ؛ كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ص ٢٤٢ ، ٢٤٥ ـ ٢٤٦ ؛ Dozy Supplement aux Dictionnaires Arabes, Vol, I p. 8.; Gibb, op. cit. pp. 24-25.

لمواجهة رضوان . وحاول رضوان استعادة حمص فخرج اليها في سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م غير أن جناح الدولة باغته عند بلدة سرمين من أعمال حلب ، وهزمه وأسر معظم أتباعه . وبالتالي قامت إمارة جديدة في حمص ،لتضيف المزيد من أسباب التداعي والانهيار الذي أصاب بلاد الشام قبيل وصول الفرنج[١] .

أما دقاق الابن الثاني لتاج الدولة تتش ، فكان أتابكه ظهير الدين طغتكين . وكان طغتكين في بداية أمره غلاماً لتاج الدولة تتش ، فأعتقه وأضحى من كبار قادته العسكريين . وحظي طغتكين بقسط وافر من التقدير لدى تتش ، حتى أسند اليه منصب الاسفهسلارية على عسكره ، ثم أسند اليه ولاية دمشق خلال حربه في بلاد الشام وغيرها ، وسلمه ابنه دقاق ، وعهد اليه بتربيته وكفالته . وقام طغتكين أثناء ذلك بإدارة شؤون دمشق بكفاية عالية . وأخيراً عينه تتش والياً على ميافارقين وديار بكر . فقام طغتكين بواجباته خير قيام ، وعمل على توطيد الأمن والنظام في ميافارقين وديار بكر . وعندما سار تتش الى الري سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م لمنازعة بركياروق عرش السلطنة السلجوقية ، صحبه طغتكين ووقع أسيراً في يد السلطان بركياروق ، ثم أطلق سراحه سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م . وعاد طغتكين الى دمشق ، وتقلد منصب الاسفهسلارية على جيش دقاق . وتزوج صفوة الملك والدة دقاق ، ليصبح أتابكاً له طبقاً للتقليد السلجوقي ، وقام بإدارة مملكة دقاق . وعندما توفي دقاق سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٤ م تخلص طغتكين من بقايا أسرة تتش ، وأقام أسرة

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٤ ورقة ١٩٧ ب ـ ١٩٨ أ ـ ب ؛ ابن القلانسي ص ١٣٣ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٧ .

حاكمة جديدة على أنقاض ممتلكات السلاجقة[1] .

ومن العوامل التي أسهمت في تمزق بلاد الشام قبيل وصول الصليبيين انتشار البطالة العسكرية في بلاد الشام والجزيرة . اذ يشير عدد من المؤرخين الى وجود طائفة كبيرة من الجند المحترفين عرفت باسم « العساكر البطالين » أُسْتُخْدِمُوا من قبل القادة السلاجقة في بلاد الشام والجزيرة لتحقيق أطماعهم في إنشاء إمارات خاصة بهم . ومن أمثلة ذلك ما فعله كربوقا عندما أطلق سراحه من قلعة حمص واستطاع أن يحشد جيشاً كبيراً من العساكر البطالين تمكن به من الاستيلاء على الموصل ، وبسط نفوذه على بعض مناطق الجزيرة وأجزاء من شمال الشام[2] . ولم يرد في المصادر والمراجع ما يشير الى نشأة جماعات البطالين ، على أنه يمكن استنتاج ذلك من الحوادث التي شهدتها بلاد الشام والجزيرة ، وعلى رأس تلك الحوادث تدفق طوائف التركمان على الشام والجزيرة . وقد سبق الحديث عن بعض تلك الجماعات وزعمائها[3] . وقد اختفى الكثير من زعماء تلك الطوائف عن الحياة السياسية في بلاد الشام لأسباب مختلفة ، مما أدى الى تفرق أتباعهم في بلاد الشام والجزيرة . ويضاف الى ذلك ما نجم عن سقوط الإمارات العربية وغيرها في بلاد الشام

---

(١) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ورقة ١٧٣ ب ، ١٧٤ أ ؛ الصفدي ، تحفة ذوي الألباب ورقة ١٣٨ أ ؛ ابن القلانسي ص ١٣٠ ـ ١٣١ ، ١٤٤ ـ ١٤٥ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ ؛ القرماني اخبار الدول ص ٢٨١ .

(٢) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار، جـ ١٦ ورقة ١١٦ ب ؛ العيني عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١١٧ ب ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ ؛ ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ١٥ ـ ١٦ ؛ ابو الفدا ، المختصر ، جـ ٢ ص ٢٠٨ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٣) أنظر ما سبق ـ الفصل الأول ص ٩٤ ـ ١٠٦ والفصل الثاني ص ١٤٠ ـ ١٥٠ ، ١٥٧ ـ ١٥٨ ، ١٥٩ ـ ١٦٨ ، ٢٥١ ـ ٢٥٣ .

والجزيرة أمام الزحف السلجوقي ، مثل الإمارة المرداسية والنميرية والعقيلية والمروانية وإمارة بني قشير في قلعة جعبر . وبالتالي فان الكثير من جنود هذه الإمارات الذين احترفوا الجندية باتوا بغير عمل ، وأخذوا يعملون كجنود مرتزقة للحصول على الرزق لدى القادة والزعماء ذوي الطموح السياسي . ويمكن أن نضيف الى هؤلاء أيضاً بعض الأفراد من جماعات الأحداث داخل مدن الشام، الذين ارتكبوا بعض الجرائم داخل مدنهم ، أو شاركوا في حركات العصيان والتمرد على الحكام، وأصبحوا مطاردين من قبل السلطات الحاكمة، لذلك انخرطوا ضمن جماعات البطالين والمرتزقة . ونظراً لأن بلاد الشام لم تحظ خلال الفترة السابقة لوصول الفرنج بزعيم كفء، يأخذ على عاتقه حشد تلك الطاقات البشرية وتوحيد القوى الإسلامية ، وبث روح الجهاد فيها في سبيل توحيد بلاد الشام وتماسكها للوقوف أمام الغزاة الصليبيين ، فإن العساكر البطالين أصبحوا مدعاة للقلق والاضطراب السياسي، وقدموا خدماتهم العسكرية لمن يدفع لهم الثمن من القادة والزعماء العسكريين، الذين أصبح لا هم لهم سوى انشاء إمارات خاصة بهم والدخول في منازعات لا تنتهي .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الانقسام والتفكك والانهيار الذي أصاب دولة السلاجقة في الشام كان مظهراً من مظاهر ما أصاب بلاد الدولة السلجوقية في الشرق . فقد واجه السلطان بركياروق الكثير من حركات التمرد والعصيان ، وانتشرت موجات عارمة من الفتن في معظم أرجاء دولته[١] . ولعل ما واجهه بركياروق من مشكلات سياسية وغيرها داخل

---

(١) لتفصيل ذلك انظر ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ الصفحات ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ - ٢٦٨ ، ٢٨١ - ٢٨٢ ، ٢٨٧ - ٢٩٠ .

بقايا مملكته يفسر لنا الموقف السلبي الذي وقفه ازاء غزو الصليبيين لبلاد الشام .

وخلاصة القول أنه إذا كان السلاجقة قد أثبتوا في وقت من الأوقات أنهم سيوف الإسلام ، الذائدون عنه ، فإن هذه القوة لم تلبث أن انفلت وتفتت عند فجر الحروب الصليبية مما كان له أكبر الأثر في نجاح الحملة الصليبية الأولى[1] .

انهيار النفوذ الفاطمي في بلاد الشام

وواكب تنازع القوى السلجوقية في بلاد الشام انهيار النفوذ الفاطمي بالشام . فقد تعرضت الخلافة الفاطمية للضعف والتدهور مما جعلها عاجزة عن الاحتفاظ بنفوذها في بلاد الشام . والمتأمل في تاريخ الدولة الفاطمية يستطيع أن يلمس ما أصابها من ضعف خلال عهد الخليفة المستنصر ، نتيجة الأزمات الاقتصادية وبخاصة الشدة المستنصرية واضطراب جهاز الحكم وتمرد الجند[2] .

وأدرك الوزير الفاطمي بدر الجمالي بعد فشل محاولاته في استرداد دمشق أنه من الأفضل أن يتجنب الدخول في منازعات مع السلاجقة على المناطق الداخلية من بلاد الشام[3] . وانصرف إلى إعادة تنظيم الدولة

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ١١١ .

(٢) سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية في بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ١٦٥ ـ ١٦٧ : انظر أيضاً ، نظير سعداوي ، الحرب والسلام ص ٧ ـ ٩ .

(٣) انظر ما سبق الفصل الثاني ص ١٦٤ ، ١٧٢ .

الفاطمية في مصر من الناحيتين الإدارية والحربية . وحاول بدر الجمالي المحافظة على القواعد الفاطمية في عكا وصور وغيرها ، وعلى سبيل المثال فإنه أرسل سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م القائد منير الدولة الجيوش على رأس حملة بحرية تمكنت من استعادة صور وبعض مدن الساحل الشامي حتى جبيل[١] . على أن هذه المحاولة حملت في طياتها كل دلائل الضعف، إذ قام الوالي الفاطمي الذي أعاد تلك المدن الساحلية إلى حظيرة الدولة الفاطمية وهو منير الدولة الجيوش، بإعلان التمرد على بدر الجمالي في صور سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م . ويبدو أن منير الدولة أراد الإفادة من انحسار النفوذ الفاطمي عن بلاد الشام ، والاستقلال بصور وتكوين أسرة حاكمة على غرار تلك التي أقامها القاضي ابن أبي عقيل في صور (٤٥٥ ـ ٤٨٢ هـ) . وعندما سمع بدر الجمالي بنبأ عصيان منير الدولة ، جرد حملة بحرية سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م بقيادة ابنه الأفضل ، استرد بها صور وقبض على منير الدولة وجميع أنصاره ، وأرسلهم الى مصر حيث تم قتلهم . وقام الأفضل بنهب مدينة صور وفرض على سكانها مبلغاً كبيراً من المال مما كان له أسوأ الأثر في نفوس أهل صور . وأثناء عودة الأفضل بجيشه الى مصر ، تمكن من استرداد مدينة يافا من اتباع تاج الدولة تتش[٢] .

على أن الفتنة في صور سرعان ما أطلت برأسها من جديد سنة

---

(١) انظر ما سبق الفصل الثاني ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ١٠٥أ ؛ الداواداري ، درر التيجان ، ورقة ١٦٦ أ ؛ ابن القلانسي ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ؛ العظيمي حوادث سنة ٤٨٦هـ ؛ ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ٢٢٣ ؛ ابن ميسر، اخبار مصر جـ ٢ ص ٢٩ ؛ ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، جـ ٣ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ ، ١٦٦ ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٢٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية جـ ١٢ ص ١٤٥ .

٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م حينما عصى والي صور الفاطمي ، ويدعى الكتيلة ، فأرسل الأفضل بن بدر الجمالي حملة بحرية حاصرت صور حتى اقتحمتها ونهبت أموالها وقتلت أعداداً كبيرة من سكانها . وتم القبض على الوالي الكتيلة ، وأُرسِل الى مصر حيث جرى قتله[1] . ومن الملاحظ أن صور خلال العصر الفاطمي نزعت دائماً الى الخروج عن سلطان الدولة الفاطمية ، وليس أدل على ذلك من قيام إمارة ابن أبي عقيل في صور فيما بين سنتي ٤٥٥ ـ ٤٨٢ هـ . ولعل ما شهده أهل صور من الثراء أثناء حكم ابن أبي عقيل جعلهم يميلون الى الخروج عن طاعة الدولة الفاطمية بغيـة الاحتفاظ بموارد مدينتهم التجارية .

وتجدر الإشارة إلى أن الخلافة الفاطمية لم تدرك في بداية الأمر طبيعة الحملة الصليبية عند وصول الصليبيين الى شمال الشام سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م . ويبدو أن عدم إدراك الوزير الفاطمي الأفضل لهدف الصليبيين هو الذي دفعه الى التفكير في إقامة تحالف بينه وبين زعماء الحملة الصليبية ضد السلاجقة في بلاد الشام ، بحيث تكون انطاكية للصليبيين ويكون بيت المقدس للفاطميين . وربما إستند الوزير في رأيه هذا الى بعض السوابق التاريخية لأن الدولة البيزنطية أيام صحوتها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، لم تتعد أملاكها في بلاد الشام مدينة انطاكية فظن الأفضل أن أولئك الصليبيين انما جاءوا ليفعلوا في بلاد الشام مثلما فعل الأمبراطور نقفور فوقاس والأمبراطور حنا

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ١١٨ أ ؛ ابن القلانسي ص ١٣٣ ـ ١٣٤ ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٦٤ ؛ اخبار مصر جـ ٢ ص ٣٨ ؛ ابن شداد الأعلاق الخطيرة جـ ١٦٦ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٥ ص ١٥٩ ؛ ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ١٥٩ .

الشمشقيق في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . فيقال أن الأفضل أرسل سفارة الى الصليبيين وصلتهم وهم أمام انطاكية حاملة عرضاً خلاصته أن يتعاون الطرفان في القضاء على السلاجقة في بلاد الشام على أن تقسم الغنيمة بينهما بحيث يكون القسم الشمالي من الشام للصليبيين في حين يحتفظ الفاطميون بفلسطين[1] .

وأشار المؤرخ الصليبي المعاصر للحملة الصليبية ، مؤلف كتاب أعمال الفرنجة الى تلك السفارة التي بعث بها الفاطميون الى زعماء الحملة الصليبية ، بيد أنه لم يشرح طبيعة تلك السفارة ، وما هو العرض الذي حملته إلى زعماء الصليبيين ، الأمر الذي يجعلنا نشك في أن الأفضل أراد التحالف مع الصليبيين ضد المسلمين السلاجقة ، ولا سيما أن السلاجقة بعد تفككهم لم يعودوا يشكلون أي خطر على الدولة الفاطمية . وربما كانت تلك السفارة التي بعث بها الأفضل يهدف من ورائها الى معرفة نوايا الصليبيين فقط[2] .

وعندما انهار النفوذ الفاطمي في بلاد الشام رأى الوزير الأفضل الإفادة من الحرب الناشبة في شمال الشام بين الصليبيين والسلاجقة لتحقيق هدفه في استرداد بيت المقدس من الأراتقة . فسار في سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م ، على رأس جيش كبير لحصار بيت المقدس . وكان في مدينة القدس آنذاك سكمان ابن ارتق وايلغازي بن ارتق وكثير من اتباعهما . وعندما تقدم الأفضل بجيشه الى فلسطين حاصر بيت

---

(١) سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ١٧٠ ـ ١٧١ ، انظر أيضاً : أحمد رمضان ، شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى ص ٩٣ .

(٢) انظر كتاب ، اعمال الفرنجة لمؤلف مجهول . ترجمة حسن حبشي ، ص ٥٩ ، ٦٣ .

المقدس ، ونصب عليها أكثر من أربعين منجنيقاً ، حتى تهدمت مواضع من الأسوار ، ووقع القتال بين الجانبين . ولما كان الأراتقة لا يأملون في أية معونة من قبل قوى السلاجقة الممزقة في بلاد الشام ، فقد اذعنوا للصلح وسلموا المدينة للأفضل في شعبان سنة ٤٩١ هـ / اغسطس ١٠٩٨م. وأحسن الأفضل إلى بني ارتق وأتباعهم وسمح لهم بمغادرة بيت المقدس في أمان . وقام الأفضل بتنظيم أمور بيت المقدس وأعاد عمارة ما تهدم من أسواره واستحكاماته . وعهد بولاية بيت المقدس الى رجل يدعى افتخار الدولة ، وعاد الأفضل الى مصر . ولم يبق بيت المقدس بيد الفاطميين سوى عام واحد ، حيث سقط أمام جيوش الصليبيين[1] .

وهكذا مهد الخلاف المذهبي والعداء السياسي بين الفاطميين والسلاجقة الطريق أمام الصليبيين للمضي قدماً في حملتهم على بلاد الشام دون أن يواجهوا مقاومة فعالة .

---

(١) ابن فضل اللّه العمري ، مسالك الأبصار جـ ١٦ ورقة ١١٧ أ ؛ ابن القلانسي ص ١٣٥ ؛ الأزدي ، أخبار الدول المنقطعة ، قسم الفاطميين ص ٨٢ ـ ٨٣ ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٤ ؛ ابن ميسر ، اخبار مصر ، جـ ٢ ص ٣٨ ؛ ابن الصيرفي ، الإشارة إلى من نال الوزارة ، ص ٦٠ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ٩٧ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ص ٢٢ .

دور الأقليات الدينية والعرقية
في انقسام وتمزق بلاد الشام

وبالاضافة إلى التمزق السياسي الذي خيم على بلاد الشام قبيل وصول الفرنج ، فقد شهدت مدن الشام وقراه كثيراً من الانقسامات اللغوية والمذهبية والعرقية . فمن الناحية اللغوية كانت اللغة العربية هي السائدة بين المسلمين من غير الأتراك والمسيحيين اليعقوبيين واليونانيين . وظلت اللغة العربية مستعملة في انطاكية واللاذقية على الرغم من الصفة البيزنطية التي تغلب عليها . أما اللغة الأرمنية فقد كانت منتشرة بين الأرمن دون غيرهم . بينما سادت اللغة التركية بين التركمان الذين استقروا في آسيا الصغرى والجزيرة وشمال الشام[٢] .

أما الأقليات المذهبية التي لعبت دوراً هاماً في تفكك بلاد الشام قبيل الحملة الصليبية فانها تظهر في الجهات الجبلية من بلاد الشام . ذلك أن سلسلة جبال لبنان والمعروفة عند العرب بجبل السماق ، كانت موطن المارونيين المسيحيين، ومأوى المتمردين والمنشقين ، حيث أقاموا بها من النظم التي بلغت من القوة ما جعلها تتحدى كل ما عند الأمراء المسلمين من جيوش وقوات . فخلال القرن السابق للحملة الصليبية الأولى تمكنت نحلتان متطرفتان لا تمتان للإسلام بصلة من اتخاذ تلك المعاقل موطناً ومستقراً لها . والنحلة الأولى تتمثل في الدروز وهم فئة نشأت في أعقاب اختفاء الخليفة الفاطمي الحاكم سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م وتدين

---

(١) العريني ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، ص ٢٩ ؛ Cahen, La Syrie du Nord al'Epoque des Croisades, p. 189.

بألوهيته ، وتنتمي هذه النحلة الى مؤسسها محمد بن اسماعيل الدرزي . واستقر أصحاب هذا المذهب بين السكان النازيين بالمرتفعات جنوب لبنان ، وانتشروا في الجهات الواقعة على الهضبة بين نهر العاصي وحلب والمعروفة بجبل السماق[١] .

أما النحلة الثانية فهي المعروفة بالنصيرية التي وطدت نفوذها بين العشائر اليمنية في المناطق الجبلية الواقعة جنوب انطاكية . والنصيرية طائفة من غلاة الشيعة يبدو أنها تنتسب الى محمد بن نصير الكوفي الذي عاش في أواخر القرن الثالث الهجري . ومذهب هذه الطائفة لا يعرف عنه الا القليل ، نظراً لأن أصحابه لا يظهرونه للناس وتعاليمه مقصورة على أفراد الطائفة نفسها . وما عرف عن مذهب النصيرية يتلخص في أنهم يؤلهون علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ويعتبرونه آخر مراحل التجسد الإلّهي ، وأضفوا عليه الكثير من الصفات الإلّهية . كما يرون في عبد الرحمن بن ملجم ، قاتل علي ، أفضل الخلق لأنه ـ حسب زعمهم ـ خلّص روح اللاهوت من ظلمة الجسد وكدره . ويظهر أن مذهب النصيرية يمثل خليطاً من آراء شيعية متطرفة ، نبتت في أصل وثني ثم تبنوا بعض الظواهر المسيحية السطحية ، فمثلاً يحتفلون جماعياً لأداء بعض شعائرهم بما يشبه القداس عند النصارى ، كما يستخدمون بعض الأسماء الشائعة عند المسيحيين[٢] .

---

(١) العريني ، الشرق الأوسط ص ٢٦ ؛ .Gibb, op. cit. pp. 28-29 . انظر ما سبق ، ص ٢١٣ حاشية رقم (٤) .

(٢) ابن حزم ، الفصل في الملل والنحل ، جـ ٤ ص ١٨٣ ـ ١٨٨ ؛ الشهرستاني الملل والنحل ص ١٩٥ ـ ١٩٧ ؛ فيليب حتي ، تاريخ سورية جـ ٢ ص ٢١٩ ـ ١٢١ ، .Gibb, op. cit. p. 29 .

وفيما بين مواطن النصيرية في الشمال والدروز في الجنوب انتشرت طائفة المارونيين المسيحيين وينتسب المارونيون الى القديس مارون الذي لا يعرف عنه إلا القليل وتوفي سنة ٤١٠م. وقد بقيت الطائفة المارونية شوكة في جانب المسلمين منذ الفتح الاسلامي وازداد خطرها زمن الحروب الصليبية بحيث بلغ عدد رجالهم الصالحين للقتال أربعين ألف مقاتل[١] .

وما حدث من التنافس بين هذه الفرق المختلفة، واتخاذ مواضعها في أعالي الجبال التي تشكل عائقاً طبيعياً أمام الاتصال بين الساحل وداخل بلاد الشام ، أدى ذلك الى ظهور مانع طبيعي وبشري حال دون قيام اتحاد بين المناطق الداخلية والساحل في بلاد الشام . كما أن أصحاب هذه الفرق أصبحوا يترددون بين سياسات مختلفة، فلم يعرف عن النصيرية شيء سوى أن عدداً كبيراً منهم لقي مصرعه على أيدي الفرنج . أما الدروز فانهم انحازوا الى سائر المسلمين، بينما انضم المارونيون الى صفوف الصليبيين وقاتلوا الى جانبهم[٢] .

وبالإضافة الى النصريين والدروز ، ظهرت عند فجر الحركة الصليبية حركة شيعية كانت أبعد أثراً وأكثر خطورة في تاريخ بلاد الشام . وأخذت تتشكل وتنتظم في شمال الشام . وهذه الحركة هي المعروفة بالباطنية[٣] ، أو الحشيشية أو الفداوية . وهي نحلة انفصلت عن

---

(١) أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ص ٦٢ ـ ٦٣ .

(٢) العريني ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٣) الباطنية فرقة من الإسماعيلية الذين يثبتون الإمامة في إسماعيل بن جعفر الصادق . والباطنية لقب من ألقابهم لقولهم « ان لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً » وقد أسس حركة الباطنية الحشيشية الحسن بن محمد الصباح الذي سافر من إيران وقابل =

المذهب الفاطمي . وعلى الرغم من أن نشاطهم لم يبدأ الا بعد وصول الصليبيين ، فإنه تجدر الإشارة لذكرهم وذلك لاستخدامهم الاغتيال طريقاً للتخلص من خصومهم ، ولما كان لهم من أثر كبير في توليد روح الكراهية بين السكان تجاه الحكام الترك والأمراء المحليين الآخرين، فضلاً عما نشره الباطنية من رعب وفزع في بلاد الشام أسهم الى حد كبير في وضع العراقيل أمام توحيد الجبهة الاسلامية[1] .

أما الأقليات العرقية التي لعبت دوراً هاماً في انقسام وتمزق بلاد الشام قبل الغزو الصليبي فهم الأتراك والأرمن وبصورة أقل الاكراد . وقد سبق الحديث عن العنصر التركي وغزوهم لبلاد الشام . وعلى الرغم من أن تدفق التركمان على بلاد الشام كان مصدراً دائماً للقلق والاضطراب فإن ما يجدر الإشارة اليه هو أن قدوم هؤلاء التركمان الذين عاشوا على الرعي والسلب ، لم يؤد الى تغييرات جوهرية في التركيب السكاني لبلاد الشام . فالذي حدث هو أن معظم الأمراء العرب حل مكانهم أمراء من الترك وظلت غالبية السكان من العرب . وتفصيل ذلك

= المستنصر وتلقى منه اصول الدعوة وعاد إلى فارس واستولى سنة ٤٧٣هـ على قلعة الموت التي عرفت باسم عش العقاب لمناعتها وحصانتها . ووضع الحسن الصباح لاتباعه تنظيماً دقيقاً وقسمهم إلى خمس مراتب . وألف كتاباً من أربعة فصول ضمنه أهم مبادىء دعوته . وجند فئة من اتباعه عرفت باسم الفدائيين او الحشيشية لتعاطيهم الحشيش اثناء تنفيذ عملياتهم ، وتميزت طائفة الحشيشية بقوة ابدانها وطاعتها العمياء لزعمائها، فهم لا يتحرجون عن اغتيال خصومهم بالخناجر مهما كانت النتائج حتى اتخذوا من الاغتيال فناً . انظر الشهرستاني ـ الملل والنحل ص ١٩٨ ـ ٢٠٧ ؛ محمد أبو زهرة ، تاريخ المذاهب الإسلامية جـ ١ ص ٦١ ـ ٦٢ ؛ فيليب حتي ، تاريخ سورية جـ ٢ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

(١) الباز ، العريني ، الشرق الأوسط ص ٢٧ ؛ Cahen. La Syrie du Nord, p. 191.; Gibb, op. cit. pp. 29-30.

أن الاستيطان والاستقرار يتطلب قدوم جماعات كثيرة من التركمان وهذا ما حدث في أرمينيا وقبادوقيا على أطراف آسيا الصغرى . غير أن ذلك الاستيطان لم يكن تاماً . ولم يجر استقرار التركمان في آسيا الصغرى الا بعد فرار أعداد كبيرة من التركمان من وسط آسيا أمام التتار في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي . وقد رأينا فيما سبق أن التركمان قدموا إلى بلاد الشام خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، ومع ذلك فإنهم لم يشكلوا الا أقلية في المناطق التي نزلوا بها[١] .

اما الأرمن فقد اقاموا لهم إمارات في شمال الشام والجزيرة والجزء الجنوبي من آسيا الصغرى . فقد نجم عن توسع السلاجقة في هضبة ارمينية هجرة اعداد كبيرة من الأرمن عن مواطنهم الأصلية الى الاقاليم الواقعة غربي الفرات وشماليه . وقد اشتدت هجرة الأرمن عقب انتصار السلاجقة في معركة ملازكرد (سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م) ، فلجأ كثير منهم الى جبال طوروس المعروفة عند المؤرخين العرب بجبال اللكام ، وإلى إقليم قيليقية وشمال بلاد الشام والجزيرة مثل انطاكية والرها واللاذقية وارتاح وافامية وتل باشر . وقد اختار الأرمن هذه المناطق لبعدها عن الطرق الرئيسية التي سلكها السلاجقة في غزواتهم وأصبحت هذه المناطق التي نزح إليها الأرمن تعرف باسم ارمينية الصغرى[٢] . ولم

---

(١) انظر ، العريني ، الشرق الأوسط ص ٣٠ ؛ .Cahen, La Syrie du Nord, p. 190 .

(٢) سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة ارمينية الصغرى في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ ؛ رونسيمان ، الحروب الصليبية جـ ١ ص ١١٢ ـ ١١٣ ؛ بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٤٠٢ ؛ علية الجنزوري ، إمارة الرها الصليبية ص ١٢٢ ، دائرة المعارف الإسلامية (مادة ارمينية) ؛ Cahen, La Syrie du Nord, p.190.;The Cambridge Medieval History, Vol. IV, pp.628- 629.

تقتصر هجرة الأرمن على المناطق الشمالية من بلاد الشام بل هاجرت اعداد اخرى إلى جنوب الشام . بيد انهم لم يلبثوا في جنوب الشام إلا فترة قصيرة . فعندما استنجد الخليفة الفاطمي المستنصر بوالي عكا بدر الجمالي سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م سار بدر من عكا بمائة مركب مشحونة بالأرمن وبفضلهم تغلب بدر الجمالي على العناصر الثائرة ضد الخليفة المستنصر من الأتراك والسودان[١] .

استغل زعماء الأرمن ضعف الدولة البيزنطية وعدم قدرتها على الوقوف أمام غزو السلاجقة ، وشرعوا في انشاء إمارات خاصة بهم . وكان فيلاريتوس براخاميوس Philaretos Brakhamios على رأس زعماء الأرمن الجسورين الذين أفادوا من عجز الدولة البيزنطية عن حماية اراضيها في جنوب شرق آسيا الصغرى وأقام إمارة مستقلة حول مرعش، ورفض الاعتراف بالتبعية للامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع . ثم استولى فيلاريتوس على ملطية، وبسط نفوذه على طرسوس والمصيصة وعين زربة . وفي سنة ٤٧١هـ/ ١٠٧٧م استولى فيلاريتوس على الرها من الدولة البيزنطية . وفي السنة التالية قام سكان انطاكية بتسليمها إلى فيلاريتوس خوفاً من وقوعها بأيدي السلاجقة[٢] . ولما عزل الامبراطور ميخائيل السابع عن العرش سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٧٨م اعلن فيلاريتوس ولاءه

---

(١) المقريزي ، المقفي ، ورقة ٢٤٢ ب .

(٢) سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة ارمينية في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ ؛ The Cambridge Medieval History, Vol. IV. p. 628. مرعش : مدينة في الثغور بين بلاد الشام وبلاد الأرمن ، أما ملطية فكانت من بلاد الروم المشهورة تتاخم بلاد الشام . انظر ياقوت : معجم البلدان .

للامبراطور الجديد نقفور (Nicephorus) الذي أقره على ما بيده من البلاد[1] .

وقد اتبع فيلاريتوس سياسة الحيطة والحذر ازاء جيرانه الاقوياء كي يحافظ على إمارته من الخطر . ولهذا قام بإعلان تبعيته للامير مسلم بن قريش العقيلي، وقدم له الجزية بعد ان بسط مسلم نفوذه على حلب وحران واصبحت مملكتـه الجديـدة مجاورة لإمـارة فيلاريتـوس في الـرهـا وانطاكية[2] . كما عمل فيلاريتوس على التقرب الى السلطان السلجوقي ملكشاه وأرسل اليه يعلن استعداده للدخول في طاعته ودفع الجزية له[3] . ويبدو ان سياسة فيلاريتوس ازاء السلطان ملكشاه جعلت بعض الباحثين[4] يرجحون اعتناق فيلاريتوس للإسلام على انه لا يوجد في المصادر المتداولة ما يؤيد هذا الرأي .

ولم تلبث امارة فيلاريتوس ان انهارت ، فسقطت انطاكية بيد سلطان سلاجقة الروم سليمان بن قطلمش سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٥م كما قام سكان الرها بتسليم مدينتهم سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٧م إلى السلطان ملكشاه الذي اقطعها لقائده بوزان[5] . وهنا نلاحظ ان قصر الفترة التاريخية بين فتح سليمان بن قطلمش انطاكية سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٥م واستيـلاء

---

(١) رونسيمان ، الحروب الصليبية جـ ١ ص ١١٠٤ ، The Cambridge Medieval History, Vol. IV. p. 128.

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٥٥ ب ـ ٥٦ أ ؛ رونسيمان ، الحروب الصليبية جـ ١ ص ١١٤ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٦٠ ب ـ ٦١ أ .

(٤) انظر ، عليه الجنزوري ، امارة الرها الصليبية ، ص ٤١ .

(٥) انظر ما سبق الفصل الثاني ص ١٧٦ ـ ١٧٨ ، ١٨٥ ، ١٩٠ .

الصليبيين عليها سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م امر له دلالته بالنسبة لتاريخ الحركة الصليبية ، لأن تلك المدة القصيرة لم تكف لمحو معالم الحكم البيزنطي وازالة الادارة البيزنطية من انطاكية ، مما جعل الدولة البيزنطية تصر على التمسك بحقها الشرعي في انطاكية منذ اليوم الأول الذي قامت فيه امارة انطاكية الصليبية[١] .

ولم يعن سقوط إمارة فيلاريتوس سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٥م نهاية العنصر الأرمني في هذه المناطق حيث ظل الأرمن ينتشرون حول ملطية والرها وانطاكية وتل باشر وغيرها . وقد قبل الأرمن الخضوع للسلطان ملكشاه في سبيل الإفادة من السلام الذي خيم على المناطق الشمالية من بلاد الشام أثناء حكم السلطان ملكشاه ، غير انه عندما حدث التداعي والانقسام بعد موته سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م سرعان ما عمد الأرمن بدافع من مسيحيتهم ونعرتهم إلى الاستقلال بهذه المناطق عن القوى الاسلامية الاخرى[٢] . ومن أمثلة ذلك قيام أحد أتباع فيلاريتوس واسمه جبريل Gabriel بالاستقلال بملطية وقيام أحد القادة الارمن ويدعى ثوروس Thoros بالإستيلاء على الرها سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م وذلك اثناء انشغال تتش بنزاع الوراثة السلجوقية مع ابن اخيه بركياروق . ورغم ان ثوروس عاد في سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م وخضع للسلاجقة كما سبق ذكره، فانه استغل ما ساد بين سلاجقة الشام من نزاع ، فطرد الحامية السلجوقية من الرها واستقل بها ، وظل يحكمها حتى وصول الصليبيين إليها . وإلى الغرب من الرها ورث كوخ فاسيل واخوه املاك فيلاريتوس فيما بين مرعش وقلعة الروم . وفي المنطقة الواقعة غرب جبل اللكام (طوروس)

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ١ ص ٩٨ .

(٢) Cahen, La Syrie du Nord, p. 190.

قامت اسر ارمنية اشهرها اسرة قسطنطين الروبيني[١] .

ولم يقتصر النفوذ السياسي للأرمن في شمال الشام على انشاء إمارات خاصة بهم فقط ، بل شاركوا فيما وقع من النزاع بين قادة السلاجقة في بلاد الشام ، إذ استخدم بعض القادة السلاجقة الأرمن في جيوشهم ، فقد ذكر ابن العديم اثناء حديثه عن معركة قنسرين بين دقاق ورضوان سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م انه عندما هُزِمَ ياغي سيان ، قام المزارعون بقتل اعداد كبيرة من الأرمن الذين جندهم ياغي سيان في جيشه[٢] .

وانتهز الأرمن فرصة وصول الصليبيين إلى شمال الشام فقاموا بشن الغارات على بعض القرى التي في حوزة المسلمين ، ومن أمثلة ذلك الاغارة التي قام بها الأرمن ضد أعمال حلب اوائل سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م حيث وصلوا الى تل قباسين وقتلوا سكانها من المسلمين ، فخرج سكان القرى المجاورة من المسلمين في صحبة فرقة من الأتراك ، وطاردوا الأرمن وقتلوا منهم جماعة ،وأرغموا الفارين على الالتجاء الى بعض الحصون ،فلحق بهم عسكر حلب ، وقتل بعضهم وساق منهم ألفاً وخمسمائة رجل أسرى إلى حلب ، كما يقول[٣] ابن العديم .

وخلاصة القول ان وجود الأرمن في شمال الشام والجزيرة وجنوب

---

(١) The Cambridge Medieval History Vol. IV, p. 628.. وقلعة الروم : قلعة حصينة في غربي الفرات ، مقابل البيرة ، كانت تقع بينها وبين سميساط . انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٣٢ ، وتل قباسين : قرية من قرى العواصم من اعمال حلب . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

آسيا الصغرى زاد من الاضطراب قبيل الحملة الصليبية كما مهد الأرمن السبيل أمام جحافل الصليبيين للمضي قدماً في حملتهم إلى بلاد الشام ، لما قدموه من مساعدات ومؤ ن للصليبيين حيث وجد الأرمن في الصليبيين خير حليف ضد السلاجقة والبيزنطيين على السواء . وساعد الحكم الأرمني في هذه المناطق على تأسيس إمارة الرها الصليبية كأول امارة صليبية في الشرق[1] .

ومن الأقليات العرقية في بلاد الشام قبيل قدوم الصليبيين الأكراد . ويبدو ان قرب موطن الأكراد ومناطق تجمعهم في كردستان وشمال الجزيرة وشرق آسيا الصغرى وغرب إيران جعل من السهل على الأكراد ان يفدوا على بلاد الشام . ومن المرجح ان الضغط السلجوقي على مواطن الأكراد الأصلية دفعت اعداداً منهم الى الجلاء إلى بلاد الشام . واصبح من المألوف في ذلك العصر دخول شخصيات كردية في خدمة إمارة بني مرداس في حلب . بل عاش في مدينة حلب طائفة كبيرة من الأكراد وعلى سبيل المثال كانت أسرة آل الخشاب الكردية من ابرز وأعرق الأسر في حلب خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي[2] . ومما يدل على تواجد الأكراد في بلاد الشام ان بعض المناطق اصبحت تنسب إلى الأكراد مثل حصن الأكراد الذي كان يسمى حصن السفح ، فمنحه الامير شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس لجماعة من الأكراد سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م فقاموا بتحصينه حتى نسب إليهم . وظل الحصن بيد الأكراد حتى سقط بيد الامير الصليبي تنكريد

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ص ٩٩ .

(٢) Zakkar, op. cit. p. 238.

صاحب انطاكية سنة ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م[١] .

وهكذا لم يكن سكان بلاد الشام متناسقين في التركيب العرقي رغم الغالبية العظمى التي تكونت من العرب والمستعربين الذين يتكلمون اللغة العربية . ويضاف إلى ذلك أن اعداداً كبيرة من السكان في شمال الشام انتموا الى كنائس البيزنطيين والنسطوريين واليعقوبيين . وظهر تأثير اليعاقبة في شمال الشام خلال الحكم السلجوقي حتى انهم تمكنوا اثناء حكم ياغي سيان من بناء كنيستين في انطاكية وهو ما يشير إلى التسامح الذي نعم به المسيحيون في ظل الحكم السلجوقي[٢] . كما أن المسلمين في بلاد الشام انقسموا بين المذهب السني والمذهب الشيعي اذ انتشر مذهب السنة بين المسلمين في منطقة دمشق وفلسطين بحيث اصبحت اكثرية السكان في هذه المناطق من السنة ، بينما ساد المذهب الشيعي في شمال بلاد الشام[٣] . وبالإضافة إلى ذلك فقد وجدت أقلية يهودية لا تذكر في شمال الشام مثل مدينة حلب . واشتغل اليهود بالصناعات المختلفة في حلب وانطاكية . وكان لهم في حلب حي خاص بهم عرف باسم الحي اليهودي وكان اليهود يتكلمون العربية بلهجة خاصة[٤] .

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة جـ٣ ص ١١٥ ؛ سعيد عاشور ، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ٤٦ ـ ٤٧ ، حصن الأكراد : حصن منيع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب وهو بين حمص وبعلبك . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) Cahen , La Syrie du Nord, p. 191; Gibb, op. cit., p. 30.

(٣) Cahen, La Syrie du Nord, pp. 190- 191.

(٤) Zakkar, op. cit. p. 238., Cahen, La Syrie du Nord, p. 191.

وهكذا لعبت الأقليات الدينية والعرقية في بلاد الشام دوراً كبيراً في تمزق بلاد الشام عشية وصول الصليبيين إلى انطاكية .

وصول الصليبيين إلى أسوار انطاكية ٤٩٠ ـ ٤٩١هـ

وأدى تنازع القوى والأوضاع السياسية المتدهورة في بلاد الشام والجزيرة وغيرها من بلدان الشرق الإسلامي إلى عدم وجود قوة إسلامية قادرة على صد الحملة الصليبية الأولى . ولم يكن نجاح هذه الحملة الصليبية ناتجاً عن التمزق الذي شهدته بلاد الشام فحسب بل أيضاً إلى ما حدث من التفكك والانقسام في آسيا الصغرى تحت زعامة السلاجقة الذين عرفوا باسم سلاجقة الروم .

فلقد ترتب على مقتل سليمان بن قطلمش سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م[١] بقاء آسيا الصغرى دون حاكم قوي يأخذ على عاتقه مهمة توطيد النفوذ السلجوقي في آسيا الصغرى . ولم يكن الأمر قاصر على النهاية المؤلمة لسليمان بن قطلمش بل ان السلطان ملكشاه عندما تسلم انطاكية سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م أخذ معه اثناء عودته إلى خراسان قلج ارسلان بن سليمان خوفاً من قيامه بتوطيد نفوذه في آسيا الصغرى وبالتالي منافسته على زعامة السلاجقة . وظل قلج ارسلان في خراسان حتى وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م عندما اطلق سراحه السلطان بركياروق ، وعاد قلج أرسلان إلى آسيا الصغرى[٢] .

---

(١) انظر ما سبق ، الفصل الثاني ص ١٨٢ .

(٢) Cahen, La Syrie du Nord, pp. 181- 182; The Cambridge Medieval History Vol . IV, p. 740.

وقد اتاحت السنوات التي قضاها قلج أرسلان في خراسان (٤٧٩ ـ ٤٨٥هـ/ ١٠٨٦ ـ ١٠٩٢م) الفرصة لظهور العديد من زعماء التركمان في أقاليم آسيا الصغرى ، عملوا على انشاء إمارات خاصة بهم ، الأمر الذي أدى إلى تفكك سلاجقة آسيا الصغرى . ومن الزعماء الذين عملوا على الخروج عن طاعة سلاجقة الروم ، ابو القاسم امير نيقية ، وزاخاس امير ازمير ، والقائد التركماني غازي بن دانشمند امير كبادوكيا . ولما كانت نيقية عاصمة لدولة سليمان بن قطلمش قبيل مصرعه ، فقد اخذ اميرها أبو القاسم يعمل على توسيع رقعة نفوذه ، آملاً في أن يحل محل بيت آل قطلمش في آسيا الصغرى(١) .

وبعد مقتل أبي القاسم سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م ظهر منافس آخر للسلطان قلج أرسلان في آسيا الصغرى هو زاخاس (جكا) امير ازمير ، الذي شيد اسطولاً هدد به الدولة البيزنطية . وحاول قلج ارسلان الاتفاق مع زاخاس فتزوج ابنته غير ان الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين (١٠٨١ ـ ١١١٨ م)استطاع بسياسته الماكرة ان يفرق بين قلج ارسلان وحميه زاخاس . وانتهى الامر بقيام قلج أرسلان بقتل زاخاس والوصول إلى تسوية بين قلج ارسلان والامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين(٢) .

ولكن السلطان السلجوقي قلج ارسلان وجد انه من الصعب توطيد نفوذه ازاء امراء التركمان، وبخاصة ملك الدانشمند الذي نزع إلى توطيد

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ١ ص ١١٥ ،

The Cambridge Medieval History, Vol. IV, pp. 740- 741.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ص ١١٥ ـ ١١٦ ، العريني ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ١١٥ ـ ١١٦ .

نفوذه في أعالي الأناضول[1] . وظل التنافس وسوء العلاقات مستحكماً بين قلج ارسلان وإمارة الدانشمند التركمانية بحيث لم تتحد القوتان إلا عندما ادركتا ان الجيوش الصليبية توشك ان تعصف بهما جميعاً[2] .

وهكذا في الوقت الذي عانت فيه آسيا الصغرى من التفكك والانقسام شأنها في ذلك شأن بلاد الشام وغيرها من بلدان الشرق الإسلامي ، تبلورت في غرب اوروبا الروح الصليبية المعادية للإسلام والمسلمين .

والحقيقة ان الحروب الصليبية ليست حركة عابرة في تاريخ الإسلام والمسيحية في العصور الوسطى بل هي حركة كبرى ظهرت في الغرب الأوروبي واتخذت شكل هجوم حاقد على بلاد المسلمين وبخاصة في الشرق الأدنى بقصد امتلاكها . وقد انبعثت هذه الحركة التي حركها الكره والحقد تجاه الإسلام والمسلمين ،عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت غرب اوروبا في القرن الحادي عشر الميلادي . واتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ستاراً دينياً زائفاً للتعبير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق . والحروب الصليبية لها جذور قريبة وبعيدة ، فمن الجذور البعيدة ذلك الصراع الطويل الذي كان قائماً ضد المسلمين ولا سيما في الأندلس . أما الجذور القريبة فتتلخص في الدور الذي أرادت البابوية في غرب اوروبا القيام به لتحقيق سيادة البابوية في الشرق ، هذا بالإضافة إلى الأحوال النفسية والعقلية في

---

(١) The Cambridge Medieval History, Vol. IV. p. 740.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ص ١١٦ .

اوروبا التي كانت تحمل الحقد الأعمى للإسلام والمسلمين[١] .

ولن نتعرض هنا بإسهاب الى شرح أسباب ودوافع الحركة الصليبية وإنما تجدر الإشارة إلى أن أهم أسباب الحروب الصليبية هو عداء المسيحيين الأوروبيين للمسلمين وبالتالي يمكن اعتبار الحملات الصليبية امتداداً على نطاق اوسع لتلك الحروب التي شنها المسيحيون على بلاد المسلمين في الأندلس وحوض البحر المتوسط . فقد نجم عن هجمات المسيحيين في الأندلس سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م سقوط طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس ، وفي سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م استولوا على صقلية واغاروا على شمال افريقية[٢] . أضف إلى ذلك ، ما بلغته البابوية في غرب اوروبا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي من نفوذ وقوة وسيطرتها على قلوب الناس ، بحيث بات البابا يتطلع في شغف إلى جعل سلطة كنيسة روما عالمية الطابع لينضوي تحت لوائها جميع المسيحيين في الشرق والغرب على السواء وبالتالي اصبحت الكنيسة الغربية تسعى إلى السيطرة على الأماكن المقدسة في فلسطين لتحقيق ذلك الهدف[٣] . وهكذا استجابت البابوية لنداء الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين الذي أخذ يرسل النداءات إلى البابا أوربان الثاني Urban II. طالباً منه إرسال نجدة تقف إلى جانبه لمقاومة تقدم السلاجقة

---

(١) انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٦ ؛ صلاح الدين البحيري ، الاعداد المعنوي للحرب الصليبية المضادة ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٢١ ص ١٧ - ٢٣ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٢ ؛ انظر : العيني ، عقد الجمان ، جـ ١١ ورقة ١٢١ أ .

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٣ ، ارنست باركر ، الحروب الصليبية ص ١٦ .

المسلمين في آسيا الصغرى . ولم يكن الكسيوس يطلب في تلك النداءات أكثر من كتيبة من الفرسان لمساعدته في استرداد آسيا الصغرى[1] . أما ما زعمه المسيحيون الأوروبيون من اضطهاد المسيحيين في الشرق على أيدي المسلمين فهو زعم باطل ، فقد عاش المسيحيون في أمان وسلام طيلة تاريخ الدولة الإسلامية . وكان المسيحيون الذين خضعوا للحكم السلجوقي اسعد حالاً من اخوانهم الذين عاشوا في داخل الدولة البيزنطية . ولم تذكر المصادر التاريخية المتداولة خبر أي حادث اضطهاد للمسيحيين في بلاد الشام قبل الغزو الصليبي[2] .

ويضاف إلى ذلك ان سوء الأحوال الاقتصادية في غرب اوروبا وبخاصة في فرنسا زادت من حقد المسيحيين الأوروبيين لبلاد المسلمين في الشرق . ففي اواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، كثرت الحروب بين الأمراء الاقطاعيين في غرب اوروبا ، وتعرضت القرى الزراعية للنهب والسلب والتخريب على أيدي قطاع الطرق الأوروبيين ، مما أدى الى تدهور الزراعة بشكل كبير ، ومعاناة جموع الفلاحين وعبيد الأرض من أحوال معيشية سيئة وانتشار الاوبئة . أما المدن التجارية في إيطاليا وغيرها فقد اسرعت بالمساهمة في الحملة الصليبية بغية تحقيق مصالحها الاقتصادية ، عن طريق السيطرة على موانىء الشرق الغنية وطرق التجارة العالمية[3] . كما ان طبقة المزارعين في

---

(١) باركر ، الحروب الصليبية ص ١٦ ؛

Painter A History of the Middle Ages, p. 200.

(٢) انظر : سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٠ ـ ٣١ .

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٤ ـ ٣٧ ، رونسيمان ، الحروب الصليبية جـ ١ ص ١٧٠ ـ ١٧١ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ص ٢١ ـ ٢٢ ، البحيري ، الأعداد المعنوي للحرب الصليبية المضادة ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

غرب اوروبا ، عانت الكثير من ضروب الذل والهوان والفاقة في ظل النظام الاقطاعي واضحت حياتهم في اوروبا لا تطاق ، وبالتـالي وجدوا في الحروب الصليبية فرصة هيأت لهم الخلاص من القيود التي يعيشون فيها . كما وجد الفرسان والأمراء في الحروب الصليبية فرصة لاشباع روح المغامرة التي صبغت حياتهم الخاصة والعامة[١] .

كما تجدر الإشارة إلى ان ازدياد خطر النورمان على صقلية وجنوب ايطاليا جعل البابوية تسعى جاهدة لتحويل طاقات النورمان الحربية إلى ميدان آخر بعيد ، وأفضل ميدان لدى البابا هو دفع النورمان للمشاركة في الحروب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين[٢] . كما وجد الكثير من الامراء والفرسان في الحروب الصليبية فرصة لتحقيق مطامحهم في انشاء إمارات لهم في بلاد الشرق الأدنى على حساب المسلمين[٣] .

وفي مارس ١٠٩٥م عقد البابا اوربان الثاني مجمعاً دينياً في بياكنزا ، وفي ٢٦ نوفمبر من العام نفسه عقد مجمعاً آخر في كلير مونت الواقعة جنوب شرق فرنسا حيث القى البابا خطابه الشهير الذي دعا فيه إلى القيام بحملة صليبية . وفي خطابه حث جميع المسيحيين على مساعدة البيزنطيين ، وتجريد الجيـوش لمحاربة المسلمين ، وانتزاع الأماكن المقدسـة منهم . ومن الفقرات التي اوردها بعض الحاضرين لخطاب البابا يمكن استشفاف الحقد الأعمى ضد الإسلام والمسلمين . وعين البابا احد رجال الدين واسمه ادهيمر Adhemar نائباً عنه في قيادة

---

(١) سعيد عاشور ، اوروبا العصور الوسطى جـ ١ ص ٤٢٩ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٢٩ .

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ٤١ ؛ البحيري ، الاعداد المعنوي للحرب الصليبية المضادة ص ١٢٤ - ١٢٦ .

الحملة الصليبية . وانتشر خبر خطاب البابا في فرنسا وعمل رجال الكنيسة على استغلال الحماس الديني لحث جموع المسيحيين على الانضمام إلى الحملة الصليبية لشن الحرب ضد المسلمين[1] . وحدد البابا يوم ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦م موعداً لرحيل الصليبيين إلى الشرق . على انه سبق ذلك تحرك جموع كثيرة من العامة بقيادة بطرس الناسك وغيره ، سارت شرقاً إلى القسطنطينية . وارتكبت تلك الجموع اعمالاً شائنة من النهب والسلب واضرام النيران في المنازل والكنائس . وعندما وصلت حملة العامة هذه الى مدينة القسطنطينية عبرت البسفور وشرعت في الإغارة على بلاد السلاجقة . وأوقع السلاجقة بالصليبيين . ولم ينج منهم إلا أعداد قليلة[2] .

وفي تلك الاثناء تألفت الحملة الصليبية من الفرسان (حملة الامراء) الذين اتخذوا الصليب شعاراً لهم . وانضم الى الحملة امراء عديدون على رأسهم ثلاثة امراء مشهورون هم جودفري دي بويون Goodfrey de Bouillon الذي قاد مع اخيه بلدوين الصليبيين القادمين من اللورين ، بينما قام ريموند Raymond امير تولوز مع الاسقف ادهمير المندوب البابوي بقيادة البروفنساليين، في حين قاد بوهيمند Bohemond مع أخيه تانكرد جيشاً من النورمان . ووصلت الحملة الصليبية الأولى إلى القسطنطينية في ربيع سنة ١٠٩٧م في حشد كبير قدّره البعض بنحو ١٥٠

---

(١) اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشي ، ص ١٧ ـ ١٨ ، باركر ، الحروب الصليبية ص ٢٣ ؛ صلاح البحيري ، الاعداد المعنوي للحرب الصليبية ص ١٢٧ ـ ١٣٠ ؛ Painter, op. cit. p. 201.

(٢) اعمال الفرنجة ص ١٨ ـ ٢١ ؛ العريني ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ١٧٦ ـ ١٧٨ .

ألفاً من الرجال الاشداء[1] .

وعندما وصل أمراء الصليبيين بمجموعهم اسوار القسطنطينية استغل الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين الروح الصليبية لدى أمراء هذه الحملة الصليبية فطلب منهم ان يقسموا له يمين الولاء بإعادة جميع الاقاليم التي فقدها البيزنطيون للمسلمين منذ زمن قريب[2] . وفي مقابل ذلك تعهد الامبراطور الكسيوس بإمداد الصليبيين بالمؤ ن والعتاد والادلاء براً وبحراً ومساعدتهم بفرق من الجيش البيزنطي في حالة عدم تمكنه من مرافقتهم شخصياً[3] .

وفي شهر جمادى الأولى سنة ٤٩٠هـ/ مايو ١٠٩٧م عبر الصليبيون البسفور إلى آسيا الصغرى واستقر رأيهم على الهجوم على مدينة نيقية عاصمة السلاجقة . وكان السلطان قلج ارسلان آنذاك غائباً عن عاصمته ، بسبب نزاعه مع إمارة الدانشمند التركمانية . ولم يكن قلج ارسلان مهتماً بانباء وصول الصليبيين إلى آسيا الصغرى ، معتقداً ان الامر لا يعدو أن يكون جموعاً أخرى من العامة غير المدربين ، أمثال اتباع بطرس الناسك . وحاصر الصليبيون نيقية ، وقدم الامبراطور البيزنطي الى الصليبيين المساعدة بفرق من الجيش البيزنطي ، وكمية وافرة من المؤ ن والطعام وآلات الحصار . ولم يكن بمقدور قلج أرسلان نجدة عاصمته المحاصرة ، وكل ما فعله أن أرسل الى حامية المدينة يحثها على الصمود أمام الصليبيين . وبعد حصار دام شهراً سقطت نيقية

---

(١) باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) The Cambridge Medieval History, Vol. IV. p. 741.

(٣) اعمال الفرنجة ص ٣١ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ص ١٥٥ ،

Ostrogonsky: History of the Bayzontine State. p. 363.

في جمادى الثانية سنة ٤٩٠هـ/ يونية ١٠٩٧م . ووضع الامبراطور الكسيوس كومنين ـ عن طريق مندوبيه ـ يده على المدينة ، وسمح لحاميتها التركية بالمغادرة في أمان[1] .

وشرع الصليبيون بعد الإستيلاء على نيقية في اختراق آسيا الصغرى وانقسموا شعبتين ، لتسهيل عملية التموين ، وللقضاء على نفوذ السلاجقة في آسيا الصغرى . فسارت احداهما إلى ناحية الشمال الشرقي والأخرى صوب الجنوب الشرقي على ان تلتقيا بعد ذلك عند ضوريليوم في شمال غرب آسيا الصغرى . وكان الجيش الأول من النورمان بقيادة بوهيمند وتنكرد، ونورمان فرنسا بزعامة روبرت . أما الجيش الآخر فكان بقيادة المندوب البابوي ادهيمر ، وجودفري بويون ، وريموند .

وأخيراً ادرك قلج ارسلان ، بعد سقوط نيقية خطورة الصليبيين ، فسارع بمهادنة امير الدانشمند . وصحبه الى الغرب لوقف تقدم الصليبيين عند ضوريليوم . وما أن وصل بوهيمند الى ضوريليوم حتى هاجمهم الترك في جرأة وبسالة أثارت إعجاب الصليبيين فأرسل بوهيمند على عجل إلى بقية الجيوش الصليبية طالباً الإسراع في المسير إلى ميدان المعركة . وفي الوقت نفسه قام بوهيمند بتفقد قواته وحثها على الصمود رغم هجمات الترك الشديدة . وأخيراً وصل الجيش الصليبي الثاني بقيادة جودفري بويون ، وادهيمر وغيرهما . وقام الصليبيون بهجوم شامل في ٢٠ رجب ٤٩٠هـ/ اول يولية ١٠٩٧م ، ونجم عنه هزيمة السلاجقة

---

(١) أعمال الفرنجة ، ص ٣٨ ـ ٤١ ، William of Tyre : History of Deads done Beynd the Sea , Vol. I. pp. 152 - 159 .

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ١ ص ١٥٥ ـ ١٥٩ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ص ٣٣ .

وانتصار الصليبيين واستيلائهم على كميات كبيرة من الدواب والمؤن[1] .

واقتنع قلج ارسلان بعد هزيمته عند ضوريليوم انه لم يعد بمقدوره صد الصليبيين ولذلك لجأ إلى محاولة عرقلة تقدمهم في آسيا الصغرى ، فقام بإخلاء المدن الواقعة على طريق الصليبيين من المؤن والطعام وتدمير كل ما يمكن أن يفيد منه الصليبيون اثناء زحفهم على آسيا الصغرى[2] .

أما الصليبيون فقد ساروا حتى وصلوا إلى سهول قونية الغنية ، ثم دخلوا قونية وواصلوا زحفهم الى هرقلة ، وانزلوا بالسلاجقة هزيمة اخرى عند هرقلة في شعبان سنة ٤٩٠هـ/ اغسطس ١٠٩٧م ، ودخلها الصليبيون ، ولبثوا بها بضعة أيام . ومن هرقلة انفصل تانكرد وبلدوين وسارا إلى اقليم قيليقية ، وشرعا في الاستيلاء على مدنه . أما الجيش الرئيسي فسار جهة الشمال الشرقي نحو قيصرية ، حيث اتصلوا بالأرمن الذين قدموا لهم كل عون ومساعدة . ثم سار الصليبيون جنوباً مرة أخرى ، وفي منتصف الطريق بين انطاكية وقيصرية ، انضم إلى الجيش الصليبي الأساسي بلدوين بعد أن طرد تانكرد من طرسوس ، بيد ان بلدوين لم يلبث ان انسحب من جديدة بفرقة صغيرة من الفرسان ، واتخذ طريقه

---

(١) أعمال الفرنجة ص ٣٨ ـ ٤١ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ١ ص ١٥٩ ـ ١٦٠ ؛ العريني ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٢١٠ ـ ٢١٣ ؛ Ostrogorsky , op. cit. p. 364 .

(٢) أعمال الفرنجة ص ٤٢ ـ ٤٤ ؛ تاريخ العظيمي حوادث سنة ٤٩٠ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ١ ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

شرقاً إلى الرها ، حيث أنشأ بمساعدة الأرمن إمارة الرها الصليبية[1] .

عبر الصليبيون جبال اللكام (طوروس) ووصلوا إلى مرعش فاستقبلهم سكانها من الأرمن وقدموا لهم كميات وفيرة من المؤن والطعام[2] . كما استولى الصليبيون على بغراس وشرعوا في الزحف على انطاكية ، مما شجع المسيحيين الأرمن من سكان القرى والحصون المجاورة لانطاكية على العصيان ومراسلة الصليبيين وذلك « لقبح سيرة يغي سيان وظلمه في بلاده »[3] . وقد اثار وصول الصليبيين إلى شمال الشام موجة عارمة من القلق والذعر في نفوس المسلمين بعد ان ترامى الى اسماعهم اخبار الجموع الكثيفة التي يتكون منها جيش الصليبيين[4] .

بلغ الصليبيون نهر وادي العاصي الذي تقع به مدينة انطاكية . ويشير مؤلف (أعمال الفرنجة) إلى وقوع معركة بين طلائع الصليبيين من الكشافة وبين فرقة من الأتراك يبدو أنها كانت تحمل المؤن والطعام إلى انطاكية . وقد هزم الصليبيون تلك الفرقة وغنموا كمية كبيرة من الدواب المحملة بالطعام والذخائر واخيراً وصل بوهيمند على رأس مقدمة الجيش الصليبي وعددها اربعة آلاف فارس أمام أسوار انطاكية ، وجاء في

(١) أعمال الفرنجة ص ٤٤ ـ ٤٦ ؛ . William of Tyre : op. cit. pp. 189 - 194
بآركر ، الحروب الصليبية ص ٣٤ ، علية الجنزوري ص ٤٦ ـ ٥٦ ،
Ostrogorsky , op. cit. p. 364

(٢) أعمال الفرنجة ص ٤٨ ، William of Type, op. cit. Vol. I, p. 187.

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٣١ ؛ انظر أيضاً ابن القلانسي ص ١٣٤ ؛ العظيمي ، حوادث سنة ٤٩٠ ؛ وبغراس مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين انطاكية أربعة فراسخ . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٤) ابن القلانسي ص ١٣٤ .

أثره سائر القوات الصليبية ، وبدأ حصار المدينة في ٢٠ ذي القعدة ٤٩٠ هـ / ٢١ أكتوبر ١٠٩٧[(١)] .

ويجدر الإشارة هنا إلى ان صاحب انطاكية ياغي سيان كان قد انغمس منذ أقطعه السلطان ملكشاه انطاكية سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م في منازعات البيت السلجوقي ، إذ ساهم ياغي سيان في بعض حملات تتش على بلاد الشام كما سانده في مطالبته بعرش السلطنة السلجوقية . وبعد ان لقي تتش مصرعه سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م تدخل ياغي سيان في النزاع بين ابني تتش رضوان ودقاق تارة ينضم إلى رضوان واخرى إلى دقاق[(٢)] . ولا شك ان ياغي سيان خسر باشتراكه في هذه الحوادث الكثير من الرجال والأموال التي كان يمكن ادخارها لمواجهة الصليبيين وانشغل بذلك عن توطيد حكمه في انطاكية وتنظيم شؤونها وتحصينها ، مما كان له بالغ الأثر في عجزه عن الصمود طويلاً أمام حصار الصليبيين .

وأخيراً عندما وصل الصليبيون على مقربة من انطاكية عمد ياغي سيان إلى بعض الإجراءات السريعة لتحصين انطاكية فأمر بحفر خندق خارج اسوارها . ويشير بعض المؤرخين إلى ان ياغي سيان اخرج النصارى للعمل في حفر الخندق وعندما حان وقت العودة إلى المدينة رفض السماح لهم بدخولها ، حتى لا يقدموا المساعدة للصليبيين[(٣)] . على أن مؤلف (اعمال الفرنجة) يذكر ان الأرمن ظلوا داخل انطاكية ،

---

(١) أعمال الفرنجة ص ٤٩ ـ ٥٠ ؛ رونسيمان ، الحروب الصليبية جـ١، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ ؛ العريني الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٢٣٣ .

(٢) انظر ما سبق ص ٢٩٤ ـ ٣٠٠ .

(٣) العيني ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١٢١ أ ؛ ابن القلانسي ص ١٣٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٧٤ .

ودأبوا على الخروج إلى معسكر الصليبيين ونقل الأخبار والعودة إلى مدينة انطاكية[١] . وحاول ياغي سيان الحصول على مساعدة الحكام المسلمين في بلاد الشام والعراق . فذكر ابن القرنسي انه ارسل ابنه إلى دقاق حاكم دمشق ، وإلى جناح الدولة حسين حاكم حمص ، وكربوقا أمير الموصل بالإضافة إلى السلطان بركياروق والخليفة العباسي « والي سائر البلاد والأطراف بالاستصراخ والاستنجاد والبعث على الخفوف إلى الجهاد »[٢] .

وظل الصليبيون يحاصرون انطاكية حتى فصل الشتاء ، واخذت المؤن والأقوات التي بحوزتهم في النفاد . فعقد الأمراء الصليبيون اجتماعاً تقرر على أثره قيام بعض قواتهم بالإغارة على المناطق المشرفة على نهر العاصي بغية الحصول على المؤن والطعام . وقاد بوهيمند وروبرت فلاندر قسماً من الجيش بلغ عدده عشرين الف مقاتل ، وتوجها لمهاجمة القرى المحيطة بحلب وحماة . وفي تلك الأثناء كان دقاق واتابكة طغتكين وجناح الدولة حسين يتقدمون بعساكرهم لنجدة ياغي سيان في انطاكية . والتقى الفريقان في ارض البارة[٣] ، وحدثت معركة بين الطرفين في محرم سنة ٤٩١هـ / ديسمبر ١٠٩٧م لم ينعقد النصر فيها لأحد من الجانبين ، وقرر دقاق العودة بعسكره . كما قام الصليبيون بقيادة بوهيمند اثناء انسحابهم بمهاجمة معرة مصرين فقتلوا بعض سكانها وكسروا منبرها . ولم تؤد حملة بوهيمند إلى توفير الأقوات ، فقرر العودة

---

(١) أعمال الفرنجة ، ص ٥٠، انظر أيضاً : حسن حبشي ، الحروب الصليبية الأولى ص ١١٢ ـ ١١٥ .

(٢) ابن القلانسي ص ١٣٤ .

(٣) البارة : بليدة وكورة من نواحي حلب ، وبها حصن ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

إلى انطاكية واثناء غياب بوهيمند شن ياغي سيان هجمات شديدة على معسكر الصليبيين والحق بهم الكثير من الخسائر[1] .

وكان ابن ياغي سيان قد سار إلى حلب ، بعد انسحاب دقاق طالباً المساعدة من رضوان فسار رضوان وسكمان بن ارتق على رأس قواتهما وعسكرا في حارم شرق انطاكية . غير ان بوهيمند قاد فرقة من الفرسان ودحر رضوان وسكمان في آخر صفر سنة ٤٩١هـ / ٩ فبراير ١٠٩٨م واستولى الصليبيون بمساعدة الأرمن على حارم . وكان الاستيلاء على حارم نصراً كبيراً للصليبيين لاهميتها في حماية انطاكية من جهة حلب[2] .

وفي الشهر التالي اي في ربيع الأول ٤٩١هـ / مارس ١٠٩٨م استطاع بوهيمند حل مشكلة المؤن عن طريق الاتصال بالسفن الجنوية الراسية في ميناء السويدية ، ميناء انطاكية ، وحصل من تلك السفن على ما يلزم من المواد لبناء القلاع . وشيد بوهيمند النورماني قلاعاً استخدمها في إثارة الفزع في نفوس اهل المدينة المحاصرة ، وهي طريقة يعرفها النرمنديون[3] . ولم تتوقف الاشتباكات بين الصليبيين وحامية انطاكية وشدد الصليبيون الحصار على انطاكية من جميع الجهات . وبذل ياغي سيان جهوداً مضنية في سبيل الصمود اطول فترة ممكنة ريثما تصل

---

(١) أعمال الفرنجة ص ٥١ ـ ٥٤ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٣١ ؛ ابن القلانسي ص ١٣٤ .

(٢) أعمال الفرنجة ص ٥٨ ـ ٥٩ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٣١ ؛ سعيد عاشور الحركة الصليبية ، جـ١ ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ؛ وحارم ، حصن حصين وكورة جليلة تجاه انطاكية ، انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٣) باركر ، الحروب الصليبية ص ٣٤ .

النجدات التي نهضت بقيادة كربوقا امير الموصل . غير ان الخيانة سرعان ما لعبت دورها في سقوط انطاكية اذ كان على حراسة أحد ابراج انطاكية رجل ارمني اسمه فيروز، وكان ياغي سيان قد صادر امواله . فراسل فيروز بوهيمند واتفق معه على تسليم البرج، واحتفظ بوهيمند بسر المؤامرة عن باقي الأمراء الصليبيين، مستغلاً خطورة موقفهم، لكي يحصل منهم على الموافقة على تحقيق حلمه ، وهو تنازلهم عن انطاكية ، والسماح له بإنشاء امارة فيها ثمناً لجهوده في انقاذهم . وفي نهاية الأمر سقطت انطاكية بيد الصليبيين في آخر جمادى الأولى / ٣ يونيه ١٠٩٨م ، وفر منها الأتراك ، وسقط ياغي سيان عن ظهر فرسه من التعب فقتله الأرمن وحملوه إلى الفرنج[١] .

أما كربوقا الذي قاد جيشه لنجدة انطاكية فقد اضاع فرصة ذهبية ، وهي مهاجمة الصليبيين قبل سقوط انطاكية ، وجعلهم بين شقي الرحى بين حامية انطاكية وقواته ، ذلك ان كربوقا ، مر اثناء عبور اقليم الجزيرة بمدينة الرها ، وعمد إلى محاولة الاستيلاء عليها ، ولبث يحاصرها بضعة اسابيع دون جدوى . واخيراً سار إلى الشام وانضمت اليه اعداد هائلة من عساكر الشام من الترك والعرب ومن الأمراء دقاق بن تتش واتابكة طغتكين ، وجناح الدولة حسين صاحب حمص ، وأرسلان تاش حاكم سنجار ، وسكمان بن ارتق والأمير وثاب بن محمود المرداسي ، وساروا

(١) العيني ، عقد الجمان ، جـ ١١ ورقة ١٢١ أ ؛ ابن القلانسي ص ١٣٥ ؛ ابن العديم جـ ٢ ص ١٣٣ ـ ١٣٥ ، ابن الأثير ، الكامل، جـ ١٠ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ ؛ العظيمي ، حوادث سنة ٤٩١ ؛ أعمال الفرنجة ص ٦٤ ـ ٧٠ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ١٩٦ ـ ١٩٩ ؛ ابراهيم خليل ، كربوقا صاحب الموصل ودوره في مقاومة الصليبيين ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد الخامس ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

جميعاً إلى انطاكية ، وفرضوا عليها الحصار الشديد لا سيما ان قلعتها لم تسقط بيد الصليبيين[1] . واستمر حصار قوات المسلمين للصليبيين داخل انطاكية ، خمسة وعشرين يوماً ، تعتبر من أسوأ فترات الشدة والضغط التي تعرض لها الصليبيون خلال رحلتهم الطويلة إلى بلاد الشام، حتى عدمت الأقوات داخل انطاكية، واضطر الصليبيون إلى أكل الميتات واوراق الشجر ، مما جعل الكثير من الصليبيين يتسللون إلى خارج انطاكية[2] .

على أن روح الفرقة والانقسام لم تلبث ان طغت على واجب الجهاد لدى الأمراء المسلمين . ويوضح ابن العديم ذلك بقوله : « وترادفت رسل الملك رضوان . . . إلى كربوقا فتوهَّم دقاق من ذلك » . اما جناح الدولة حسين فقد استبد به الفزع من اصحاب يوسف بن آبق واخيه، إذ كان سبباً في المؤامرة التي راح ضحيتها يوسف بن آبق سنة ٤٨٩هـ . كما حدثت منافرة بين الأتراك والعرب الذين مع وثاب بن محمود . ويبدو ان رضوان خشي سقوط انطاكية بيد كربوقا ، مما يهدد امارته في حلب ، لذلك راسل التركمان وحثهم على الانسحاب من امام انطاكية فاستجاب له الكثير منهم « وتحيَّل بعض الأمراء من بعض » كما يقول ابن العديم[3] . يضاف إلى ذلك أن كربوقا اساء السيرة « فيمن معه من المسلمين واغضب الأمراء وتكبر عليهم » مما جعلهم يضمرون له

---

(١) العيني ، عقد الجمان ، جـ ١١ ورقة ١٢١ أ ـ ب ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٣٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٦ ؛ ابن القلانسي ص ١٣٦ ؛ ابراهيم خليل ، كربوقا ودوره في مقاومة الصليبيين ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٣٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٦ ؛ ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ص ٣٥ ؛ ابراهيم خليل ، كربوقا ودوره في مقاومة الصليبيين ص ١٠٦ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

الغدر[1] . واخفق امراء المسلمين في الاتفاق على خطة مشتركة لقتال الصليبيين لما بينهم من الأحقاد والنزاع والفتن[2] .

واخيراً خرج الصليبيون والتقوا بجموع كربوقا في معركة حاسمة خارج أسوار انطاكية في ٢٥ رجب ٤٩١هـ / ٢٨ يونيه ١٠٩٨م . ولم يصمد من معسكر المسلمين سوى اعداد قليلة من المطوعين الذين خرجوا طلباً للشهادة ، وانهزم سائر الأمراء المسلمين[3] .

وهكذا كان الانقسام والتفكك في صفوف المسلمين هو العامل الحاسم في استيلاء الصليبيين على انطاكية ، مما جعلهم يسيرون في طريقهم في بلاد الشام دون مشقة ، حيث البلاد ممزقة والصفوف مبعثرة ، وفي كل مدينة او منطقة من بلاد الشام أمير حاكم بأمره ، لا هم له إلا المحافظة على ما بيده دون الاهتمام بالخطر الذي داهم بلاد المسلمين في المشرق بكاملها . واستفاد الصليبيون من تنازع القوى في بلاد الشام واسسوا امارات صليبية لهم في الرها وانطاكية وطرابلس ومملكة صليبية في بيت المقدس . وكان على المسلمين أن يجاهدوا في سبيل الله لمدة قرنين من الزمان حتى نجحوا في طرد الصليبيين طرداً تاماً من بلاد الشام ، وعادت البلاد إلى أيدي اصحابها المسلمين .﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾[4] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٦ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ص ١٣٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٧ - ٢٧٨ ؛ ابراهيم خليل كربوقا ودوره في مقاومة الصليبيين ص ١٠٩ .

(٣) أعمال الفرنجة ص ٨٩ - ٩٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ؛ ابراهيم خليل ، كربوقا ودوره في مقاومة الصليبيين ص ١٠٧ .

(٤) سورة الزمر ، آية ٧٤ .

الخاتمة



بحمد الله وتوفيقه انتهى موضوع البحث الذي قام بدراسة شاملة لاوضاع بلاد الشام قبل الغزو الصليبي ، وقد اوضحت الدراسة الكثير من الحقائق أهمها ان النفوذ الفاطمي في بلاد الشام حمل في طياته كل دلائل الضعف . فقد واجه الفاطميون منافسة القرامطة لتوطيد نفوذهم في بلاد الشام ، ثم دخول افتكين التركي إلى الشام وتحالفه مع القرامطة ، وما ترتب على ذلك من حروب بين الفاطميين وبين القرامطة وافتكين التركي حتى انتهى الأمر بنجاح الفاطميين وسيطرتهم على بلاد الشام . ومعظم هذه الحروب دارت رحاها في بلاد الشام التي دفعت ثمن هذا النزاع .

كما أن سكان جنوب الشام كانوا في غالبيتهم يعتنقون المذهب السني وكان هذا سبباً هاماً للنفور والفرقة بين أهل الشام والفاطميين الشيعة ، يضاف إلى ذلك استخدام الفاطميين لعناصر بربرية من شمال افريقية كانت تنزع إلى خرق النظام ، وتعامل السكان بقسوة بالغة ، مما ترتب عليه ثورات اهل الشام،وبخاصة في دمشق ، ضد جنود الخلافة الفاطمية من المغاربة .

وقد كان للسياسة المالية التي اتبعها الفاطميون في بلاد الشام نتائج

وخيمة على النفوذ الفاطمي ، وعلى احوال بلاد الشام الاقتصادية . وتمثلت تلك السياسة في الزام الوالي الفاطمي بجمع ضريبة سنوية معينة من دائرة ولايته ، بالإضافة إلى سياسة عزل الولاة التي كانت تتم بشكل سريع ، مما جعل الوالي الفاطمي يسعى لجمع اكبر كمية من الأموال الخاصة به لمواجهة فترة عزله ، مما دفع الولاة إلى فرض ضرائب ثقيلة على كاهل السكان ، الأمر الذي كان له آثاره السيئة على تدهور النشاط الاقتصادي في بلاد الشام ، وكثرة حركات العصيان ضد الفاطميين .

ومن النتائج التي توصل إليها البحث ان ولاء قبائل الشام للخلافة الفاطمية ارتبط بمقدار ما تقدمه الخلافة من هبات واموال لشيوخ القبائل . وما ان تنقطع تلك الهبات لسبب أو لآخر ، حتى تشق القبائل عصا الطاعة وتشن الغارات المدمرة على مختلف بلدان الشام مما كان له بالغ الأثر على تدهور احوال بلاد الشام قبل الغزو الصليبي . فقد أدت غارات طيء بزعامة آل جراح على جنوب الشام وفلسطين ، وغارات كلب على اواسط الشام ، وكلاب على شمال الشام إلى الخراب الاقتصادي الذي اصاب المدن والمناطق الحضرية . فقامت تلك القبائل بنهب المدن وحمل كل ما يمكن حمله من اموال وامتعة . وما ان تضمد المدن جراحها وتعاود نشاطها الاقتصادي ، حتى تعود القبائل وتكرر اعمال النهب والسلب وفرض الأتاوات على السكان . ولم يكن هناك مناص من أن تؤدي غارات القبائل البدوية إلى آثار سيئة على الانتاج الزراعي في بلاد الشام بسبب انكماش الأراضي الزراعية نتيجة لغارات القبائل التي كانت تهاجم القرى وتصادر الغلال وترعى بماشيتها الثمار والأشجار . يضاف إلى ذلك أن بعض القبائل العربية اقامت في بعض الحصون على مقربة من الطرق التجارية وتخصصت في اعمال السلب وقطع الطريق واعمال الخفارة ،

مثلما فعله بنو قشير في قلعة جعبر ، وخلف ملاعب في حمص ، من قطع الطريق واخافة السبيل ، وما ترتب على هذا من آثار سيئة على النشاط التجاري في بلاد الشام .

كما كان لقيام الإمارات العربية المستقلة كإمارة بني مرداس في حلب نتائج سيئة على الأحوال الاقتصادية في بلاد الشام . فعلى سبيل المثال كان الأمير المرداسي يلتزم بدفع خراج سنوي للخلافة الفاطمية ، واتاوة سنوية للامبراطورية البيزنطية ، فضلاً عما كان يقدمه من الهبات والعطايا والدراهم لزعماء قبيلته ليضمن ولاءهم، او للتركمان لاستخدامهم . وجمع الأمير المرداسي هذه الأموال الكثيرة من المزارعين والتجار وصغار الكسبة ، الأمر الذي أدى إلى آثار مدمرة على الأحوال الاقتصادية في حلب وغيرها من بلاد الشام .

ومما زاد أوضاع بلاد الشام سوءاً الغزو البيزنطي لبلاد الشام ، والذي نجم عنه سقوط اغنى مناطق الشام الشمالية بيد البيزنطيين مثل أنطاكية وشيزر واللاذقية وافامية ، فضلاً عما دفعته بلاد الشام من أموال كثيرة للبيزنطيين على شكل أتاوة حربية سنوية بالإضافة إلى سياسة الحرق والنهب والتخريب التي انتهجها البيزنطيون ضد كل المناطق الشامية التي مرت بها جيوشهم .

ومن الحقائق التي أثبتتها الدراسة انه بعد كل هذا الانهاك الاقتصادي والتمزق السياسي الذي أصاب بلاد الشام ، جاء التركمان بغاراتهم المدمرة ، واضافوا المزيد من أسباب الضعف والانهيار . فغزو التركمان كان غزواً بربرياً نهاباً لكل المناطق التي اغاروا عليها ، فكانوا يرون ان لهم لاحق في نهب كل مكان تصل إليه ايديهم ، وهذا ما عانته بلاد الشام على ايدي الموجات التركمانية المتلاحقة .

ومن أهم النتائج التي ترتبت على الغزو السلجوقي لبلاد الشام القضاء على العنصر العربي كقوة سياسية في بلاد الشام . ولم يعد للعرب دور في حكم بلاد الشام ـ باستثناء إمارة بني منقذ في شيزر ـ ولم يكن فقدان العرب لنفوذهم السياسي في بلاد الشام مؤقتاً ، بل استمر قروناً طويلة ، وكان من آثاره موقفهم السلبي من وصول الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام، وإلى حد ما من جهاد الصليبيين اثناء حركة الجهاد لاسترداد ما فقده المسلمون من بلاد الشام .

ونجم عن دخول السلاجقة إلى بلاد الشام انحسار النفوذ الفاطمي عن معظم هذه البلاد ، مما جعل الفاطميين ينظرون بعين الشك والريبة إلى وجود السلاجقة عند اطراف الديار المصرية . ولعل هذا يفسر الموقف السلبي الذي اتخذته الخلافة الفاطمية عندما بدأ الصليبيون زحفهم على بلاد الشام . كما أضاف دخول السلاجقة إلى بلاد الشام المزيد من أسباب الفرقة والانقسام المستحكم بين السنة والشيعة لما عرف عن السلاجقة من تعصب للمذهب السني .

ومن النتائج الايجابية للغزو السلجوقي لبلاد الشام استرداد انطاكية والرها واللاذقية وغيرها من مناطق الثغور التي فقدها المسلمون لحساب البيزنطيين منذ زمن طويل . غير انه تمخض عن الغزو السلجوقي لبلاد الشام آثار سيئة على الحياة الاقتصادية لبلاد الشام ، اذ ان جيوش السلاجقة كانت تتكون في معظمها من التركمان بطوائفهم المختلفة ، رغم ان التركمان سبقوا الحملات السلجوقية الرسمية إلى بلاد الشام ، ومهدوا السبيل بغاراتهم لخضوع بلاد الشام للحكم السلجوقي . ومن المعروف ان التركمان تعودوا على النهب والسلب والتخريب . ولم تسلم بلاد الشام من طبيعة التركمان التي درجوا عليها ، ولذلك كان الغزو

السلجوقي في غالبيته غزواً مدمراً . فمثلاً نتج عن إغارة اتسز على جنوب الشام ودمشق انهيار اقتصادي شامل، فدمرت قرى ومدن بكاملها ، وجلت اعداد كبيرة من السكان عن ديارهم . ولم تنج المنطقة الشمالية من بلاد الشام من الخراب والنهب ، ومن أمثلة ذلك إغارة الافشين على إقليم شمال الشام . ولم يوجد من الحكام السلاجقة من اهتم بالنشاط الاقتصادي ، سوى آقسنقر في حلب ، بيد أن ذلك انتهى بمقتله، وعاد الانهيار الاقتصادي ليشمل معظم بلاد الشام . يضاف إلى ذلك ان تنافس السلاجقة والفاطميين على بسط النفوذ على موانىء بلاد الشام كان من اثره الحاق الاضرار الاقتصادية بتلك الموانىء ، مما سهل على الصليبيين الاستيلاء على كثير من بلدان الشام وموانئه دون صعوبة كبيرة .

وتجدر الإشارة إلى ان الحروب التي نشبت بين السلاجقة والإمارات العربية وبين السلاجقة والفاطميين ، وبين قادة السلاجقة انفسهم ، كل تلك الحروب اهدرت الكثير من الطاقات البشرية والمادية التي كان يمكن ادخارها لمواجهة الحملة الصليبية الأولى .

ومن النتائج التي توصل إليها البحث انه على الرغم من القوة التي ظهرت بها الدولة السلجوقية في عهد ملكشاه فإن رحلته إلى بلاد الشام سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م لم تؤد إلى توحيدها تحت زعامة واحدة . ويعود سبب ذلك إلى نظام الاقطاع الحربي الذي استحدثته الدولة السلجوقية اذ اقطع السلطان ملكشاه قادة جيشه وامراءه معظم بلدان الشام والجزيرة ، ووضع بذلك ـ دون ان يدري ـ بذور الانهيار والتفكك للنفوذ السلجوقي في بلاد الشام والجزيرة . فظهرت بعد موت ملكشاه المنافسات والمنازعات بين قادة السلاجقة في بلاد الشام . وتمكن تتش اخيراً من السيطرة على معظم بلاد الشام والجزيرة . ولو ركز تتش جهوده على

توطيد نفوذه في بلاد الشام لواجهت الحملة الصليبية دولة متحدة ولتغير مصيرها . غير ان شيئاً من ذلك لم يحدث ، اذ امتدت اطماع تتش إلى السلطنة السلجوقية في خراسان ، ودخل في نزاع مرير مع ابن اخيه بركياروق ، وانتهى الأمر بمقتل تتش ليعود الانهيار والتفكك على نطاق اوسع إلى بلاد الشام .

وكان من نتائج دخول السلاجقة إلى بلاد الشام والجزيرة قيام طبقة عسكرية جديدة مكونة من عناصر الترك والديلم والأكراد وغيرهم وكان الترك هم الأكثرية بين هذه الفئات واستقر معظمهم بمنطقة الجزيرة . وشكلت هذه الطبقة النواة لحركة الجهاد الإسلامي التي انبعثت بعد ذلك من اقليم الجزيرة وذلك لأن التركمان الذين دخلوا حديثاً في الإسلام امتازوا بالحماس الديني ، فضلاً عن الموارد الاقتصادية الكبيرة التي كانت تنعم بها منطقة الجزيرة . ومن نتائج الغزو السلجوقي لبلاد الشام ان اصبح الترك من العناصر الرئيسية التي كونت المجتمع الإسلامي في بلاد الشام ، وادى ذلك إلى امتزاج الكثير من العادات والتقاليد وطرق المعيشة بين العرب والترك وغيرهم من العناصر في بلاد الشام .

وقبل وصول الصليبيين إلى بلاد الشام ضعف النفوذ السلجوقي في بلاد الشام بسبب تنافس الأخوين رضوان ودقاق ابني تتش ودخولهما في منافسات ومنازعات للسيطرة على بلاد الشام . كما لعب القادة السلاجقة والتركمان دوراً هاماً في زيادة حدة النزاع بين الأخوين خدمة لمطامعهم في انشاء امارات خاصة بهم . وانتهى الأمر بقيام الكثير من الإمارات التركية المتنافسة في بلاد الشام والجزيرة ، واصبح في كل مدينة او منطقة امير مستقل بما تحت يده . وبذلك وصلت بلاد الشام إلى اقصى درجات التفكك والانقسام قبل الغزو الصليبي .

واثبتت الدراسة ان وجود الاقليات المذهبية والعرقية في بلاد الشام حال دون الوقوف في وجه الحملة الصليبية الأولى، فالمارونيون مثلاً القوا بكل ثقلهم إلى جانب الصليبيين، بينما صرف الباطنية كل جهودهم في سبيل مقاومة الحكام الترك واغتيال خصومهم السياسيين . كما تمخض عن الضغط السلجوقي على هضبة ارمينية، نزوح أعداد كبيرة من الأرمن عن مواطنهم الأصلية واستقرارهم في شمال الشام والجزيرة وجنوب آسيا الصغرى ، حول الرها وانطاكية وأرتاح وقيليقية وغيرها ، مما سهل مهمة الصليبيين في الاستيلاء على هذه المناطق والمضي منها إلى بقية بلدان الشام بسبب المساعدات التي قدمها الأرمن للصليبيين .

وبرهنت الدراسة على ان العداء بين سلاجقة الروم وسلاجقة الشام، انتهى بالقطعية بين فرعي البيت السلجوقي مما خدم في نهاية المطاف الصليبيين . فعندما وصل الصليبيون إلى آسيا الصغرى لم يتلق سلاجقة الروم أية مساعدة من سلاجقة الشام وفارس ، مما ساعد الصليبيين على انزال الهزيمة بسلاجقة الروم ، وشقوا طريقهم بسهولة إلى الشام . يضاف إلى هذا ان سياسة ملكشاه ازاء سلاجقة الروم أدت إلى اضعاف دولتهم ، فظهرت بعض الإمارات التركمانية في آسيا الصغرى، ولعبت هذه الإمارات دوراً هاماً في عدم توطيد نفوذ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ، بحيث لم يواجه الصليبيون في آسيا الصغرى دولة موحدة تقف أمامهم .

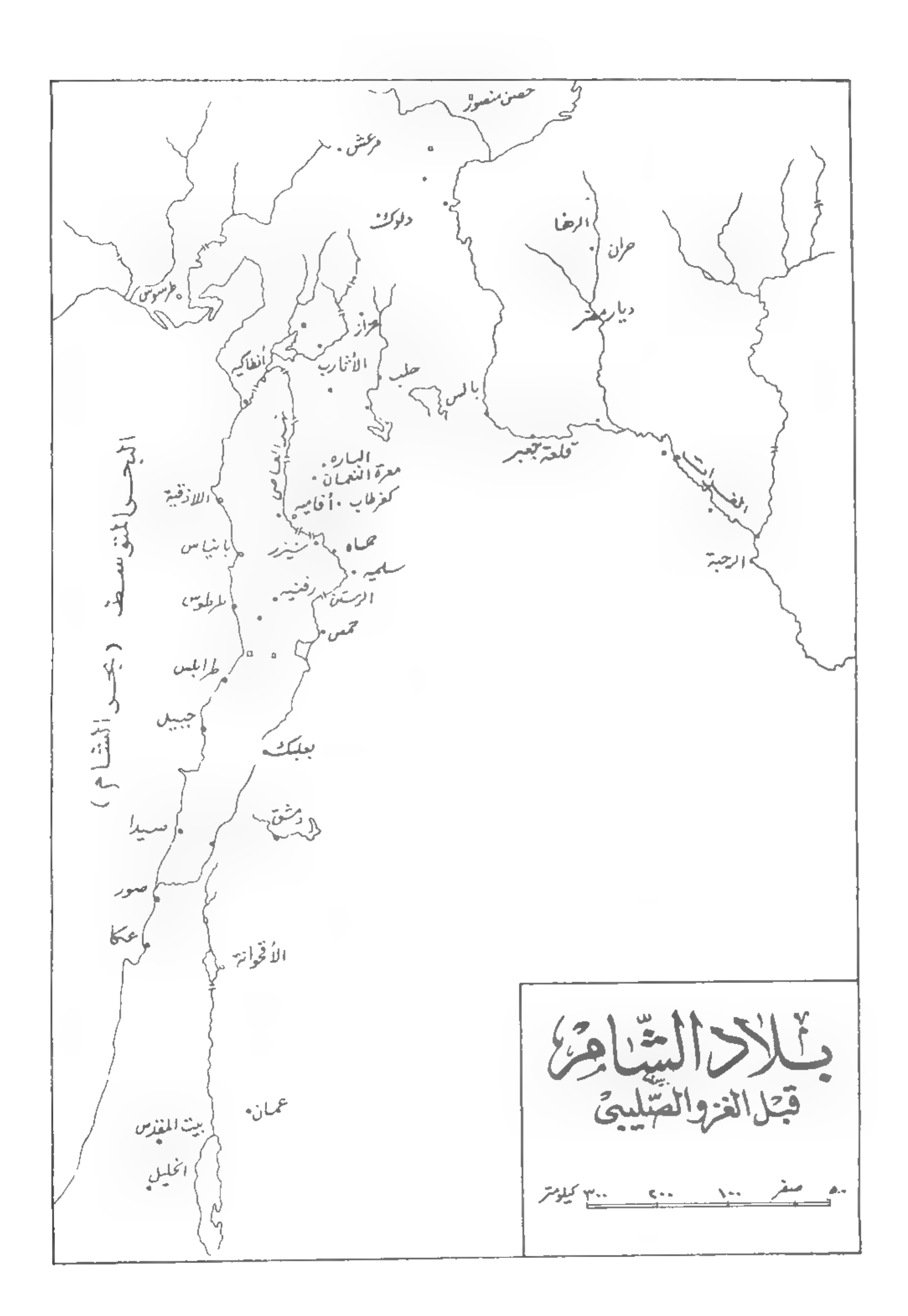
وأثبتت الدراسة ان الصليبيين عانوا الكثير من المتاعب وهم امام انطاكية وكان من الممكن القضاء عليهم ، غير ان امراء المسلمين في بلاد الشام والجزيرة لم يستطيعوا التغلب على الخلافات والمنازعات والاحقاد فيما بينهم ، مما أدى إلى فشل النجدة الضخمة التي خرجت

بقيادة كربوقا لمساعدة انطاكية فحلت بها الهزيمة ، واضحت بلاد الشام خالية من قوة تجرؤ على اعتراض طريق الصليبيين .

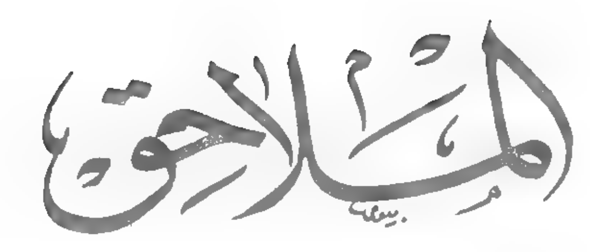
وهكذا اتضح من الدراسة ان نجاح الحملة الصليبية الأولى لا يعود إلى ما بذلته اوروبا والبابوية من جهد في سبيل حشد تلك الحملة ، ولا إلى المساعدة التي قدمها البيزنطيون للصليبيين ، بل يعود نجاحها أساساً إلى تفرق المسلمين ومنازعاتهم وفشلهم في إقامة جبهة إسلامية متحدة تقف في وجه الصليبيين . قال تعالى : ﴿ لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾[1] .

---

(١) سورة الحاقة ، آية ١٢ .


حصن منصور
مرعش
دلوك
طرسوس
عزاز
أنطاكية
الأثارب
حلب
بالس
الرها
حران
ديار مضر
قلعة جعبر
الفرات
الرحبة
البارة
معرة النعمان
كفرطاب
أفامية
العاصي
اللاذقية
بانياس
شيزر
حماه
سلمية
رفنية
الرستن
طرطوس
حمص
طرابلس
جبيل
بعلبك
دمشق
صيدا
صور
عكا
الأقحوانة
عمان
بيت المقدس
الخليل
البحر المتوسط (بحر الشام)
بلاد الشام
قبل الغزو الصليبي
٥٠ صفر ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ كيلومتر







« الملحق الأول »

ترجمة انوشتكين الدزبري[1]
(٤١٤ ـ ٤٣٣ هـ)

أنوشتيكن أبو منصور الدزبري التركي الختلي ، كان يلقب بالأمير المظفر أمير الجيوش وحُمِلَ الى بغداد وبيع بها ، وجُلِبَ الى الشام فاشتراه بدمشق القائد دزبر بن أونيم الديلمي في سنة أربع ماية ، ورباه فعرف بالشهامة والشجاعة وإصابة الرأي فاشتهر ذكره حتى اتصل خبره بالخليفة الحاكم بأمر الله . فاستدعا به من القائد دزبر فحمل إليه ومعه هدية سنية.. .فدخل القاهرة في سنة ثلاث وأربعماية ، ومثل بحضرة الحاكم فجعله من جملة الغلمان الحجوبة ، وظهر منه عقل وأدب وشجاعة وفطنة وذكاء ، فأمن بلزوم الخدمة في سنة خمس وأربع ماية ، فواظب على خدمة الحاكم ، فأعجب به ، وأحبه الاجناد ، فطوقه الحاكم وسوره ، وجعله قائداً وبعثه الى الشام مع سديد الدولة ذو الكفايتين ابن الحسن علي بن أحمد ، المعروف بالضيف في سنة ست وأربعماية .

فلما قدم دمشق تلقاه القائد دزبر الذي كان استاذه وترجل له عن فرسه الى الأرض وقبل يده، وأهدى إليه عدة هدايا ، فلما عاد الى القاهرة هذه السنة لزم الحضرة ، ثم ولى بعلبك فظهر منه عدل في أحكامه

(١) المقريزي ، المقفي ، ورقة ٢٢٤ ب ـ ٢٢٥ أ ـ ب .

وأنصاف للرعية ، وكثر الثناء عليه ، فاستدعى الى القاهرة ، وسار حتى بلغ العريش فتلقاه كتاب ولاية قيسارية[1] ، فتأفف من ذلك وسار إليها من العريش ، ثم أنه استدعى من قيسارية إلى الحضرة فلما وافى الرملة خرج اليه سجل بولاية فلسطين . . . فقدمها سنة أربع عشرة وأربعمائة فخافه حسان بن مفرج . وكانت له معه حروب كثيرة ، كان له في جميعها الظفر ، فنمَّ عليه حسان ، وأغرى به الوزير الروذباري فتوغر صدره عليه ، وسعى به الى أن قبض عليه بعسقلان في سنة سبع عشرة ، وأربع ماية فقام في أمره الأستاذ سعيد السعد صاحب القلم عند الظاهر الى أن أعاده الى الخدمة ، ورد عليه أقطاعه وأمواله، ولم يزل بالقاهرة الى أن فسد أمر بلاد الشام بتغلب العربان عليها واقتضى الحال اخراج عسكر من القاهرة، فعينه الوزير علي بن أحمد الجرجرائي وأقامه على العسكر وكتب له أمير الجيوش، وأطلق له خمسة آلاف دينار وأصحبه صدقة بن يوسف الفلاحي ناظراً في الأموال، وذلك في ذي القعدة سنة تسع عشرة وأربع ماية ، فخرج في سبعة آلاف فارس سوى العرب الرجالة وركب الظاهر الى وداعه، وسار الى الرملة ثم الى القدس وجمع العساكر وحارب حسان ابن مفرج، وأوقع بصالح بن مرداس ، فانهزم حسان ، وقتل صالح ، واستباح عسكريهما ، وبعث بذلك الى المستنصر فأجيب بالثناء والشكر وزيد في ألقابه .

وسار بعد هذه الوقعة الى حلب فحاربه صاحبها شبل الدولة نصر ابن مرداس على حماه ، فقتل في سنة تسع وعشرين وحمل رأسه الى

---

(١) قيسارية . بلد على ساحل بحر الشام ، كانت تعد في أعمال فلسطين وكانت تبعد عن طبرية مسافة ثلاثة أيام سيراً على الأقدام وكانت قديماً من أمهات المدن ، واسعة الرقعة طيبة البقعة ، انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

القاهرة . وعاد الدزبري الى دمشق ، ثم سار عنها إلى حلب وملكها ، وقد كتب له المستنصر بمملكة حلب ملكاً فأحسن الى أهلها ، واستولى على بالس ومنبج ثم عاد إلى دمشق . وكانت بينه وبين الروم في سنة ثلثين وأربعماية حروب ظفره الله فيها ونصره وبعث الى الخليفة المستنصر بالله يخبره ذلك . فأجيب بالثناء عليه والشكر منه ، وزيد في ألقابه عدة الامام، ولما عظم شأنه أطرح الوزير الجرجرائي وقصر به فغضب من ذلك وعاد الى حلب ثم عاد منها الى دمشق في سنة ثلث وثلاثين ، وأقام بها وشرع في بناء دار الإمارة بها ، فاتصلت به أمور من جهة مصر ، وأن الجرجرائي في التدبير عليه ، فاقتضى ذلك نفوره ، واعمل الحيلة في المسير الى حلب، وأحس به العسكر فثاروا عليه وقاتلوه ونهبوا دار الامارة بدمشق ، فانهزم ليلاً ، وخرج الى حلب ، فوافاه بها كتاب المستنصر يتضمن مخاطبته بغير ألقاب ، ويقبح عليه فعله ويزري به ، ويعد مساويه ، ويهدد فيه تهديداً كثيراً . فأجاب وهو يطلب العفو ، واعتذر عن مسيره الى حلب . فلم يقم غير ليالي قليلة ومات يوم الأحد رابع عشرين جمادي الأولى سنة ثلثين وأربعماية .

وكان حسن السيرة ، محمود الطريقة ، مظهراً للعدل متين الدين ، وفي آخر عمره انحرف عن مذهب الاسماعيلية ، وكان هذا أعظم أسباب الوحشة بينه وبين أهل الدولة بمصر . وخلف بعد موته ستمائة ألف دينار ، ووجد له بديار مصر وبلاد فلسطين مبلغ مايتي ألف دينار ، ووجد له عند التجار مبلغ خمسين ألف دينار ، وكانت له مايدة من الفضة تنقسم على أربع قطع وتجتمع بزرافتين حسنة الصنعة وزنها بالرطل الشامي ماية وثلثون رطلاً . وكان اذا دخل الى مدينة يكون معه ألف بوق وستماية قصبة فضة وثلثماية بوق فضة صغار ، وثلثماية جنيب

منها ثلثون عليها سروج الذهب والزمرد والعنبر . . . . ويقال أن الدزبري مات مسموماً لكثرة معاداة الجرجرائي له ، وأنه هو الذي بعث الى أهل دمشق حتى قاتلوه ونهبوا ماله . والله أعلم . ولانوشتكين هذا صنف أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري كتاب شرف السيف . . . . وصنف له أبو الهيجاء فارس بن الحسن بن منصور البلخي كتاباً في سيرته ، وتزوج انوشتكين شواقه إبنة صمصام الدولة .

« الملحق الثاني »

الحروب بين قبائل كلاب وكلب وطي على لسان ثمال المرداسي[1]

بغى علينا رجال عاد بغيهم   عليهم وأعان الواحد الصمد

يا أيها الراكب العادي يخب به   عبل الشوى مجفر أو عبلة أجد

بلغ تحيتنا طيأً وقل لهم   ما ضرنا ذلك الحشد الذي حشدوا

عققتمونا وقد قمنا ببركم   كما يقوم ببر الوالد الولد

فما رعت حقنا كلب ولا حفظت   لنا الصنيعة قحطان ولا أدد

قصدتم الشام اذ غابت فوارسه   والذئب يرقص حتى يحضر الأسد

وأطعمتكم حماة في ممالكنا   والمطمع السوء مقرون به الحسد

وما حماة وان بانت بضائرة   والظفر أن قص لم يالم له الجسد

ستستعاد ببيض الهند ثانية   إذا نزلنا ومن قبيلنا صدد

لولا الامام ولولا فرط خشيته   لم يقطع الجسر من فرسانكم أحد

وانما نهنهتنا طاعة تركت   سيوفكم عن آذانا ليس تنغمد

فحين احوجتمونا لم نلقكم   غير السيوف المواضي والقنا القصد

ومن كلاب رجال غاب أكثرهم   عنكم ووأسفا لو أنهم شهدوا

وقد عرفتم وجربتم فوارسنا   بالمشهدين ونار الحرب تتقد

---

(١) ديوان ابن أبي حصينة ، جـ ١ ص ١٥٩ - ١٦٤ .

ذادوكم بـالعـوالي عن خيـامهم فما اسْتُبيح لهـا طنب ولا وتد
كـنتم ثـلاثـة آلاف فـردكـم ثـلاثـة وأبى أن ينفـع العـدد
لا واخذ الله قوماً من عشيرتنا تألبوا في زوال العـز واجتهدوا
باعوا العشيرة بيع البخس وانقلبوا بالذل ما أخلفوا العز الذي فقدوا
ودر رجـال مـنـهـم مـنـعـوا أعداءهم جانب الورد الذي وردوا
ومـانعـوا دون شـام لـونبـابهم وحاولوا عوضاً منـه لما وجـدوا
فالدزبري حططنا من عصى معه على الإمام وفي أنامهم عبـدوا
خانوا الامام وما خنا وأفسدهم ضعف اليقين ولم نفسد كما فسدوا

« الملحق الثالث »

حوادث بلاد الشام سنة ٤٥١ هـ(١)

وفي رجب سنة ٤٥١ هـ ملك محمود بن شبل الدولة بن الروقلية(٢) ومنيع ابن عمه حلب والقلعة ، وأخرجا منها أبا علي بن ملهم النايب من قبل مصر بعد أن اذ ماله ، وسببه لما حصل عطية بن الروقلية بالرحبة ورأى أهلها قد أنفذوا الى بغداد بالطاعة وإقامة الخطبة للسلطان ، خاف من بين يديه من العساكر السلطانية ، فأخذ صاحباً له إلى بغداد في الطاعة والخلافة ، فطلب من الخليفة خلعاً ولقباً ليخطب له ، وعرف أبو علي بن ملهم بذلك ، فكتب الى مصر ، فانزعجوا وعملوا على من يقصد الرحبة ويخرج منها عطية ، وكاتبوا الى الرحبة وأنفذوا جلال الدولة مقدم كتابه ، والقاضي العلوي الزيدي قاضي دمشق الى حلب شدا من ابن ملهم . وعرفت بنو كلاب بمسير بني كلب الى أرضهم فخافوا وقصدوا ابن ملهم وجلال الدولة والقاضي وقالوا : « قد بلغنا مجيء بني كلب الى ها هنا لأجل عطية والرحبة ، ونحن نعطيكم رهاين ونكفيكم أمر عطية والرحبة من غير أن تطأ بني كلب ديارنا ومتى فعلتم ذلك أخرجتمونا الى العصيان » . فقالوا : « هذا أمر جاء من مصر ليس لنا فيه رأي » . فأيسوا

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ١٨٤ ب ـ ١٨٥ أ .

(٢) ابن الروقلية نسبة الى والدة صالح بن مرداس التي عرفت بهذا اللقب .

منهم، وكتبوا الى عطية بما جرى واستدعوه ليؤمروه ويدفعوا بني كلب .
فاصعد من الرحبة اليهم واستخلفهم وتوثق منهم . واتفق أن قطعة من بني
عقيل وسنان وخفاجة، كانوا نازلين على بني كلاب ، فساروا بأجمعهم مع
عطية الى حمص وحماة فأخذوهما وهما من أعمال بني كلب، وأخربوا
سور حمص ، ونهبوا الغلات، وجاء أبو تغلب بن حمدان في جماعة من
أصحابه وبني كلب الى فامية . ووصلت الكتب الى عطية من مصر
باستعطافه ، فرجع عن ذلك وانصلحت نيته . وقد كانت علوية بنت وثاب
أم محمود بن شبل عند هذا الاختلاط قد أفسدت جماعة من أحداث
حلب واستمالتهم ، وكتبت إلى محمود ولدها ومنيع ابن عمه وكانا بالقرب
من البلد فقربا . وفتح الأحداث الأبواب لهما ، ونادوا بشعارهما ، فدخلا
في جماعة من بني كلاب ، وظفروا بجلال الدولة الكناني والعلوي
القاضي قبل أن يصعدوا الى القلعة ، وقتلوا جماعة من المغاربة
والمصريين . وصعد قوم من الغلمان البغدادية الى القلعة وحصلوا مع
المغاربة ومع ابن علي بن ملهم ، وصارت العرب بينهم ، ووثق محمود
ومنيع بمن معهما من الأحداث واطرحا بني كلاب ولم يوصلا اليهم ما
كان وأعداهم به، فانحرفوا وقصدوا أبا تغلب بن حمدان وحصلوا معه .
وثقل على عطية تملكهما البلد ، فانصلح لصاحب مصر وحلف له فسار أبو
تغلب بن حمدان حينئذ الى حلب، وعرف محمود ووالدته ذلك فلم يقدروا
على ذلك فخرجوا ومعهم الكناني والقاضي مقيدين . ونزل ابن ملهم من
القلعة وفتح الباب لأبي تغلب، فدخل فقتل الأحداث وصلبهم ، وأحرق
أكثر البلد وجاء عطية الى أبي تغلب فقيده بقيد من ذهب كان حمل معه
من مصر . ثم فك عنه وأفيضت عليه الخلع وأعطى مالاً كان ضمن له .
وعزم أبو تغلب على الخروج الى بني كلاب الذين نزل عليهم محمود
ومنيع، فأشير عليه أن لا يفعل فلم يقبل وانعزل عطية عنهم بأهله ومعه

قطعة من الغلمان البغدادية . . . وكان قد سلم من الحرب التي قتل أبوه فيها . ولما أصعد الى حلب، ولما أكثر بن حمدان القتل والنهب وقرر عليهم مائتي ألف دينار التي أنفقها على العساكر المجردة فرضوا بذلك . ثم سار في عشرة آلاف من المغاربة والكلبيين وخفاجة وبني عقيل وبني شيبان الى بني كلاب ليبيتهم فثبتوا له وقاتلوه يومهم . فلما كان من الغد نصروا عليه فهزموه وأسروه وأخاه . ووقع القتل في أصحابه بقية يومه وليلتهم . وكان القتلى من المغاربة وغيرهم سبعة آلاف رجل وخمسمائة . وقتل نبهان القرمطي أمير بني كلب، وأفلت ابن البساسيري . . . ورجع محمود ومنيع وعلوية الى حلب ، وأمنوا ابن ملهم وحلفوا له فنزل وسلم القلعة، وعاد عطية وابن البساسيري الى الرحبة ، وبلغ صاحب مصر فأعاد أبا علوان ثمال بن صالح بن الروقلية الى إمارة حلب، وأنفذه إليها بعد ما عزله عنها ، فدخلها وفك ابن حمدان وأخاه من الأسر ، وأفرج عن جلال الدولة والقاضي وأطاعته العشيرة .

« الملحق الرابع »

دوافع الغزو السلجوقي لبلاد الشام[1]

ولما قوى أمر التركمانية ـ خذلهم الله ـ وحصلت بالري وصار القريب والبعيد من أهل البلدان يتقلبون من الخوف مثل حسك السعدان[2] ، وكانت الدولة العلوية ـ حرسها الله تعالى ـ في السابق من نغماتها التي بها تتنغم ، وتأخذ فيها مأخذ من أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم . وورد من حيز الروم نسخة كتابها إليها بحملها على التجرد معها لأخذ المملكة العلوية لأولئك الأنجاس والأقذار فيجعلون الشام من جملتها نصيب أخوانهم من شياطين الروم الكفار . ففتحت باب المشاورة على هذا القول المهول من الأمر ، الذي هو على بعد المشقة يرمي بشرر كالقصر . وقلت أن ابن المسلمة اللعين مغناطيس هذا الشر فإنه استطعم طعم الرياسة بملابسة أمثاله واستولى منها على غارب آماله ، وأن تدبيره اليوم أمثل من تدبيره غداً (والتنبه له) ولما طغى الماء أقرب الأمور رشداً. وقلت أن الوجه أن أكاتب الكندري[3] الذي هو وزير الطاغية

(١) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة الفاطمي ، ص ٩٤ ـ ٩٦ .

(٢) حسك السعدان نبات له ثمرة خشنة تعلق بأصواف الغنم والسعدان وما أشبهه حسك ، مفردة حسكة : انظر ، لسان العرب ، مادة حسك .

(٣) الكندري هو وزير السلطان السلجوقي طغرلبك .

بكتاب بالعجمية ، أو أكاتب نفراً من المعارفين فطنت حصولهم في جملة القوم واجتهد في أن أميل إلى الدولة العلوية أدامها الله رؤوسهم ، وأسقى ماء محبتها بالحكمة والموعظة الحسنة نفوسهم ، فإن ذلك لا يخلو من أخذ قسمين : أما أن يصيب السهم الغرض وهو الغرض ، وأما أن يتسامع العباسي بذكر المكاتبة بيننا وبينهم فلا يدري على أي صفة هي فيتجعد من جهته وينقبض ، فأذن فيه وكتبت الكتب على أحسن صيغة فيما يكتب في مثله ، فكسر المرسل بها لتخلفه لحاجة في الصدور وانتظم في سلك من قال الله تعالى : ﴿ أينما يوجهه لا يأت بخير ﴾[1] فدنا القوم زيادة دنوا ، وزاد الأمر فيما يحدث عنهم من فساد في الأرض ، وعتو بسطاً للأيدي في الأموال والحريم واستنانا بسنة من لا يؤمن بالله العظيم ، وحصلت العراق بمجاورتهم مرتجفة ، وصدور أهلها بالروع منهم منخسفة .

ووقع التشاور على مكاتبة أبي الحارث[1] والعسكر البغدادي ، وأشعارهم بكوننا لهم سناداً ، ولهم في الأرفاد والانجاد عمادا . وكتبت الكتب ونفذ بها من تحيف ريشه ريب المنون من قبل وصوله بها وإيصاله لها ، وضاعت الكتب وتوجهت بتوجهه الى الحجاز حاجاً ، ولما أبت استأنفت المكاتبة بما أنفذت به أحمد بن الحسن فسابق حصوله بنواحي العراق دخول التركمانية بغداد وتملكهم لها وحصول أبي الحارث والعسكر على نشز من أرضها بحيلة عملها ابن المسلمة[3] فيما يفرق شملهم ويقطع حبلهم ، فما كان كتابي عندهم الا صحيفة نزلت من

---

(١) القرآن الكريم سورة النحل آية ٧٦ .

(٢) ابو الحارث البساسيري .

(٣) ابن المسلمة وزير الخليفة العباسي القائم .

السماء ، واهتزوا له اهتزاز الأرض الهامدة لنزول الماء . وأجابوا يدعون ويشكرون ، ويقولون ما أوتينا عن ذلة ولا عن قلة ، ولكنا عن قوس المكر رمينا ، ولماء السحر سقينا ، فإن أخذتم بأيدينا أخذنا لكم البلاد ، وإن قلدتمونا نجاد نصركم وأنجادكم ، فتحنا من جهتكم الأغوار والأنجاد، والتمسوا من المال والخيل والسلاح ما يريش السهم ويمضي في النهضة الى عدوهم العزم ، ذاكرين أن الدرهم اذا تكلف لهم فيما يمضي من سيف عزمهم غراراً عرضوا عنه ديناراً وبأنه لا يرد ثانياً كتابهم جواباً لهذا الكتاب إلا من الرحبة وقد تدبروها ينزعون من حرور خوف البطشة التركمانية الى ظل أمن الدولة العلوية وينسمون نسيم نعيمها الفائح الريا ، ويلمحون وجه قبولها واقبال الكريم المحيا فوقع الاهتمام بأعداد المال والخيل والسلاح لتحمل اليهم .

« الملحق الخامس »

مسير تتش إلى الشام سنة ٤٧١هـ[١]

في هذا الشهر (جمادى الأولى سنة ٤٧١هـ) عاد تتش اخو ملك شاه من حصار حلب ، وعبر الفرات ونزل بالبارعية ، وكان من العقلاء الساسة وكان مقيماً ببلاد جنزة وبرذعة[٢] ، فلما جرى على اتسز بن اوق الخوارزمي في مصر ما جرى كتب ملك شاه إلى تتش بالمسير إلى الشام فسار على تؤدة حتى انتهى إلى ديار بكر فبلغه ان اتسز لم يهلك وانه قد اخرب الشام ، وقتل اهله بعصيانهم عليه . فكتب إلى السلطان يخبره وطلب منه عسكراً فإنه كان في قلة من العساكر وعرف اتسز فبعث إلى السلطان هدايا ومالاً وقال : « ما فعلت فعلاً يقتضي انفاذ الأمير تتش نحوي فإنني العبد الطائع وأنا نايب في هذه البلاد عن السلطان ، ما اخذ منها غير ما اصرفه في مؤنتي والجند الذين معي وانا احمل في كل سنة إلى الخزانة ثلاثون الف دينار » . فكتب السلطان إلى تتش ان لا يتعرض إلى الشام الأعلا ، ويقصد ناحية حلب . وبعث إليه الأمير الافشين وصندق

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ١٣ B ورقة ٤٧ ب ـ ٤٨ أ ، ٥٠ أ ـ ب .

(٢) جنزة : اسم أعظم مدينة بأران وهي بين شروان وأذربيجان بينها وبين برذعة ستة عشر فرسخاً ، وبرذعة بلد في أقصى اذربيجان وهي قصبتها ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

الحاجب بمن معهما من التركمان . وكان الحاجب ايتكين قد انضم إلى تتش من ديار بكر ثم عبروا الفرات وبدوا بمنبج فحاصروها ثم قصدوا حلباً وحصروها ، واقاموا عليها شهوراً . وكان صاحبها سابق بن محمود وجاءهم مسلم بن قريش نجدة ، واستدعى السلطان الحاجب ايتكين بسؤال مسلم لأنه كان عدوه. وتحالفت بنو كلاب على قتال الغز ودفعهم عن البلاد، وكان مع مسلم غلال كثيرة له ولأصحابه وكان بحلب غلاء شديد ، فباعهم منها ، فعاتبه تتش وقال : « انت اتيت في مساعدتي عليهم او تقويتهم ، ارجع إلى اعمالك مالي اليك حاجة » ، فعاد إلى سنجار ، ولقي عليها بهاء الدولة من امراء التركمان نجدة لتتش فخوفه المسير من بني كلاب فلم يلتفت . وقطع الفرات ونزل وادي بزاعة ، فقصدته كلاب بجماعة من بني عقيل ، فاوقعوا به ونهبوه وقتلوا معظم اصحابه ، وبلغ تتش فخرج من حلب يريد بني كلاب وترك اثقاله على حلب فخرج أهلها فنهبوها ، وقتلوا من أصحابه ، وانصرف التركمان عنه وعبر الفرات وجاء إلى بزاعة ، فعبر يريد أعمال مسلم لأنه اتهمه فوجده قد جمع واستعد فسار إلى ديار بكر فاجتاح اعمال نصر بن مروان وأقام بها يخربها وينهب ويقتل ، ومسلم يدافعه وينفق الأموال في العساكر ، وكتب تتش إلى ملك شاه يعرفه الأحوال ويطلب نجدته .

. . . .

قال محمد بن الصابي في ربيع الآخر سنة ٤٧٢هـ وصل الأمير تاج الدولة تتش إلى دمشق وملكها ، ذكر القصة ، كان بدر الجمالي قد سير من مصر إلى دمشق الجيوش من العرب والغز الأكراد وصنهاجة والبربر والسودان وبني خفاجة والأمير عليهم غلام له متقدم عنده والأمر مردود إلى ابي الفرج المغربي ، فساروا إلى دمشق وحصروا اتسز فأرسل إلى تتش

وهو يحاصر حلب يستنجده ، فرحل الأفشين وبلغ العسكر المصري فتأخر إلى الرملة ووصل تتش إلى دمشق وخرج اليه اتسز فقبض عليه وقتله واستولى على البلد ، فاستوحش الافشين منه فعاد هارباً فنهب المعرة وكفـرطاب، وذهب إلى انطاكية ، فأخرب وقتل ونهب، وصانعه اهلها على ثلثين الف دينار وجرت فيها قصص ولم يعطوه شيئاً .

« الملحق السادس »

حملة ملكشاه إلى ديار بكر[1]
سنة ٤٧٧هـ

وفي يوم الاثنين منتصف ربيع الأول (سنة ٤٧٧هـ) كانت وقعة عظيمة على باب امد بين فخر الدولة بن جهير ومسلم بن قريش ، ذكر السبب ، كان ابن جهير قد سار إلى ديار بكر لفتحها فبلغه ان مسلم على قصده ومنعه ، فكتب إلى السلطان يلتمس منه عسكراً لدفعه فتقدم إلى ارتق بك بجمع التركمان والعرب لفخر الدولة ففعل . وسار مسلم إلى ابن جهير، فأرسل إلى ارتق بك فجاءه بجمع كثير من التركمان، ووقعت المراسلة وكل اشار على مسلم بالرجوع إلى أعماله فقال : « ترجعون مرحلة إلى وراءكم وارجع ليلاً لئلا يقال انني عدت منهزماً ، فامتنع ارتق بك وقال : « انا لا ارد رايات السلطان على عقبها » . وعرف التركمان ما يجري فقالوا : « نحن جينا من البلاد البعيدة لطلب النهب وهؤلاء يسارعون في الصلح » وركبوا نصف الليل من غير اعلام لأرتق ، واشرفوا يوم الجمعة على العرب وكانوا أضعافاً فأخذوهم باليد من غير طعن ولا ضرب واحتاطوا بهم . ولم يكن لمسلم سبيل إلى الهرب ، فطلبوا صوب آمد وتبعه ابن مروان وجماعة من اصحابهما فدخلوا امد وبقوا يومهم

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ١٣ B ورقة ٦٩ ب ـ ٧٠ ب .

وليلتهم . واشرف ابن جهير وارتق بك على القوم ضاحي النهار وقد استولى التركمان على الحلل والأموال والمواشي، وكان مما لا يحد ولا يحصر وأخذوا النساء وفضحوهن، وربطوا امراء بني عقيل بالحبال وباعوهم بالقراريط . واشعل التركمان عشرة آلاف رمح تحت القدور ، وجرى على العرب ما لم يجري عليهم قبله مثله ، وسبوا نساءهم، وبلغ الفرس الجيد ديناراً ، وكذا الجمل والرأس الغنم نصف قيراط والعبيد والاماء من دينار إلى دينارين وما سوى ذلك فما اشترى ولا بيع .

وراسل مسلم ارتق بك وقال : « لمثل هذا اليوم خبأتك ولمثله تستحب الصنيعة واريد ان تمن علي بنفسي » . وبذل له مـالاً أرغبه فيه فأجابه ، وبعث ابن جهير إلى ارتق بك يقول : « قد حصلت بنو عقيل في ايدي التركمان ويجب ان تجمعهم وتنفذ بهم إلى السلطان وتقيم على هذا الإنسان (يعني مسلم بن قريش) ، وتستنزله وقد ملكت الأرض إلى مصر ». فقال ارتق بك : « هذا امر ما اليك منه قليل ولا كثير وانا صاحب الحرب وليس من عادتنا من نأسره ان نحبسه بل نبيعه ونطلقه » وكانت نية ارتق بك مع السلطان غير مستقيمة، فانفذ ابن جهير اليه يقول : « ان السلطان انفذ لي ومعي جنداً بين يدي يفعلون ما أراه » . وكانوا على امد فغضب ارتق بك ورحل من وقته وذلك في اليوم الأول من الوقعة ، وتبعه اكثر التركمان وقصد سنجار . وسار ابن جهير ومن معه إلى ميافارقين ولم يقدروا على المقام بعد ارتق بك ، فخرج مسلم من آمد يوم الأحد لتسع بقين من ربيع الأول ، ووصل الرقة ، وبعث إلى أرتق بك بما كان بذله له وزاده . واقام ابن جهير على ميافارقين فاشتد الغلا ، وراسل اهلها واهل امد ، فهموا بفتح الأبواب . وعلم ابن مروان فقبض عليهم وبطل ذلك التدبير . ومضى ابن جهير إلى اخلاط وعاد من معه الى العراق وكتب إلى

السلطان يشكوا ارتق بك ، وكان اتصل بالسلطان ما جرى وان مسلم في امد محصوراً ولم يشك في أخذه، فندب عميد الدولة لحرب الجزيرة واخذ مسلم ورد اليه أمر حلب والرحبة وبعث معه خمارتكين صراب الحاجب وجماعة من الأتراك . وكوتب ارتق بك بموافقته فصار من اصفهان وبلغه في الطريق خلاص مسلم، فكتب إلى السلطان يخبره فسار السلطان يريد الموصل . وسار ارتق بك من سنجار إلى الموصل فالتقى عميد الدولة وكان قد مرض بدقوقا ونزلا بإزاء الموصل . وراسل عميد الدولة اهلها ان يفتحوا للسلطان الباب ويطيعوه فقالوا : « اذا حضر السلطان سلمنا إليه » . وجاء السلطان فخرج إليه نواب مسلم واجابوه واطاعوه وقالوا : « امرنا صاحبنا الا نعلق في وجهك باباً » . فأعجبه ذلك وامنهم ودخلَ إليها واقام اياماً . . . . . . وجاء للسلطان خبر من ناحية اخيه تكش ، فرأى إعادة مسلم إلى بلاده، فأرسل إليه ابا بكر بن نظام الملك وكان نازلاً بمقابل الرحبة فتوثق به وعاد به إلى السلطان ، فخلع عليه وأعاده الى أعماله ورجع إلى اعماله .

« الملحق السابع »

ترجمة تتش بن ألب أرسلان[1]

فيها (سنة ٤٨٨هـ) توفي تتش ابو سعيد بن ألب أرسلان بن داود ابن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي ، كان صاحب البلاد الشرقية ، فلما حاصر امير الجيوش بدر الجمالي دمشق من جهة صاحب مصر وكان صاحب دمشق يومئذ اتسز بن اوق الخوارزمي ، سير اتسز إلى تتش يستنجد به، فسار إليه بنفسه وخرج اتسز إلى تلقيه فقبض عليه تتش وقتله واستولى على مملكته وذلك في سنة احدى وسبعين وأربعمائة لأحدى ليلة خلت من شهر ربيع الآخر . ثم تملك حلب بعد ذلك سنة ثمان وسبعين واربعمائة . ثم جرى بينه وبين ابن اخيه بركياروق منافرات ومشاجرات أدت إلى المحاربة ، فتوجه اليه ، وتصافا بالقرب من مدينة الري ، فانكسر تتش ، وقتل في المعركة . وخلف ولدين احدهما فخر الملوك رضوان والآخر شمس الملوك دقاق ، فاستقر رضوان بمملكة حلب ودقاق بمملكة دمشق . ولما قتل تتش حمل رأسه إلى بغداد وطيف به ثم وضع في خزانة الرؤوس . وكان تتش شهماً مقداماً فاتكاً سامحه الله تعالى .

---

(١) ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ جـ٣ ورقة ١ ـ ٢ .

« الملحق الثامن »

وصول الصليبيين إلى أنطاكية[1]
سنة ٤٩١هـ

ذكر ابتداء ظهور الفرنج إلى بلاد الإسلام . الكلام منه على انواع ، الأولى في ابتداء خروجهم ، كان خروجهم : **أولاً** : بالمغرب فخرجوا إلى بلاد الأندلس ، واستولوا عليها وفتحوا من المدن طليطلة وغيرها سنة ثمان وسبعين واربعمائة . وملكوا جزيرة صقلية في سنة اربع وثمانين واربع ماية ، وتطرقوا إلى اطراف افريقية فملكوها . **الثاني : في** سيرهم إلى بلاد الشام ، لما كان هذه السنة اعني سنة تسعين وأربع ماية خرجوا إلى بلاد الشام وكان سبب خروجهم ان ملكهم بردويل[2] جمع جمعاً كثيراً من الإفرنج لقصد الشام ، وساروا إلى القسطنطينية ليعبروا البر فيكون اسهل عليهم من البحر فلم يمكنهم صاحبها من العبور ثم شرط عليهم ان ملكوا انطاكية يعيدونها عليهم . وظن صاحب القسطنطينية ان الأتراك يستظهرون عليهم لشدة بأسهم لأنهم ملكوا البلاد ، فأجابوه إلى طلبه فمكنهم من العبور ، فوصلوا إلى بلاد قلج ارسلان بن قطلمش بن اسرائيل بن سلجوق وهي قونية وغيرها فقاتلوهم

---

(١) العيني ، عقد الجمان ، جـ١١ ورقة ١٢١ أ ـ ب .

(٢) المقصود بلدوين .

وهزموهم . وعبروا إلى بلاد ابن ليقون الأرمني فسلكوها ، وخرجوا إلى انطاكية . فلما سمع صاحبها ياغي سيان التركماني حصن البلد واخرج النصارى منها ،فجاء الفرنج بالعدة والعدد حتى نزلوا عليها وحصروها اشد الحصار وقاتلوها تسعة شهور ، وقتل من الفريقين جمع كثير . فلما طال مقام الفرنج عليها وبها شخص مستحفظ بعض الأبراج يعرف بروزبه (كذا) فبذلوا له مالاً واقطاعاً وكان البرج على الوادي وهو مبني على شباك حديد يخرج منه في الشتاء ماء المطر وانه مكنهم من طلع ذلك الشباك ودخولهم ، فصعد جماعة كثيرة في الليل . فلما اصبحوا اشهروا السلاح وهجموا على المسلمين فقتلوا وفتكوا . وأما ياغي سيان فإنه قاتل ثم فتح الباب وهرب ومعه جماعة وتركها لهم وسار منها كالولهان فنزل على اربعة فراسخ منها . وندم حيث لم يقتل عند اهله وعياله فوقع مغشياً عليه فمات في تلك الساعة وتركه اصحابه . .

ثم ان الفرنج كاتبوا صاحب حلب ودمشق يقولون اننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم مكراً منهم وخديعة . فلما بلغ ذلك كربوغا جمع العساكر وسار إلى مرج دابق وهو مرج واسع بالقرب من حلب من ناحية الشمال . واجتمعت اليه عساكر الشام وهم دقاق بن تتش صاحب دمشق وطغتكين اتابك وجناح الدولة صاحب حمص ، وهو زوج ام الملك رضوان ، وكان قد فارق رضوان من حلب وسار إلى حمص فملكها وأرسلان صاحب سنجار وسليمان ابن ارتق صاحب سروج وغيرهم من الأمراء . . . وساروا إلى انطاكية فحاصروها بالجموع حتى انحصر الفرنج بها وعظم خوفهم وقلت الأقوات عندهم حتى طلبوا من كربوغا ان يطلقهم فامتنع . ثم ان كربوغا أساء السيرة مع الأمراء وتكبر عليهم ، فخبثت نياتهم عليه ، وكان في انطاكية بردويـل وصنجيل

وكندهري[1] والقمص صاحب الرها وبيمند[2] صاحب انطاكية . ولما ضاق عليهم الأمر اجتمعوا وخرجوا من انطاكية واقتتلوا مع المسلمين . وكان الأمراء الذين مع كربوغا قالوا له : « الصواب ان نحمل عليهم ونقاتلهم اولاً بأول » فقال لهم : « بل نتركهم الى ان يخرجوا جميعاً ونحمل عليهم . فلما تكامل خروج الفرنج ضربوا مصافاً فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوغا اولاً من الإهانة والأعراض عنهم ، وثانياً بأنه لم يسمع رأيهم . وتمت الهزيمة عليهم لا ضرباً بالسيف ولا طعناً بالرمح . وقتل الفرنج من المسلمين الوفاً ، وغنموا ما في المعسكر من الأموال والأقوات والدواب والأسلحة فصلحت بها حالهم وعادت اليهم قوتهم . وفي تاريخ المؤيد فقتلوا من المسلمين ما يزيد على مائة ألف انسان وسبوا السبي الكثير .

---

(١) أي جود فرى .

(٢) أي بوهيمند .

المصادر والمراجع



أولاً : المصادر العربيــة المخطوطة والمطبوعة

- ابن أبي أصيبعة (موفق الدين ابي العباس احمد بن القاسم ، ٦٠٠ ـ ٦٦٨هـ / ١٢٠٣ ـ ١٢٦٩م) .
عيون الانباء في طبقات الأطباء .
تحقيق نزار رضا ، بيروت ١٩٦٥م .
- ابن أبي حصينة (الأمير ابي الفتح الحسن بن عبد الله السلمي المعري ، ت ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م) .
ديوان ابن أبي حصينة .
تحقيق محمد أسعد طلس ، دمشق ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م .
- ابن أبي الدم الحموي (أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الله ، ت ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م) التاريخ المظفري .
مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم ٩٦٦ تاريخ .
- ابن الأثير الجزري (ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الملقب بعز الدين ، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) .

١ ـ الكامل في التاريخ ، ط. ليدن ١٨٥١ ـ ١٨٧٦م .
٢ ـ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق عبد القادر احمد طليمات ، القاهرة ١٩٦٣م .
ـ ابن أيبك الداواداري (ابو بكر عبد الله بن أيبك ، ت ٧٣٢هـ ـ ١٣٣٢م) .
١ ـ درر التيجان وغرر تواريخ الزمان .
مخطوط بالمكتبة السليمانية باستامبول رقم ٩١٣ .
٢ ـ كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السادس وعنوانه : الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ، ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م .
ـ ابن تغري بردى (جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي ٨١٣ ـ ٨٧٤هـ / ١٤١٠ ـ ١٤٦٩م) .
١ ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، جـ٨ مخطوط مصور على ميكروفيلم بمركز البحث العلمي بكلية الشريعة بمكة المكرمة .
٢ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، الأجزاء ٤ ، ٥ ، ٧ ، ط . القاهرة سنة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .
ـ ابن الجوزي (ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي ، ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) .
المنتظم في تاريخ الملوك والأمم جـ٨ ـ ٩ ، ط . حيدر آباد ١٣٥٩هـ .
ـ ابن حزم (ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الظاهري ، ٣٨٤ ـ ٤٥٦هـ / ٩٩٤ ـ ١٠٦٤م) .
الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ٥ أجزاء .
بيروت ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م .

- ابن حوقل (ابو القاسم محمد بن علي ، ت ق ٤ هـ / ١٠م) .
صورة الأرض ، ليدن ١٩٣٩م .
- ابن حيوس (ابو الفتيان محمد بن سلطان بن محمد ، ت ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م) .
ديوان ابن حيوس ، جزآن .
تحقيق ونشر خليل مردم بك ، دمشق ١٣٧١هـ / ١٩٥١م .
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ، ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) .
العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون) .
بيروت ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨م .
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر ، ٦٠٨ ـ ٦٨١هـ / ١٢١١ ـ ١٢٨٢م) .
وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان ـ ٨ أجزاء .
تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧٧م / ١٣٩٧هـ .
- ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن ، ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) .
عيون التواريخ ، جـ١٣ ، مخطوط على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٨٤٠ تاريخ .
- ابن الشحنة (ابو الوليد محب الدين محمد بن محمد ، ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م) .
روض المناظر في علم الأوائل والأواخر .
مخطوط السليمانية باستامبول رقم ٨٧٠ .
- ابن شداد (عز الدين ابي عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم الحلبي ، ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) .
الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة .

الجزء الثالث الخاص بتاريخ لبنان والأردن وفلسطين تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م .
والجزء الأول الخاص بحلب مخطوط احمد الثالث باستامبول رقم ١٥٦٤ وتحقيق دومينيك سورديل ، دمشق ١٩٥٣م .

- ابن الصيرفي (أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان ، ت ٥٥٠هـ / ١١٦٠م) .
الاشارة إلى من نال الوزارة .
تحقيق عبد الله مخلص ، القاهرة ١٩٢٤م .
- ابن طباطبا (محمد بن علي المعروف بابن الطقطقا) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، بيروت ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م .
- ابن طولون (محمد بن علي بن طولون الحنفي الصالحي) .
الشمعة المضية في اخبار القلعة الدمشقية ، مخطوط على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٢٩٥ .
- ابن فضل الله العمري (شهاب الدين احمد بن يحيى بن فضل الله ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) .
مسالك الأبصار في الممالك والأمصار .
مخطوط بمكتبة احمد الثالث باستامبول رقم ٢٧٩٧ .
- ابن الفوطي (كمال الدين ابو الفضل عبد الرزاق بن تاج الدين احمد ، ٦٤٢ - ٧٢٣هـ / ١٢٤٤ - ١٣٢٣م) .
تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ، الجزء الرابع / القسم الثالث .
تحقيق مصطفى جواد ، دمشق ١٩٦٥م .
- ابن القلانسي (ابو يعلى حمزة بن القلانسي ، ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) .
ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨م .

- ابن كثير ، (عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، ت ٧٧٤هـ) .
البداية والنهاية جـ١٢ ، بيروت ١٩٧٧م .
- ابن العبري (غـريغـوريـوس ابو الفرج بن اهرون المعروف بابن العبري ، ت ٦٦٠هـ / ١٢٨٦م) .
تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠م .
- ابن العديم (كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله ، ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م) .
١ - بغية الطلب في تاريخ حلب ، ٨ أجزاء ، مخطوط احمد الثالث باستامبول رقم ٢٩٢٥ .
٢ - زبدة الحلب من تاريخ حلب ، جزآن تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .
- ابن عساكر (ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي ، ت ٥٧١هـ) .
تاريخ مدينة دمشق او التاريخ الكبير .
المجلدة العاشرة ، تحقيق محمد دهمان بدون تاريخ .
المجلدات ٢ ، ٣ ، ٥ تصحيح وترتيب عبد القادر بدران ، ط . دمشق ١٣٣٠ - ١٣٣٢هـ .
- ابن العماد الحنبلي (ابو الفلاح عبد الحي بن علي بن محمد ، ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م) .
شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، الجزء الثالث ، بيروت ، بدون تاريخ .
- ابن العمراني (محمد بن علي بن محمد ، ت ٥٨٠هـ / ١١٨٤م) .
الأنباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائي ، ليدن ١٩٧٣م .

- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ٦٣٠ - ٧١١ هـ) .
لِسان العرب ، بيروت ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
- ابن ميسر (محمد بن علي بن يوسف بن جلب ، ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م) .
اخبار مصر ، جـ ٢ تصحيح هنري ماسيه ، القاهرة ١٩١٩م .
- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) .
١ - التاريخ الصالحي ، مخطوط بمكتبة فاتح برقم ٤٢٢٤ وبالمكتبة السليمانية باستامبول .
٢ - مفرج الكروب في اخبار بني ايوب جـ ١ تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣م .
- ابن الوردي (زين الدين عمر بن المظفر بن أبي الفوارس ت ٧٤٩هـ) .
تتمة المختصر في اخبار البشر (تاريخ ابن الوردي) ، تحقيق احمد رفعت البدراوي ، بيروت ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م .
- ابو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي ، ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) .
الروضتين في اخبار الدولتين ، تحقيق محمد حلمي احمد جـ ١ ، القسم الأول ، القاهرة ١٩٥٦م .
- ابو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماة ، ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) .
١ - المختصر في اخبار البشر ، جـ ٢ ، ٣ ، بيروت ، بدون تاريخ .
٢ - تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠م .

- اسامة بن منقذ (اسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، ت ٥٨٤هـ / ١١٩٢م) .
الاعتبار ، تحقيق فيليب حتي ، ط . برنستون ١٩٣٠م .
- الأربلي (عبد الرحمن سنبط قنيتو الأربلي ، ت ٧١٧هـ / ١٣١٧م) .
خلاصة الذهب المسبوك ، مختصر من سير الملوك .
تصحيح مكي السيد جاسم ، بغداد ١٩٦٤م .
- الأزدي (جمال الدين علي بن ظافر ، ت ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م) .
اخبار الدول المنقطعة ، القسم الخاص بالفاطميين .
تحقيق اندريه فريه ، القاهرة ١٩٧٢م .
- الأصفهاني (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد المشهور بالعماد الكاتب ، ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) .
١ - تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار الفتح بن علي بن محمد البنداري ، بيروت ١٩٧٨م .
٢ - خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، تحقيق شكري فيصل جـ١ ط . دمشق ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م ، جـ٢ ط . دمشق ، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م .
- الأصفهاني (عماد الدين القاضي محمد بن محمد ، المتوفي بعد سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٧م) .
البستان الجامع لجميع تواريخ اهل الزمان .
مخطوط بمكتبة احمد الثالث باستامبول رقم ٢٩٥٩ .
- الجنابي (الشريف ابو محمد مصطفى بن السيد حسن الحسيني الهاشمي ، ت ٩٩٩هـ / ١٥٩٠م) .
البحر الزاخر في أحوال الأوائل والأواخر .
مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ٢ .

ـ الحسيني (ابو الحسن علي بن ابي الفوارس ناصر بن علي) .
اخبار الدولة السلجوقية .
نشر محمد اقبال ، لاهور ، ١٩٣٣م .
ـ الحسيني (الوزير محمد بن محمد بن عبد الله بن النظام الحسيني ، ت ٧٤٣هـ / ١٤٣٩م) .
العراضة في الحكاية السلجوقية .
ترجمة وتحقيق عبد النعيم حسنين ، وحسين امين ، بغداد ١٩٧٩م .
ـ الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) .
١ ـ معجم البلدان ، ٥ أجزاء ، ط . بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
٢ ـ معجم الأدباء ، تصحيح د . س . مرجليوت ، القاهرة ١٩٢٤م .
ـ الحميري (محمد عبد المنعم الصنهاجي ، ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م) .
الروض المعطار في خبر الأقطار .
تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧٥م .
ـ الحنبلي (مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العليمي ، ت ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م) .
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، بيروت ١٩٧٣م .
ـ الذهبي (شمس الدين محمد بن احمد بن قايماز ، ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)
١ ـ تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والاعلام ، مخطوط بمكتبة احمد الثالث باستامبول رقم ٢٩١٧ .
٢ ـ دول الإسلام ، تحقيق فهيم شلتوت ومصطفى ابراهيم ، القاهرة ، ١٩٧٤م .

٣ ـ العبر في خبر من غبر ، تحقيق فؤاد السيد ، الكويت ١٩٦١م .
ـ الراوندي (محمد بن علي بن سليمان ، كان حيا بين عامي ٥٧٠ ـ ٦٠٣هـ/ ١١٧٤ ـ ١٢٠٦م) .
راحة الصدور واية السرور ،
ترجمة عبد النعيم حسنين وآخرون ، القاهرة ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م .
ـ الروذراوري (ابو شجاع محمد بن الحسين بن عبد الله الوزير ، ٤٣٧ ـ ٤٨٨هـ/ ١٠٤٥ ـ ١٠٩٥م) .
ذيل كتاب تجارب الامم ، جـ ٣ ، القاهرة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م) .
ـ سبط ابن الجوزي (ابو المظفر يوسف بن قزاوغلي ، ٥٨٢ ـ ٦٥٤هـ/ ١١٨٦ ـ ١٢٥٦م).
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، جـ ١٢ ، B١٣.
مخطوط بمكتبة احمد الثالث باستامبول رقم ٢٩٠٧ .
ـ السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع .
الجزء الثاني ، القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٣٦م .
ـ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر بن محمد ، ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) تاريخ الخلفاء ،
تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م .
ـ الشهرستاني (ابو الفتح محمد بن عبد الكريم ، ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) الملل والنحل ،
تقديم واعداد عبد اللطيف محمد العبد ، القاهرة ١٩٧٧م .
ـ صالح بن يحيى (صالح بن يحيى بن الحسين ، ت ٨٤٠هـ/ ١٤٣٩م) تاريخ بيروت .
تحقيق فرنسيس هورس وآخرون ، بيروت ١٩٦٧م .

ـ الصفدي (صلاح الدين خليل بن ايبك ، ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م)
١ ـ تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنـواب ، مخـطوط مصـور على ميكـروفيلم بمعهـد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٥٢ تاريخ .
٢ ـ الوافي بالوفيات جـ ٦ ، ٨ ، ٩ ، باعتناء ديدرينغ وآخرون ، بيروت ١٩٧١ ـ ١٩٧٣م .
٣ ـ أمراء دمشق في الاسلام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٥م .

ـ الطرسوسي (مرضى بن علي بن مرضى الطرسوسي ، ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) تبصرة ارباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ، ونشر اعلام العلم في العدد والالات المعينة على لقاء الاعداء .
حققه ونشره كلود كاهن ، مجلة معهد الدراسات الشرقية بدمشق ، جـ ١٢ (١٩٤٧ ـ ١٩٤٨م) .

ـ الفارقي (احمد بن يوسف بن علي بن الازرق ، ت ٥٩٠هـ/ ١٠٩٤م) .
تاريخ الفارقي ، او الدولة المروانية .
تحقيق بدوي عبد اللطيف ، ط. بيروت ١٩٧٤م .

ـ القرماني (ابو العباس احمد بن يوسف بن احمد الدمشقي ، ت ١١٠٩هـ/ ١٦١٠م) .
اخبار الدول واثار الأول في التاريخ ، بغداد ١٢٨٢هـ .

ـ القزويني (زكريا بن محمد بن محمود ، ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) آثار البلاد واخبار العباد ، بيروت ١٩٦٠م .

ـ القلقشندي (ابو العباس احمد بن علي ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) .
١ ـ صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ١٤ جزءاً ، القاهـرة ، ١٩١٩ ـ ١٩٢٢م .
٢ ـ مآثر الأناقة في معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار احمد فراج ، الكويت ١٩٦٤م .
٣ ـ نهاية الارب في معـرفة انسـاب العرب ، تحقيق ابـراهيم الابياري ، القاهرة ١٩٥٩م .
ـ العظيمي (محمد بن علي بن محمد ، ت بعد سنـة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م) تاريخ العظيمي نشره كلود كاهن C. Cahen في : Journal Asiatique, (1938) pp. 353-448.
ـ العيني (بدر الدين ابو محمد بن احمد بن موسى الشهير بالعيني ، ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) .
١ ـ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، تحقيق فهيم شلتوت ، القاهرة ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧م .
٢ ـ عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان ، جـ ١١ (حوادث ٤٣١ ـ ٥٢٠هـ) مخطوط على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم ٣٣٤/ ٢ .
ـ مسكويه (ابو علي الخازن احمد بن محمد بن يعقوب ، ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٩م) تجارب الأمم ، جـ٢ ، القاهرة ٣٣٣هـ / ١٩١٥م .
١ ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جـ٢ ـ ٣ تحقيق محمد حلمي احمد ، القاهرة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م .
٢ ـ اغاثة الأمة بكشف الغمة ، القاهرة ١٩٥٦م .
٣ ـ المـواعظ والاعتبار بـذكر الخـطط والآثار (ط . القـاهرة ، ١٢٧٠م .

٤ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، جـ ١ القسم الأول ، القاهرة ١٩٥٦م .
٥ ـ المقفى او ـ التاريخ الكبير المقفى في تراجم اهل مصر والواردين اليها ، مخطوط بالمكتبة السليمانية باستامبول رقم ٤٩٦ .
ـ المؤيد في الدين ، هبة الله بن موسى بن داود الشيرازي ت ٤٧٠هـ/ ١٠٧٨م .
سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، تحقيق محمد كامل حسين ، القاهرة ١٩٤٩م .
ـ ناصر خسْرو (ت ٤٨٠هـ/ ١٠٨٨م) .
سفرنامة ، ترجمة يحيى الخشاب ، بيروت ١٩٧٠م .
ـ نظام الملك (الوزير الحسن بن علي بن اسحاق بن العباسي الطوسي ، ت ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) .
سياسة نامة ، ترجمة السيد محمد العزاوي ، القاهرة ١٩٧٥م .
ـ النويري (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب ، ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) نهاية الارب في فنون الأدب .
مخطوط بمكتبة احمد الثالث باستامبول ، جـ ٢١ رقم E.H.١٣٦٩ .
ـ اليافعي (الامام ابو محمد عبد الله بن اسعد بن علي بن سليمان ، ت ٧٦٨هـ/ ١٣٦٧م) .
مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، جـ ٣ ط . بيروت ١٩٧٠م .
ـ اليعقوبي (احمد بن ابي يعقوب بن واضح ، ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١م .

ثانياً : المراجع العربية والمترجمة

- ابراهيم خليل ، كربوقا صاحب الموصل ودوره في مقاومة الصليبيين ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد الخامس (١٩٧٤م) ص ٩٥- ١١١ .

- احمد احمد بدوي .
الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام . القاهرة ١٩٧٢م .

- احمد رمضان احمد .
١ - شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى ، القاهرة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م .
٢ - المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ، القاهرة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م .

- احمد كمال الدين حلمي .
السلاجقة في التاريخ والحضارة ، الكويت ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م .

- آرمينيوس فامبري .
تاريخ بخارى ، ترجمة احمد محمود الساداتي ، ومراجعة يحيى الخشاب القاهرة ١٩٦٥م .

- امينة محمد علي بيطار .
موقف امراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى اواخر القرن الخامس الهجري .
رسالة ماجستير لم تطبع ، جامعة القاهرة باشراف الدكتور احمد دراج القاهرة ١٩٧١م .

- بارتولد .
تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة احمد السعيد سليمان ، القاهرة ، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م .
- باركر (ارنست) ، الحروب .
الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، بيروت ١٩٦٧م .
- تاماراتالبوت رايس .
السلاجقة ، تاريخهم وحضارتهم ، ترجمة لطفي الخولي وابراهيم الداقوقي بغداد ١٩٦٨م .
- خاشع المعاضيدي .
الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي ٣٥٩-٥٦٧هـ/ ٩٦٩-١١٧١م ، بغداد ١٩٧٥م .
- حسن الباشا .
الالقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٧٨م .
- حسن حبشي .
الحرب الصليبية الأولى ، القاهرة ١٩٥٨م .
- حسنين محمد ربيع .
النظم المالية في مصر زمن الايوبيين ، القاهرة ١٩٦٤م .
- رشيد الجميلي .
امارة الموصل في العصر السلجوقي ٤٨٩هـ- ٥٢١هـ ، بغداد ١٩٨٠م .
- زامباور .
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٥١م .

- ستيفن رونسيمان .
تاريخ الحروب الصليبية جـ ١ ترجمة السيد الباز العريني ، بيروت ١٩٦٧م .

- سعيد عبد الفتاح عاشور .
١ ـ الحركة الصليبية ، جزآن ، القاهرة ١٩٧٨م .
٢ ـ مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي حتى الغزو العثماني ، القاهرة ١٩٧٠م .
٣ ـ اوروبا العصور الوسطى ، جزآن ، القاهرة ١٩٧٢م ، ١٩٧٥م .
٤ ـ بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، بيروت ١٩٧٧م .

- سهيل زكار .
١ ـ مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، بيروت ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م .
٢ ـ تاريخ العرب والاسلام ، بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .
٣ ـ مختارات من كتابات المؤرخين العرب ، بيروت ، بدون تاريخ .

- السيد الباز العريني .
١ ـ الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٥م .
٢ ـ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، القاهرة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م .
٣ ـ مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٢م .

- السيد عبد العزيز سالم .
١ ـ دراسة في تاريخ صيدا في العصر الإسلامي ، بيروت ١٩٧٠م .
٢ ـ طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ، الاسكندرية ١٩٦٧م .

ـ شاكر مصطفى .
١ ـ دخول الترك الغز إلى الشام ، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام (ثبت كامل لأعمال المؤتمر المنعقد في الجامعة الأردنية من ٢٨ ربيع اول ـ ٣ ربيع الثاني ١٣٩٤هـ) ط . بيروت ١٩٧٤م .
٢ ـ التاريخ العربي والمؤرخون ، دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام ، جزآن ، بيروت ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠م .
ـ صابر محمد دياب حسين .
سياسة الدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط ، من اوائل القرن الثاني الهجري حتى نهاية العصر الفاطمي ، القاهرة ١٩٧٣م .
ـ صلاح الدين البحيري ، الاعداد المعنوي للحرب الصليبية المضادة « المجلة التاريخية المصرية العدد ٢١ (١٩٧٤م) ص ١١٧ ـ ١٣٤ .
ـ صلاح الدين خودا بخش .
حضارة الإسلام ، ترجمة علي الخربوطلي ، بيروت ١٩٧١م .
ـ عبد النعيم حسنين ، سلاجقة ايران والعراق ، القاهرة ١٩٧٠م .
ـ عبد الرحمن زكي .
السلاح في الإسلام ، القاهرة ١٩٥١م .
ـ عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ، بيروت ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م .
ـ الغزي ، كامل حسين محمد مصطفى الحلبي .
نهر الذهب في تاريخ حلب ، جـ٣ حلب ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م .
ـ فتحي عثمان .
الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٦٦م .

- فريد شافعي .
العمارة في مصر الإسلامية ، عصر الولاة ، المجلد الأول ، القاهرة ١٩٧٠م .
- فشر .
تاريخ اوروبا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني ، القسم الأول ، القاهرة ١٩٦٩م .
- فيليب حتي .
١ - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ٢ ترجمة كمال اليازجي ، بيروت ١٩٥٩م .
٢ - لبنان في التاريخ ، ترجمة انيس فريحة ، بيروت ١٩٥٩م .
- كارل بروكلمان .
تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه امين ، بيروت ١٩٧٧م .
- محمد أبو زهرة .
تاريخ المذاهب الإسلامية دار الفكر العربي ، القاهرة بدون تاريخ .
- محمد اديب الحصيني .
كتاب منتخبات التواريخ لدمشق ، بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .
- محمد جمال الدين سرور .
١ - النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة ، القاهرة ١٩٦٤م .
٢ - سياسة الفاطميين الخارجية ، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م .
- محمد حمدي المناوي .
الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ، القاهرة ١٩٧٠م .
- محمد كرد علي .
خطط الشام ، بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م .

- محمد ماهر حمادة .
الوثائق السياسية الإدارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة ٢٤٧ - ٦٥٦هـ/ ٨٦١ - ١٢٥٨م ، بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .
- مصطفى الحياري ، الامارة الطائية في بلاد الشام ، عمان ١٩٧٧م .
- مؤلف مجهول ، اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ١٩٥٨م .
- نظير حسان سعداوي .
الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ، القاهرة ١٩٦١م .
- يوسف الياس الدبس .
تاريخ سورية ، جـ٣ المجلد الخامس ، بيروت ١٩٠٠م .

ثالثاً : المراجع الأوروبية

- Cahen, Claude,
  1) La Syrie du Nord al, Epoque des Croisades, Paris 1940.
  2) La Campagne de Mantzikert d'apris Les Sources Musulmanes, in Byzantion, IX (1934), pp. 613-642.
- The Cambridge History of Islam, Vol. IA London, 1970.
- The Cambridge Medieval History, Vol. IV(The Byzantine Empire, Part I, Byzantium and its Neighbours). London, 1964.
- Dozy. (R.) Supplement Aux Dictionnaires Arabes Toms 2 Paris 1967.
- The Encyclopaedia of Islam, (New Edition), London 1960.
- Gibb, H.A.R., The Damascus Chronicle of the Crusades, London 1967.
- Lane-Pool, (Stanley)
  Catalogue of the Collection of Arabic Coins Preserved in the Khedivial Library at Cairo, London 1897.
- Lavoix, (Henri)
  Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliotheque Nationale, Vol. III, (Egypte Et Syrie), Paris 1896.
- Ostrogorsky (G.)
  History of the Byzantine State, Oxford 1960.
- Painter (Sidney)
  A History of the Middle Ages, London, 1975-1976.
- Salibi (Kamal)
  Syria under Islam, Empire on Trial 634-1097, Beirut 1977.
- William of Tyre
  A History of deeds done Beyond The Sea, 2 Vols Translated and annotated by Emily Babcock and A.C Krey, New York 1943.
- Zakkar, (Suhayl), The Emirate of Aleppo (1004-1094), Beirut 1971.




SR15